ديمتري ليبيسكيروف

ДМИТРИЙ ЛИПСКЕРОВ

# ليونيد سيموت حتماً

ЛЕОНИД ОБЯЗАТЕЛЬНО УМРЕТ

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

رواية

THAQAFA
Publishing & Distribution L.L.C.

مكتبة
Telegram
Network
2020

# ليونيد

# سيموت حتماً

# ЛЕОНИД ОБЯЗАТЕЛЬНО УМРЕТ

ديمتري ليبيسكيروف

ДМИТРИЙ ЛИПСКЕРОВ

# ليونيد

# سيموت حتماً

# ЛЕОНИД ОБЯЗАТЕЛЬНО УМРЕТ

رواية

ترجمها عن اللغة الروسية

د. فؤاد المرعي

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الروسي

**ЛЕОНИД ОБЯЗАТЕЛЬНО УМРЕТ**

بدعم من

Published with the Support of the Institute for Literary Translation

ИНСТИТУТ ПЕРЕВОДА

AD VERBUM

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً

The publication of the book was negotiated through

(Banke, Goumen & Smirnova Literary Agency (www.bgs-agency.com

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين ثقافة للنشر والتوزيع، ذ.م.م.

Copyright © Dmitry Lipskerov, 2006

.Arabic Copyright © 2019 by THAQAFA Publishing & Distribution L.L.C

**الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2020 م – 1441 هـ**

**ردمك 978-614-02-3807-7**

**حقوق الطبعة العربية محفوظة**

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.
الإمارات
U.A.E.
كابتال تاور، مركز أبو ظبي للمعارض ADNEC
ص.ب: 27977، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة
هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
بريد إلكتروني: smartd_1@eim.ae

إن دار ثقافة للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء وأفكار المؤلف، وتعبّر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آرائه وليس بالضرورة عن آراء الدار.

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف (9611+) 786233

# -1-

في اليوم السادس والعشرين خفق القلب؟

تجمع عدد قليل من الخلايا والتصق، (اللـه يعلم كيف)، بكتلة الجسد، وراح ينتفض مستعداً للإفلات والانطلاق مع السوائل المفرزة، والتلاشي.

وهنا يظهر القلب – هذه المضخة الجبارة، التي لا يعرف أحد ماذا تضخ، وإلى أين، فوضع التطور اللاحق للجنين في دائرة شك كبير.

الشك، عموماً، كان مجرّداً، فلا أحد يعرف من صاحبه، أضف إلى ذلك أن معرفة أمور الجنين، مقصورة على الجنين نفسه، لأنها معرفة موجودة في مئات عدة من الخلايا، ويستحيل تفسيرها بطريقة إنسانية عادية. فمثلاً، يؤكد مناهضو الإجهاض أن المضغة، حتى في أسبوعها الأول، تشعر بوضوح مطلق باقتراب تعرضها للعذاب عند انتزاعها عنوة من الرحم، فتتألم ألماً لا يطاق. ترى بأي شكل يستطيع هذا الكائن الخالي من المادة الرمادية الحاملة للأفكار الإحساس بذلك، ويستطيع بالتالي معاناة الخوف؟... مناهضو الإجهاض يستحيل أن يستطيعوا تفسير ذلك الأمر. لكن من الواضح جداً أن العذاب هو نتاج الحمل الحادث قبل فترة وجيزة، وأن هذا الحمل يكون ممتعاً أحياناً، وكذلك تكون نتيجته. الفظيع هو تدمير هذه العجينة الإلهية. أما المعترضون، ومعظمهم من النساء، فيطلبون من الأصوليين أن يفسروا كيف تولد الحياة؟... لا وجود لجواب على هذا السؤال، الجميع يعرفون أن الجواب سيظل غير موجود عبر القرون، ولذلك فإن مناهضي الإجهاض والآباء يبتعدون عن المتشائمين وهم مستاؤون منهم أشد الاستياء.

غير أن المتشائمين، مع ذلك، محقون تماماً، رغم أنهم يضمون بينهم نساء منفرات جداً وعاقرات، متحمسات للشجار، ويفقدن في قتالهن، في أحيان كثيرة، وجوههن الأنثوية. لكنهن لا يهتممن بهذه الأمور الظاهرية. إنها أمور تافهة! المهم هو الحصول على نتائج طيبة...

وهكذا خفق قلبه في اليوم السادس والعشرين، وظهرت عنده سلسلة من الأفكار التي تؤكد في جوهرها أنه لا بد من وجود فكرة أخيرة ما دامت هناك فكرة أولى.

لم تنشأ عواطف بعد هذا الاستنتاج الأول، فقد ظهرت بعده مباشرة الفكرة الثانية ومفادها أنه ما من أحد يعرف هل نهاية الجنين قريبة أم بعيدة، أليس من المحتمل أن تكون الفكرة الأخيرة

بداية لوجود جديد بسلسلة تفكير مختلفة؟...

بعد ذلك بدأ الجنين يشعر، ومن جديد بدا غير مفهوم كيف حدث ذلك، حتى قبل ظهور بدايات المنظومة العصبية، التي يجب، كما هو معروف، أن تتواصل بواسطة نبضات طاقة مع الدماغ الذي، كما ذكرنا سابقاً، لم تكن حتى خلاياه الأولى موجودة، غير أن الإجابة عن هذه المسائل من اختصاص العلم، أما نحن فعملنا هو ذكر الوقائع.

كان الإحساس الذي ظهر عند الجنين مزعجاً تماماً لأن الماء المحيط به لم يكن قد أخذ وضعه النهائي، فهو يسخنه في بعض الأماكن، ويغلّفه بالبرد في أماكن أخرى.

عادت الضجة توتره مجدداً. وكان مجهولاً أيضاً أيُّ الأجهزة كان يوتّره، غير أن إحساس الجنين بذلك كان يشبه الإحساس بالصوت الذي يصدره حفّ زجاج النافذة بشوكة من الألمنيوم.

هذه – أمي، يدرك الجنين. – إنها تنظف بطنها الصقيل بأظافرها الطويلة الممنكرة. وهذا هو سبب صدور هذا الصوت.

هو ما يزال لا يعرف أن المرأة تجهل تماماً وجود كتلة الخلايا في جسدها، أي أنها تجهل وجوده.

لقد كانت دائماً تضبط نفاذ الحيوانات المنوية إلى رحمها، تعرف متى يكون دخولها بلا عواقب، وتعرف متى يجب عليها أن تتخذ إجراءات وقائية. هذا برأيها، ما كانت تعرفه بدقة.

آخر مرة سمحت فيها بنفاذ الحيوانات المنوية إلى رحمها، كانت في ثاني يوم بعد تخلص جسمها من البيوض الميتة، وهذا يعني من وجهة النظر الطبية، أن الأمور ستكون على ما يرام، فالمرأة ما زالت تحتفظ في مكان بما من ذاكرتها ما استخلصته من أحاديث صديقتها القابلة الملقبة باربايسكا، التي كانت تمصّ دائماً سكاكر أطفال، وتؤكد أن الحبل لا يتم ببساطة، كما يزعمون، المرأة وسط معادٍ لحيوانات الرجل المنوية، ولذا فهي جميعها تقريباً تموت في الوسط الحامضي للرحم، أما ما يتبقى منها حياً، وهو عدد قليل، فلا شيء، سوى ضربة حظ تجمع بين زمنين – زمن البويضة وزمن الحيوان المنوي – في لحظة تمكن الحيوان المنوي المنهك من ثقب البويضة فيحدث الحبل نتيجة ذلك.

كانت المرأة مطمئنة، ولذا راحت، وهي تنتظر امتلاء حوض الاستحمام، تمسّد البشرة الحريرية لبطنها الممتلئ امتلاءً قليلاً أكسبه مظهراً مغرياً جداً. هي لم تكن تفكر أبداً بالأمومة، بل بشاب يدعى باشكا سيفير تسيف، ذي جمجمة حليقة تماماً. هو عاد قبل نحو شهرين من السهوب التي تم استصلاحها، يحمل رزمة من النقود محزومة بقطعة من المطاط، رزمة سميكة إلى حد أنها لم تنحف حتى بعد خمس عشرة زيارة للمطاعم، وشراء معطف من الفراء الصناعي للمرأة في عيد القديسة التي تحمل اسمها، بل، على العكس من ذلك، استوت أوراقها وانتفخت، كما ينتفخ البطن ويشرع في الترهل حين يفك المرء حزام وسطه بعد غداء دسم...

البطن، البطن...

هي تمسّد بطنها...

والجنين يشعر بالخطر بوضوح، رغم أنه ظل كما السابق، لا يشعر بالخوف.

ولجت في حوض الاستحمام الكبير القديم الباقي من قبل الثورة، وقفت في البداية فيه، كي تعتاد بطتا ساقيها القويتين احتمال سخونة الماء الزائدة، ثم قرفصت ملامسة بأطراف ردفيها الأبيضين الماء الحار. وحين بدأت تحتمل ذلك، راحت تغطّس جسدها رويداً، ريداً في الماء وهي تشعر بالمتعة، وتحس كيف يلتصق على الفور بساقيها الجميلتين الممدودتين على طولهما في الحوض الأبيض. كانت تحب هذه اللحظة حين تستطيع بحركة خفيفة من عضلاتها أن تطرد عن ردفيها وبطتي ساقها الفقاعات، وتتأملها وهي تصعد في البداية إلى أعلى ثم تصدر صوتاً يشبه صوت المياه الغازية وهي تندلق من (السيفون) في الكأس. بعد ذلك تسند رأسها بشعره الأحمر على مسند خشبي مخصص لذلك، وتتأمل عدة ثوان الضوء القوي المنبعث من مصباح إلى جانب المرآة، ثم تغمض عينيها مستمتعة، لا تفكّر بشيء، ولا تحس بغير البخار الخفيف يلامس بشرة وجهها المتوردة وعنقها الفتي...

أما هو فأحس كيف ترتفع حرارة جسدها وكان يعرف أن فكرته الأخيرة ستحل بعد مرور ثلاث وعشرين دقيقة.

الخوف لم يكن موجوداً حتى في هذه اللحظة.

راح قلب الجنين، المدفوع بحرارة جسد الأم الآخذ في السخونة، يخفق بثقة وبسرعة متزايدة، كأنه يريد أن يشبع رغبته في الخفقان في الدقائق الثلاث والعشرين الأخيرة المتبقية... الاثنتين والعشرين...

هيمنت على روحها وجسدها نشوة أسطورية لا يمكن أن يشعر بها إلا كائن لا تثقله أية مشاكل روحية أو مادية. كانت وهي تئن أنيناً خفيفاً، تشبه إلى حد بعيد قطة صغيرة تتمسح بساق صاحبها وتهر من فرط الاستمتاع، بل إنها كادت تزعق حين اندفعت نقطة ثقيلة من الماء الحار كانت على بشرتها، فبللت خدها ودغدغتها دغدغة وصل تأثيرها إلى ما تحت إبطها...

الدقيقة الحادية والعشرين.

من المؤكد بشكل مطلق أن الجنين لن يحب الماء الحار في يوم من الأيام، أما أن يتمدد فيه متحولاً إلى كائن منكمش يكاد يكون غريقاً، ويشعر في الوقت نفسه بالمتعة، فذلك أمرٌ يبدو مستحيلاً.

الدقيقة العشرون...

قلب الجنين يدق مئة وستين دقة في الدقيقة. ما زال هذا ضمن المعدّل...

مرة أخرى تخيلت باشكا. وتساءلت في ذهنها عن السبب الذي يجعل عشيقها يحلق شعر رأسه كله، وبماذا يدهنه بعد ذلك، فتلتمع صلعته التي لوحتها الشمس كأنها فطيرة محمّرة طازجة... وأدركت أيضاً، وهي تعبّ الهواء بفمها، أنها تحب كل شيء فيه، وأن كل ما يفعله بها رائع، حرّكت ماء الحوض قليلاً بساقيها، ثم أنّت من جديد وقد أحست بالماء المترجرج يمرق تحت أنفها تماماً، فيغمر فمها المنتفخ وآثار حمرته الشبيهة بحمرة الخوخ. ابتلعت الماء ومعه ابتلعت وعيها، دافعة روحها قدماً في مملكة النشوة والمتعة.

الدقيقة الخامسة عشرة...

مئة وتسعون دقة في الدقيقة...

جرى انقسام جديد في الخلايا...

صار الجنين أثقل بعدة آلاف الأجزاء من الميليغرام. قال في سره: الوعي الحقيقي لا وزن له. إنه قد يكون فضاء، والفضاء قد يكون دودة. والدودة يجب أن تلد فضاء، ولكن ما ينضج فيه، بدلاً من ذلك، هو كائن حامضي المذاق مهدد بالتعفن عند أول خطأ. إنه أكثر الكائنات التي ينتجها الفضاء هشاشة. هو كان يجهل السبب الذي يجعل الفضاء يقوم بأعمال غبية، لكنه كان يفهم، وهذا هو الأهم، أن للفضاء الحق في أن يفعل ما يخطر في باله.

شعر فجأة بانجذاب شديد إلى الفضاء، وهذا بالقياس إلى تفكير الناس، يعني بالضبط الانجذاب إلى الفضاء الموجود في رحم الأم. وقد أكد له هذا الشعور أنه وجد ليكون إنساناً. في الخلية الألف وثلاثمئة واثنين وخمسين، أحس الجنين بحدة بانتمائه إلى ذات إنسانية غير مدعوة لأن تحمل الفضاء في ذاتها، بل مدعوّة إلى القيام بمحاولة لا معنى لها لإخصاب ذلك الفضاء.

وإذن، أنا لن أكون أماً بل أباً، قال في سره، وهو يستنتج مزهواً بنفسه، أنه، على الرغم من صغر كميّته، أدرك ضآلة رسالته المتمثلة بضرب الكون اللانهائي بصاروخ صغير جداً.

عشر دقائق

مئتا دقة...

هي – أكثر أهمية، هذا هو الاستنتاج المقلق الذي توصل إليه. في هذه الأثناء تشكلت من جديد، في هذا الوجه الداخلي لجمجمتها، كما في السينما، صورة العامل في الأراضي البكر سيفير تسيف، أصابعه النحيلة جداً لا تناسب يد سائق جرار، إنها أصابع تجيد العزف برشاقة على آلة جسد الأنثى التي كانت كثيراً ما تصرخ في أشد لحظات الليل حساسية:

– يا حبيبي ريختر!

أو تصرخ:

– فان كليبيرن!

فيجيب هو:

– مفاتيح جسدك أكثر من مفاتيح البيانو! أنت، كلك مفتاح واحد، ويضغط بالوجه الوردي لرأس إصبعه على إحدى ثنيات جسدها، فتستجيب بصرخة شهوانية واثقة مع أنها مصطنعة.

وفي الصباح سألت الجارة كاتيا ذات الساقين اللتين تشبهان ساقي الفيل، ساخرة، وهي تقلي بمقلاتها شيئاً ما فوّاح الرائحة:

– هل نسيت ثانية يا حلوتي الراديو شغالاً في الليل؟

– أنا لست حلوة، – ابتسمت في رضا، – أنا حامضة...

– هل زارك ريختير؟ – سألت كاتيا ذات الشعر المفرود، التي فقدت عازفها في الحرب، بل نسيت عموماً أنها آلة تصلح للعزف.

– لا، ليس ريختر.

– من إذن؟

– أنا أعرف من.

– من أين جاء؟

– من الجمل!

– هل بصق الجمل في داخلك في حديقة الحيوان؟

– أما أنت، فالطريق إلى داخلك نمت فيه الطحالب! ردّت عليها باستفزاز.

– الطحالب أفضل على كل حال – أجابتها كاتيا التي لم تكن تنوي التراجع، وهي تصب على دهن الخنزير المذاب محتويات بيضة كسرتها – أن تنمو فيه الطحالب أفضل من أن يتحول إلى درب للجميع. غي – غي – غي!

لقد كانت سعيدة تماماً في ذلك الصباح، ولم تكن ترغب في أن تزعج بجد جهازها العصبي بسبب جارة مجنونة تفوح منها دائماً رائحة الفئران. هي نفسها كانت مجنونة في ذلك الصباح،

فالعامل في الأرض البكر، عزف على جسدها في خلال الليل خمس مقطوعات سيمفونية، وعدداً من تقاسيم الكمان الفردية الرائعة.

– بغانيني! – قالت بصوت مؤثر.

– ماذا؟

– كررت لها الاسم من فوق كتفها دون أن تلتفت، ثم حملت باعتزاز إبريق الشاي ودخلت إلى غرفتها.

حاولت كاتيا الفيلية، وهي تتم قلي البيض، أن تعرف من الذي تعفن وأين، فقد سمعت خطأ عبارة «عفن» بدلاً من اسم «بغانيني» الذي قالته محاورتها، وراحت تدور بأنفها في كل الاتجاهات علّها تلتقط رائحة ما... نضج طبق المقلي، فتناولت أرملة الجندي إفطارها بشهية، وهي تشعر بأنها انتصرت انتصاراً كاملاً في المعركة الكلامية الصغيرة التي خاضتها مع جارتها الفتية...لا، قالت كاتيا في سرها، وهي تلحس صفار البيض العالق على شفتيها، أنا قطعاً لا تفوح مني رائحة العفن، أما الجارة يولكا فمتعفنة بالتأكيد! إنها تصرخ كالهرة في كل ليلة فتحرم من النوم الجيران، وتعيق عمل سيرغيي سيرغييفيتش المرشح في علوم الجبال. العلماء يعملون في الليل! العلماء نفر متميز من الناس! إنهم أناس منزهون عن الغايات الانتهازية، متفانون!...

بدّلت وضعها، ثانيةً ساقيها. جسدها استرخى تماماً، غير أن الماء في الحوض بدأ يبرد تدريجياً، مرغماً إياها على التفكير بفتح صنبور الماء الساخن، كي يعيد جدول الماء الذي يغلي تقريباً، المندفع منه، إلى دماغها الاسترخاء اللذيذ. الكلام سهل، لكن التنفيذ صعب! أعادت مدّ ساقيها بصعوبة، غير أن الوصول إلى الصنبور يتطلب عملاً بطولياً حقاً.

أحدهم قال لها إن من المفيد أن تترك الماء يبرد من تلقاء نفسه، لكن، عليها حتماً، حين يصبح فاتراً، أن تنزع سدادة الحوض، وتنتظر انصباب الماء ببطء في مجرى المياه المالحة حاملاً معه كل شحنات الطاقة المؤذية المتجمعة في الجسد.

تمسكت يولكا بهذه الفكرة الإنقاذية وقررت ألاّ تزحف نحو الصنبور، فحركت ببساطة أصابع قدمها، وأمسكت بها بمهارة سلسلة سدادة الحوض وشدّتها، فعلا صوت بقبقة واندفع السائل المحرر يجري عبر الأنابيب إلى مكان تحت الأرض حيث راح يختلط بشتى سيول نفايات الأنهار والمدن.

لقد كانت تعرف أن الحوض لن يخلو من الماء قبل نحو عشرين دقيقة، لأنه ما من أحد من السكان تبرع في الأشهر الخمسة الأخيرة، بإزالة الأوساخ التي تسد المجرى، فكاتيا الفيلية صاحت قائلة إنها لا تستحم في الحوض، وأن المغسلة تكفيها، أما العالم سي. سي (هكذا كانت كاشكينا تسميه اختصاراً)، فلا يستخدم غير الرشاش (الدوش) الذي يتطلب أقل كمية من الماء!

لقد كان الجاران يلمحان بوضوح إلى أن يولكا الضالة هي من يجب أن ينظف بالوعة الحوض، غير أن هذه الأخيرة كانت تتوتر توتراً شديداً وترفض تلميحاتهما، معللة رفضها بكون كاتكا تنقع أغطيتها وثيابها الداخلية وستائر غرفتها في حوض الاستحمام، حيث، في الحقيقة، لا يستطيع المرء أن يميز الأغطية والملابس الداخلية من الستائر، لكن الوسخ المنحل من هذه وتلك يكفي لسدّ مئة بالوعة، أما كون سي. سي. لا يستخدم غير (الدوش) فلا يعني شيئاً، لأن هذا المتخصص بالجبال، يفكّر، على ما يبدو، بكتابة أطروحة دكتوراه وهو تحت رشاش الماء، فهو يقضي ساعة في عملية استحمامه، يهدر فيها كمية كبيرة من الماء، متخيلاً أنه ليس في مكان استحمام عام، بل تحت شلال ماء جبلي! وهي، بالمناسبة، كانت في أحيان كثيرة تشعر في حالات كهذه بالحاجة إلى التبول قليلاً، فتصبر وتكبت حاجتها، علماً بأن النساء يجب ألاّ يكبتن ذلك، إلا أنها لم تكن قادرة على استخدام المرحاض لأنه موجود هو والحمام في مكان واحد.

– بالحاجة إلى التبول قليلاً! – تقول كاتيا الفيلية وهي تصفق بيديها استهجاناً. – إن طولك، يا قليلة الوجدان، متر وثمانون! وتشربين في وجبة الفطور وحدها إبريقاً من الشاي! إن ما فيك من البول ليس قليلاً، بل هو ثلاثة أضعاف بولتي الكبيرة! قالت محتجة.

كان وجه سي. سي يحمرّ حتماً لدى سماعه هذه الكلمات، وينشق بأنفه. لقد كان مثقفاً مهذباً على كل حال.

– الشلال يا يوليتشكا، – يشرح المتخصص بالجبال. – ظاهرة من ظواهر الطبيعة الرائعة! هاكِ مثلاً، نياغارا.

– لقد درسنا ذلك في المدرسة، – تجيب متأففة.

– لا، اسمعيني، – يقول سي. سي. بإلحاح.

– استمعي، حين يتحدث إليك عالم! – كاتكا تسعى إلى توحيد الجبهتين ضدها، – أيتها الضالة!

– لا تقولي لي أنه كان في نياغارا! إنه قرأ عن ذلك الشلال في الكتب! وأنا، والحمد للـه، أستطيع القراءة أيضاً! أهو رجل أم لا؟! فلينظف؛ إذن، بالوعة الحمام إذا كان رجلاً، أو ليجد عامل تمديدات صحية ينظفها!

– ليس تنظيف البلاليع ما يحدد رجولة الشخص! – أجاب سي. سي.

– ها – ها! – أكدت كاتكا كلامه، من دون أن تفهم منه جيداً ما الذي يحدد رجولة المرء.

– طبعاً، طبعاً! – خرجت يولكا عن طورها. – البالوعات مسدودة في كل مكان، فبالوعة كاتكا مثلاً، أو – ه – هو! ترى من سيفتحها؟! هل ستفتحها النساء؟... أليس لديكم أيها

العلماء، ما تفتحون به البالوعات المسدودة؟...

احمرّ وجه سيرغي سيرغييتش مجدداً، أما يولكا التي كانت تنظر إليه، فتوقف بصرها على وجه العالم، وتذكرت فجأة أن أحد الرجال قال لها ذات يوم: إن شكل... الرجل كشكل أنفه.

ليس لديه شيء، – أكدت يولكا لنفسها وقد ثبتت نظرها على أنفه الصغير كأنف دمية. – لا أمل في الحصول على شيء من عليل القلب هذا!

– كفى، – تقول يولكا واضعة نهاية لهذا البازار. – أنا سأنظف بالوعة الحمام!

في هذه الدقيقة نفسها هدأت، وعبّت بصخب كمية من الهواء ملأت رئتيها، فارتفع ذيل معطف الحمام القصير إلى حدود معقولة فوق صدرها البارز، وانفتقت بعض خيوطه غير المتينة.

تأملت برضا، وهي تقوم بهذه الحركة، عيني سي. سي. اللتين رطبتهما الدموع، وقررت أن تتأكد ذات يوم من صحة المقولة الشعبية حول الأنف، وتشارك المتخصص في علم الجبال في كتابة أطروحة الدكتوراه، فخسارتها لن تكون كبيرة إذا كانت المقولة صحيحة، ما دامت ستسمع فعلاً كلاماً على جمال شلالات نياغارا، قد ينفعها في وقت ما...

بالمناسبة، لم تنفذ يولكا ما وعدت به، وبقيت البالوعة مسدودة، ولم تتم المقارنة بين أنف الجار وطبيعته الذكرية، وظل باشكا يسيطر على حياة يولكا من موقع عمله في الأراضي البكر...

سبع دقائق...

لا وجود للخوف، لكن دقات قلب الجنين بلغت المئتين في الدقيقة، وراحت تهز تجمّع الخلايا الصغير الذي سيصبح رجلاً، هزاً أشعره أنه ليس جنيناً في رحم الأم الآمن، بل حبة بطاطا في صندوق شاحنة...

من أين له أن يعرف كيف تكون البطاطا في الشاحنة؟...

إن أكثر الكلام خلواً من المعنى هو طرح أسئلة لا جواب لها. لقد كان يعرف كل شيء، معرفة كتلك التي تعرفها المادة غير الحية، معرفةً هي وحدها الشاهد الأبدي على نهاية الحيّ الزائل. هو كان يعرف بالضبط أن الحي ينشأ من غير الحي، لا يمكن أن يكون غير ذلك، لأن للأمر بداية. أما النهاية – الفكرة الأخيرة فلا تتحول أبداً إلى كائن غير حي، بل هي ليست إلا تربة خصبة لانبعاث كائن حيّ جديد. هو يعرف الأمر البسيط الأكثر أهمية، يعرف كيف ينبعث الحي من غير الحي... إنها إحدى غرائب الرب التي تعد بالملايين... لم يكن يعتقد أن تجمّع الخلايا الذي يكوّنه، هو تاج إبداعات الخالق القدير، لم يكن، بالإضافة إلى ذلك، معجباً أبداً، بالأحداث الغيبية كانقسام الخلايا الذي يسبب ألم الشعور باقتراب نهاية الجسد في المستقبل، واضطراب القلب المتعلق نشوئه بحرارة الماء الذي تمددت فيه امرأة غبية تحلم بمجهول غامض غموض شتى الثقوب الفضائية السوداء بالنسبة إلى علماء الفلك. لو كان الأمر بيده لانتقل في الحال من هذا الشكل لوجوده إلى شكل مماثل

للآخرين، أو إلى أبدية غير الحي، باعثاً في نفسه الفرح بوسائل من اللاوعي مختلفة تماماً. لكن الإنسان يفترض، أما...

في هذا المفهوم بالذات – مفهوم «الإنسان»، تجذّرت أكثر الأمور إثارة لكدره. لقد كان وعي الجنين محكوماً بأضيق إدراك للعالم – بالإدراك الإنساني المتسم بالحسية والتبعية الكلية لها. الإنسان، طبعاً، أكثر الكائنات تعالياً، فهو يعتقد أن عقله هو ذروة إبداع الخالق، لكنّه مجرد انتقاله لأسلوب آخر في قياس الوعي، إلى الأسلوب الذي لا يحتاج إلى تدابير بيولوجية، يدرك أنه سائل منوي وقح في كيس الوقاية من الحمل! أنا لا أريد أن أكون إنساناً – يقول الجنين لنفسه، وهذا القول بحد ذاته يتضمن تعالياً إنسانياً وكذبة من أكبر الكذبات.

خليته المسؤولة عن بدايته الذكورية، نشأت وجعلت الجنين في تبعية فيزيولوجية للانجذاب إلى الفضاء المزيف، أي إلى أمه! ولكن تلك الأم لم تكن تعرف بوجوده.

أربع دقائق... ثمة أشياء كثيرة كانت أيضاً لا تعرفها. هي لا تعرف، مثلاً، متى ستموت، ومن كان أبوها، وماذا ستأكل في العشاء، ومن ذا الذي سينظف بالوعة الحمام في نهاية المطاف.

سينظفها أبي! – هذا ما كان سيقوله الجنين بصوت مرتفع غاضب، لو استطاع طبعاً. وهذا ما سيحدث بالطبع. إنه يعرف ذلك معرفة يقينية، كما يعرف أشياء أخرى كثيرة، لا يراها أو يعرفها غيره.

دقيقة واحدة...

تناهى إلى سمعها هديل سماعة التلفون الموضوع في المدخل. تخيلته يولكا وهي ترقد حالمة في الماء الساخن، جهازاً أسود بقرص أبيض، حمل إليها الماضي، من خلال حركته، كثيراً من الفرح والحزن. لقد همس لها في البداية بصوت مراهقين، ثم بصوت رجال ناضجين، كلمات حب رشيقة وغير رشيقة، وحدث أحياناً أن عذّب قلبها الفتيّ الكره الشديد بسبب تلك الكلمات، بل أمرها التلفون ذات يوم، بلهجة صارمة أن تذهب إلى شعبة التجنيد لأداء الخدمة العسكرية.

لقد حدث ذلك مباشرة في يوم بلوغه الثامنة عشرة.

– ماذا جرى؟... أهي الحرب؟ – سألت خائفة.

– تفو! يا لك من مجنون! – همس الصت الذكوري الصارم شاتماً، فحرّكت أنفاسه القرط الصغير في أذنها.

– أنا لست مجنوناً! – أجابت يولكا بلهجة مستفزة. – قد أكون مجنونة وغير ذلك، لكنني لست مجنوناً!

– اسمع أيها الفتى! – قال الصوت الصارم مهدداً. – تهربك من الخدمة في صفوف الجيش السوفييتي يعرضك، يا غبي، للسجن، أتفهم؟!

– يا لك من حدأة! – قالت صاحبة عيد الميلاد بلهجة هادئة.

– أنا حدأة! – سأل مدير شعبة التجنيد بصوت متحشرج، كمن يتوقع ألماً في قلبه. – أنا حدأة...

– طبعاً، لست أنا الحدأة يا عمّ، لقد أخطأت!

– أنا لست عماً! – انفجر الصوت في السماعة.– أنا مقدّم في الجيش، قاتلت في الجبهة، وجُرحت مرتين! فتأدّب حين...

– في رأسك؟

– ماذا؟ – سأل مدير الشعبة بصوت منخفض.

– هل جرحت في رأسك؟

لم يعد المقدم يعرف كف يتصرف. تدفق الدم إلى وجهه فاحمرّ، وبدا أنه على وشك أن يصاب بنوبة قلبية، رغم أنه لم يكن متقدماً في السن.

أما هي فضحكت ضحكة مكبوتة وسألته مستفسرة بلهجة رقيقة مسالمة:

– أيها الرفيق مدير الشعبة! أنا لست فتى. أنا فتاة! طيّب ما الكنية المدونة لديك؟

– آينتشكين، – همس مدير الشعبة وهو يستعد لاستقبال الموت.

– والاسم، ما الاسم؟

– يولي...

– أنا – بنت. واسمي ليس يولي، بل يوليا، وكنيتي أنيتشكينا ولست أنيتشكين. أتفهمني؟ ثمة خطأ ما في سجلاتكم!

– أنت تكذب! – قال بلهجة من يتوقع الموافقة، ولكن بتواضع.

– لا – أجابت يولكا بمودة. تستطيع أن تتصل بدائرة الإسكان.

سمعت عبر السماعة كيف أغلقت يده الميكروفون بإحكام ثم سمعت بعد لحظات صوت مدير الشعبة الأجش يستفسر من أحدهم عن شيء ما، لكن الصوت كان مكبوتاً إلى حد جعلها لا تميّز الكلمات، الأمر الذي أشعرها بالضجر لدقائق قبل أن يعود الصوت فينساب حراً طليقاً عبر السماعة.

– يوليا إيلينيتشنا؟ – سأل مستفسراً.

– نعم.

– نرجو المعذرة.

– لا عليك، – سامحته بطيبة نفس.

بعد ذلك حدثها المقدم طويلاً عن إسهامه في الحرب، وعن أن عمره لا يتجاوز السابعة والثلاثين، وأنهم بسبب جراحه عيّنوه في هذا المكان الغبي، حيث فقد القدرة على تمييز أصوات النساء من أصوات الرجال، وأنه، هو نفسه، غير متزوج، و... هكذا.

أما هي فاعترفت له بأن اليوم عيد ميلادها، وأنها بلغت سن الرشد، فهنأها طويلاً، وطلب منها عنوانها، كي يرسل لها زهوراً، فهو، في نهاية المطاف، ضابط طيار، والطيارون – إنتيليجينسيا سلك الضباط، وفرسانه!

– أتحبين الورود في الشتاء؟

اعتذرت بلهجة مهذبة وأقفلت الخط.

أنت غبي، قالت في سرها، ولست فارساً. طيب، قد تكون فارساً، لكنك غبي على كل حال. ألم يعطوك عنواني في دائرة الإسكان! يا عاشق الورود في الشتاء...

فيما بعد، جاء المقدم في شاحنة صغيرة، فوقف تحت شباكها في صندوق الشاحنة المكشوف مباعداً بين ساقيه، مرتدياً معطفاً قصيراً من الفراء مفكوك الأزرار، تلتمع على صدره في ضوء مصباح الشارع المتأرجح الميدالية والأوسمة، مقدماً لسماء الليل ويولكا باقة من الورود الحمراء الرقيقة.

لقد كان فارساً ولم يكن غبياً.

أما هي، بنت الثامنة عشرة، الرومانسية إلى درجة غير معقولة، فكادت تطير إليه عبر النافذة، وهي تشعر كيف تحولت يداها إلى جناحين، وكيف أصبح جسدها بلا وزن، وكيف اختفى فجأة أولئك الفتيان ذوو الوجوه التي تغطيها الحبوب، الذين جاؤوا في هذا المساء للاحتفال بعيد ميلادها، كما لو أنهم ذابوا وتركوها تلقي أول نظرة أنثوية وتحيا لحظة الحب الأولى التي لا تحدث أبداً في حضرة شهود. ولا نعرفها إلا من خلال ما يكتب عنها المؤرخون.

أما هو، غافريلا بيشينّي، الفارس والطيار الشجاع، فقد اقتحم عالم أنوثتها بالجرأة نفسها، التي كان ينقض بها من الجو على برلين.

هي كادت تموت من الحب والسعادة التي يخالطها الألم، وكانت في كل خلايا جسدها ممتنة لمن لم يقدم لها هدية عيد ميلاد، بل هدية حياة بأكملها...

أما هو، غافريلا بيشينّي، الذي لقّبوه بالمسعور لإقدامه على أربع صدامات مباشرة مع طائرات العدو في الجو، ولصراعه بالقبضات مع بطل الفوج بالملاكمة، صراعاً بلا رحمة، فحاول في الصباح التالي أن يخفي عنها وجهه، فلا يمكّن الفتاة من رؤية الجانب الأيمن من سحنته المزدانة بعين اصطناعية، وجبين محروق انغرست تحت جلده رقاقة معدنية.

هي ما كانت لتهتم بأية قطعة معدن ما دامت لا تسيء إلى مشاعرها. لقد كانت كفرن الصهر، مستعدة لصهر عيوبه الظاهرة كلها مع قطعة المعدن التي تحمي دماغه، وجميع طائرات الطيران الحربي والمدني.

العين – فرنسية – قال الفارس. – أرسلها له جان الذي كان يطير معه في تشكيل واحد. لقد كان المسعور يحمي جان حين أحرق الألماني طائرته. أما العين فقد استلمها بعد انتهاء الحرب بسبع سنوات. أعطوه يومها طرداً صغيراً فيه عين زرقاء، أما عينه هو فكانت شهلاء!

كانت تمسّد شعر بطلها الرمادي، وتحدثه بحماسة عن جمال العيون الشهل، وعن شفافيتها التي تمكّن المرء من رؤية الروح نفسها تقريباً!... وكان هو يذوب ويسترخي معها. لقد كان رقيقاً رقّة غير معقولة في بعض اللحظات، وكان غير معقول أيضاً في قوة هجمته الذكورية.

أحياناً، كانت تستيقظ ليلاً فتوقظ غافريلا وتسأله مذعورة إن كان قد غفل عن استدعاء ما، أو أهمل خدمته العسكرية بسببها، وتتخيل فزعة أنهم قتلوا طيارها المسعور بسبب ذلك، أما هو فكان يكتفي في ردّه على فانتازياها (البنّاتية) بالقهقهة، فيصيب صوته (الباص) بالسعار كاتيا الفيلية التي كانت آنذاك تتذكّر جنديّها وما كان يفعله معها في (الأيام الخاصة) التي كان هو فقط يعرف موعدها...

– هذا العمل ليس ضرورياً إلا من أجل إنجاب الأطفال! – كان يقول لزوجته. – ومن المعيب أن يتعرى جسدك! التعري جائز في الحمام فقط، أما الطبيب فيمكنه أن يدس سمّاعته تحت القميص!

هي كانت تؤمن بزوجها، ومع الزمن نسيت كيف يبدو جسمها في عريه. وفيما بعد، حين كانت أسرة زوجها تحاصرها حتى بعد (الأيام الخاصة)، بردت رغبة كاتيا في معاشرة زوجها، ثم كانت الحرب، وورقة النعي...

لقد كان ضحك المقدم يوتّر أعصابها إلى حد لا يطاق، دون أن تعرف سبباً...

لكن سرعان ما مات غافريلا بيشينّي. والطريف أنه لم يمت عندها، في غرفة يولكا في شقة السكن الجماعي، بل في مكان غريب آخر.

رفيق غافريلا أخبر يولكا بذلك، وأخبرها أيضاً عن الجنازة والدفن بلهجة جافة.

هي وقفت جامدة أمام التلفون ولم تستطع أن تقول سوى عبارة واحدة:

– ما سبب موته؟

– جراحه في الحرب، – أجابها رفيقه بإيجاز. – الرقاقة تحركت من مكانها...

– والآن، أين هو؟ أين جثته؟

– كيف أين؟ في أسرته!... عند زوجته وأولاده!

بعد ذلك جرى الدفن في مقبرة صغيرة في ديدوفسك. كان الجو بارداً، وقد تحول الزغب الرقيق فوق شفة يولكا إلى شاربين متجمدين، أما ساقاها فصارتا بعد خمس دقائق قضتها في البرد، غريبتين عنها، هما كانتا، حتى من دون البرد، غريبتين عنها، تكادان لا تقويان على حملها، وهي تدبّ في ذيل الموكب الجنائزي. لقد أرغم البرد حتى الموسيقيين على عدم العزف خشية أن تتجمد شفاههم على فوهات مزاميرهم المعدنية. غير أن عازفاً وحيداً بديناً متقدماً في السن يعتمر قبعة بواقيتين للأذنين، كان يقرع الطبل مبدداً الهدوء السائد بإيقاع جنائزي، يرافقه صرير أحذية المشيعين فوق الثلج، وهم يحاولون السير في انسجام معه.

كانت كل عناصر التشييع موجودة في الجنازة: الوسائد الحمراء وعليها الأوسمة والميداليات، وخطابات التأبين، وإطلاق النار ثلاثاً تكريماً للمتوفى، إلا أن تلك التي كانت آخر امرأة أحبها، تلك التي بقي الحب فها بحراً محيطاً ساكناً، لم تستطع الاقتراب من التابوت، ولم تتمكن من تمسيد شعر بيشينّي الذي كمد لونه – أحدهم دفعها جانباً بحركة غير ودية، وداس على قدمها، أما هي فألقت نظرة مليئة دهشة على امرأة صغيرة الحجم، تغطي رأسها بمنديل أسود، وهي تربت في آخر مرة على وجه غافريلا الأبيض المتجمد برداً.

نظرت يولكا إلى الأطفال الأربعة الذين كانوا يعانون البرد والضجر، وهي تحلم بالانبطاح فوق تابوت غافريلا، كما كانت تقضي التقاليد المصرية...

من أين له أطفال؟ من أين له زوجة؟ – سؤالان طافا في ذهنها بسرعة.

فيما بعد، بدا ليولكا، حين شرعوا في إغلاق التابوت، أن بيشينّي فتح عينه فغمرت زرقتها الاصطناعية وجهها...

– لقد أهداها له جان! – قالت لأحدهم. – جان زميله في الحرب...

دسّوا لها النشادر تحت أنفها فسعلت متأثرة بالرائحة، ثم بكت كالأطفال تماماً...

ثبّتوا غطاء التابوت بالمسامير سريعاً، وشرعوا يدلونه في الحفرة.

لقد اضطروا إلى دفنه في حفرة غير عميقة لأن الصقيع الذي بلغ الأربعين تحت الصفر انتصر على الحفّارين محوّلاً الأرضية إلى قطعة من الغرانيت، ولكن الحفر تم بسرعة.

حين انسلت وحيدة نحو المخرج من المقبرة سمعت همساً من مكان ما: لقد سرق الورود الحمراء من عند زوجته وأعطاها لهذه الهاربة، وقد فصلوا الزوجة من العمل في المعرض لهذا السبب! وكادوا أن يطردوها من الحزب.

هكذا إذن، كان حب يولكا الأول. قصيراً وفيه خداع وموت...

# – 2 -

بدا لإنجيلينا ليبيدا أن ظلاً ما مائع الشكل مرّ بسرعة لا بأس بها بالقرب من البيوت التي في الجانب الآخر من البولفار. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير، وكان بمقدور العجوز أن تعدّ أن كل هذا مجرد تهيؤات، لو أنها لم تعده كذلك في الليلة الماضية. فالبارحة، في مثل هذا الوقت بالضبط، غطى كائن طائر غامض الضوء المنبعث من النوافذ المقابلة لشقتها لحظة واختفى خلف سقف البيت رقم اثنين وعشرين.

أهو طائر؟ – تساءلت العجوز، وقامت هي نفسها، بنقض فرضيتها – إنه كبير الحجم جداً بالمقارنة مع الطيور، إلا إذا كان ديناصوراً...

ليبيدا كانت تعرف بالتأكيد، منذ أن كانت صبية، أن الديناصورات انقرضت، لذلك فكّرت طويلاً فيما يمكن أن يكون هذا الجسم الطائر.

أهو بالون؟... أهو بالون اختبار أطلقته إحدى محطات رصد الطقس؟...

لقد عاشت إنجيلينا ليبيدا طول عمرها في هذا الحي، ما عدا أربعة أعوام الحرب، لذا كانت تعرف بدقة أن «العاملين في مراقبة الطقس» لا وجود لهم في الأماكن المجاورة.

أيمكن أن يكون غيمة بخار من ورشة غسيل؟... ولم لا! هذا ممكن...

لقد وجدت العجوز جواباً مقنعاً فهدأت، وأدارت مفتاح تلفازها ليعمل على الأقنية الفضائية، وكانت قد اشترت قرص التقاط إرسال الأقنية الفضائية بمكافأة نقدية حصلت عليها.

كتيّب إعلانات التلفزيون المأجور يعد بعرض كل البرامج التلفزيونية المسلية المتنوعة، ابتداء من أحدث الأفلام والأحداث الرياضية العالمية، حتى المستجدات في مجال التقنيات العالية ويعد بعرض أفلام جنسية راقية في أوقات نوم الصغار.

لدى أنجيلينا ليبيدا فكرة عن المشاهد الجنسية، لأنها عملت أربعة أعوام عارضة أزياء تعرض ثياب استحمام من ماركة «هيّا أيتها الكلبة العجوز»، الأمر الذي جعل جيرانها يسمونها فيما بينهم العجوز المجنونة، ودفعهم إلى استدعاء (الإسعاف النفسي) عدة مرات. كانت «جيليا الطريفة»

هكذا كانوا يسمونها في عالم الأزياء، تحمل دلو النفايات مرتدية ثوب استحمام «بيكيني»، وكانت تفعل ذلك في القرّ والحرّ مظهرة صموداً مدهشاً.

قد قبضوا عليها طبعاً، عدة مرات، بسبب هذا السلوك المنفلت، فاقتادوها في البداية إلى مشفى غانوشكين ثم إلى مستشفى اليكسييفسكايا، المعروف سابقاً باسم «كاشينكو»، لكنهم كانوا يطلقون سراحها في كل مرة.

كانت العجوز، عند فحصها، تبدو سليمة وعادية، وكانت كل الفحوص التي أجريت لها تشير إلى حيوية عقلها غير العادية، ولم يكن من الممكن أن تجد في تلك التقارير أيّ كلام على ضعف العقل الذي يصيب كبار السن. وكان الأطباء حين يتلفنون إلى شركات الأزياء المشهورة مستفسرين، يحصلون باستمرار على جواب يؤكد أن أنجلينا ليبيدا «موديل ممتاز» وأنها أكبر الموديلات العاملات على الأراضي الأوروبية سناً.

– لماذا يا جدة، تحملين النفايات إلى الحاوية وأنت في ثوب الاستحمام؟

– أدرّب بنيتي على التحمل، – تجيب العجوز.

– النتيجة؟

– يظل جسمي سليماً، وهذا ما أتمناه لكم.

– وهل يدفعون كثيراً؟ – تسأل طبيبة من مشفى غانوشكين.

– يدفعون لماذا؟

– أجر عملك كموديل!

– يدفعون جيداً، لكنهم لن يأخذوك موديلاً! – قالت ليبيدا بلهجة قاطعة، وهي تلف نفسها بالمعطف الطبي وتشرب مع الأطباء الشاي الذي قُدّم لها كضيافة.

– لماذا؟

الطبيبة امرأة جذابة في الخامسة والثلاثين من عمرها، وهي محط اهتمام كبير من الرجال.

– أنت كبيرة في السن، لا تصلحين موديلاً!

كادت الطبيبة التي سألتها أن تغصّ بالشاي، لكنها قهقهت بصوت منخفض خارج من صدرها.

– لو مسّدناك، يا امرأة، بالمكواة ثلاث ساعات، لما زالت تجاعيد جلدك!

صمدت الزبونة، التي لم تصبح مريضة، للضحك، وقالت عبره أنهم في (بيزنيس) الأزياء لا يحتاجون إلا إلى الصيصان الذين يفضل ألّا تكون قد ظهرت عليهم علائم الانتماء إلى هذا الجنس أو ذاك، إلى بنات صغيرات لا أرداف لهن... أما المرأة التي في الخامسة والثلاثين، فهي، في نظرهم قطعة أثاث مهترئة.

– وأنت من تكونين، إذا كنت أنا قطعة أثاث مهترئة؟

– أنا يا عزيزتي... – تكتم الجدة ضحكة. – أنا يا عزيزتي تحفة... تحفة نادرة! أنا الوحيدة التي بهذا الشكل في البلاد كلها، وربما في العالم كله!... ترى، كم تتقاضين أجراً؟

– سبعة آلاف، – اعترفت الطبيبة التي كفت عن الضحك الآن، بل كانت والحق يقال مستاءة.

– أما أنا فأتقاضى خمسة.

شربت الجدة ما تبقى من الشاي الذي قُدّم لها، ووضعت الكأس فوق استمارة تاريخ المرض التي بقيت حقولها فارغة.

– هذا مبلغ جيد لمن في سنك! – قالت الطبيبة النفسية معبرة عن رأيها. المعاش الذي تتقاضاه أمي ألفان وخمسمئة روبل، هذا بعد إضافة كل زيادات غلاء المعيشة!

– أنت فهمتني خطأ يا عزيزتي! أنا أتقاضى خمسة آلاف في الظهور الواحد! في كل يوم عرض! عندي أيضاً أجر مساند في غير موسم العرض. أتعرفين مقداره؟ إنه آلاف كثيرة لا تحصلين على مثلها حتى كمكافأة على إنجاز الخطة الخمسية!

لقد ثأرت ليبيدا لجلدها المجعد، وهي الآن تنظر إلى سحنة الطبيبة المتجهمة، وقد تملكها إحساس بأنها في حالة جسدية ومعنوية رائعة.

استولت على الطبيبة النفسية المجربة رغبة في أن تقيّد العجوز على سرير المشفى وتحقن مؤخرتها التي تشبه الفاكهة المجففة، بكمية مضاعفة من السولوفات، لكن زملاءها الأطباء الرجال إلى جانبها، يضحكون من الحوار الذي جرى، واقفين بوضوح في صف العجوز. إن الأمر، على كل حال، مجرد تسلية قبل حلول المساء!... لذا استجمعت الطبيبة قواها وأرغمت نفسها على الابتسام.

– اذهبي يا جدتي إلى البيت! – قالت الطبيبة. – أنا سأرافقك... حين جلست ليبيدا في سيارة الأجرة التي استدعاها لها العاملون في المستشفى، سمعت من وراء الباب الذي أغلق خلفها كلمات أنعشت روحها.

– آه منك... يا عجوز! أيتها... الملعونة!... إن وقعت في قبضتي مرة ثانية فسأشرّحك بيدي!

– هذا رائع! – قالت أنجيلينا وأغلقت باب السيارة ثم أعطت السائق عنوان منزلها...

كانت الساعة تشير إلى بضع دقائق بعد منتصف الليل، حين ضغطت العجوز زر مشغّل أقنية التلفاز عن بعد، مثبتة المؤشر على القناة الليلية.

ما رأته لم يبد لها لوحة حلوة تستحق أن تعرض على شاشة التلفاز، لكن أنجيلينا راحت تتأمل المشهد رغبة منها في إغناء ثقافتها العامة، وهكذا تعرفت بإيجاز على الموضوع التالي:

فتاة شابة بتنورة قصيرة تكتشف وهي تجلي الأواني، أن بالوعة المجلى مسدودة، فتستدعي بالتلفون عامل تمديدات صحية لإصلاحها، يتبين، حين يأتي، أنه شاب ضخم البنية راح، بدلاً من أن ينظف البالوعة، يعري الفتاة، ثم ينزع ملابسه ويبدأ يعالج ربة البيت «بمفتاحه» الضخم إلى حد غير لائق، فتشرع شريكته في إطلاق صيحات الفرح.

لم تنفر أنجيلينا ليبيدا بشدة من هذه الصورة، فقد عرفت العجوز في حياتها مفاتيح أكبر من مفتاح الرجل، استخدمها أصحابها استخداماً أكثر مهارة، وجمالاً، إذا جاز القول. أما الأمر الذي لم يعجب الجدة فهو أن تأوهات ربة البيت وعامل التمديدات الصحية، كانت، لسبب مجهول باللغة الألمانية.

– يا – يا!... – هتفت ربة البيت. – ناتورليخ!...

– داسيش فانتاستيش! – هتف عامل التمديدات الصحية يؤيدها.

ماذا دهاهما، – قالت إنجيلينا في سرها مندهشة. – ألا يستطيعان التأوه بالروسية؟... أهي دُرجة في هذه الأيام؟... الألمانية!

استمرت في المشاهدة بعض الوقت من باب الفضول...

أهذه كوميديا يا ترى؟ – سألت نفسها.

إنها كوميديا بالتأكيد. – قالت لنفسها بحزم.

لا سيما حين ينزلق «المفتاح» خارج الثقب. لقد رسّخ هذا قناعتها بأنها تشاهد كوميديا جنسية.

أخذت أنجيلينا تضحك لا سيما حين كانت تظهر مشاهد يتحول «المفتاح» فيها من قضيب معدني صلب إلى خرقة تثير الشفقة، لكنها، رغم ذلك، تندس بأعجوبة في الثقب الحميم.

وتعلو التأوهات من جديد:

– ناتورليخ! فانتاستيش!

– أي «فانتاستيش» هذا! – تقول ليبيدا ضاحكة، وتتابع كلامها من دون أن تلحظ أنها تكلم التلفزيون – ما بالك يا فتى، هل ضننت على نفسك بقروش ثمن فياغرا؟ أم أن ربة البيت لا تعجبك؟... لا، لا يحق لك ذلك! انظر كيف تبذل جهدها!... أوه، إنها تتلوى بجسدها كلّه!

انتابت أنجيلينا فيما بعد نوبة من الحماسة، لا سيما حين دخلت أشياء المنزل حيّز استخدام الشابين، وقد أضحكها بشكل خاص استخدام الفتى لخيارة طويلة استخداماً أصاب بطلة الفيلم بحالة هياج سعيد كأنها ربحت مليوناً في اليانصيب.

– يالك من غبية! إنها مجرد خيارة جاء بها من البراد! سيتجمد كل ما عندك برداً. ترى، ما الذي كان سيحدث لو وجد في البراد ثمرة أناناس؟

ضجرت أنجيلينا بسرعة من صيحات «فانتاستيش» و«ناتورليخ». يبدو أن كرهها للغة الألمانية منذ صغرها، منعها من الفرجة على هذه الغباءات الليلية.

– أفّيدورزين! – قالت تودع البرونوغرافيا الألمانية، وانتقلت إلى قناة ديسكوفيري[1] حيث يبثون فيلماً وثائقياً عن اكتشاف سر نمو الإنسان، وعن الخلايا الجذعية، وعن زراعة وتنمية الأعضاء البديلة.

الفكرة التي يطرحها الفيلم هي أن الإنسان يستطيع الآن، نظرياً، أن يعيش إلى الأبد، ما يعيقه فقط التابوهات المعنوية والأخلاقية والدينية. لكن بعضهم، قال مقدّم البرنامج، ممن يملكون ثروات عالمية، يُجري حتماً أبحاثاً حول إطالة الحياة، ومن المحتمل أن يكون قد توصّل في هذا المجال إلى نتائج مذهلة.

لكن، كونوا واثقين! – قال المقدم منهياً البرنامج بلهجة درامية،– ثقوا أن هذا البعض لن يطلع الزائلين العاديين على أسراره، فالحياة المديدة – هدية للأثرياء فقط!

لم تواصل أنجيلينا الفرجة على أية برامج أخرى. خلعت ملابسها وتمددت في السرير، شاعرة بأنها إنسان أروه أجنحة وقالوا له إنه يستطيع أن يطير بها، ثم أهدوا هذه الأجنحة بعد ذلك، إلى إنسان آخر...

فجأة شعرت ليبيدا بالرغبة في أن تعيش طويلاً، كوّرت قبضتي يديها القويتين بشكل لا يتناسب وكبر سنها. وأحست بالكآبة تطبق على صدرها بقوة، جعلت عينيها المغمضتين تدمعان. كان عمرها اثنتين وثمانين سنة، ليس في حياتها أحد، بل لم يبق في حياتها أحد، وقد حرصت دائماً على عدم النظر إلى الماضي، والعيش في الحاضر فقط. وفي هذه الليلة، حين اخترق الإعلام المكوّن للمدنية، عقلها بوقاحة لا مثيل لها وكاد أن يجبرها على الغوص في ذكريات الزمن

الماضي، لم تضعف، بل عضّت على شفتها بقوة ورقدت من دون تفكير، متلهية بألمها، إلى أن ذابت الكآبة، كقطعة سكر، في دموعها التي أخذت تجف.

آخر أفكار ليبيدا قبل أن تغفو، كان قرارها الحاسم، بالبحث في موسكو، عن مركز أو مكان سرّي يحاربون فيه الشيخوخة. لقد كانت واثقة من أن مثل هذا المكان موجود حتماً. فلا بدّ، ما دام هناك أثرياء متقدمون في السن، من وجود أدمغة نيّرة – أطباء مستعدين لتلبية احتياجات هذه النخبة الثرية.

النقود عند أنجيلينا ليبيدا موجودة بوفرة. هي، على كل حال، كانت تعتقد أن الأمر كذلك، وهي لا ترى أي معنى لوجودها إلا إذا استخدمتها لإطالة عمرها.

أغفت العجوز ليبيدا، وفي ذهنها هذا القرار المتفائل، نامت نوماً عميقاً جعلها عاجزة عن تذكّر أية منامات قد تكون رأتها في تلك الليلة، غير أنها حلمت بالتأكيد بشيء ما، لأنها كانت بين الفينة والأخرى، تكرر بسرعة في نومها:

– يا – يا...ناتورليخ!... غيمّير زي بيتيه!...

في صباح اليوم التالي فتحت أنجيلينا (النوت بوك) الذي تعتز به، فقد حصلت عليه في منافسة عادلة في مباراة رأس السنة، لكن العجوز احتاجت بعد ذلك إلى أكثر من نصف عام كي تصبح مستخدمة مبتدئة له، وتتعلم الدخول إلى الشبكة العنكبوتية العالمية.

لقد كانت معجبة جداً بعبارة «الشبكة العنكبوتية».

كانت، حين تحرج من المنزل، تسأل العجائز الجالسات على أحد المقاعد في الشارع:

– ماذا فعلتن البارحة مساء أيتها الجميلات؟

– شاهدنا مسلسل «المسكينة ناستيا»...

– أما أنا فانشغلت بمشاهدة «الشبكة العنكبوتية العالمية»!...

وكانت العجائز يشفقن على أنجيلينا، فضعف التفكير الذي تسببه الشيخوخة يصيب الجميع بالتدريج.

صحيح أن ليبيدا تملكت هذا العلم الكمبيوتري بصعوبة، وهي الآن تقطف ثمار ذلك، لكنها لم تستطع أن تصوغ هدفها في منظومة البحث، إلى أن كتبت على اللوحة كلمة «الشيخوخة» البسيطة التي تجلب الكآبة، فظهر لها على الشاشة أكثر من نصف مليون موقع وردت فيه هذه الكلمة، نقلت المؤشر بين أكثر من عشرة مواقع فلم تحصل إلا على كلام هراء.

جلست أمام شاشة (النوت بوك) متوترة، تتذكر توجيهات معلمها المبرمج الشاب:

– يجب أن تصوغي هدف بحثك بدقة! – هذا ما كان ساشا زاك يكرره باستمرار في دورة الكمبيوتر.

لقد كان بمقدورها، طبعاً، أن تتلفن لساشينكا طالبة النصيحة، لولا أن تلك الدورة كانت الأخيرة التي درّس فيها، فقد سافر بعدها إلى وادي السيليكون.

ليبيدا كانت تعرف أنهم يجددون شباب أثداء النساء بالسيليكون، لكنها لم تكن تعرف أن هناك وادياً كاملاً يحصلون منه على هذه المادة.

العمل في مجال الكمبيوتر لا يسدّ نفقات العيش، – قالت العجوز في سرها.

دخلت ليبيدا إلى حقل «الطب» على الشبكة، وكتبت من جديد كلمة «الشيخوخة» المزعجة.

هنا كان ينتظرها انتصار جزئي، فقد وجدت إلى جانب كلمة «الشيخوخة» مصطلح – غيرونتولوجيا، الذي يعني على وجه التقريب، الدراسات التي تناولت الشيخوخة، وأنشئت على أساسها مراكز تأخير الهرم الطبيعي.

لم تكن مواقع المؤسسات التي تكافح الشيخوخة أقل من الوصفات التي تقترح استعادة القدرة الجنسية في يوم واحد، أو التخلص من الأعشاب الضارة.

أخذت أنجيلينا فترة استراحة، ثم أمضت بعض الوقت أمام المرآة تمشط شعرها الأشيب بفرشاة من شعر الحصان أهدتها إياها شركة أزياء.

غير أن تفكيرها لم يهدها إلى طريقة أفضل من أن تتلفن إلى هذه المؤسسات واحدة بعد أخرى.

لذا جلست على أريكتها وراحت تتصل بطريقة ممنهجة بالمراكز الطبية المعلن عنها في الشبكة.

كانت ليبيدا تطرح على تلك المراكز سؤالاً واحداً:

– هل لديكم خلايا جذعية؟

وكان الجميع يجيبون بنعم!

إنهم، واللـه، كصبية الكشاف «جاهزون دائماً».

– خلايا من؟ – تستفسر ليبيدا.

– خلايا من تريدين؟

– عدّدوا لي ما عندكم! – تقول مراوغة.

– أتلبّي طلبك خلايا الأجنة بعد الإجهاض؟ – سألوها مستفسرين في أحد المراكز.

كادت أنجيلينا تغص بريقها، لكنها أخفت دهشتها تماماً، وقالت بصوت عادي:

– هلّا شرحت لي الأمر!

صوت أنثوي متكاسل رتيب أبلغها أن الخلايا الجذعية يمكن أن تؤخذ من النسيج الجنيني لأنه ليس مأخوذاً من جسم غريب.

– ومن أين تحصلون على هذا النسيج؟

– وهل عدد عمليات الإجهاض قليل عندنا! – قالت السكرتيرة بصوت منتعش.

– حسناً، حسناً – وافقتها ليبيدا، وقالت مراوغة. – أنا نفسي أجهضت منذ فترة وجيزة...

– وكم عمرك؟

– هذا السؤال في غير محله!... ترى، كم ثمن الخلية عندكم؟

الطرف الثاني أقفل الخط.

في موقع آخر اقترحوا عليها خلايا جذعية من الخنزير.

– ما هذا الذي تقوله! أنا إنسان في نهاية المطاف، وأنت تقترح عليّ خلايا خنزير!

تلقّت رداً على هذا الكلام محاضرة قصيرة تبيّن أن الخنزير هو الرفيق الأقرب للإنسان بين الكائنات الحية. إن الخنزير ليس رفيقاً للإنسان بل هو أقرب أصدقائه، لأن كبده تكافئ الكبد البشرية تقريباً.

– أهي أكثر مماثلة للإنسان من كبد القرد؟

– لا مجال حتى للمقارنة!

– وكم ثمن كبد الخنزير؟

– الحقنة عندنا ثمنها ألف وخمسمئة قطعة نقدية!

ثمن رخيص، – قالت ليبيدا بلهجة حزينة. – كم حقنة يجب أن آخذ؟

– أربعة وعشرين.

هنا فقدت أنجيلينا أعصابها وأقفلت الخط بملء رغبتها، من دون حتى أن تحاول ضرب أربعة وعشرين بألف وخمسمئة، فقد خافت أن تصاب بالسكتة القلبية إن فعلت، وعند ذلك لن ينفعها الخنزير.

أكلت طبق بيض مقلي مع جبنة بيكون، وشربت قهوة سريعة الذوبان، فتنشّطت دقات قلبها في صدرها، كأنها دقات قبضة سجين، أخرجه الأسر عن طوره، على شبكة باب الزنزانة الحديدي. وقد اضطرت أخيراً إلى مصّ حبة (فاليدول) والتمدد تحت طاقة التهوية المفتوحة.

أحتاج إلى الشباب! – قالت ليبيدا في سرها وقد ازدادت قناعة بذلك. – آه، كم أحتاج إلى الشباب!

أنهت تمددها، ودخلت من جديد إلى منظومة البحث، حيث راحت تتجول فيها من دون أي نظام، متّبعة إلهامها، آملة أن يوصلها ذلك إلى شيء ما.

قرأت أنجيلينا طويلاً ما كتبه الدكتور في العلوم الطبية أوتياكين م. ف.، في مقالة أعلن فيها أن أكثر من مئة زبون تناولوا على مدى السنوات الخمس الأخيرة وجبة إضافية تحمل اسم «الشباب الدائم» وتحوي ما يعرف علمياً باسم «ديغيدروئيبياروستيرون» وهو عنصر يستخلص من نبات Babasko. وقد حصل سبعون بالمئة منهم على نتائج لا بأس بها. اختفى الشيب عند ثمانية من الزبائن، وتحسّنت بنية الجلد، وذلك برأي أوتياكين هو أهم إنجاز حققته تلك العملية. وأوضح أوتياكين أن الطبيعة أعدّت العقل البشري، من حيث تركيبه البيولوجي، والمركّبات الكيميائية التي يحويها، ليعيش من ستمئة إلى ثمانمئة عام، في حين أن الجلد معدّ ليعيش تسعين عاماً فقط. هنا، في مجال إعادة الشباب للغطاء الجلدي، يجري العمل ببطء شديد، فلا تكاد تلحظ أية نتائج إيجابية...

تذكرت ليبيدا الحديث عن الجلد الذي لا يزيل الكي تجاعيده وأبدت موافقتها التامة على رأي أوتياكين. إنها لسبب ما صدقت كلامه على عنصر الـ «د. م. ن.» إما لأن أسلوب كتابة المقالة كان جافاً جداً، خالياً من أية إثارة، وإما لأن الدكتور لم يقترح تقديم خدماته للأهالي مقابل وحدات نقدية متفق عليها. إنه، عموماً، لم يقدم أية اقتراحات. ولم تكن في المقالة أية إشارات إلى أن هذا الأوتياكين يمارس العمل عموماً.

كتبت أنجيلينا في حقل البحث كنية أوتياكين، فوجدت عدداً ممن يحملونها، ليس بينهم دكتور، لكنها وجدت واحداً بهذه الكنية يحمل لقب «البطة» ويعمل ممثلاً في مشاهد التعري.

استدعى هذا اللقب إلى ذهنها فكرة الشلل. وقامت، من باب الاستباق، بزيارة إلى دورة المياه، ثم عادت إلى الكمبيوتر وفي رأسها فكرة عبقرية حقاً.

إنها تمتلك قائمة من أرقام الهواتف الجوالة المسروقة! هي لم تسرقها طبعاً، بل أهداها لها أحدهم، لكنها لم تستخدمها أبداً. والآن حان وقتها.

وضعت القرص المدمج في الجهاز، وحين بدأ البرنامج بالعمل، كتبت على سطر في حقل البحث كنية أوتياكين... نظرت طويلاً إلى صورة الساعة الرملية على الشاشة، وأصغت إلى صوت الخشخشة في (النوت بوك)...

– وجدته! – صرخت فجأة.

كان على الشاشة اسم واحد فقط «أوتياكين م. ف». وقد تضمن الخبر بالإضافة إلى ذلك رقمي هاتفيه الجوال والمنزلي، وكذلك عنوان بيته.

– هل نجحت؟ – قالت العجوز في سرها وهي تخاف أن تفرح. – بينغو!... نقرت على الفور رقم هاتفه الجوال، فأجابها السكرتير الآلي أن الرقم المطلوب ليس موضوعاً في الخدمة أو أنه مغلق حالياً.

لا بد أنه لا يملك نقوداً، قالت ليبيدا في سرها. إن هؤلاء العلماء جميعاً، فقراء! نقرت رقم هاتفه المنزلي وسمعت بتلذذ صفرات الهاتف في الطرف المقابل. وبعد الصفرة الأربعين فقدت الشعور باللذة.

لا شك أنه في العمل، قالت لنفسها، طبعاً، فالساعة الآن الثالثة نهاراً... لم تشغل أنجيلينا نفسها في هذا اليوم بأي شيء آخر سوى الاتصال بالتناوب برقمي أوتياكين كل خمس دقائق.

ولم تتوقف عن عملها هذا إلا في الساعة الثانية عشرة ليلاً حين لمحت شيئاً ما يسبح في الهواء قرب النوافذ المقابلة لبيتها.

– لم أكن مخطئة! – قالت العجوز لنفسها بفرح. – عيني رأته حقاً! لقد ظهر من جديد!

قفزت من مقعدها، وزحفت بهمة تحت الديوانة، فأخرجت من هناك علبة جلدية سوداء اللون. ضغطت بمهارة على أقفالها المطلية بالنيكل، فانفتح غطاؤها، وأخرجت منها إلى ضوء الرب قوساً معدنية رائعة.

وضعت ليبيدا بحركة معتادة منظار التسديد في مكانه، ثم شدّت الوتر بإصبعيها، وثبتت السهم في السلاح في وضع الإطلاق.

فتحت النافذة وهي في حالة الاستعداد القصوى، حركاتها محسوبة بدقة، تقوم بها من دون صوت. استندت بكوعيها إلى حافة النافذة، واضعة القوس في العتمة، ونظرت عبر عدسة التسديد.

انتظرت ساكنة لا تتحرك، أربعين دقيقة، وكانت مستعدة للانتظار الليل كله، لكن في هذه اللحظة ظهرت في عدسة التسديد قامة الشبح فأطلقت ليبيدا السهم.

كانت تعرف أنها أصابت الهدف. نزلت على الدرج كي تذهب إلى المكان المفترض لسقوط الضحية، وهي تشعر بالأسف، لأن الآلية التي أطلقت بها السهم لم تتح لها أن تعرف هل كان الهدف

الذي أصابته إنساناً أم كائناً آخر.

المشهد كان غريباً. ليل، وعجوز تركض في الطريق وهي حمل قوساً ثقيل الوزن.

لم يكن في المكان الذي يُفترض أن تجد فيه الطريدة التي أصابتها، سوى بقعة صغيرة من الدم الكثيف. غمست العجوز أصابعها في ذلك الدم ثم شمّته وتساءلت: أهو دم إنسان... أم خنزير؟

ردّ التلفون الجوال أخيراً، حين بدأت القناة الليلية تتحدث باللغة الألمانية مجدداً.

– الرفيق أوتياكين؟

خطر في بالها أن كلمة «الرفيق» عادية جداً، لذلك أضافت:

– السيد البروفيسور؟

– أنا لا أعمل في التدريس، – أجابها صوت رجالي بلا لون، متعب جداً، وخال من الفضول.

أدركت فجأة أن الساعة تشير إلى اقتراب الواحدة ليلاً، وأن ملاحقة الطريدة الغامضة أبعدتها عن الإحساس الواقعي بالعالم، لكنّ أوان التراجع فات.

– اعذرني على هذا الاتصال المتأخر – قالت. – لقد أعطوني رقم هاتفك في اتحاد رياضة الرماية بالسهام.

– اتحاد ماذا؟

– رياضة الرماية بالسهام، – أجابت أنجيلينا وقد رفعت صوتها.

– وهل هناك رياضة بهذا الاسم؟

– طبعاً. القوس سلاح جيد.

– أنا أعرف أنه سلاح.

كان في صوته شيء ما لم يعجب ليبيدا أبداً، لكن ثمة شيء آخر في طابع صوته كان يجذبها بلا مبالاته الغامضة، كأن المتكلم بهذه اللـهجة يعرف شيئاً ما تجهله بقية العالم.

– إنه هو، إنه هو! قالت أنجيلينا مبتهجة من أعماقها.

– لقد نصحوني بالذهاب إلى عيادتك!

– ليست عندي عيادة! – أجابها أوتياكين. – هناك خطأ ما...

– أنت تشتغل في مسائل الشيخوخة، أليس كذلك؟

– هل أنت طبيب رياضي؟

– أنا رياضي. الأدق: أنا رياضية.

كان واضحاً أن ثمة شيئاً لم يعجبه.

– الرياضة – ليست مجالي... اعذرني... الوقت متأخر...فهمت من لهجته أن عليها أن تنقذ الموقف في الحال.

– أنا في مرتبة أستاذ دولي في رياضة الرماية بالسهام! – قالت ليبيدا ذلك بلهجة واضحة كلهجة الأمر العسكري. – عمري اثنان وثمانون عاماً، وقد دخل اسمي في قائمة المشاهير في مجموعة غينيس، بوصفي أكبر رياضي في رماية السهام يحقق إنجازات متميزة.

– يبدو أنك تملكين نظراً جيداً.

– لديّ عضلات قوية.

– أعتقد أن رماية السهام رياضة لا تتطلب تحريك العضلات.

– بل تتطلب ذلك، لا سيما حين ترمي السهام من الوضعية (واقفاً) ووزن السلاح ثمانية كيلو غرامات.

– ماذا تريدين مني؟

– الشباب! – اعترفت أنجيلينا. – أنا، بالإضافة إلى كوني رياضية، أكبر عارضات الأزياء سناً!

– ماذا؟

– أريد أن أكن شابة!

يظهر بوضوح أن رغبتها لم تعجبه.

– هل تؤمنين بالرب؟

– لا، أؤمن بالعلم.

– العلم لن يساعدك. حاولي أن تؤمني بالرب، فعارضة الأزياء تحتاج ذلك أيضاً في بعض الأحيان.

– وماذا عن الدواء الذي ذرته »ديغيدرو»... «ديبيير»... «ديفيد رو – إيبي«...

– ديغيدروئيبياندروستيرون...

– بالضبط!... فاباسكو!

– هل قرأت مقالتي في الإنترنت؟

– قرأتها، – اعترفت ليبيدا بصراحة.

– وكيف حصلت على رقم هاتفي؟

– من قائمة أرقام الهواتف.

– المسروقة؟

– منها...

صمت، وكان من الواضح أنه يعاني شعوراً سيئاً.

ثم قال:

– DNEA – هراء! لن تفيدك أية )باباسكا(!... إن اللجوء إلى السرقة في مثل سنك...

– أنا أعرف أن هناك طرقاً أخرى! – قالت أنجيلينا بهدوء، وهي تكبت الحماسة التي انتابتها – سامحني على استخدامي قائمة الهواتف المسروقة، أنا لم تكن لديّ وسائل أخرى! هل يعني كلامك أن هناك شيئاً آخر، ما دامت (البباسكا) لا تنفع؟

– طبعاً، طبعاً، – قال أوتياكين بلهجة مشجعة. هناك الماء الحي. الليتر بمئة روبل!

– هل أنت تسخر؟

– ألا تريدين (الماكروبولوس) أيضاً؟

احمرّ وجه أوتياكين بكثافة بعد هذه العبارة.

– أريد، ولكن ما هذا (الماكروبولوس)؟

– إنه شخصية أدبية ابتكرت أليكسير الشباب!... – قال الدكتور مجيباً على عجل. – أنا أنصحك بأن تنامي وتطرحي من ذهنك كل هذه الأفكار الغبية، فأنت قد أخذت من الحياة الكثير من دون اللجوء إلى أي علاج!

– أنا عندي نقود!

– هذا من حسن حظك. أنا أكاد لا أملك شيئاً منها، وأنت تتصلين بي على جوالي من هاتف أرضي!

– سأعوضك! – قالت بصوت أقرب إلى الصراخ، هي تشعر بأن الأمل يوشك أن يتبدد. – أرجوك، – توسلت إليه. – اقبلني للعلاج!... هل عندك أب؟

أربك السؤال غير المنطقي أوتياكين.

– عندي، – أجاب.

– هل حارب؟

– لا...– أجابها الدكتور وقد ازدادت دهشته. – لم يذهب إلى الحرب بسبب المرض... هو عموماً متوفى...

– والجد؟ جدك؟ أبو أبيك؟

– شارك في الحرب.

– أهو ما زال حياً؟

– الحمد للـه، – كذب الدكتور من دون سبب.

– أطلب منه أن يروي لك كيف كانت الحرب، أن يصفها لك... أنتم الشباب لا تعرفون ذلك... أما أنا فعندي ثلاثة أوسمة تقدير. قد أكون المرأة الوحيدة في العالم الحاصلة على ذلك والتي ما تزال على قيد الحياة!... أنا أستحق معاملة مميزة.

صمت جوال الدكتور طويلاً، فظنت ليبيدا أن أوتياكين أقفل الخط عادّاً ما قالته نوعاً من الثرثرة الفارغة. إنها، هي نفسها، لو قالت لها إحداهن أنها عارضة أزياء، ورياضية بمرتبة أستاذ من الطبقة الدولية في رياضة الرماية بالسهام، وحاملة لثلاثة أوسمة تقدير... لاستدعت فوراً سيارة إسعاف من مشفى الأمراض العقلية لأخذها...

– جدي لا يحمل سوى وسامين! – جاءها الصوت فجأة عبر السماعة. – تعالي غداً في الساعة الثالثة، هل يناسبك الوقت؟

تلاحقت أنفاسها من فرط السعادة.

– يناسبني.

– سأتعرف على هذه الأعجوبة... سجلي العنوان!

الليل كله لم تنم، غرقت في التفكير في أمور غبية لا تتناسب وعمرها المتقدم. تصورت أنها عادت شابة، شعرها ليس أشيب، بل كستنائي، وعجيزتها متماسكة كتفاحة، وأصابعها...

بالمناسبة، أصابعها صارت الآن قبيحة، فقد اعتادت على حمل سلاحها الثقيل فغدت قوية وجافة كأصابع الرجال.

تذكرت السيليكون، وقررت أن تحدث أوتياكين عن وادي السيليكون. فإبلاغ الدكتور أن لها صديقاً هناك هو ساشيكازاك، يستطيع أن يساعدها في الحصول على المادة اللازمة لبناء ثدييها، قد يجعله يخفض الأجر...

قبيل الفجر تعبت أنجيلينا من التفكير بالشباب المتجدد، باتت فكرة الولادة الجديدة مألوفة لديها، وهذا ما جعلها تعود للتفكير بالسهم الذي أطلقته في المساء، فسألت نفسها:

– ترى، من الذي رميته بالسهم؟ السؤال الأهم هو: لماذا فعلت ذلك؟

ثم أجابت نفسها بنفسها:

– لأنه كان يطير في الليل! ويخيف الناس!...

أنجيلينا لم تكترث لكونها جرحت أحدهم، لم تفكر بذلك. لأنها لو فكرت لأزعجها أنها جرحته فقط، فهي رامية من النخبة، ولا يجوز لها أن تخطئ الهدف حتى ليلاً، وما كان يخفف من انزعاجها هو أن الهدف كان يطير، بالإضافة إلى أن ذلك حدث ليلاً!...

قضت ليبيدا النصف الأول من اليوم التالي في استجماع طاقتها المعنوية، فالتوتر النفسي أرهقها جسدياً، فاضطرت إلى أن ترقد في السرير، كما حدث في طفولتها في الماضي البعيد حين أنذرتها أمها، وهي ابنة السادسة، أنها ستأخذها بعد يومين إلى طبيب الأسنان، فتحولت الثماني والأربعون ساعة السابقة لموعد الذهاب، إلى جحيم حقيقي عاشته الفتاة الصغيرة.

أنجيلينا لم تدرك أن الانتظار جحيم إلا في العشرين من عمرها! لا شيء يعذب الروح مثل انتظار المستقبل، حتى لو كان ما تنتظره مفرحاً. الانتظار يقتل بهجة الفرح... لذلك لم تكن أنجيلينا

تحب عيد رأس السنة، وعيد ميلادها. إنها تنتظرهما دائماً، وحين يحلّان تتحول أيامها في أغلب الأحيان إلى أكثر أيام السنة كآبة.

لكن، لا، قالت ليبيدا لنفسها تحاورها، ثمة نوع واحد من الانتظار يبعث في النفس سعادة حقيقية، وهو انتظار لحظة انطلاق السهم!

هي وصلت قبل ساعة من الموعد المحدد، إلى المكان الذي يقع بالقرب من الطريق الدائرية، وجلست هناك على أحد المقاعد يرهقها كلها الانتظار.

– خذي! – قال أحدهم وهو يدس في يدها شيئاً ما.

نظرت إلى ذلك الشيء فإذا هو ورقة نقدية بعشرة روبلات.

ضحكت ضحكة ساخرة مكبوتة، ففي حمالة صدرها، تحت كل ثدي رزمة بخمسة آلاف من الدولارات.

يجب استعادة الشباب! – قالت في سرها وقد ازدادت اصراراً. بعد دقيقة فكرت أنجيلينا يائسة أن ذلك كله غباء يوحي بأنها قد جنت فعلاً إذا كانت قد قررت التحول إلى فتاة. إنها لا تحتاج الذهاب إلى أوتياكين، بل إلى مشفى غانّوشكين... إن ما بها هو خرف بسبب التقدم في العمر، هذا ما فهمته ليبيدا. لا بد أن النهاية اقتربت، مادامت مستعدة لإعطاء ما وفرته على حساب دمها للمدعو أوتياكين الذي يتلاعب بعقلها.

بعد ذلك تمالكت أنجيلينا نفسها واقتنعت بالتحليل الذهني أن أوتياكين ليس مذنباً في شيء، وأنها هي من اضطره إلى استقبالها! وأن أي حديث عن النقود لم يدر بينهما. كل ما في الأمر أن التعب استولى على كل جسدها، وأن أعصابها مضطربة نتيجة الليلة التي قضتها بلا نوم. فلتذهب الشكوك إلى الشيطان، ولتسر الأمور كلها في طريقها الذي تسير فيه!

ترقّب المصير – انتظار أيضاً! ولذا فإن الموت هو الكآبة الكبرى!...

صالة استقبال صغيرة فيها أبواب تقود إلى ثلاثة مكاتب، تديرها امرأة في نحو الخمسين من العمر، بتسريحة شعر عالية، وشفتين كبيرتين كشفتي زنجية، ولها عينان غاضبتان وصوت سلطوي.

– زيارة من تريدين؟

– أوتياكين.

– هل حدّد لك موعداً؟

– أنا لا أزور أحداً من دون موعد.

– متى موعدك؟

– اهدئي يا عزيزتي واسترخي، – نصحتها أنجيلينا بلهجة ودية. – أغلقي شفتيك وتابعي قراءة الرواية البوليسية التي في يدك. هل حقنت شفتيك بالسيليكون؟

شاب وفتاة ينتظران مثلها في القاعة، اهتما بالمشهد، وقد بدا عليهما أنهما يجلسان هنا منذ فترة طويلة، لأن رأس الصبية الفتي كان يستند إلى كتفه العريض، وقد بدا على وجهها الإرهاق وتجعد أنفها وراحت عيناها تطرفان، أما هو فكان يمسّد شعرها ويهمس في أذنها، – «قريباً سيدعوننا».

المديرة ذات التسريحة العالية لا تمتلك شفتين أفريقيتين فقط، بل تمتلك أيضاً منظومة أعصاب تحسد عليها. فاستفزاز العجوز لم يؤثر فيها مطلقاً ولم يخلق لديها سؤال العجوز عن السيليكون أي انطباع، بل كررت بصوتها المعدني:

– متى موعدك؟

– في الثالثة، – قالت ليبيدا وقد قررت عدم المغامرة والاستفزاز.

– أهي الاستشارة الأولى؟

– نعم.

– ثمانمئة روبل.

– لمن؟

– لي.

أخذت المديرة النقود وأعطتها شيكاً.

– انتظري!

بدأت تنتظر. جلست قبالة الشاب والفتاة وراحت تتفحصهما بشكل مباشر. فضول العجوز لم يربك الشابين، فقد ظل الفتى يقبل شفتي الفتاة بين الفينة والأخرى، أما هي فكانت تشيح عنه بدلع فتلطخ حمرة شفتيها المبتلتين خده بآثار الماكياج.

استدعي الشابان بعد فترة قصيرة.

– هل هما جاءا لزيارة أوتياكين أيضاً؟

– عندنا أطباء كثيرون، – أبلغتها المديرة من دون أن تلتفت نحوها.

– هل تقرئين آغاثا كريستي؟

– لا... عنوان الكتاب الذي أقرؤه «الأم والطفل».

– هل أصبحت جدة؟ – أنجيلينا قررت أن تستخدم الدبلوماسية.

– لا، هذان ولداي، – أجابتها الغاضبة من دون غضب.

– هذان الصغيران؟

– إنهما توأمان ذكران، عمرهما سنتان.

كانت تجيبها بجفاء، لكن عينيها كانتا في الوقت نفسه تشعان كشمس الصيف في أشد أيامها سطوعاً.

– أهنئك...

في هذه الأثناء رنّ جرس الهاتف فأمرتها المرأة الغاضبة، التي هي في الوقت نفسه الأم الشابة، بالدخول.

المكتب صغير جداً، شغلت نصف فراغه طاولة مكتب كان أوتياكين جالساً يعمل خلفها، وقد رأت ليبيدا ظهره المنحني قليلاً، وأصابعه الطويلة البيضاء التي كانت تنقر ببطء شيئاً على لوحة الكمبيوتر.

وفجأة دار بكرسيه المتحرك بسرعة نحوها ونظر إليها نظرة يجدر القول إنها كانت خالية من الفضول. دعاها للجلوس، فدهشت ليبيدا للمرة الثانية من صوته الذي لا لون له، والذي تختفي فيه أسرار كثيرة يتحول مضمونها إلى إرهاق يفوق قدرة الإنسان.

بدأا حديثهما بالأمر المعتاد، الكنية والاسم واسم الأب، وعام الميلاد.

– عام ثلاثة وعشرين، – أجابته.

نظر الدكتور إليها باهتمام، فلم تشح ببصرها، بل لاحظت أن عيني د. م. ن بلا لون أيضاً، تشبهان بقعة في دفتر أطفال رمادية الون، أو بيضاء متسخة...

– ثلاثة أوسمة تقدير؟

بدا غير مصدق ذلك.

حدثته عن أنهم ابتكروا هذا النوع من الأوسمة متذكرين أوسمة القديس «غيورغي». التي كانت تمنح للجنود.

– وماذا كان اختصاصك؟

– قناصة.

– هل حصلت على الأوسمة لقاء عملك قناصة؟

– لقاء ذلك وغيره.

أجابته وعادت تراقبه من جديد، وتراقب الانعدام التام لاهتمامه بها وبما تقوله له بصدق واستقامة.

عاد إلى الكمبيوتر من جديد.

– عمرك، إذن، اثنتان وثمانون بالتمام والكمال؟

– نعم، – قالت أنجيلينا مؤكدة ذلك.

نقر أوتياكين بأصابعه، المرمرية تقريباً، على المفاتيح ثم سألها عن الأمراض المزمنة التي تشكو منها.

هزّت كتفيها واعترفت بأن كتفها اليمنى تؤلمها باستمرار، وتذكرت...

– قلبي يخفق بقوة حين أشرب القهوة.

– هل ضغطك مرتفع؟

– عادي.

– هل تراقبينه؟

– أنا – لا. هم يقيسونه قبل المباريات.

– وكم هو؟

– مئة وعشرون على ثمانون.

أمسك أوتياكين يدها، يتلمس نبضها. سرت في ذراعها برودة أصابعه، وهو يبحث عن نبض القلب بثقة.

– هل عدد نبضات قلبك سبعون دائماً؟

– لم أفحص ذلك أيضاً...

– متى توقف عندك الحيض؟

صمتت تفكر برهة.

– أبعد الخامسة والخمسين أم قبل ذلك؟ – قال يساعد أنجيلينا.

– توقف، هكذا...

ظن الدكتور أنها لم تفهم معنى سؤاله، فسألها بوضوح:

– متى توقفت عندك الدورة الشهرية؟

دمدمت بشيء ما وهي تثني أصابعها، ثم أجابته إجابة فاجأته تماماً:

– قبل أربعة أيام.

– هذا طريف...

ابتعد أوتياكين عن الكمبيوتر وألقى على أنجيلينا نظرة غريبة متسائلاً في سره عما إذا كانت مجنونة أم طبيعية!

– وهل تأتيك الدورة بانتظام؟

– لا أعاني من اضطرابها.

– متى زرت طبيب الأمراض النسائية آخر مرة؟

– منذ نحو خمسة وعشرين عاماً – اعترفت ليبيدا.

– كم ولداً أنجبت؟

– لم يرزقني اللـه... لكن الفتاة ذات السيليكون التي تعمل عندك أنجبت توأمين... مع أن عمرها، على ما أعتقد، يقارب الخمسين...

استمر أوتياكين في تأمل الزبونة وهو يلاحظ بحرفية غنى لون عينيها – وكتفيها غير المقوّسين، ففي مثل سنها نادراً، ما تظل الأكتاف هكذا... حسناً وضع كتفيها مفهوم، فهي قالت إنها

تمارس رياضة الرماية بالسهام! ويداها أيضاً لا يبدو عليهما الهرم...

وفجأة، تحرّك شيء ما في داخله...

– هل توافقين على فحصك طبياً؟ – سألها فجأة.

لقد كان باستطاعة أنجيلينا أن تقسم على أن شيئاً ما التمع في هذه اللحظة، في روح أوتياكين، وطار من عينيه اللتين بلا لون رذاذ من معدن مصهور. مثل هذا يحدث حين ينبعث من لا شيء، توقّعٌ بحدوث شيء ما في غاية الأهمية.

لقد كان فعلاً يعاني توقّعاً مقلقاً يوحي له بأن من يجلس أو تجلس أمامه... لا فرق! هو أهم ما كان يبحث عنه في الأعوام العشرة الأخيرة من حياته العلمية.

لقد شاهد، طبعاً، في خلال ممارسته الطويلة، زبونات عجائز تأتيهم الدورة الشهرية بانتظام، ويملكن القدرة على الحبل، هذا ما كان يميّزهن عن غيرهن من العجائز، وهو مهم طبعاً، لكنهن كنّ يشكين من أن الحيض يشعرهن بالخجل من أحفادهن الذين كبروا، كما أن شعوراً آخر كان يقلقهن ويرهق أعصابهن هو الحبل من رجل عجوز، والأهم منه الإنفاق لشراء المواد المعقمة. «لا حاجة هنا لتذكيركم بضآلة الراتب التقاعدي»! لكل ذلك كنّ يطلبن تخليصهن من هذا العبء الذي ينهال عليهن في غير أوانه...

ما يميز أولئك العجائز من فارسة أوسمة المجد الجالسة أمامه، هو سعيهن لإنهاء حياتهن نهاية منطقية. فكل ما كان يخرج عن إطار الشيخوخة الطبيعية كان يخلق عندهن حالة من الاكتئاب العميق تمنعهن من الاستمتاع بالذهاب المنتظم نحو اللاوجود...

أما المرأة الجالسة الآن أمام أوتياكين فتضج في جسدها على الرغم من كونها عجوز، رغبة في أن تعيش، لا كامرأة عجوز سعيدة بكونها سليمة جسداً وروحاً وهي في الثانية والثمانين، بل امرأة عجوزاً تطلب المستحيل – أن ترغم عملية الموات على التراجع!

أوتياكين كان يخشى، طبعاً، أن يخطئ. مثل هذا حدث له، حين أرهقه علاج عجوز كان عضواً في المكتب السياسي متعلقاً بشكل غير طبيعي بحب الحياة. آنذاك لم يكن ممكناً إجراء تحليل هرموني دقيق للتأكد طبياً من صحة تفاؤل العجوز، وهذا ما جعل المغامر السياسي العجوز يجرجر قرابة عامين الباحث العلمي الشاب الطيب القلب. لقد ضخّ أوتياكين كل نتائج علمه في الجسد الميت تقريباً، غير أن هذا الشيوعي لم يستخدم القوة الجسدية التي عادت إليه، حيث يجب، بل استعمل التيستوستيرون المحرر للتحضير لانقلاب حكومي...

لم يكن أوتياكين يفرّق بين رجل وامرأة في عمله – الأمر الأهم بالنسبة إليه هو وجود مكوّنات كيمياوية معينة في جسد مريضه. وهو الآن يستطيع أن يحصل على معطيات طبية وجنسية دقيقة عن الإنسان الذي يقدّم عيّنة من دمه للتحليل. ففي ذلك الوقت كانت قد أنشئت في موسكو عدة مخابر جبارة يملكها (البيزنس) الضخم ولا يُسمح بالتعامل معها إلا لعدد موثوق به من الشخوص.

سألها مرة أخرى عن استعدادها للفحص الطبي.

هل هي مستعدة! يا إلهي، إنها لا تحلم إلا بهذا!

وها هي ذي النقود اللازمة لذلك!

أخرجت، دون ارتباك، العشرة آلاف التي تملكها عبر ياقة ثوبها، وضعتها على طاولة أوتياكين.

– أعيدي النقود إلى جيبك! – قال لها الدكتور بلهجة قاسية. – نحن لسنا بحاجة إليها الآن!

أحزنها ذلك، لأنها واثقة من أنه ما من شيء في الحياة يحدث مجاناً. لكنها لو عرفت النفع الذي ستجلبه لأوتياكين من حيث الجوهر، لطلبت، حتماً، منه هو نفسه، أن يدفع لها نقوداً.

وبدأ بالفحص!

هي نسيت الليل والنهار! أنفقت خمسة وثلاثين يوماً وهي تقوم بدور كلب بافلوف. لقد سحبوا من دم أنجيلينا ليبيدا دماً يكفي مركزاً كاملاً للإسعاف بالدم. وزعوا الدم في أنابيب اختبار مختلفة، وخلطوه بمواد تفاعلت معه، جاعلين الوقود البشري أبهت لوناً وأقل كثافة.

بعد ذلك اقتادوها إلى ثلاثة أطباء مختصين بالأمراض النسائية، عاث كل منهم نحو الساعتين في أحشائها، وأخذوا على عصيّ صغيرة رفيعة نتفاً من الأعماق، قائلين إنها «خزع سيزرعونها»! هي تعرف أن الزراعة لا تتم إلا في الحقول، وقد يزرعون السماء، لكن ما الذي سيزرعونه فيها؟...

أرهقت أوتياكين بالأسئلة، وكان هو يكتفي بالقول: إن كل شيء على ما يرام، وأن على أنجيلينا، إذا أرادت أن تمارس رياضة رمي السهام، أن تتحمل العذاب، وأن تطيعه دون اعتراض.

فحوص نفسية واستشارات عند أطباء الأعصاب.

يا إلهي! متى ينتهي كل ذلك!

بعد ذلك شربت خمس ليترات من بودرة محلولة في الماء، وظلت الليل كله جالسة على كرسي المرحاض أمام مرآة تريها أحقر فعل تعرض له جسدها في حياتها.

لقد شعرت، وقد خارت قواها، أنهم دسّوا ذلك الخرطوم – الحية نفسه، في فمها، وغاص في أمعائها. أرادت أن تصرخ محتجة: كيف سمحوا لأنفسهم أن يخرجوه من مؤخرتها ويدسوه في فمها... انكمشت وقد انتابتها مغصات إقياء، وهي تحاول بساقيها التخلص من الخرطوم الطويل...

كان أوتياكين يتبعها ويستمع إلى كلام الأطباء.

أجهزتها الداخلية سليمة تماماً، أبلغه المختص بالرنين المغناطيسي وقد ظهرت في صوته ملامح الدهشة: ليتني في مثل صحتها. هناك قليل من الدهن في الكبد، لكنه ضمن المعدل لإنسان في الثلاثين من العمر!

لا وجود لأية حبة رمل في الكليتين عند ليبيدا. ويظهر تحليل البول عدم وجود أية أملاح ضارة، وكذلك عدم وجود أية التهابات...

تقرير طبيب الأعصاب كان أكثر جفافاً: لا وجود لأية تغيرات في الدماغ، والعمود الفقري سليم إذا لم نأخذ بالحسبان ثخانة محدودة في القسم الرقبي، فمثل هذه الثخانة موجود عند معظم الناس. فيما تبقى، لم يظهر فحص كامل الجسد أيّ...

– من هي؟ أهي من العلماء؟ – سأل الطبيب الذي كان يصوّر شرايينها الدموية بجهاز (الدوبلير).

– إنها متقاعدة، – أجابه أوتياكين. – هل اكتشفت شيئاً غير عادي؟

– هذه العروق الثخينة، – أشار بقبضته إلى مكان اتصال الرقبة بالرأس، – تظهر عادة، عند الناس الأذكياء جداً، الذين يمارسون، في الغالب، عملاً ذهنياً!

أوتياكين كان يعرف، من دون شرحه، عند من توجد هذه العروق.

– أهي نظيفة؟ – سأل مدقّقاً.

– نظيفة تماماً. الدم يجري فيها أنهاراً!

أطباء الأمراض النسائية الثلاثة أعطوا النتيجة نفسها: المرأة سليمة تماماً... لكنه تلفن لكل منهم، من باب الحيطة، مستفسراً حول التغيرات المتعلقة بالعمر.

اثنان أجاباه بأنهما لم يلحظا أية تغيرات. الطبيب الثالث كان امرأة، سألته بدورها:

– هل هذا عملك؟

أجاب بنزاهة أن هذا ليس عمله بل عمل الطبيعة.

سمعت الطبيبة عن أوتياكين أنه غيرونتولغ، أندرولغ، أورولوغ، لكنها كانت لا تميل إلى الإيمان بمعجزات الطب، بل تميل إلى الإيمان بمعجزة الطبيعة التي عزت إليها حالة الزبونة الكبيرة السن، واكتفت بالشعور ببعض الحسد تجاهها.

في أثناء إجراء الفحوص الطبية، وضعوا العجوز ليبيدا في غرفة خاصة، شعرت فيها بالمعاناة من الوحدة، ومما كانت تخضع له من قسر.

كان نومها رديئاً، ولذا كانت الذكريات تتسلل إلى رأسها بكثرة. لكنها، على الرغم من حبها لعملية التذكر نفسها، حيث عدّت أنها تستطيع من خلال الذكريات أن تعيش مرة ثانية ما كان جيداً في الماضي، كانت ترى في الذكريات إضاعة لوقت اليوم الحالي الثمين، فتقصّر بذلك الحياة في عمل فظيع لا جدوى منه!

في الأيام الثلاثة الأخيرة لم يأخذوها إلى أي مكان لإجراء الفحوص! ولم يظهر أوتياكين، بدا لها أن الكل نسوها ما عدا فتاة شابة طويلة القامة جداً، ولها ساقا لاعب كرة سلة، تحمل للييبدا الطعام ثلاث مرات في اليوم.

كانت الفتاة صامتة دائماً وكانت أنجيلينا تتأملها مشفقة عليها، ربما لاعتقادها أن الفتاة تعاني من متاعب في حياتها الشخصية، لكنها اكتشفت فجأة أن لحية ذكورية من الشعر القاسي تغطي بشرة وجه الفتاة المدهونة بالكريم – بودرة بشكل رديء.

بعد ذلك فقدت شهيتها للطعام، فرقدت تتأمل السقف، تشعر بالشوق إلى قوسها وسهامه.

## – 3 -

– هذا لك!!! – صاحت كاتيا الفيلية بصوت عالٍ وهي في المدخل. – تعالي، ردي على التلفون يا منحوسة!...

ما زال نصف الماء في الحوض، – قالت لنفسها وهي تشعر بالأسف، – ومع ذلك، بذلت جهدها وخرجت من (البانيو)، ثم لفت جسدها بمعطف حمام تشيكي ذي وبر، من دون أن تتنشف، وهرولت حافية إلى المدخل.

كان المتصل باشكا سيفير تسيف الذي حدد لها موعداً للقاء، في مطعم بيكين في الساعة السابعة مساء.

– آ – غا – ا! – أجابت بصوت مرح منغّم.

– ها، – قال الفتى يودعها ثم أقفل الخط.

«الأب ينقذ ابنه».

هذه العبارة صدرت عن الجنين، الذي صار قلبه يدقّ بحسب المعدّل بفضل البرودة العامة لجسد الأم بعد خروجها من الحمام، الأمر الذي أبعد عنه شبح الموت.

لقد كان من الطبيعي ألّا يُحدث عدم ظهور الفكرة الأخيرة في هذا اليوم فرقاً. فليس مهماً أبداً عدد الأفكار وطبيعتها ما دامت سلسلتها اللامتناهية التي يجب أن تؤدي إلى معرفة كل الاحتمالات، غير موجودة...

الحديث مع باشكا كان قصيراً، ولذا قررت أن تعود إلى حوض الاستحمام، فتتمدد فيه المدة اللازمة، حتى يفرغ من الماء تماماً، ويتخلص جسدها من الطاقة الرديئة.

الجنين كان معارضاً كلياً لتطور الأحداث بهذا الشكل، فهو لا يستطيع احتمال المزيد من العذاب الفيزيقي، لذلك ركّز قدراته وأطلق من ذاته كمية ضئيلة من شيء ما، انصبّت في دمها وانتشرت في كل أجهزة جسدها الحيوية الهامة...

تعرّت مجدداً، وعلّقت معطف الاستحمام، ثمّ مسّدت بقماشه خدها متخيلة وجه باشكا، وكيف ستقبل شفتيه بنهم وتعض شحمة أذنه فتؤلمها...

توقفت أحلامها بحدة فجأة، وأرغمت هجمة إقياء جسدها الكبير على الاستدارة بسرعة نحو كرسي المرحاض، وعبّ فمها من الهواء ما يكفي لملء صدور ثلاثة من الرجال...

ثم اختفى كل شيء فجأة...

ما هذا؟ – تساءلت في سرها مندهشة.

ستعرفين ما هذا، – أجاب الجنين بلؤم، أفرز مجدداً ميليغراماً آخر من تلك المادة.

أما هي فقررت أن تتجاهل ما حدث، – فالإنسان يتعرض لأمور كثيرة – واستدارت بحركة غير موفقة محاولة تخطي طرف (البانيو) المعدني المدهون باللون الأبيض، فشعرت فجأة بغمامة تملأ رأسها، ومرارة لا تطاق تندفع في البداية من أعماقها، عبر أمعائها كلها، فتملأ فمها، ثم يشرع جسدها يهتز مع اندفاع دفقات الإقياء، وتشعر بأن عينيها توشكان أن تخرجا من محجريهما.

ماما، – أطلقت صيحة قصيرة خائفة، وما أن جثت على ركبتيها أمام كرسي المرحاض حتى اندفع من فمها شيء أخضر مقرف، وكأنها تناولت جرادات خضراء في فطورها.

ماما – كرر الجنين صرختها مستمتعاً بلحظة انتقامه.

لم تشعر بالغثيان أكثر من دقيقتين، بدتا لها دهراً كاملاً.

توقف المغص، فارتعش جسدها العاري برداً، وبدت عيناها ككرتين من الدم نتيجة تفجّر عروقها من شدة التوتر. ضمت كرسي المرحاض بين يديها كالوسادة، وأغفت طويلاً على ذلك الكرسي الصغير، تستريح وتحاول امتصاص خوفها.

ما هذا؟ – سألت نفسها ثانية وهي تتذكّر ما تناولته في الفطور... هي طبعاً، لم تأكل جرادات خضراء... أكلت رغيف خبز مع الزبدة والمربى، وبيضة، ونصف علبة من السلطعانات الفواحة الرائحة التي أهداها لها باشكا.

هذه السلطعانات هي سبب المشكلة، – قالت في سرها. – هي السبب بالتأكيد!

طيب، سيلقى مني ما يستحقه.

كان مزاجها قتالياً، لكن عليها أن تبدو بمظهر جيد، لذلك راحت تفكر بضرورة أن تضع الآن على عينيها كمّادات من ورق الشاي المغلي، ليكون كل شيء على ما يرام في المساء.

«طيب، هي ستلقى مني اليوم ما تستحقه!» – قال الجنين في سره.

لقد فهم أنه يملك سلاحاً قوياً يستطيع بفضله أن يمنع موته قبل الأوان، ثم شعر بعملية انقسام جديد في ذاته، وبأنه صار أكبر حجماً، وبأن قلبه لم يعد يهزه كما في السابق، وبأن انزعاجه من وضعه قد قلّ، ولذلك خطرت له فكرة نقيّة وجديدة تماماً.

الوقت – تفاهة، قال في سره. – الوقت – قطعة تفصل بين الفكرة الأولى والفكرة الأخيرة. وكل ما هو قطعة – تافه. الحياة قطعة أيضاً ولذا فهي تفاهة. إنها خط، كل النقاط التي يمرّ بها تبعث القرف. قد تكون النقطة الثانية فقط مثيرة للاهتمام بما فيها من مقلق، ومجهول. هو، بالمناسبة، كل يعرف أن شبيهه سيحل بعد هذه النقطة، ما كان يوتّر أعصابه هو أنه لا يستطيع أن يتصور كيف سيكون ذلك الشبيه.

ها هي ذي الحقيقة الإنسانية تحددها الفيزيزلوجيا، لكن الفيزيولوجيا الوليدة لا تتيح إمكانية للتنبؤ بمستقبل الشبيه أو تتصوره. حتى حين ستظهر الكمبيوترات الجبارة، ويجعل التقدم الإنسان خالداً جسديّاً، حتّى حين ذاك، سيظلّ الرأس الإنساني عاجزاً عن أن يفهم ويدرك ما الذي سيكون خلف النهاية الافتراضية. ولذلك يلجأ تاج الطبيعة إلى التقطيع المصطنع لليقظة الأبدية، عاجزاً عن العيش بلا زمن، بلا حب، بلا دوافع. وهكذا لا يبقى إلا الفضول. ماذا هناك؟ وكيف يبدو؟ إنه الانجذاب نحو الشبيه، يستنتج الجنين، هذا ليس انجذاباً نحو الموت، بل انجذاب نحو ما عرفته مليارات من الكائنات، نحو الشبيه! أما هو، الكائن الأرضي، المنهوب، فيظل لا يقنع إلّا بالحياة الأبدية.

لا، يختم الجنين، لن تكون هناك أية حياة أبدية.

إن مئة وخمسين، أو مئة وثمانين عاماً توصل الكائن إلى الضجر الشامل والعجز التام عن مقاومة الانجذاب نحو الشبيه.

أرضى هذا الاستنتاج الجنين فغاب تقريباً عن الوعي، وكفّ عن التفكير، لكنه لاحظ أنه يصبح أكبر حجماً بعد كل فترة من الفترات المحددة زمنياً تحديداً صارماً.

جلست يولكا أمام المرآة، وغرفت كمية لا بأس بها من علبة كريم «فولشيبني»[2] وراحت تطرّي به عنقها، وقد أنستها رائحة السيرين التي فاحت منه، ما جرى في حوض الاستحمام. كان بمقدورها، وهي تدلّك بالكريم بشرتها الطرية، أن تتخيل أن يديها هما يدا باشكا، الأمر الذي يجعلها تتخيل حدوث أمور شتى... لكنها كانت بين فينة وأخرى تفيق من أحلامها لتكتشف أنها أفرغت تقريباً العلبة من الكريم الغالي الثمن، وأن عينيها ما زالتا عكرتين رغم انقضاء وقت طويل، ولتشعر بأن هذه العضلة أو تلك من عضلات جسدها تنتفض، وما شابه ذلك...

– لقد عادت وبللت الأرض! – تناهت إلى سمعها من المدخل صيحة كاتيا الفيلية. – ترى من سيمسح الأرض التي بللتها؟! فقالت في سرها وهي تخرج من حالة الحلم: أنت ستمسحينها أيتها العجوز اللئيمة!

– يا سيرغيي سيرغييتش! – تتابع كاتيا صرخاتها. – خشب الأرض سيتعفن إذا استمرت الحال هكذا! افرض عليها هيبتك كرجل! إنها تتمدد في (البانيو) حتى تشبع، ثم تمشي بقدميها الحافيتين في الممر من دون أن تجفف جسدها! يا لها من وقاحة تزهر عندنا!

يستجيب سيرغيي سيرغييتش لصرخات الجارة استجابة عاصفة، تظل حبيسة روحه طبعاً. لقد كانت نفسه تتأثر بشدة بكلمات مثل «مبتلة» و«عارية». لذلك كان يبدو منزعجاً بعد هذه الكلمات وعاجزاً تماماً عن العمل. فالجبال تبدو له في الأطالس الجغرافية أثداء أنثوية، وتلوح له خلف صور شلالات المياه أجساد نسائية عارية، أما في قاع وادي (كاراباخ) المصور من علوّ شاهق، فيبدو له بوضوح أشد أعضاء جسد المرأة حميمية.

– إي – إي! – صاح العالم مستهجناً وهو يمسح أنفه الشبيه بأنف الدمية.

هنا تذكّر أن الفتحة في قفل باب غرفة يولكا واسعة جداً، فقفل باب غرفتها باق على حاله من قبل زمن الثورة...

ثمة قوة خفية أرغمت سي – سي على أن يبعد جانباً الأطالس والخرائط من دون صوت، وينهض بهدوء، ويخرج من جناحه متجهاً نحو غرفة جارته الفتية بخطوات كخطوات راقصة باليه.

هي نفسها تفتخر بقفل غرفتها، والأدق أنها كانت تفتخر بمفتاح ذلك القفل، أكثر من افتخارها بالقفل نفسه – كان المفتاح كبيراً أسود طبعت عليه عبارة «مفتاح، عام 1905». لقد أذهلها أن عمر المفتاح كعمر الثورة الأولى، وأذهلتها العبارة المنقوشة عليه، فقررت أن تعلّق المفتاح القلادة حول رقبتها إذا بدّلت القفل في يوم من الأيام.

في هذه اللحظة نبّه شيء ما الجنين فانخرط في مجرى الأحداث.

رأى عبر الأمعاء وجدار البطن الأمامي بنظره غير الطبيعي الذي يخترق الفضاء والجدران، الجار المتسلل الذي يلتمع في عينيه بريق الشهوة وترتجف أصابع يديه كما لو أصابها مرض باركينسون.

أدرك الجنين ما الذي جعل العالم يتسلل إلى باب غرفتهما بخطوات راقصة. فانتابه شعور بغضب هائل تنامى سريعاً في داخله، وأحس بضرورة أن يقوم بعمل ما، لكن توتره زال فجأة وتغلّب في خلاياه الجنينية الميل إلى التفلسف والشرود، فهدأ في الحال وقرر أن يترك الرجل ينظر ويتأمل فهذا لن ينقص منه شيئاً، وهو، كما يقال، لا يعنيه.

هيا بسرعة، يجب الإشفاق على الجار الذي تجتذبه أشياء غبية كالغدتين الحليبيتين المغلفتين بالجلد وحلمتيهما، أو – ويا للعجب! – المؤخرة البارزة التي ستصبح بعد نحو عشرين عاماً ككرة فُرغ نصفها من الهواء، أما وادي كاراباخ...فهو فضاء مهما طرت فيه فلن تطير في أرجائه كلها، وهناك، حيث لا توجد نهاية، لا تصل الرغبة إلى حالة الإشباع.

غاب الجنين عن الوعي مجدداً، تاركاً لـ سي. سي الحرية التامة في التصرف.

ثبّت العالم عينيه على ثقب المفتاح فرآها كلها تقريباً. تأمل رقبتها العارية، وعري كتفيها، وساقها البيضاء من الركبة حتى القدم... ما أطول أصابع قدميها، قال الجار في سره وهو يتنفس بصوت مسموع.

بقية جمالات جسدها كانت محجوبة بمعطف الاستحمام المعلق على ظهرها في وضع غريب.

كان معطف الاستحمام يخفي أماكن جسدها الحميمية كلها، كأنه كائن حي يحمي عري المرأة الشابة من العيون الفضولية.

القماش التشيكي ذو الوبر عالق بأعجوبة بزاوية من زوايا ظهرها في وضع يوحي بأنه سيسقط أرضاً.

– اسقطْ، اسقطْ رجاء! – يتوسل إليه العالم.

لكن المعطف العنيد لا يسقط، بل يظلّ في وضع يذكر بمتسلق جبال مصرّ على البقاء معلقاً فوق الهاوية متشبثاً بحجر، معتمداً فقط على أصابعه المدربة.

أطلق الجار شتيمة مقذعة، لكن همساً.

وخطر في بال سيرغيي سيرغيفيتش أن ثمة قانوناً ما جعل من المستحيل عليه أن يراها عارية تماماً، فهو رغم كل المرات التي دس فيها عينه الفضولية في ثقب الثورة لم ينجح لو مرة واحدة في رؤيتها بكل عريها. لقد كان هناك دائماً شيء محذوف، شيء محجوب عن الرؤية، كأن الجارة تعرف أنّه يتجسس على جسدها، ويسعى لرؤية عريها حتّى النهاية...

فشل العالم في تحقيق رغبته يغضبه، لذلك كان مستعدّاً لتمزيق باب الجارة بأظافره. لكنه، والشكر للـه كان يتمالك نفسه، ويكتفي، تارة بالتوسل إلى القدرة العليا أن تجعلها تستدير إلى هذا الجانب، وذاك الجانب، أمام ثقب المفتاح وتنحني نحوه وهي تجمع ملاقط الشعر الساقطة على الأرض، وتارة ينفد صبره فينكمش كله في حالة يأس، وحين تلف جسدها بالمعطف بشكل لا يمكّنه حتى من رؤية صدرها، يكزّ العالم على أسنانه، ويقفز راكضاً إلى غرفته. «هناك يجبر نفسه على النظر إلى الخرائط المضجرة، والصور الباهتة لسلاسل الجبال، لكنه يظل، كما في السابق، لا يرى فيها سوى جسد امرأة عارية».

يندفع سي. سي. مجدداً إلى الممر وهو يقول بصوت يكاد يكون صراخاً:

– لا، يا يولينكا، هذا كثير فعلاً! هذا لا يحتمل!

– ماذا حدث؟ – تسأل يولكا بصوت عميق ولطيف بشكل مدهش.

– في الواقع، – يقول الجار ملوحاً بيديه. – الأرضية عندنا تحفة نادرة، وأنت تدمرينها بقدميك المبلولتين!

– تقول: قدميها! – قالت كاتيا الفيلية مقهقهة وهي تندلق من غرفتها، وقد اشتمت رائحة شجار. – قدميها، تقول!... ها – ها! هاتان ليستا قدمين، هاتان دبابتان فاشيتان تدمران أرض بيتنا!

هنا نفد صبر يولكا فوثبت إلى الممر وغاصت في الجو الملتهب.

– قدماي أنا – دبابتان؟ – سألت مستنكرة وهي تهجم بصدرها على أرملة الجندي.

– ليتك تنظرين إلى قدميك أنت، أيتها الفيلة العجوز!

إن الأرضية تنحني تحتك حين تمشين! والأرض الصلبة تتفتت!

– آه منك يا وسخة! – لم تتراجع كاتيا، بل تصدّت لها بثدييها الثقيلين المحشورين في حمالة صدر من صنع يدوي. – تقولين عني «عفن»، تهينيني يا ظالمة! أين ترين أني تعفنت؟! أجيبيني!!!

اشتبكت المرأتان تقريباً، وهنا بات واضحاً تفوّق الشباب على الشيخوخة.

– يا لك من غبية! – قالت يولكا وهي تضغط جارتها إلى الجدار. – أنا لم أقل أنك «عفن»، قلت: «باغنيني»! وهذا اسم موسيقي مبدع! أما أنت فمتعفنة حتى العظم، أنت وساقاك الفيليّتان وبنطال أم جدتك الذي ترتدينه بالوراثة!

– ومن أين لي أن أجاريك! – لم تستسلم كاتكا، بل ثبتت قدميها في حذائها المنزلي وقدّمت إحدى ساقيها إلى الأمام، أما الثانية فثنتها في زاوية قائمة، كأنها ملاكم في وضعية الدفاع. – أنا عندي بنطال، أما أنت فسروالك الداخلي مصنوع من شباك الصيادين! وفوق ذلك تبللـه بالماء! يا للعار! كم هو معيب أن يغطي المرء مؤخرته بشبكة! يا لك من ممثلة عري أمريكية!

كانت كاتيا الفيلية، على الرغم من خطابها القوي، تتراجع نحو الجدار دون توقف، يدفعها جسد يولكا كأنه بولدوزر قويّ، وبدا من المحتمل أن تحدث كارثة قرب الجدار.

حين سمع سي. سي بالسراويل المصنوعة من الشباك، كاد يغرق في أحلامه من جديد، لكنه أرغم نفسه متألماً على تحويل الطاقة الجنسية التي في داخله لتنصبّ في مجرى شجار.

– كفى، أيتها المرأتان! – صاح بصوت رفيع حاد، ثم أمسك رأسه بيديه وراح يشكو: – متى، في نهاية المطاف سيمنحونني شقة مستقلة؟! أنا لم أعد قادراً على احتمال المزيد! أنا عالم ذو اسم رنان! أنا رحّالة! أنا ميكلوخا ماكلاي!

عند هذا الإعلان توقفت المرأتان في الحال عن التدافع والتفتتا نحو الرجل.

– نعم، نعم! – تابع سي – سي متحدياً. – أنا، إذا أردتم، بهرينغ!... برجيفالسكي!!!

– هل هذا حصان! – تمتمت كاتكا تحت أنفها.

– أنا كولومبوس!!!

راح سيرغيي سيرغييتش يرتجف غارقاً في نشوة قيمته الذاتية، باحثاً في دماغه المتورم عن مرشحين آخرين يمكن أن يقارن نفسه بهم. لكنه وجد أن كل الأسماء بعد كولومبوس شخصيات ليست ذات قيمة كبيرة، لذلك تابع الجار الارتجاف من دون صوت.

– هل سمحوا لك بالسفر إلى الخارج؟ – سألت يولكا مندهشة. – إلى أي البلدان سافرت؟

– المرء ليس مضطراً أبداً إلى السفر كي يحقق الاكتشافات! – أجابها سي – سي وهو ما يزال منفعلاً.

– أحقاً؟ – سألت البنت منذهلة.

– نعم.

– وماذا يجب أن يفعل؟

– ما بالك تضايقين الرجل؟ صاحت كاتيا الفيلية. – يمكنك أن تتحرشي بحبيبك ريختر! أما الجار فابتعدي عنه! بعد ذلك دار نقاش لتحديد من سيقوم بتنظيف خشب الأرضية وتلميعه حيث وافقت يولكا في نهاية المطاف، على أخذ هذا العمل الصعب على عاتقها، لكن، حدث هنا ما حدث في بالوعة الحمام، فبقيت مسألة تنظيف الأرضية مجرد واحدة من النيات الطيبة.

حين تفرقت الأطراف المتصارعة وذهب كل إلى ملجئه نسيت يولكا المعركة على الفور، وتذكّرت أنها ستتعشى اليوم مع باشكا في مطعم بكين، وبعد ذلك... بعد ذلك ستصرخ مستمتعة طول الليل، وليذهب كل ما عدا ذلك إلى الجحيم!

كانت ترتدي فستاناً يطيّر العقل، فستاناً ضيقاً لونه (بوردو) وله حبّاستان تبرزان ردفيها الرائعين، فستاناً بفتحة عميقة مذهلة على الصدر، اشترته في مدخل أحد الأبنية السكنية غير بعيد عن مطعم بكين، من إحدى الأجنبيات، ودفعت ثمنه بالروبلات السوفييتية.

حين دخلت إلى مبنى الفندق ذهل الجميع، أهل البلد والأجانب. كل من رآها، سواء أكان عجوزاً أم شاباً، تمنى أن يرعاها بعض الوقت، أو، على الأغلب، أن يتزوج هذه الجميلة الروسية ذات الشعر الأحمر. شيء ما، مما في مستوى ما تحت الوعي، أبلغ الرجال أن هذه المرأة مثل أعلى

حقيقي للأنثى وللأم في المستقبل. لم يتفحصها ممثلو الجنس القوي وهم ينظرون إليها نظرة تقييمية من أعلى إلى أسفل، أو من أسفل إلى أعلى، بل التهمت عيونهم الصورة الكلية لهذه الساحرة، من دون أي تفكير بأية عيوب قد تكون فيها. الكتّاب السوفييتيون الكبار، والفنانون الذين لم يتألموا من الرغبة لأنهم كانوا يحققونها فور ظهورها، هؤلاء التهموا بنظراتهم «الساعة الرملية»، من دون أن يحاولوا تعزية أنفسهم بأن بطتي ساقي هذه المرأة عريضتان، وأن ذراعيها ليسا نحيلين، وأنها عموماً ليست صنفاً ممتازاً! البطتان عريضتان، والذراعان ثخينان، لكنها رغم ذلك صنف ممتاز! لقد هام الكثيرون، ولكنهم، وقد غمرهم التهذيب اللطيف، غادروا المكان، من دون أن يحصلوا حتى على سراب الأمل.

– أنا – سوبوتين – ماسّالسكي! – قدّم (أحد الدون جوانات) نفسه وخبرته الكبيرة جداً حيث زيّن خشبة مسرح (مخات)[3] بموهبته. وكان معنى حديثه: هيّا بنا يا حلوة إلى جناح الإقامة في الفندق، فهذا قد يكون الشيء الوحيد الذي يستحق أن تحدثي عنه أحفادك.

– هيا – ا – ...

– أنت – رفيق طفولتي! – أجابته بسذاجة نقية، كانت صفعة رنانة على وجه هذا الفنان ذي الشخصية المشهورة، جعلته، هو الحائز على لقب «فنان الشعب في الاتحاد السوفييتي»، يعاني طول الشهرين التاليين من اليأس والاكتئاب ويكفّ عن صبغ شعره.

أما هي فشعرت في تلك الدقائق بأنها قطب الأرض الشمالي الذي تتجه نحوه مؤشرات البوصلات كلها. لم تكن تشعر بالحرج ولذا استقبلت الجميع بابتسامة عريضة صافية، أفقدت حتى رجال الأمن المحترفين النزيهين تمالكهم لأنفسهم، فرافقها أحدهم، وهو نقيب بعينين رماديتين، في المصعد مسافة طابقين، ووجد في هذا الزمن القصير متسعاً ليطلب منها، هي آنيتشكينا، أن تكون حذرة، ففي هذا المكان حثالات من شتى الأنواع، وعرض عليها أن يحميها من أية مشاكل قد تواجهها.

– ما عليك إلا أن تطلبي مني ذلك!

هي عرفت أن كنية ذي العينين الرماديتين «أنطونوف» واسمه أفلاطون.

أجابته مازحة، مرتبكة:

– أفلاطون – صديقي، لكن الحقيقة....

– أنا صادق في عرضي للمساعدة، – قال النقيب.

– رأت باشكا سيفيير تسيف من بعيد. كان يقف في آخر الممر، وكانت تراه بعيداً جداً رغم قربه – لا يفصله عنها سوى عشرين خطوة.

ركض كل منهما لملاقاة الآخر باسطاً ذراعيه للعناق، ففقدت في ركضها حذاءها، لكنها لم تلحظ ذلك، أما هو فحملها ودار بها وهو يقبل وجهها كله، ملطخاً بحمرة شفتيها خديها وخديه، ثم، دفع وهو يحملها باب الغرفة بكتفه، وارتمى على السرير، وهو يضغط حمله الثمين إلى جسده.

بعد ذلك كانت مضاجعة قصيرة، مؤلمة، لاهبة. وتمزقت خيوط الثوب كلها وهو ينزعه عنها.

– لا تمزقه! – قالت له وشفتاها في شفتيه.

اندست أصابعه تحت ملابسها الداخلية تتلمس أنعم وأرق أجزاء جسدها من دون مقاومة فشعرت برغبة في الصراخ من فرط اللذة، بل حاولت ذلك، لكنه ضغط بكفه وجهها بقوة، فكادت يولكا تختنق، ربما من قلة الهواء، والأرجح من شدة الانفعال، الذي رافقته رائحة (اللاوند) المنبعثة من يديه اللتين كانتا تنفذان إلى كل خلية من خلاياها. وكان ذلك كافياً كي يشعرا في الوقت نفسه، بانفجار جسديهما انفجاراً فانتازياً مدمراً... لقد شبهت جسدها فيما بعد، بقنبلة ألعاب نارية، تتشظى آلافاً من الألوان، لكنها في لحظة الانفجار أنشبت أسنانها في كف باشكا تاركة فيه أثراً عميقاً.

بعد ذلك نزلا إلى المطعم.

– بخاي – بخاي! – ليس واضحاً لماذا نطقت بهذه العبارة الهندية، في حين كانت كل الروائح التي يشمها أنفها صينية.

أقلقها أن يكون جورباها قد انفلتا من بكلتيهما عند الخصر، فدست يديها تحت ثوبها تتفقدهما، الأمر الذي جعل مدير الخدم يبتلع ريقه.

أما باشكا فراح يستمتع بسلوكها الخالي من التصنع. لقد كان يحب كل شيء فيها. كان كمن يحب آخر مرة في حياته.

ظلا يأكلان فترة طويلة، أكلا كثيراً: سمكات قريدس كبيرة بحجم غير عادي، متبّلة لفتح الشهية، ولحم غنم مقليّاً مع حشائش خضراء، ومعكرونة مع البيض، وعشرة أنواع من المنكهات. وشربا شمبانيا مزّة من نوع «سوفييتسكايا» خلطوها مع الفودكا والشاي الصيني. وقدّم المطعم لهما بعد العشاء فواكه مغطسة بالعسل، وكوكتيل «شمبان – كوبلر» وقهوة «آرابيكا» الرائعة الي لم يغلوها في دلّة تركية، بل، آلة إيطالية، ومزجوها بالكريما وزيّنوها بالخوخ.

هما لم يتبادلا الحديث في أثناء العشاء، كانا ببساطة يكتفيان يتبادل الابتسامات، ويتلامس أصابعهما تحت غطاء الطاولة الأحمر المزيّن برسوم التنانين، وتدافع ركبهما تحت الطاولة. لقد كان ذلك كافياً لتجتمع في كل منهما عناصر الانفجار الذري المقبل. كان هو الفتيل المفجر، وكانت هي شحنة بمليون طن تنتظر التفجير.

تطاير الشرر تحت الطاولة، وفاحت رائحة الأوزون، وكأن صاعقة صغيرة توشك أن تقع تحت الطاولة.

– هل سنذهب إلى بيتي؟ – سألته وهي تبتلع بصعوبة صرختها.

هزّ رأسه بالنفي.

– سنبقى هنا...

أخرج من جيبه رزمة من النقود، وعدّ بلا مبالاة القطع النقدية الكبيرة، ثم رماها على الطاولة وضغطها بزجاجة الشمبانيا الفارغة.

لم يكونا مستعجلين كما في المرة الأولى. كانا يتوقفان كلما قطعا بضعة أمتار، ويتبادلان قبلة طويلة تجيش بالعاطفة...

بعد ذلك جرى كل شيء بطيئاً وعلى نحو ممتاز. كان كل منهما مستعداً للانفجار في أية لحظة. لكنهما كانا يؤخران ذلك عمداً، فيلبثان ساكنين وكأنهما يتأرجحان فوق موجة المتعة القصوى. غير أن أحدهم راح فيما بعد يدق الجدار من الغرفة المجاورة، دقاً هيستيرياً متلاحقاً مصدراً صوتاً عالياً، عند ذلك فقط أدركت أنها تصرخ، وأن صراخها كان يصطدم بمصابيح الثريا فيزداد قوة إلى حدّ من الديسيبلات لا تستطيع الأذن البشرية احتماله.

أعطني يدك، – همست له.

دس بين شفتيها المتورمتين طرف كفّه فانقضت تعضها ككلبة مسعورة.

أنّ باشكا من الألم بصوت مسموع، لكنه لم يسحب يده، فقد كان يحس في ألمه بحلاوة موجعة.

خلف الجدار كانوا يطلقون شتائم مقذعة بصوت مرتفع، وأخذ كل شيء يتجه نحو النهاية، كما لو كان الجميع قد تلقوا أمراً بذلك.

امتلأ الفضاء بارتجاجات ضعيفة لشقوق أخذت تتشكل في أساسات الفندق لن تكتشف إلا في عام 2007.

تمدد الاثنان في السرير المنبوش وضحكا معاً.

ثم طلب باشكا بالهاتف زجاجة شمبانيا للغرفة المجاورة، ملزماً النادل الذي سيجيء بها بأن يرغم الجار على تكرار شتائمه بالصوت المرتفع نفسه.

بعد بعض الوقت سمعا الشتائم تعلو من جديد.

شرعا بالضحك، وكان بمقدورهما أن يضحكا حتى الصباح، لولا انفتاح باب الغرفة بقوة، واندفاع خمسة عشر رجلاً غاضباً يرتدون لباساً مدنياً، إلى الداخل.

قاموا بليّ ذراعي باشكا حتى طقت عظامهما، وضربوه بكفوفهم على أذنيه لكي يصاب بصمم مؤقت، أما هي فلم تستطع في أثناء ذلك كله، أن تصرخ، أو حتى أن تتحرك! ظلت جالسة عارية، خائفة، داسّة وجهها بين ركبتيها، إلى أن ألقى أحدهم إليها بغطاء قائلاً:

– تغطي أيتها الكلبة السافلة!

الضجة كانت شديدة، لكن زجاج النوافذ صمد بأعجوبة ولم يسقط.

– أيها الذئاب الشائنون!

– اخرسي يا قذرة!!!

– تيوس!

–....

هي تدثرت بالغطاء طبعاً، وأخذوها ملفوفة به إلى قسم الشرطة، حيث عذّبوها بالتحقيق بقية الليل في غرفة بيتونية رمادية اللون، أما هي، فكانت ترد على كل ما يقوله رجل ذي وجه قاس كثمرة جوز يابسة، بسؤال:

– أين فستاني؟

– أنت تعرفين أن المواطن كرينيتسين قتل أربعة أشخاص وسرق من الدولة ثلاثمئة وعشرين ألف روبل جديد.

هي لم تكن تعرف من ذلك الكرينيتسين، وتريد أن تعرف أين فستانها.

– سيحكمونه بالإعدام، – تابع المحقق كلامه – سيعدمونه.

– أنا لا أعرف كرينيتسين، – قالت بلهجة شاكية. أنا لا أفهم ماذا يجري؟

– فلنسمه سيفيرتسيف، إذا كان ذلك يريحك، أو أي اسم آخر قدّم نفسه به.

– يعدمون من؟ – سألت يولكا وقد انتبهت فجأة.

الرجل ذو الوجه الشبيه بثمرة الجوز اليابسة، نظر إليها طويلاً، ثم أدرك فجأة أنه يعذب هذه الفتاة ذات الشعر الأحمر والعينين الشفافتين عبثاً، فهي لا تعرف شيئاً عن هذه الحياة. وأحس

فجأة، وهو القاسي الذي لا يعرف العواطف، بالشفقة على هذه البنت الجميلة الخائفة التي تكاد تصاب بصدمة نفسية...

– ليتك تجدين عملاً!

– أنا أعمل...

– أين؟ – سأل المحقق مندهشاً.

– في «داح».

– «داح»؟

– في دار الإذاعة الحكومية، – قالت موضّحة.

هزّ كتفيه محتاراً.

– أنا أعمل محررة موسيقية، – قالت تشرح له الأمر.

– ظننت أنك – قحـ... – صمت قبل أن يتم الكلمة. – حسناً، ظننت أنك بلا عمل...

– أين فستاني؟...

أخذها النقيب في جهاز أمن الدولة أنطونوف من بتروفكا[4]

حين أوصلها إلى المنزل كانت الشمس تشرق على موسكو.

التقت كاتيا الفيلية بهما في الممر فدمدمت بعبارات حول أخلاق الكومسومول، لكنها بعد أن قرأت في البطاقة المدسوسة تحت أنفها أحرف «ك. جي. بي» خافت وشعرت بسريان فزع حيواني في كل جسدها، بل إنها انحنت مرتبكة مرتين وهي تقول: «أهلاً وسهلاً!».

النقيب أنطونوف ويولكا لم يقولا شيئاً. جلسا ببساطة صامتين متقابلين على كرسيين من طراز نمساوي قديم، هو كان يتأملها، أما هي فأطرقت تتأمل الأرض بنظرات خالية من المعنى. حملها بعد ذلك بين ذراعيه ومددها، وهي مستسلمة على الديوانة، وضاجعها مرتبكاً، من دون تباطؤ أو استعجال، ومن دون أن يلاحظ أنها باردة ببرودة الشمع، أو يشتمّ خيشوماه رائحة الرجل الآخر الذي كان معها قبل بضع ساعات. قبّل جسدها الأبيض، واستخدمها كزوجة عاش معها أعواماً كثيرة...

الجنين الذي شاهد كل الأحداث التي جرت، كما لو كان يشاهد فيلماً سينمائياً محبوكاً بشكل جيد، لم يبق لا مبالياً فلسفياً في موقفه من حالة النقيب أنطونوف. أن يطلق باشكا سيفيرتسيف

الصواريخ في فضاء الأم، أمر مفهوم، فهو أبوه على كل حال، أما قيام أفلاطون بتعكير كون الأم الصغير بطلقات لا معنى لها، فأمر آخر مختلف.

مضاجعة أنطونوف لها اقتربت من نهايتها. كان يتنفس بسرعة لكن بانضباط، وقد مطّ فكه السفلي إلى الأمام. تلك كانت إحدى العادات التي يتميز بها.

ارتعش جسدها فجأة بسبب المغص، فظن أفلاطون أنهما سيبلغان ذروة المتعة معاً، لكنها انزلقت من بين يديه، وانقلبت على بطنها وتقيأت على الأرض طويلاً – طويلاً.

النقيب أنطونوف الذي لوّث شراشف السرير عبثاً، شعر بالإهانة وعدم الرضا، وراح من دون تعاطف، ينظر إلى جسدها كيف يلفظ البقايا غير المهضومة من الطعام الصيني الرديء الذي أعدّه طباخون محليون بملامح كازاخية. إنه، على كل حال، كان يعرف كلّ «المطبخ» في المطعم الصيني.

قالت له وهي تكاد تختنق بموجات الإقياء:

– هذا ليس بسببك... أنا أموت...

طبعاً قال الجنين في سره. – بسبب من إذن؟

واستمر يفرز ميليغراماته السامة، وقد انتابته رغبة في ألّا يحس في داخلها، إلى جواره، بأي عضو غريب منتج للأطفال. يا للمسكينة! المغص والغثيان يمزقان أحشاءها، وجسدها كله يتلوى ألماً.

لقد أتيحت لأفلاطون مشاهدة جسد المرأة بكل واقعية مظهره. رأى جسد المرأة حين لا يهتم مطلقاً بنظرات العين الغريبة. أدهشه في البداية أن هذه المرأة الشابة ظلت جذّابة حتى وهي تتألم جاثية على ركبتيها، مديرة له ظهرها، مستندة إلى الأرض بذراعين راعشين، متقيئة بقايا الطعام المنفرة.

كأن قدرة طبيعية تحمي جسمها في جميع الحالات من الظهور بأوضاع غير جميلة، أو قدرة تجعل أوضاع جسدها كلها أوضاعاً جميلة في جميع الأحوال. لكن أفلاطون الذي كان في البداية مندهشاً، شعر فجأة بهياج جنسي شديد جداً.

لم يكن يتميز بسرعة استعادته لقدرته الجنسية بعد الجماع الأول، أضف إلى ذلك أن الطرف الآخر كان في الحالة الراهنة يتألم يائساً. لكن أفلاطون أحس بجاذبية الألم التي لم يكن يحس بها من قبل، فأذهله قليلاً هذا الإحساس المرضي، غير الأخلاقي، غير أنه لم يستطع مقاومة الكيمياء المتفاعلة في داخله.

دس ضابط الـ[ ك. جي. بي] إصبعه الغبي في الخاتم الثمين من جديد، وهو يزداد هياجاً وقوة كلما ازداد إحساس المرأة بالألم.

وهكذا أدرك الجنين للمرة الأولى أن الأمور لا تسير دائماً كما يشتهي، وأن الكون ليس ملكه، رغم أنّه مقيم فيه ويتمتّع بكل حقوق الإقامة، وأنَّ أياً كان، حتى لو كان غريباً يستطيع أن يجول في فضاءات الكون سواء أراد الكون ذلك أم لم يرده أبداً.

– العنف هو النقيض الأهم لعالم الأشياء التي خلقها اللـه. هو لا يريد إزالة التناقض، فترك الأمور تجري على هواها. لم يبق له على المدى القصير سوى أن يبذل كل قواه ليصنع سماً يثأر به منها لسماحها بهذا الاقتحام الغريب.

هي أيضاً تغيرت مشاعرها تغيراً كاملاً.

في الحظة الأولى من اقتحام النقيب العنفي لجسدها أحست، إلى جانب هجمات الإقياء، بالحقد على جنس الرجال كلهم، لا سيما وأن الهجمة الذكورية اقتحمت مكاناً غير المكان الذي خصصته الطبيعة لهذا الغرض. وفي اللحظة التالية داهمتها هجمة إقياء جديدة، مؤلمة، إلى حد أن بصرها غامَ بسبب ارتفاع الضغط المفاجئ، ولم تعد عيناها تميّزان ألواح الأرضية تحت أنفها... وبعد خمس عشرة ثانية، داهمتها قوة هائلة لم تكن مستعدة أبداً لاستقبالها.

إنها نغمة النشوة الأخيرة سرت في جسدها وكأنها تنطلق من مفاتيح (بيانو)، ثم انغرست فيه كضربات مطرقة على سندان، فشعرت كأن أنهارا مؤقتة من الزمن اندمجت، وأن الزمن نفسه توقف، تاركاً في الجسد صدى النغمة الأخيرة.

أما أفلاطون أنطونوف فكان إحساسه بالأمر كله أكثر تواضعاً، إذا قيس بإحساسها، لكنه كان خارجاً عن المألوف تماماً بحسب مقاييس جملته العصبية. لقد كان كمن استعد ليطلق النار من مسدس عادي، فإذا به يتعامل مع سلاح جديد تماماً.

هو ظل فترة طويلة يرتجف بكل جسده، أما هي فغاب وعيها كليّاً عن هذه الدنيا... هكذا دخل النقيب في الـ (ك. جي. بي) أفلاطون أنطونوف في حياتها. لم يحمل إليها كومة من الورود الحمراء في الشتاء، ولا رزمة من النقود، وصلعة جميلة لمناضل ضد القيصرية، بل تسلّل من الباب الخلفي وهذا ما زاد في حلاوة لقائهما!...

لم يكن يبيت عندها، والأصح أنها لم تكن تسمح له بذلك. كانت خلافاً لعادتها سابقاً، تطلب منه بلطف أن يذهب، وذلك بعد دقائق تكون قد ملأت فيها الدنيا صراخاً من فرط اللذة، صراخاً يبعث الألم في فكيّ كاتكا الفيلية، ويجعل سي. سي يجهش بالبكاء ويحس بالشقاء، فيحاول تعزية نفسه، وهو يبتلع بحر دموعه، بالادعاء بأن الرحالة أمثاله محرومون دائماً من النساء.

كانت تقول له إنها لا تستطيع النوم مع أحد، وأن ذلك طبعها، فهي طول حياتها تنام وحيدة، وهذا الأمر لا يتعلق مطلقاً بالنقيب.

أما هو فلم يكن يناقشها أبداً، بل يغادر بعد أن ينظر طويلاً، طويلاً إلى عينيها الصافيتين، كأنه يبذل جهده كي يكتشف فيهما شيئاً ما... والحقيقة أن السر كان يكمن في ذلك بالضبط.

لقد كانت يولكا تعاني من الازدواجية في مشاعرها معاناة يائسة، فهي لم تكن تطيق رؤية سحنته[ الكيجيبية] لكن عقلها كان يغيب حين تغمض عينيها، فلا تنشغل إلا بترقّب لحظة الاقتحام.

الجنين لم يكن ينوي الاستسلام، لذلك استمر بتسميم دمها من دون رحمة، محولاً وجه المرأة الشابة من وجه متورد الخدين، ممتلئ بالحياة، إلى وجه مريضة بالسل غائرة الخدين.

كاسنكا، صديقتها الوحيدة في العمل، كانت تستفسرها دائماً عن أحوالها، وتنصحها باستشارة طبيب، لكن يولكا كانت ترفض ذلك دائماً، وتطمئنها بأن كل شيء على ما يرام، وأن ما بها ليس سوى كآبة خريفية.

بعد ذلك تترك صديقتها وتجلس إلى مكتبها، تجيب على رسائل المستمعين دون كلل، وتتعامل مع السطور التي نخرج من تحت يدها بمحبة وبكل ما تستطيعه من تعاطف، وبعد ذلك، تقوم بإعداد برنامجها الموسيقي «ما يطلبه المستمعون» مشاركة أولئك المستمعين معاناتهم وعواطفهم. مع من تراها كانت تتعاطف؟...

... ابني نيكولاي موجود في مستعمرة بسكوف... أسمعيه من فضلك أغنية من أغاني مسلم موغامايف...

... دعي جينتشكا، الفتاة الوحيدة التي أحببتها... تستمع، وهي هناك في السموات... إلى أغنية «هذه السماء الواسعة واحدة لنا نحن الاثنين»...

... شكراً لك يا يولتشكا! أنت تعدّين برامج جيدة تلامس القلب...

كان وجه باشكا سيفيرتسيف يظهر لها أحياناً في لحظات التوقف عن البث، وهو يطلّ من الفضاء بعينين حزينتين، وكانت تتخيل أحياناً أنه يسألها كأنه في الجحيم:

– وأنا، من سيرحمني؟

لذلك أقدمت فيما بعد على سؤال أفلاطون قبل المضاجعة:

– ماذا فعلوا به؟

– بمن؟ – سألها النقيب الذي لم يفهم السؤال وهو يعلق بنطاله بعناية على ظهر الكرسي.

– بسيفيرتسيف.

– لا أعرف عن مصيره شيئاً.

ضمها إليه بكل ما يملك من قوة. أما هي فشعرت بالغثيان مجدداً.

– اعرفْ! – قالت له بلهجة آمرة تقريباً.

– هل تحبينه؟ – سألها همساً بلهجة حذرة.

– أنا أحبك أنت، – كذبت بصعوبة.

– سأعرف، – وعدها. – كنيته – كرينيتسين...

تقلص الجنين بكل خلاياه التي باتت موجودة بعدد ملحوظ، شاعراً بكره شديد «لشجاعة النقيب» وشاعراً بقوة أكبر، بالنفور منها هي التي استبدلت حبها لأبيه بشهوانية شاذة، واستمر، وهو ما يزال مجهولاً، وبلا اسم، بالانتقام بقدر ما يستطيع، مرغماً يولكا على التقيؤ في لحظات مضاجعة أنطونوف بالذات، باثّاً في الأم إحساساً بأن سبب عذابها النقيب المقيت، وشهوانيته غير الطبيعية.

كان الجنين يدرك طبعاً، في مكان ما من أعماقه، أن هذا الشذوذ هو بالضبط ما يبقي والدته بالقرب من هذا الإنسان الغريب، لكنه لم يكن يقبله أو يهادنه، لذلك كانت يولكا تتقيأ بشدة، من أعماقها.

وذات مساء قال لها أنطونوف، وهو واقف في الباب يهمّ بالمغادرة:

– لقد أعدموه.

– ماذا؟ – هي في البداية لم تفهم ما قال، فذهنها كان منصرفاً إلى أفكار أخرى غير التي في ذهنه. – ماذا؟

– أعدموا صاحبك كرينيتسين... عفواً، سيفيرتسيف... أعدموه بعد ثلاثة أيام... – قال ذلك وخرج مغلقاً الباب خلفه. بعد ذلك غاب عنها ثلاثة أيام، أما هي فظلت طول هذا الوقت راقدة في السرير في حالة أقرب إلى الذهول، وقد غادرها الشعور بالغثيان في الصباحات.

رنّ جرس الهاتف بشدة. لكنها لم تكن تسمع شيئاً، لم تكن تريد أن تسمع شيئاً... أما الجنين فعانى اضطراباً كاد يخرجه عن طوره لشدة إشفاقه على أمه.

إنها تستحق ما يحدث لها، قال في سره، لكنه كفّ عن ضخ السم، وتابع التفكير بالأمهات وبالأمور الغبية التي تحدث لحاملات الكون هؤلاء. وبأنهن لو عرفن كل ما يشكّلنه لتحول عقلهن الأنثوي مع الزمن إلى عقل ذكوري، أما ما عليه الحال الآن فليس سوى آلام نسوية عقيمة!... الرجال يعون في دواخلهم أنهم حلقة غير ضرورية في سلسلة التطور، ولذلك فإن القشرة الرمادية لأدمغتهم تنمو أقوى وأسرع بكثير من القشرة الرمادية عند النساء. وكل هذا من أجل هدف واحد – هو الرغبة في أن يعرفوا لماذا هم غير ضروريين؟ كيف حدث ذلك، وهم رجال العلم، والفن، والفلسفة، الذين يمنحون الوجود معناه، كيف وهم الشجعان لا يحتاجهم الكون في شيء.... حدث ذلك هكذا!... ولا تفسير للأمر!...

إنهم ما زالوا ينفعون للمباهج الفيزيولوجية، لعملية التفكير التي تحقق التقدم العلمي – التقني، فلا يرهق الكون نفسه بذلك. الجنس الذكري يعمل لتحقيق رفاه الكون، كما يعمل النمل لإرضاء ملكته. فإذا ماتت الملكة ماتت مملكة النمل كلها.

ظهر أنطونوف في مساء اليوم الثالث، قبيل الليل. قبّل رقبتها، هو الجائع، بنهم، أما هي فانتظرت حتى شبع من القبلة، التي باشرها كبعوضة حرمت من الدم نصف حياتها، ثم أبعدته بلطف عنها، وعن النافذة، التي أسندت ظهرها إلى حافتها وسألته:

– كيف عرفت ذلك؟

لم يفهم أفلاطون السؤال، فنظر إليها مندهشاً، وهو يتابع فك حزام خصره. لقد نحل جسده في فترة لقاءاته مع يولكا، هذا ما اضطره إلى إحداث ثقب جديد بالمسلة في حزامه المصنوع من الجلد الاصطناعي، وقد اتسع هذا الثقب الآن ولم يعد الحزام صالحاً للاستعمال.

فهم السؤال.

– يبدو أنك نسيت أين أعمل.

– لماذا أعدموه بهذه السرعة؟

– وما الذي يدعوهم إلى الإبطاء؟ ثلاث جرائم قتل... – كوّر حزامه كالحية ووضعه فوق خزانة الأواني الواطئة. – أتريدين أن تعرفي كيف قتلهم؟

– لا أريد، – أدارت وجهها نحو النافذة. نظرت إلى قبة الكنيسة الخضراء، محاولة ألّا تسمع كلامه.

لكنه كان بحاجة إلى الكلام.

– لقد أطلق النار على عين أحد الحراس فأحدثت الطلقة ثقباً كبيراً في رأسه بحجم قبضة اليد! وأصاب بطن الثاني الذي كان قد انتهى من غدائه قبل خمس دقائق... لقد تعذّب المسكين ساعتين قبل أن يغادر إلى العالم الآخر...

صمت أفلاطون، متعمداً الانقطاع عن الكلام فترة، منتظراً سؤالها. أما هي فسألت مصادفة:

– وماذا حل بالثالث؟

– الثالث؟... – نزع النقيب سرواله العسكري الأزرق، ثم طواه بعناية ووضعه على مقعد الكرسي. اقترب منها، وطوّق خصرها، ومرر يده على أسفل بطنها، فأثارت هذه الحركة فيها

كرهها لنفسها، ارتجفت بكل كيانها، لكنّ الجزء الأسفل من جسدها راح يعيش حياة مستقلة، متحمساً بعري النقيب، منتظراً الاقتحام بفارغ الصبر. – الثالث؟... الثالث، والأصح: الثالثة كانت بنتاً صغيرة في الرابعة عشرة من عمرها... كانت تسير بالقرب من المكان... – أصابها بمهارة، ودخلت الطلقة وكأنها تدخل في سلاح مشحّم تشحيماً ممتازاً.

– هكذا مصادفة؟ – سألته يولكا وهي تشعر كيف يزحف الغثيان إلى حنجرتها.

– كان هذا ضرورياً كيلا تتعرف عليه فيما بعد! الطلقة أصابت قلبها مباشرة. كانت وحيدة لأبويها اللذين لم تتح لهم فرصة التمتع برؤيتها شابة. والداها عاجزان. الأب يشكو من خلل في ساقيه، وعينا الأم لا تبصران تقريباً. – لكنهما أنجبا طفلة سليمة...

– يا لك من سافل! – أطلق الجنين شتيمته وهو يقصد بها الاثنين معاً: أباه وضابط الـ (ك. جي. بي)، الأول لأنه سبب ظهوره إلى الوجود، والثاني لأنه عنيف. لكن الأمر الأكثر طرافة هو أن الجنين حين سأل نفسه هل يتمنى لو أنه كان من إبداع الجنس النسوي، أي كوناً؟ أجاب بصدق – لا، لا، لا، ولا!!! هو يفضل أن يكون باحثاً على أن يكون موضوعاً للبحث!... إنه، حتى وهو في بداية تشكله، لم يرغب في أن يكون شبيهاً بأمه. «ذلك سيتيح لهم أن يغتصبوك، والأمر الأدهى هو أنك ستستمتع باغتصابك!.. شكراً، أنا لا أرغب في ذلك». إن دور النقيب في هذه الحالة، رغم قذاراته، أحب إلى الجنين، بل إنه يتعاطف بعض التعاطف حتى مع أبيه المقتول، الذي خلق قاتلاً. ليس هناك ما هو أفظع من أن تكون كلبة شهوانية، في حين أن الإرادة الربانية منحتك الكون مكاناً!... لكن هذا ما فعلته أمه!

استجمع قوته وأفرز جرعة مثلثة من السم.

هي كادت أن تختنق.

– إنهم يطلقون النار ببساطة، – تابع النقيب كلامه، فهو يعرف أن هذه العملية تثير اهتمام الناس، الذين يختلقون شتى الحكايات حولها. – هم لا يسوقون المحكومين إلى مناجم الأورانيوم، ولا ينقلونهم بسيارات خاصة... يخرجونهم من الزنازين، ثم يقودونهم إلى قاعة خاصة، يديرون وجوههم إلى الجدار، ويتلون عليهم «باسم الاتحاد الروسي... العقوبة التي حددتها المحكمة... ثم يبدؤون التنفيذ»... يطلقون النار. ويحرصون على أن تصيب الطلقة نقرة المحكوم، كي يخف ألمه. بعد ذلك يشهد الطبيب على الوفاة ويحدد لحظة حدوثها...

في لحظة انتهاء أنطونوف من روايته، كانت يولكا تطلق الصرخات بأعلى صوتها، وكان سي – سي يسد أذنيه في غرفته، أما كاتكا الفيلية فكانت تنظر شاردة الذهن بوجنتين غائرتين إلى الكأس الذي وضعت فيه فكّها الاصطناعي... كانت يولكا تصرخ في يأس، وأفلاطون يتحرك في صمت، دافعاً فكه السفلي إلى الأمام.

– أين دفنوه؟

– المعدومون بالرصاص لا يدفنون! – أجاب بعد برهة، وقد عاد فكه البارز إلى وضعه الإنساني العادي. – بل يطمرونهم في حفر مجهولة! وأحياناً يحرقونهم...

هي لم تكن قادرة على النظر إليه، إنها تكره نفسها وتكرهه. هي تعرف لماذا تكره نفسها، لكنها لا تعرف لماذا تكرهه. يبدو أنها تكرهه لأنها لا تحبه.

– ماذا لو تبين أن ثمة خطأ في المحاكمة؟ – سألته. – ألا يحدث هذا أحياناً؟ أنهى ارتداء ملابسه وهو يعرف أنها لن تتركه يبيت عندها. كان بسبب ذلك يعدّها كلبة سافلة.

كان يدرك أنها تستغله، وأنه يستغلها، وهو لم يكن قادراً على تغيير ذلك الوضع. إنه، هو نفسه، متعلق، بها إلى حد المرض، يتعذب حين يكون بعيداً عنها، لكنه لا يستطيع فعل شيء تجاه ذلك. ولم يبق له غير أن ينتقم في أمور صغيرة. وهذا ما أخذ يفعله...

– بلى، تحدث أخطاء. تقولين إنه كان سائق جرار في الأراضي البكر؟... هل نظرت إلى يديه؟ إنه لم يمسك رفشاً في حياته، لم يمسك سوى رزم النقود وأرداف النساء!

أحس بوخزة في صدره وهو يقول هذه الكلمات، وارتفعت نسبة الأدرينالين في أحشائه وهو يتخيل ردفيها بين اليدين المقلمة أظافر أصابعهما.

لقد حان، على كل حال، وقت وداعها له، لكنّ ساقيها لم تكونا تقويان على حملها. جرجرت قدميها مستندة إلى الجدار، ثم أسندت رأسها إلى مشعّ التدفئة، وبكت للمرة الأولى في حضوره. تذكرت أصابع باشكا.

وقفت حمراء الشعر، شاحبة عارية كالقمر...

كلبة سافلة!!! شتمها في سره وفي داخله يغلي الأدرينالين. لكنه استطاع أن يحافظ على صمته، ثم قال بصوت خافت «إلى اللقاء» وخرج مسرعاً.

في صباح اليوم التالي دخلت كسانكا شقة يولكا الجماعية من دون موعد. ألقت، وهي في طريقها إلى غرفة صديقتها، نظرة متعالية على سي – سي، الذي سمى صديقة جارته سمكة (سيلد)، وكان دائماً يريد أن يسألها عما إذا كانت قد لعبت «كرة السلة» مع الرجال، لكن خجله الطبيعي لم يسمح له بذلك. أما كاتيا الفيلية فشبهت صديقة يولكا بمبسم سيجارة طويل من النوع الذي يستخدمه الفرسان البيض. هي نفسها لم تكن تعرف لماذا تنسب المبسم إلى الفرسان البيض. لكنها كانت متأكدة من أنه لا ينتسب إلى الفرسان الحمر.

الملامح الأنثوية كانت قليلة في كسانكا، بل تكاد تكون معدومة – إنها نقيض يولكا الكامل. صوت شكيليتينا (باص) شوهه التدخين، وليس فيها من خلف أو من قدام ما يلفت النظر... الشيء

الوحيد الذي كان يعجب كاتكا الفيلية في كسانكا هو الخواتم التي في أصابعها. إنها خواتم كبيرة الكتلة، تزينها أحجار كبيرة خضراء ولازوردية. هي أيضاً تمنت أن يكون عندها مثلها... وكاتكا، بالإضافة إلى ذلك، تعرف أن لدى كسانكا صديق اسمه تشارمن – قد لا يكون ذلك اسمه بل مجرد لقب أطلقوه عليه – رأته مرة– ، لكن اللقاء كان قصيراً... إنه رجل من النوع الذي يعجبها – قامة معتدلة، وعينان سوداوان نفّاذتان، وشعر أسود مثلهما، تزينه خصلات متموجة شيباء، وأنف كأنوف الأرمن أو اليهود. كان مظهر هذا التشارمن يوحي بأنه قوي البنية، حاد المزاج. يومها جاء إلى عيد ميلاد قديم ليولكا. لم يكن يتأبط ذراع كسانكا، بل كان يمسك مقدمة كتفها بأصابع يكسوها شعر أسود، كما لو كان يمسك برقبة غزال كي يمنعه من الحركة، وكان ثمة خاتم رائع في أحد أصابعه، تغطي قشرة من الذهب جزءاً من الذهب الحجر الذي يزينه...

– مرحباً، – صاحت في الممر كسانكا.

سي – سي لم يسمع التحية، أما كاتكا فردت عليها باقتضاب.

– نبهيها ألّا تصرخ في الليالي! صراخها يصل حتى المئة كلو متر الأولى!

تشكيلتينا لم تعر كلام كاتكا أي اهتمام، أدارت رأسها ودفعت باب غرفة يولكا السميك.

كانت يولكا راقدة في سريرها الذي فقد رونقه، وقد ثبتت عينيها ناظرة إلى السقف المحتفظ بزينته من زمن ما قبل الثورة.

لم توبخها كسانكا، ولم تدعها إلى التماسك، بل قالت لها، ببساطة، بصوتها (الباص):

– احكي لي!

فحكت لها كل شيء بصوت خال من العواطف

حدثتها، من دون سبب واضح، عن المقدم ذي العين الزجاجية الزرقاء، وعن باشكا الذي أعدموه، وعن ضابط الأمن أنطونوف. إنها معه تتقيأ من شدة النشوة، وهذه حالة لم تعرف مثلها من قبل.

كسانكا دهشت قليلاً حين سمعت هذا الكلام، فعلاقاتها الجنسية كانت خالية من مثل ذلك، لكنها أخفت دهشتها.

– إنه يعمل في الـ (ك. جي. بي)، – قالت يولكا موضحة لها الأمر.

– يا فرحتي، – قالت كسانكا مستهجنة، وأشعلت سيجارة طويلة جداً من نوع يافا – 100، فملأت الغرفة في ثوان بغمامات دخان اخترقت بياضه في الحال أشعة الشمس التي تسللت من وراء قبة الكنيسة الخضراء.

وبفضل مذاق التبغ، ورائحة جسد كسانكا النظيف، الممتزجة برائحة عطر فرنسي ليس واضحاً كيف حصل عليه تشارمن، وشعاع الشمس، شعرت يولكا فجأة ببعض الراحة، بل إنها ابتسمت أيضاً، لكن هجمة من التقيؤ أرغمت جسدها على التقلص، فشعرت بمعدتها تنقلب ظهراً على بطن.

راقبت كسانكا عذابات صديقتها بهدوء سمكة (سيلد) مملّحة جيداً.

لقد كان سي – سي محقاً... فقد ظلت تدخن، دخنت ثلاث سيجارات كاملة... وفي هذه الأثناء استعادت يولكا هدوءها، فرقدت فوق الوسائد المدعوكة وراحت تتنفس من فمها بصعوبة.

– هيا بنا! أمرتها كسانكا.

– إلى أين؟

شفتاها شاحبتان، وفي عينيها دموع.

– هناك ستعرفين!

لم تكن يولكا تقوى على المقاومة. ألبستها كسانكا جوربيها بمهارة، وثبتتهما جيداً على خصرها... وألبستها الكنزة على جسدها العاري... والتنورة، المدعوكة قليلاً... والحذاء...

وفي الشارع كان تشارمن ينتظرها، تحسباً لكل طارئ، في سيارة «بوبيدا» نظيفة حتى اللمعان.

– خذنا إلى رافيكوفيتش! – أصدرت كسانكا أمرها الثاني، بعد أن جلست مع يولكا على مقعد السيارة الخلفي اللين،

– طبعاً، – وافقها تشارمن، من دون أن يلح في التفاصيل.

انطلقت بهما السيارة في موسكو الصباحية، وهما تستمعان إلى صوت الراديو، الذي تعملان فيه معاً، يبث البرنامج الصباحي المبهج «صباح الخير!»، وتأملان أن يكون الصباح خيّراً وبهيجاً فعلاً، وأن ينتصر شبابهما على كل المصاعب! المقصود، على كل حال، هو شباب كسانكا ويولكا، أما تشارمن فلم يكن في الحسبان، لأنه هو نفسه، كان يحسب لكل شيء حسابه.

كان رافيكوفيتش طبيب أمراض نسائية خاص، لا يفتح باب عيادته إلا لمن يدقه بطريقة خاصة ويعرف كلمة السر «غيبوكسيا بلودا» المنحوتة من كلمتين لا يعرفهما الكثيرون.

لم تصطحبا تشارمن معهما، وهو أيضاً لم يكن يسعى أبداً للالتقاء برجل له أنف يشبه كثيراً أنفه.

همست كسانكا عبارات قليلة في أذن الخبير السري في الشؤون النسوية. فأحنى رافيكوفيتش رأسه مرتين دلالة على الموافقة، ثم ابتسم بمتعة ابتسامة عريضة كاشفاً صفاً من الأسنان الرائعة. أحد معارف طبيب النسائية هذا، كان طبيب أسنان عالج طبيب النسائية زوجته في البيت، وحصل مقابل ذلك على فم رائع.

– الأماكن التي تعالجها في عملك، – قال طبيب الأسنان باسماً وهو يفتّل مرآته، – والأماكن التي أتعامل معها في اختصاصي متشابهة جداً!

– وهي في حالات كثيرة تقوم بالعمل نفسه! – قال رافيكوفيتش، مدعّماً نكتة صديقه.

لا شك في أن يولكا زارت طبيب الأمراض النسائية أكثر من مرة في حياتها. لكن الزيارة كانت تتم دائماً في مستوصف الحي، الذي كان من إيجابياته المريحة أن الطبيبة المعالجة فيه امرأة، لكن المقعد المغلف بجلد اصطناعي بني اللون حفّته مؤخرات آلاف النساء، وحلقتي تثبيت السيقان اللتين تساقط طلاؤهما، والأهم من ذلك، المسبار الفظيع المنظر، والبارد برودة خارقة، وكأنهم وضعوه خصيصاً في غرفة للتبريد... كل هذا كان فظيعاً لا يطاق.

للطب النسائي عند رافيكوفيتش شكل آخر. فعلى جدران العيادة لوحات كلها تجريدية، غريبة الشكل، وثمة زهور برية في أصص فخارية، تجعل بخضارها المتنوع، عيادة الأمراض النسائية شبيهة بالمكان الذي ينطلق منه رواد الفضاء للصعود إلى صاروخهم.

أما المقعد فجديد تماماً، وغلافه ليس من الجلد الاصطناعي، بل من الجلد الطبيعي النفيس.

– لماذا؟ – سألت يولكا باستغراب صادق.

– هذا لن يضرّ! – أجابتها كسانكا بلهجة لا تقبل النقاش.

– لكنني – سليمة!

– اجلسي!

رافيكوفيتش لم يفهم تماماً ماذا يجري، لكنه اعتاد على حدوث شتى الحالات في عيادته، لذلك ظل ينتظر بهدوء.

– هذا غباء! – قالت يولكا معترضة.

– أنت تقيأت جسمك كله!

– لكني لست مصابة بالسفلس!

– سنرى!

قطّب رافيكوفيتش حاجبيه، فهو يعرف كاختصاصي أن مريض السفلس لا يشعر بالغثيان حتى في المرحلة الثالثة من مراحل المرض، ويعرف، كمختص، أن المرأة لا تصاب بالغثيان إلا في حالة واحدة.

كلمة «سفلس» أخافت يولكا قليلاً، فكفّت عن المقاومة. لكنها شعرت بالخجل من رافيكوفيتش، وهي تعرف أنها ستجلس كالدجاجة أمام رجل لا تعرفه، وأنه سيتفحص عضوها النسوي، فغطت، من دون قصد، أسفل بطنها بكفيها.

– أنا هنا – لست رجلاً! – قال رافيكوفيتش مبتسماً، وقد لاحظ خجل زبونته. – أنا – طبيب! وعندي، يا يمامتي، ثلاثون عاماً من الخبرة العملية، رأيت في خلالها من جمالات النساء، صدقيني، ما لا يراه من النجوم عالم فلك يرصد السماء بتيليسكوب. في الكون تتغير الأشياء دائماً، أشار بإصبع نظيف، وردي اللون، إلى ستارة قديمة الطراز، عليها رسوم زهور يابانية ملونة. – نعم، هناك تستطيعين إعداد نفسك للفحص الطبي...

استسلمت لطلبه، أما كسانكا فغمزتها مشجعة ثم خرجت من غرفة الفحص.

يدا رافيكوفيتش كانتا رائعتين. يداه لم تكونا يدي رجل ذكر، بل يدي طبيب فعلاً – لطيفتين، تتجاوزان بعناية المناطق التي قد يسبب لمسها أحاسيس غير سارة، ولا تلمسان تلك الأماكن التي لا علاقة لها بالفحص الطبي.

المسبار كان دافئاً، حرارته تعادل حرارة الجسد، لذلك هي لم تشعر تقريباً بإدخال المرآة إلى رحمها، وبعد خمس دقائق كانت تجلس مسترخية تماماً تجيب على أسئلة طبيب الأمراض النسائية المعتادة.

هي نفسها دهشت من عدم خجلها أبداً من هذا الرجل الغريب، الذي كانت تجيبه ببساطة عن أكثر الأسئلة حميمية: متى كان الحيض الأول، وأي أيام الحيض صار أكثر إيلاماً بعد أن فقدت عذريتها، وما هي الأمراض التي أصابتها؟... أجابته بصدق عن أسئلته كلها.

– أنت حامل يا يوليا إيلينيتشنا!

الجنين الذي كادت مرآة المسبار النسائي تلامسه أراد أن يصرخ فزعاً، رغم أن البداية الفلسفية الساطعة التي فيه، حاولت أن تخبره أن الأمر، حتى لو كان إجهاضاً، لا يعني غير اقتراب لحظة الانتقال من شكل إلى شكل آخر من أشكال الوعي. وليس هناك ما يدعو للذعر. الجنين الضئيل الحجم كان يعرف ذلك كله، لكنه عانى من ذعر واضح، وأراد أن يضخ سموماً يدافع بها عن نفسه، غير أن الخوف حرمه حتى من الوعي.

أما هي فأذهلها ما سمعته.

– هل تشعرين بالغثيان؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

– يمكنك أن ترتدي ملابسك، – قال لها الطبيب.

ظلت جالسة في مكانها كالمشلولة – فاتحة فمها، متشبثة بكرسي الفحص النسائي، كأنه ليس كرسياً طبياً، بل أريكة عائلية جلست عليها جداتها وجدات جداتها اللواتي أُخبرن أنهن حوامل.

– هل تفضلين الإجهاض – سألها الطبيب.

أغلقت فمها، وضمت ساقيها العاريين.

– أم أننا سننجب طفلاً؟

– نعم، – أجابت يولكا.

– نعم للإجهاض، أم نعم للإنجاب؟

– طبعاً، طبعاً...

انسلت إلى ما وراء الستارة، ارتدت ملابسها بدقيقة، ومشت إلى غرفة الاستقبال، حيث كانت كسانكا تنشر دخان سيجارة اليافا العملاقة.

– حسناً، هل صديقتي حامل؟

– آها، – أجابت يولكا ثم ابتسمت فجأة بكل وجهها، ابتسامة مشرقة جعلت كسانكا تبتسم أيضاً.

– هل على الأقل، تعرفين من أبوه؟

– آها.

بعد ذلك أخبرهما رافيكوفيتش أن عمر الجنين اثنا عشر أسبوعاً تقريباً. وأدرك من تعابير وجهيهما أن الحديث عن الإجهاض غير وارد، لذلك أعلن أن من دواعي اعتزازه أن يشرف على حمل هذه السيدة اللطيفة جداً، وزوّد يولكا عند الوداع بحبوب من صنع أجنبي، قائلاً لها إنها لن تشعر بالغثيان بعد الآن. وقد حصل هذا الطبيب الذي يعمل سراً، على مغلّف من كسانكا فيه ورقة نقدية بنفسجية اللون بقيمة خمسة وعشرين روبلاً، مقابل كل ما قدّمه من خدمات...

في طريق العودة لم تتوقف يولكا عن الابتسام، كأنها نجت من موت محقق.

– ما الذي يبعث في نفسك كل هذا الفرح؟

لم تجب على سؤال كسانكا، أنزلت زجاج نافذة السيارة قليلاً، ووضعت وجهها المصطبغ بالحمرة في مواجهة الريح، وزمّت عينيها اللتين غمرتهما الشمس، وراحت تستنشق الهواء بنهم...

– يا للمجنونة! – قالت كسانكا ساخرة، وأحنى تشارمن رأسه الذكي مؤيداً ما قالته.

ركضت يولكا صاعدة السلم إلى شقتها الجماعية في الطابق الرابع، أما كسانكا التي لم تفقد عقلها، فاستخدمت المصعد.

– من أبوه؟ – سألتها وهي تأخذ نفساً طويلاً من سيجارتها، بعد أن جلستا متجاورتين فوق الديوانة ومددتا سيقانهما عليها.

– لا تدخني من فضلك، – طلبت منها يولكا.

– آها... ولا تشربي! – ردّت كسانكا ساخرة، لكنها أطفأت سيجارتها. – أرجو ألّا يكون ذلك القاتل؟

– بل هو، اعترفت يولكا، ووجهها ما يزال مشرقاً بالفرح، – في ليلة رأس السنة. أبوه هو العامل في الأرض البكر!...

– هذا فظيع! – صرخت كسانكا فاردة ذراعيها. – ماذا لو ورث الجنين عن أبيه هذه الصفة! – تخيلت بعض الصور المحتملة في المستقبل، ثم صرخت بصوت أشد عزماً: هذا فظيع!

أما يولكا فبدا لها الأمر بسيطاً – بسيطاً. ودعت صديقتها بهدوء بعد أن وعدتها بأنها ستكون حذرة، وأنها ستأتي إلى العمل يوم الاثنين، وستأكل طعاماً صحياً، وما شابه ذلك...

بعد ذلك انهمكت في العمل. نظّفت الغرفة حتى اللمعان، وغسلت شراشف السرير، واستدعت عامل الصحية والمتخصص في تنظيف ودهان الأرضيات، ورجتهما أن يجيئا اليوم حتماً، وبعد أن تم إصلاح كل شيء، فلمعت الأرضية بقشرتها الجديدة، وسال الماء من بالوعة الحمام كالشلال إلى المجاري، استحمت، وظلت طويلاً راقدةً من دون نوم، تمسّد بطنها الذي لم يعد ملكها وحدها، بل أصبح أيضاً المكان الجغرافي للكائن الذي ولد فيه.

توجهت، وهي في هذه الحال، إلى الجنين للمرة الأولى:

من أنت؟ – سألت في سرها. – أبنت أم ولد؟

من أنا؟ – استنكر الجنين سؤالها. – رجل أنا...

إنه ولد ذكر على الأرجح، – قررت هي من دون سبب واضح.

امرأة فطنة.

نعم، ولد ذكر بالتأكيد. سيشبه أباه... سيفيرتسيف... أم كرينيتسين؟... سيفيرتسيف.

هكذا نشأ بينهما تواصل من دون كلام. هي اعترفت به ابناً. وهو لم يبق أمامه خيار غير الاعتراف بها أماً له.

شعر فجأة، ثم رأى المختص بالجبال سي – سي يتسلل نحو الغرفة ويثبت نظر عينه السمكية. عين الخبير بالشلالات، على الثقب في قفل الباب.

إنها المرة الأولى التي يراها فيها المرشح للدكتوراه في العلوم عارية تماماً... خفق قلب العالم بجنون، وبدا كأن بطنه امتلأ برصاص سائل، وارتجفت ساقه اليمنى وتقلصت عضلاتها...

أرسل الجنين إلى أمه، عن طريق التواصل القائم بينهما، رسالة استغاثة SOS، يبلغها فيها أن الجار المحتال يستمتع برؤية جسدها العاري عبر ثقب المفتاح.

هي لم تكن قادرة، طبعاً، على سماعه، لكن شيئاً ما دفعها إلى الحذر، حدقت بباب الغرفة فرأت عين أحدهم تطل من ثقب المفتاح. لم تظهر أنها اكتشفت وجود المتلصص. نهضت متباطئة عمداً. عن الديوانة، وتمطّت بجسدها كله، الأمر الذي أحدث في جسد سي – سي هزّة خرّبت بنطال بزّته، ثم تحركت نحو الباب ببطء. اقتربت منه وفتحته بحركة حادة.

اصطدم رأس المرشح للدكتوراه في العلوم بالباب المفتوح صدمة قاتلة، لكن رأسه كان صلباً كصخور الجبال، وكل ما حدث نتيجة اصطدامه بقبضة الباب الحديدية أنه انقذف بعيداً، وارتمى على ظهره، وعيناه تدوران بجنون في محجريهما، ثم جلس على الأرض كالسكران.

– هل شبع نظرك؟ – سألته.

– نعم – نعم، طبعاً. – تمتم الجار بغباء في رده.

– لن أخبر أحداً، – اقترحت عليه يولكا. – لن أخبر أحداً إذا وعدتني بأن تنظّف وحدك الأرضيات والبالوعات.

– طبعاً، يا يولينكا، طبعاً!

نهض عن الأرض مرتبكاً، وهو ما يزال غير مدرك ما حدث إدراكاً تاماً.

– اغسل بنطالك! – قات تنصحه. – والأفضل أن ترميه في النفايات! هنا صحا سي – سي نهائياً من شروده، استوعب في لحظة ما حدث، فاحمرّ وجهه وخجل حتى أعماقه، فانطلق إلى غرفته بقفزات سريعة وواسعة.

– وابحث لنفسك عن امرأة! – همست يولكا في إثره.

في هذه اللحظة انفتح باب الغرفة الثالثة وخرجت كاتكا الفيلية مرتدية قميص نوم عتيق من الشيت، متجهة نحو المرحاض.

حين رأت يولكا العارية تقلصت قسمات وجهها وأطلقت شخرة من فمها الخالي من الأسنان.

– إيه، ها أنت طلّقت الحياء كلّه يا متهتكة!

اكتفت يولكا في ردّها عليها بابتسامة ثم أغلقت باب غرفتها.

جلست كاتكا في المرحاض أكثر من ساعة.

تذكّرت حياتها، نفسها وهي في الثالثة والعشرين، واعترفت بأنها آنذاك كانت جميلة مثل يولكا، وربما أكثر، لكنها ذبلت من دون أن تستمتع بجمالها، لم تعرف سوى رجل واحد، لم يترك لها من زهرة شبابها أي برعم، لم يترك لها سوى لون الفراغ... بكت قليلاً حين خطرت في بالها أفكار صعبة عن موتها ودفنها، وقررت أن جمعية دفن الموتى التي في الحي ستقوم، في أسوأ الأحوال، بدفنها، أما إذا سارت الأمور بشكل عادي، فستدفنها جارتها يولكا، فهي طيبة القلب، رغم أنها ضالة.

لقد كان هذا اليوم بالنسبة إلى يولكا، ثورياً في جميع جوانبه. أولاً – لأن أحدهم قرر أن تكون أماً، وهي وافقته من دون اعتراض، أضف إلى ذلك أن سعادة عظيمة غمرتها وهي تتقبل هذا القرار. وثانياً – لأن علاقتها القسرية بالنقيب أنطونوف انتهت. لقد كانت متأكدة تماماً من انتهائها.

في ذلك المساء نفسه، حين كانت كاتيا الفيلية تفكر بموتها المحتوم، جاء ضابط الـ (ك. جي. بي) إلى يولكا شاعراً بالحاجة إلى مضاجعتها نتيجة حب غريب، مرضي، مؤلم بحلاوته.

فتحت الباب وسمحت له بالدخول، واستقبلته بفرح واثقة بأنها ستشرح اليوم له الأمر كله، وأنه يجب أن يفهم.

– عليك بالإجهاض، – قال لها النقيب بلهجة آمرة تقريباً.

– أنا، حتى لم أفكر بذلك، – أجابته بلهجة خالية من العدائية.

– هذا شأنك.

مدّ أنطونوف يده، كالمعتاد، إلى بطنها، فابتعدت عنه.

– لقد قلت لك إن كل شيء انتهى!

– ماذا تعنين بكل شيء؟ – لم يفهم ما ترمي إليه.

– أنا أنوي الإنجاب من سيفيرتسيف، فلا تأتِ إلى هنا بعد اليوم من فضلك...

– هذا الشخص غير موجود، – قال النقيب وقد بدأ يغضب.

– طيّب، من كرينيتسين...

– وهذا غير موجود أيضاً. لقد دفن هذا الكلب الضال في حفرة من دون لوحة تدل عليها!

– هذا لا يهمني. المهم ألّا تأتي إلى هنا بعد اليوم!

قفز أنطونوف فجأة كالوحش، وحاول ثانية أن يمسك بها، لكنها تملصت منه، وجلست من دون أن تمكن أصابعه الجائعة من لمس الأماكن الحساسة في جسدها.

– لا تلمسني!

غير أن الغضب كان قد تمكّن منه نتيجة رفضها ومحاولته صيدها المخفقة، فالتمعت عيناه، وراح يتنفس بصخب عبر خيشوميه مطبقاً فمه.

– لا تقترب مني! – أنذرته مكوّرة قبضتيها.

قفز من جديد، وعض جلد عنقها، فحاولت ضرب أكثر أجزاء جسده إيلاماً، لكنها أخطأته وأصابت فخذه.

– كلبة، سافلة!! – فحّ، وهو يحس في جسده برغبة بركانية لا تساعد أبداً دماغه في عمله. – سأنهش لحمك!!!

كان أقوى منها جسدياً بالطبع، أضف إلى ذلك، أنه كان يعرف، بحكم اختصاصه، طرق المهاجمة التي استخدمها أوتوماتيكياً، فلوى يدها خلف ظهرها بيد، ونزع باليد الأخرى حزام بنطاله، ثم رفع رداءها المنزلي وثبته فوق رأسها، وصفع مؤخرتها العارية بكل قوته، ثم دسّ عضوه بوحشية في فضائها الأنثوي.

– لا تفعل... – قالت ترجوه.

أما هو فبلغ ذروة وحشيته، وقد أدرك بطرف وعيه أن هذا اللقاء بها هو لقاء الوداع.

تلك كانت المرة الأولى التي لم تصرخ فيها وهي بين يديه، ولم يتلوّ النصف الأسفل من جسدها ولم تسل منه العصارة الطبيعية – ظلت سلبية، تكرر مرة بعد مرة: «لا تفعل!».

أفقدته هذه السلبية، واللامبالاة بقوة ذكورته، وعيه تماماً، فراح يضرب نقرتها بقبضته ويكرر القول:

– هاكي... هاكي... هاكي...

أما هي فحاولت ألا تموت، وظلت حتى آخر لحظة تحاول الاحتفاظ بوعيها، لكن فلتر الوقاية احترق، وصارت «أنا» يولكا جزءاً من سماء الليل السوداء.

وخلافاً لما عليه حال الأم، لم يفقد الجنين وعيه، بل أخذ غضبه يتصاعد تدريجياً نتيجة الضربات المتكررة على جدار مأواه، لكنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء، لذلك راح يتوعّد أفلاطون بأنه لن ينسى فعلته، وأن ساعة الانتقام قادمة لا محالة...

استردت يولكا وعيها وتأملت مغتصبها الجاثي على ركبتيه، طالباً منها أن تسامحه.

كانت ترقد وهي تستمع إلى رجاءاته بلا مبالاة.

– سامحيني!... أنا نفسي لا أعرف كيف يحدث ذلك... أنا لا أستطيع العيش من دونك... أحبك...

كانت هذه أول مرة يلفظ فيها كلمة «أحبك»، ذلك ما جعله يشعر بأنه يحبها أكثر، فبدا كأنه شقّ صدره وأراها روحه الجريحة.

– لا بد أنك تحمل سلاح خدمة، – قالت يولكا ببرود.

– صحيح، – أجابها وقد أفرحه أنها قالت شيئاً. – أحمل مسدساً من طراز «آ– آ»...

– انتحرْ.

– ماذا؟

– سأسامحك إذا انتحرت...

همد دفعة واحدة. همس مرة أو مرتين «سامحيني»، ثم حاول أن يقبل شفتيها، لكنها أدارت وجهها عنه، فقبّل الفراغ...

كانت روح يولكا هادئة على الرغم من كل ما عانته قبل قليل، فقد كانت تعرف بالتأكيد بأن ما حدث لن يتكرر أبداً في حياتها، وكانت تحس بذلك، لذا أغمضت عينيها ونامت...

لم يذهب أفلاطون إلى منزله في تلك الليلة، وبدلاً من ذلك ذهب إلى المبنى الذي يعمل فيه، صعد إلى مكتبه في الطابق السادس.

فتح أنطونوف خزنة وأخرج منها رزمة من المصنفات.

المصنف الخاص بها كان الأقل سماكة، وقد كتب عليه: «مصنف يوليا إيلينيتشا لارتسيفا». فتح الصفحة الأولى وقرأ بضعة أسطر كان يحفظها عن ظهر قلب منذ زمن: الأب – مافتشانوف، ن. ف. – عقيد في سلاح الإشارة، طلّق زوجته مافتشانوفا، ن. ب، حين كان عمر ابنتهما عاماً واحداً. ثمة معلومات غير مؤكدة تفيد بأن الأم لم تستطع أن تغفر للعقيد النخبوي مغامرة جانبية صغيرة، وكانت، عموماً، محقة، لأن العقيد أعدم في النهاية بتهمة التجسس. أما هي فتزوجت عالم الحيوان لاريتسيف، ن. ن. الذي تبنى الطفلة التي كانت في الثانية من عمرها.

مسقط رأس يوليا لارتسيفا – مدينة أولان – باتور، في منغوليا، مكان خدمة العقيد الذي تم إعدامه. بعد ذلك عاشت الفتاة وأنهت دراستها المتوسطة في مدينة ماغادان، ثم أنهت دراستها الجامعية في موسكو، حيث تخرجت في كلية التاريخ في جامعة موسكو الحكومية. ثم عملت في «دار الإذاعة الحكومية» محرراً موسيقياً.

– توصيف موجز لشخصيتها–

متقلبة المزاج، لها علاقات مع عناصر مشبوهة اجتماعياً. صالحة تماماً لإعادة التأهيل...

تذكّر أنطونوف كيف تلقى توبيخاً لأنه فوّت فرصة تجنيدها لصالح المؤسسة، حين ماتت أمها وأبوها بالتبني في كارثة جوية، وهما يحصيان عدد الرؤوس في قطعان الوعول... كانت الصبية آنذاك تعاني من الضياع، تتنقّل مهتاجة من ملجأ ذكوري إلى آخر...

ويبدو أنها حازت إعجابه آنذاك... إلا أنه لم يستغل الفرصة المتاحة، فلم يجندها، ولم يقدم لها الحماية.

ظل ينظر إلى صورتها فترة طويلة، كان مظهرها في هذه الصورة التي التقطها هاو، يدل على أنها لم تتجاوز الثامنة عشرة... أما هو فسيبلغ الحادي والثلاثين في شهر أيار.

مع بزوغ الفجر أغلق المصنف، وأعاده مع غيره من المصنفات إلى الخزنة ثم أقفلها.

غطّس أفلاطون الريشة في الدواة ثم راح يكتب بعناية على ورقة بيضاء:

«سأغادر الحياة لأنني أكره النظام الاشتراكي الذي يسعى إلى أن يصنع من الإنسان»... هنا توقّف عن الكتابة وراح يفكر... بعد ذلك قرر أن يكتب ببساطة:

«سأغادر الحياة لأنني أكره النظام الاشتراكي»، ونقطة على السطر.

وضع توقيعه في ذيل الورقة وأرّخها، دوّن حتى ساعة كتابتها... هو لم يفكر من قبل بالموت أبداً. لكنه الآن يحمل المسدس «آ. آ» الأسود وتنزلق أفكاره باحثة في جسده عن أفضل مكان لإطلاق النار.

أطفأ أفلاطون النور، وراح يتأمل الصباح الذي أخذ يزداد قوة. كذلك راح الصباح ينظر إليه أيضاً...

الغريب أنه لم يتذكر أحداً، حتى أمه، بل لم يتذكر حياته أو حتى مقاطع من حياته... هو لم يكن يفكّر في أي شيء، ولا يتذكّر أي شيء. لقد كان في حالة غريبة تبعث فيه النعاس. عيناه مغلقتان نصف إغلاق، ويده تمسّد فوهة المسدس التي كانت تتوجه تارة نحو فمه، وتارة نحو قلبه...

جريان أنهار الدم في عروقه صار أكثر بطئاً كما لو أنه يوشك أن ينام... لقد كان باستطاعته أن يغفو والمسدس في فمه، لأن وعيه تخفّى بسبب الخوف في ذرّة صغيرة، تاركاً الجسد يطير طيراناً أوتوماتيكياً...

دقت أجراس الساعة في برج سباسكويه...

لا أحد يعرف كم انقضى من الوقت بعد ذلك، إلا الصباح الهادئ. الأرجح أن يكون ما مر من الزمن ساعة، وليس دقائق، لأن وعيه الذي اطمأن قليلاً، خرج من مخبئه وقرر أن يتساءل: «هل يستحق الأمر ذلك؟»...

في هذه اللحظة بالضبط ضغط الإصبع على الزناد. واندفعت الطلقة قذيفة صاروخية من السبطانة إلى داخل الأنف فحوّلته نتفاً، واخترقت الجمجمة عبر الجبين، فالدماغ، وقسمت الرأس إلى قسمين، ثم استقرت في السقف...

دفنوه من دون مراسم تكريم عسكرية، لكنهم راعوا في دفنه ما تستحقه المؤسسة من احترام.

رئيس أفلاطون المقدم درونين وجد على طاولة مكتب أفلاطون الورقة ملوثة بالدم بسخاء، بحيث يمكن أن يعدّها المرء ورقة نظيفة مصبوغة بلون الدم، غير أن أشكال الحروف المكتوبة كانت واضحة على قفاها، وقد استطاع درونين، حين قرّبها من المرآة، أن يقرأ بسهولة رسالة الضابط المنتحر...

لم يكن درونين ضابطاً غبياً، لذلك لم يخبر أحداً بما في الورقة المدماة من هراء، بل دعكها ودسها في جيبه، وحملها في نهاية دوامه إلى بيته حيث أعدمها في ظروف منزلية مريحة...

دهش المقدم درونين الذي أنقذ شرف أفلاطون أنطونوف، حين رأى في الجنازة أم مرؤوسه لأول مرة. كان يظن أنه سيرى امرأة ضئيلة الحجم، محنية الظهر، غير أنه رأى امرأة قوية البنية، مذهلة بامتلاء جسدها. كانت ترتدي معطفاً رقيقاً من الفراء الفاخر، طرفاه مفتوحان في مواجهة الريح، ينكشف تحته ثوب رائع من (الموهير) بفرضة عميقة. يداها كبيرتان تزينهما خواتم كبيرة، وتنتعل رجلاها القويتان جزمة يوغوسلافية بلا كعبين.

كانت تزم شفتيها المنتفختين اللتين لا تنقصهما الجاذبية، وما من شيء يدل على أنها إحدى المشاركات الرئيسيات في الجنازة سوى البودرة التي تغطي بطبقة سميكة الكدمات المزرقة تحت

عينيها من شدة البكاء.

درونين كان يعرف أن هذه المرأة عملت خمسة عشر عاماً في مهمة سرية في الولايات المتحدة... إنه لمعجز ألّا ينكشف أمر هذه المرأة ذات المظهر اللافت!... أتراها تعرف أم لا تعرف سبب انتحار ابنها؟... تأمل درونين وجها طويلاً، لكنه لم يجد جواباً عن سؤاله... لذلك هي نالت أربع مرات وسام «النجمة الحمراء»، أما أنا فلا أملك وساماً واحداً منها، قال المقدم درونين في سره وهو يفكر بعمله، شاعراً ببعض المرارة...

يولكا لم تعرف بموت أفلاطون أنطونوف، وهكذا ظلت حتى نهاية حياتها غير عارفة بموته...

# – 4 -

هرعت أنجيلينا إلى الحرب فور بلوغها الثامنة عشرة.

كوستيا، زميلها الذي صادقها ثلاثة أعوام، توسل إليها أن تمنحه جسدها كله، قبل أن يذهب إلى الجبهة!

طلب منها ذلك قائلاً إنه قد يموت في الحرب من دون أن يعرف القرب الجسدي من الأنثى.

هي كانت في ذلك الوقت بنتاً ناضجة تماماً، تعذبها في الليالي الخيالات الغرامية، لكن تلك الخيالات لم تتضمن كوستيا في يوم من الأيام، لذلك عرضت عليه جيليا صداقة روحية هي أقصى ما يمكن أن تقترحه امرأة لرجل مغرم بها.

لكنها في ذلك اليوم حين كان يبكي جاثياً أمامها على ركبتيه، لافّاً معطفه على أحد كتفيه، ومتنكباً بندقيته على الكتف الآخر، أدركت فجأة كم يتألم هذا الفتى، وكم يخاف أن يغادر هذا العالم إلى عالم آخر من دون أن يترك فيه أثراً.

لقد رأت جيليا فجأة أن رسالتها في الحياة هي أن تمنحه نفسها. وأدركت فجأة أن جسدها وروحها يمكن أن يكونا بوابة الجنة... وشعرت بأن كوستيك، زميلها في الصف، الفتى الذي كان ينتظر ساعات تحت نوافذ بيتها حالماً بأن يلمس يدها، ويحلم بأن يصبح في حياته مختصاً مهماً في مجال الفيزياء، لن يحقق شيئاً من ذلك، لأنه سيموت حتماً في هذه الحرب، بل تخيلت أيضاً أنه لن يدفن في قبر، لأن قنبلة ستمزق جسده وتنثره في أرجاء المعركة...

وبسبب الاعتقاد بأن الفتى سيموت ميتة مريعة، انفتحت أبواب الجنة فيها، فجثت على ركبتيها إلى جانبه، تفوح منها رائحة صابون ترابي. تملّكها هكذا، من دون أن يخلع معطفه، أو ينزل البندقية عن كتفه.

تألمت بسبب عدم مهارته، أضف إلى ذلك أنها كانت تمارس الحب للمرة الأولى، أما هو فكان يتابع فعلته ويسألها بلهجة يائسة:

– أتحبينني؟...

هي لم تكن قادرة على أن تجيبه بكلمة «نعم»، رغم كل محاولاتها قول ذلك.

لقد فعلت كل ما تستطيعه، مرة، واثنتين، وثلاث... كان يطلب منها في فترات الاستراحة أن تتعرى تماماً. وينظر إلى عريها بعينين زائغتين، كما لو كان يريد أن يرتوي بالمرأة مدى الحياة...

ثم جاء وقت الرحيل، فسألها من جديد وهو يقف في الباب وقد بدا أنضج سناً:

– أتحبينني؟

مسّدت خده الناعم وقالت له:

– أتمنى لك التوفيق يا كوستيك!

أنزل البندقية عن كتفه وضرب بأخمصها المشجب، مسقطاً على الأرض المعاطف والمظلات والقبعات المعلقة عليه...

بعد ذلك غادر، أما هي فظلت وقتاً طويلاً ترتجف بكل جسدها، وقد جلست عارية على الأرض الباردة، وهي تقول لنفسها إن مرحلة جديدة قد بدأت في حياتها اليوم، بل ربما لم تكن لديها أية حياة قبل اليوم، وما عاشته ليس إلا مقدمة للحياة...

مات كوستيك ميتة غبية تماماً. هو كان جندياً جيداً، ولأنه الجندي الحي الوحيد الذي بقي من الفصيل بعد المعركة، منح إجازة قصيرة يقضيها في البيت.

كان جسده يهتز في صندوق الشاحنة الصغيرة وهو لا يفكّر إلا بجيليا طبعاً، وبجسدها العاري، وكيف سيقبل ذلك الجسد، والميدالية على صدره تتأرجح تحت أنفها تماماً...

طيار قاذفة ثقيلة، ألماني لئيم تماماً، لم يجد هدفاً مناسباً لقنبلته النصف طن، لذا حين لم يبق في خزان طائرته من الوقود إلا ما يكفيه للعودة، ألقى القنبلة العملاقة على الشاحنة الصغيرة.

لم يقتصر الأمر على ضياع كل أثر لكوستيك، فالشاحنة الصغيرة أيضاً لم يبق منها سوى دوّاسة البنزين. لقد تحوّل كل شيء إلى ذرات تصاعدت نحو السماء ثم هطلت مع المطر فوق حقل شاسع مزروع بنباتات العلف...

جيليا علمت بأن كوستيك في عداد المفقودين من أمه التي أبلغتها الخبر برجولة، ومن دون دموع، وبدت واثقة من أن ابنها سيعود ذات يوم، وأنه في الأسر عند الألمان.

راحت الفتاة تهز رأسها موافقة الأم، مع أنها كانت واثقة من أن كوستيك لن يظهر أبداً.

قصّ لها الحلّاق زوتوف شعرها قصيراً كشعر الفتيان تقريباً، وبعد يوم توجهت ممرضة إلى الجبهة.

جيليا كانت تعرف، طبعاً، أن دورها في الحياة ليس أبداً معالجة الجنود الجرحى، وسحب أجسادهم من ساحة المعركة. لقد أدركت دورها حين منحت نفسها لكوستيك من دون حب وصارت آخر امرأة في حياة الجندي...

حين وصلت جيليا ليبيدا إلى الخط الأمامي حصلت على حقيبة رسم عليها صليب أحمر، وألف ابتسامة من الجنود، ميّزت بينها ابتسامة الملازم، – ابتسامة مرحة، بيضاء الأسنان، مشرقة، مشرقة جداً!...

حين نظرت جيليا إلى الضابط الشاب المتين البنية ابتسمت، هي نفسها، ابتسامة عريضة وبهيجة، ومع الابتسامة أغرمت بالضابط فولوديا بكل كيانها، حتى أدق مفصل في جسدها.

لقد عرفت أنها ستستسلم له عند أول فرصة مناسبة، لأنها أحست بأن فولودوتشكا لن يعيش سوى فترة قصيرة، وهي بوابة الجنة، آخر أنثى في حياة الجندي.

وكما هو مفترض، ركض كل منهما وراء الآخر في حرج أشجار البتولا، جدلا أكاليل من الزهور البرية، وتبادلا القبل حتى ازرقت شفاههما، وعرض عليها فولودوتشكا العاشق مرتبكاً أن تكون زوجته، فأجابته بأنها لا تستطيع!

– ألا تحبينني؟ – سألها فولودوتشكا وراح ينتظر الجواب بفزع.

– أحبك! أحبك! – أجابته. – أحبك حباً مستحيلاً! بقوة، حتى أني أكاد أجن!

– وإذن، لم لا؟ – سألها بإلحاح وحيرة.

– سأكون عشيقتك إذا أردت!

لم يعجبه هذا الاقتراح، غير أنها رجته ألّا يعود إلى الكلام على الزواج الحقيقي، ورفضت أن تقول شيئاً آخر في تفسير موقفها.

– فولودوتشكا، عش يومك، عش هذا اليوم من فضلك! – قالت راجية. – انظر كم نحن سعيدان لأننا الآن معاً!

أما هو، فكان يبني الخطط بلا كلل، كهيئة تخطيط الدولة. كان يتخيل طفلين بشعر فاتح، ولداً وبنتاً. ويمسّد بعد معانقتها بطنها، كأنه يقنع رحمها بإنشاء الحياة وإهدائه ما يحلم به قلبه الفتي.

لكن جسدها كان مشبعاً بفكرة قرب موت فولودوتشكا، ولذلك قرر تلقائياً عدم عقلانية إنجاب الأولاد والبنات في هذا الزمن، زمن الحرب الصعب. روح ونفس جيليا ليبيدا كانتا مهيأتين لرسالة أخرى راحتا تنفذانها بكل حرص وتخضعان لهذه الغاية جسد الفتاة...

استمر الحب بينها وبين فولودوتشكا حتى شهر تشرين الأول، أول ثلج على الأرض، وبدأت أنجيلينا ترى أن فكرة بوابات الجنة للجنود المعروفة ساعة موتهم، فكرة خاطئة، وأنها اخترعتها في لحظة غباء، وأن اللـه أعطاها حباً عادياً، حباً حلواً إلى أقصى حدود الحلاوة – «عاشا معاً سعيدين زمناً طويلاً وماتا في يوم واحد»!

هي حتى وصلت بسرعة إلى القناعة بأن تخبر فولودوتشكا بموافقتها على الزواج، وبقيت في الليل في مركز القيادة في الخندق، تضغط جسدها بجسده بكل قواها، كأنها تحاول أن تنغرس فيه، وكانت الكلمات الاحتفالية جاهزة لأن تطير إليه من شفتيها، حين شعرت فجأة ببرودة صدره. لم تهتم بذلك في البداية – راحت تدفئ صدره بقبلها وكفيها، لكن حين شرعت البرودة تزحف من قلب الرجل إلى صدرها، أدركت كلَّ شيء، فالتصقت به بقوّة أكبر محاولة إذابة صقيع الموت. في هذه اللحظة انطلق صاروخ إشارة فوق دشمتها، ولسبب ما، مسح فولودوتشكا وجهه بماء الكولونيا، وغادرها إلى الأبد.

كان الملازم فولودوتشكا يتقن أكثر مهمات الحرب رومانتيكية – كان ضابط استطلاع. وها هو ذا بعد نصف ساعة من انسكاب أسرته في جسد جيليا، يزحف ملتفاً برداء التمويه في الأرض التي يسيطر عليها العدو، يرافقه للتغطية رقيبان قويّا البنية. مهمتهم كانت «بسيطة»، وهي اختطاف (لسان) والعودة به. المهمة بسيطة لأن فولودوتشكا كان يتقن اللغة الألمانية إتقاناً تاماً، يستطيع بكلامه أن يجذب إليه الألماني، فيقوم الرقيبان بتقييده كالخروف، ثم يعودون بغنيمتهم إلى خندقهم.

في هذه الليلة قاموا بعملهم كالعادة.

كان الضابط الألماني شاباً فتياً مثل فولودوتشكا، وكان غير هياب، لذلك راح يبول مباشرة من فتحة الدشمة واقفاً منتصب القامة وبندقيته إلى جانبه، وهو يدندن بأغنية مرحة.

كان الليل في....

نهض وقال دعابة بالألمانية، كما لو كان صديقاً.

اقترب بسرعة وهو يبتسم ابتسامة عريضة لا يشوبها الخوف. وحين بدت المصافحة بالأيدي محتومة، وتأهبت عضلات الرقيبين لأسر الألماني، سحب هذا الأخير يده بسرعة كبيرة، فلم يفهم مقاتلو الاستطلاع ماذا حدث، ولماذا. سدّد الألماني رشاشه ورمى فولودوتشكا برشقة طويلة من الطلقات أطاحت برأسه عملياً.

الرقيبان ردّا عليه بإطلاق النار طبعاً، فغرس كل منهم في جسده ثلاثين طلقة، لكنهما ظلا حتى نهاية حياتهما بعد الحرب لا يفهمان تماماً ما الخطأ الذي ارتكبوه في تلك العملية.

أما الألماني المحتضر فتراءت له نتفاً من حياته في بلدة صغيرة في (ليتفا). هو يذكر جيداً كيف ظهر الروس في بلدته وكيف نشروا معهم في كل صالون حلاقة في البلدة كولونيا «شيبر»

السوفييتية. لقد كان يكرهها. وقد كره بشكل خاص أن يموت وخيشوماه يشتمان هذه الرائحة الروسية التي يكرهها.

إيخ يا فولودوتشكا، ما الذي جعلك تتعطر قبل العملية!...

سحب الرقيبان جسد قائدهما إلى مواقعهم طبعاً، ولكي لا يدفن في صندوق مغلق، قام الاثنان، دون أن يسمحا لأحد بالاقتراب من الجثمان، بتقطيب الرأس وتثبيته في مكانه من جسد القتيل، وقد استغرق ذلك منهما نصف نهار. بعد ذلك غطيا القطب بقميص داخلي، ثم ألبسا الجثمان سترة بياقة بيضاء، وتم دفن ذلك كله في الأرض على أحسن وجه.

تلا الدفن خطاب قائد الفوج أمام القبر البارد...

بكت جيليا بشدة، كما لو أنها تحولت إلى مطر خريفي يرافقه نشيج.

تعاطف معها المشيعون بصدق، حتى أن آمر الفوج ذا الصدغين الأشيبين، المخضرم الذي شهد الكثير، وضع عينيه في مواجهة الريح كي تجف دموعه.

وحين جفت دموعه نظر إلى العريف ليبيدا نظرة غير أبوية، نظرة مختلفة تماماً.

انتظر انقضاء أسبوع على الجنازة، استدعاها بعده إلى مقر القيادة.

هي لم تكن تعرف لماذا، أضف إلى ذلك أنها ما زالت متأثرة بموت فولودوتشكا، لذلك لم تميز في وجه العقيد أية ملامح، بل بدا لها كما لو كان ممسوحاً. وجاءتها كلماته كما لو كانت آتية من تحت الأرض، عبر حاجز من القطن.

أجلسها إلى طاولة من خشب الصنوبر البري. جاء ببعض المعلبات، وقالب من المرتديلا، ثم صبّ في كأسين فودكا من زجاجة تعود إلى زمن ما قبل الحرب، واقترح شرب نخب ضابط الاستطلاع.

شربت الفودكا، وأكلت المرتديلا، وروى لها العقيد بعض النكات، لكنها لم تضحك، فالحزن، على ما يبدو، أمات روحها.

بعد ذلك لمس العقيد بيده أصابع جيليا فأحست فجأة ببرد قاتل يخترق جسدها. كان جسدها كله يرتجف من الصقيع الذي لا حدود لبرودته، وهو يسري فيها عبر أصابع العقيد. اتضح المشهد فجأة لعيني الفتاة، فرأت أمامها وجه إنسان لم يعد شاباً، تنساب نظرته الذكورية على جسدها المشدود تحت السترة العسكرية، فقالت فجأة:

– سأكون زوجة مؤقتة لك في الحرب. أتريد ذلك؟

أراد العقيد أن يلومها على إهانتها له بهذا القول، لكنه خاف أن تنزلق البنت خارجة من حياته إن فعل، لذا أجابها بلهفة:

– أريد.

إنه، على الرغم من كونه رجلاً كهلاً، ظل، كما في شبابه، أستاذاً في إمتاع جسد المرأة.

لم تكن جيليا في أي وقت من الأوقات، تشعر بجمال جسدها كما تشعر به الآن. لقد صنع العقيد شيئاً جعل وعيها يحلّق طويلاً في فضاء بلا زمن، تعيش فيه، على الأرجح، روح فولودوتشكا. لكن جيليا كانت تنسى في هذا الفضاء الملازم الذي قتل، ولا تقوم بأي نشاط ذهني. كانت تعيش فيه بأحاسيسها الغريزية فقط.

أما العقيد تشودوف الذي كان ينهل من الجسد الشاب عصاراته، فاكتسب نضارة تزداد يوماً بعد يوم، لذلك عشق العريف في الخدمة الطبية، حتى العبادة، وصار يستدعيها كلما سنحت الفرصة.

الجنود في الفوج سمّوا جيليا «حثالة».

قبل فترة وجيزة كانوا جميعاً ينظرون إلى علاقة الحب بينها وبين ضابط الاستطلاع فولودوتشكا بتعاطف شديد، لكنهم الآن، حين صارت تمتّع العقيد بجسدها، أخذوا عند الالتقاء بها يديرون وجوههم بعيداً، عنها، كما لو كانت تفوح منها رائحة بول كلاب قديم.

حثالة!

هم، بالمناسبة، لم يكونوا يسيئون إليها مواجهة، وكانوا يحترمون احتراماً كبيراً قائد الفوج كرجل، ويفهمونه، لكنهم كانوا يحلمون بأن تخترق طلقة ما بين ساقي ليبيدا. يا لفظاعة هذه الكنية – ليبيدا!

إنها سم زعاف!

جيليا نفسها لم تلاحظ موقف الجنود منها، كانت تعيش في الفوج منعزلة عن العالم كله، لكنها كانت شجاعة في المعركة، وقد أنقذت من براثن الموت المحقق ما لا يقل عن دستة من المقاتلين، لكنهم لم يسامحوها.

حتى الجندي الفتي فاسيا فاسيلييف الذي كان الجميع ينادونه «فاسيلكا» راح، حين أصابته في المعركة قذيفة فقطعت ساقيه حتى الركبتين، يناديها وقد هاجته رائحة دمه:

– اسحبيني يا حثالة! أرجوك يا قحـ...ـة!

زحفت بين الحفر، كأنها لم تسمع الشتائم، متجهة نحو مصدر الصوت وهي تتمتم:

– أنا قادمة، يا حبيبي! اصبر!

فيما بعد، حين كانت تسمع بين أزيز الرصاص والقذائف فاسيلكا يكرر، وهي تسحبه: «حثالة»، «حثالة»، كانت تجيبه بلطف:

– اصبر يا شقيق روحي! لم يبق الكثير!

لقد أحست بالدفء ينبثق مع الدم من جسد فاسيليك، فأسعدها أن برودة الموت لم تخترق ذلك الجسد، وهذا يعني أن الفتى سيعيش، أما ساقاه... الساقان ليسا همّاً!...

بعد فترة طويلة، في المشفى العسكري كان فاسيليك يتخيل منقذته عارية، فيتلمس جسده بيديه وهو يتمتم بمتعة:

– أنا أحبك يا حثالة!...

صحيح أن ذاكرة الإنسان الروسي تمتد طويلاً، لكن، لكل شيء نهاية، الزمن يطوي حتى الذكرى السيئة... لقد غفروا لها شيئاً فشيئاً، علاقتها بالملازم، وقدّروا لها إنقاذها للجرحى وعنايتها بقائد الفوج، بل إنهم منحوها وسام «المجد» من الدرجة الثالثة مكافأة لها على أعمال الإنقاذ... لقد أدرك الناس بشكل ما، أنها لم تكن انتهازية في علاقتها بالقائد، فقرروا ببساطة أنها فتاة غير ناضجة الوعي، وكفّوا عن لومها.

هي لم تلاحظ أيضاً هذا التغير في علاقة الناس بها. عاشت على هواها، ترعى العقيد، ولا تستاء حين يدير لها ظهره وينصرف لقراءة رسائل زوجته. كانت لا تتمنى على زوجته الحقيقية، غير المؤقتة، إلا أن تكتب له الكثير من الرسائل الأكثر حناناً، وحباً، فمن يدري متى...

هذه الـ «متى» حلّت بعد شهرين وستة عشر يوماً. كانت ميتة قائد الفوج غريبة، وقد سمّاها بعضهم همساً ميتة ذات طابع غيبي.

في تلك الليلة مارس العقيد الحب مع الممرضة بحماسة مبالغ فيها. وكانت تتضح في عقله في كل دقيقة حب، رغبته في أن تذوب زوجته، وتتبخر في اللاوجود، وأن تصبح زوجته المؤقتة زوجة حقيقية دائمة.

لقد كان العقيد رجلاً ذا خبرة، ولذا كان لا يتسرع في تقديم العروض غير الناضجة. أنّ كأنما أصابه طلق بجرح، وفقد لبعض الوقت ضبطه لسلوكه.

فيما بعد ناما على ديوانة القائد العريضة.

في الليل أطلق الألمان رشقتين أو ثلاث من مدفع هاون. كان الإطلاق عشوائياً، لا يهدف إلا إلى تعكير حياة الخصم. القذائف سقطت بعيداً عن المواقع فلم توقظ أحداً من نومه...

في الصباح خرجت من الملجأ عارية إلا من السترة العسكرية. وقفت وساقاها العاريتان تلتمعان، تراقبهما العيون من كل المواقع. نادت أحد العناصر وأشارت له بحركة من يدها إلى الملجأ.

– ماذا تريدين؟ – لم يفهم الرقيب المتقدم في السن معنى إشارتها.

– إلى هنا، – قالت له بصوت بدا كأنه قادم من العالم الآخر، فشعر الرقيب بالقشعريرة تسري في جسده رغم أن الشمس كانت تغمره بأشعتها.

كان العقيد راقداً على الديوانة بوجه خال من الانفعالات، وكان مظهره يوحي بأنه نام نوماً هانئاً، لولا تلك القذيفة المنغرسة في صدره. القذيفة لم تنفجر، لكنها حطمت قفص العقيد الصدري، ومزقت قلبه. وما قيمة الحياة من دون قلب؟!...

استدعوا لاحقاً عناصر الهندسة، لكن أحد هؤلاء العناصر أخطأ فحطم انفجار القذيفة الدشمة وتناثرت أشلاء العقيد ومعه ثلاثة من عناصر الهندسة على الأشجار. فقام كل عناصر الفوج بجمع الأشلاء عن الأغصان.

بعد ذلك دفنوا الأشلاء ملفوفة بالعلم، وشرب كل منهم كأساً من الكحول في وداع العقيد، ثم قام بعض المتطوعين منهم بضرب جيليا ليبيدا ضرباً مبرحاً من دون إعلان سبب ذلك، وكان أكثر النشطاء في ضربها ذلك الرقيب المتقدم في السن، وقد تذكّر الرعب الذي انتابه حين سمع صوتها...

بعد هذه الحادثة نقلوا جيليا إلى فوج آخر، أما الرجال الذين تطوعوا لضربها فنقلوهم ليموتوا في كتيبة المعاقبين...

مكان خدمة جيليا الجديد كان إحدى الوحدات العسكرية السرية، لذلك كان لها، قبل أن تصل إلى قطعتها، حديث طويل مع محقق خاص:

– ما اسمك؟ وما كنيتك؟

– ليبيدا أنجيلينا.

– ما اسم أبيك؟

لم يكن المحقق يكلّف نفسه حتى النظر إليها. كان ينظر إلى الأوراق التي بين يديه، ويخط عليها إشارات (صح) و (زائد).

– أندريه.

– أنت، إذن، آ.آ.

– ماذا؟

الحرفان الأولان من اسمك واسم أبيك – آ. آ.

– هكذا بالضبط.

– انتسبت إلى الكومسومول في الرابعة عشرة... حسناً... لم تمارسي أي نشاط اجتماعي... لكن، لا، أنت شاركت في نشاطات الهواة... الرقص... وسام «المجد»... لماذا لم تنتسبي للحزب؟

هزّت كتفيها جواباً عن هذا السؤال.

– انتسبي! – نصحها المحقق – عند ذلك لن يضربك الرجال بأقدامهم!... بالمناسبة، لماذا ضربوك؟

في هذه اللحظة امتلأت روح جيليا برودة، كأنها بيت الثلج في البراد. نظرت إليه، وهي تحس بذهنها يتبلد.

– ستموت في الحرب، – قالت له رغماً عنها.

هنا نظر إليها المحقق باهتمام.

– أفهم من ذلك، – أجابها أنهم ضربوك لهذا السبب بالذات... لم تخفه نبوءتها، بل انحنى مجدداً فوق الأوراق، وراح يكتب شيئاً ما بعناية، وبقلم الحبر هذه المرة.

هي أرادت جداً، أن تصبح فرحته الأخيرة، لكن المحقق اعترف لها فجأة، وبرقة تكاد لا تلحظ في صوته، أن لديه زوجة جميلة، شابة، وأنها، على الأرجح، حامل وستنجب له وريثاً، فأدركت جيليا أنها ليست المرأة الوحيدة في العالم التي تمنح الحب قبل الموت، وأن المداخل إلى الجنة كثيرة جداً، كمداخل بيت النمل. وهذا شيء جيد...

– أنت رجل محظوظ! – قالت وهي تبتسم له بصدق، جعله يلاقي صعوبة في الصمود أمام انجذابه الشديد إلى هذه البنت الغريبة الأطوار.

لكنه صمد.

أعطاها تصريحاً، وأخذ منها تعهداً صارماً جاء فيه أن كل ما ستعرفه في مكان خدمتها الجديد، هو، اعتباراً من هذا اليوم، سرّ من أسرار الدولة، وأنها إذا أفشته، ستعاقب حتماً، بالعقوبة القصوى – الإعدام.

خرج المحقق من وراء مكتبه في وداعها، فإذا هو رجل ضخم الجثة في ظهره حدبة، نظر إلى عينيها باحثاً فيهما عما يشير إلى فهمها لسبب عدم وجوده على الجبهة، لكن بدا له أن الفتاة كانت تنظر عبره إلى أفق مجهول.

– الحدبة، – قال معتذراً ثم مدّ يده مودعاً. – إلى اللقاء يا انجلينا أندرييفنا.

وصلت جيليا بعد أسبوع إلى مكان عملها الجديد.

هي لم تكن في تولا من قبل. تجولت في المدينة كلها، مستقلة سيارة جيب. المدينة مدمرة تماماً. أما هي فكانت تمدّ رأسها من نافذة السيارة بين وقت وآخر، فتسأل السكان المحليين:

– من أين أستطيع شراء سماور في مدينتكم؟

المضحك في الأمر أنها لم تجرّب في حياتها مشرب الشاي المعدّ بالسماور. غير أنها الآن في تولا، وفي جيبها نقود.

كان المارة ينظرون إليها نظرتهم إلى مجنونة، أما السائق فكان يكرر دون كلل، أن السماورات لا توجد إلا في أماكن بيع الأدوات المستعملة، وهذه بعيدة! لقد أمروه أن يوصلها بأسرع ما يمكن إلى قرية جوتسكي في الضواحي، وها هو ذا يسوق سيارته، يسوقها، ولن يعود إلى المدينة قبل حلول الليل!

قبيل المساء وصلا إلى تلك القرية التي تحمل اسماً (غوغولياً)[5]، حيث تتمركز قطعة جيليا العسكرية الجديدة.

المخيم العسكري محاط بالأسلاك الشائكة وعلى امتدادها جنود وكلاب تنبح.

في اللجنة الأمنية دققوا طويلاً وثائقها ثم قادها الضابط المناوب إلى أركان القطعة.

استقبل نقيب، كما تشير الرتب على الكتفين، العريف ليبيدا، غير أنه لم يكن يضع على زيه الرسمي أية إشارات تدل على السلاح الذي ينتمي إليه، لذلك كانت معرفة ذلك مستحيلة. وهذا طبيعي في قطعة سرية.

هنا جرت الأمور بسرعة.

أبلغها النقيب أن عمل هذه القطعة هو التنصت، وأن مهمتها هي التقاط كل إشارات الراديو الممكنة الصادرة عن العدو، كما أبلغها أيضاً أن قطعتهم ليست وحيدة، بل هي جزء من تشكيل آخر.

– هل سمعت ببطاريات الصواريخ؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

– نحن نحمي هذه البطاريات من العدو... هل تعرفين كيف يعمل الرادار؟

– لا، أبداً.

– كم كانت علامتك في امتحان الفيزياء في المدرسة؟

– خمسة، العلامة التامة.

– علم الرادار غير موجود في الفيزياء المدرسية، – قال النقيب مبتسماً. إنه علم جديد تقريباً، سري...

– وما علاقتي أنا بذلك؟

– سنقدمك إلى الرئيس.

لم تفهم.

– ستقومين بتأمين حاجاته المعيشية وصحته، – قال لها النقيب موضحاً.

– هل هو مريض؟

– سيكون من واجبك في المعركة أن تنقذيه وحده فقط!... أتفهمين؟! وحده فقط!... كم أنقذت من الرجال؟

– لماذا أنا؟ هل أنا الوحيدة في الجيش، القادرة على ذلك؟

– لا أعرف. إنها الأوامر.

– فهمت.

– ممتاز... سيأخذونك إليه...

لم يظهر الرئيس إلا بعد يومين.

هي أغرمت به على الفور، وحين قدموها له. لم تسلّم عليه سلاماً عسكرياً، بل مدّت له يدها تصافحه.

– ماذا تفعلين أيتها العريف! – صاح بها النقيب.

أما هو فاكتفى بالابتسام وأمسك أصابعها بكفه اللينة الجافة وضغطها برفق.

– العقيد موفتشانوف، إيغور فاسيلييفيتش. هيا بنا نشرب الشاي!.

لقد كانت مستعدة من اللحظة الأولى ليس فقط لشرب الشاي، بل لكل شيء!... مصافحته كانت تبعث الدفء، هي لم تشعر بأية برودة على الإطلاق!... ليس هناك موت إذن، يبدو أن الطبيعة منحتها أخيراً سعادة إنسانية طبيعية!... هل تصدق، أم لا تصدق... نسيت...

شربا شاياً معطراً بورق الكرز البري، وكانت في أثناء ذلك تنظر إليه بكل عينيها، وتسمع كيف يخبرها أنه ليس عسكرياً محترفاً في الأصل، بل هو مجرد عالم، وأنه يرافق بطاريات الصواريخ منذ عامين...

– عمري ثلاثة وأربعون عاماً، – قال من دون سبب، وهو ينظر إلى عينيها مباشرة.

– وأنا عمري تسع عشرة، – أجابت جيليا.

– أنا بالنسبة إليك، عجوز.

– لقد كان في حياتي رجل أكبر منك سناً.

– هل افترقتما؟

– لا، لقد قتل...

– في الحرب...

– هوذاك...

– عندي زوجة، هي في سنك تقريباً.

صعقها الخبر كما لو أنها أمسكت بسلك كهربائي عار... عن أية زوجة يتكلم؟...

– وابنة، تابع الرئيس كلامه. – صغيرة، في الثانية من عمرها...

أخذت تحبه عن بعد، عادّة أنه من غير الجائر أن تفرق بين رجل متزوج وزوجته... كانت هذه التجربة للحب من طرف واحد أمراً جديداً في حياتها، لكنها لم تسبب لها آلاماً فظيعة كما كانت تتصور قبل الحرب...

إن الحب من طرف واحد يسبب ألماً، لكنه ألم مشبع بمذاق حلو، غريب. لقد أتيحت لجيليا، للمرة الأولى، وبعد زمن طويل، إمكانية الحزن على نفسها، وليس على الجندي الذي سيموت. وقد منحتها السماء إجازة من الأعمال الصعبة، وسمح لها من في الأعلى أن تتحرر لوقت قصير من أعبائها، فيستقيم قوامها. كانت تمشي منتصبة القامة حتى في وقت المعركة، وتسرع لتمشي أمام موفتشانوف مشكلة بجسدها درعاً له. وكان هذا يغضبه فيصرخ فيما بعد قائلاً لها:

– كفي عن ذلك يا ليبيدا! أنا آمرك بالكف عن هذه الحركات!

– لكن، كيف تعمل هذه الأشياء؟ – تسأله جيليا غير مصغية إلى كلماته، وتشير إلى صحون الرادار وهي تدور.

– أتفهمين؟! – هو طبعاً لم يكن عسكرياً بل عالماً. – أتفهمين؟ لقد كنت في مخبر أرخيب لولكا...

– كنية مضحكة.

جداً!... إنه في الواقع إنسان صلب الإرادة!... ماذا أردت أن أقول؟... هل تريدين حقاً معرفة طريقة عملها؟

– أنا أحب صوتك...

لقد كان عند مافتشانوف من السذاجة ما عند طفل صغير، أو عند عالم مثله.

– هل تريدين أن أنشد لك أشعاراً؟

كان ينشد لها في الاستراحات بين المعارك أشعار بسينين. وكانت تستمع.

فيما بعد، في لحظة من اللحظات، شعر كل منهما بالانجذاب نحو الآخر، حتى أسنانهما اصطدمت حين تبادلا قبلة. استمرت هذه القبلة الدموية أبدية تقريباً. لقد كانت قصيرة إلى هذا الحد...

أحبا بعضهما بعضاً بفرح واحتفالية.

للمرة الأولى، بعد زمن طويل، امتلأت أنجيلينا حتى الحواف، سعادة، وصارت في كثير من الأحيان، تبكي، لأن هذه السعادة كانت تطفح عبر حواف روحها، وكان هو يفهم سبب هذه الدموع فتدمع عيناه الذكوريتان أيضاً.

قالت له إنها للمرة الأولى ترى عينين خضراوين، وأنها للمرة الأولى تقبل شفتين حمراوين إلى هذا الحد...

تقول له إنه أقوى رجل في العالم، ويقول لها إنه لم يلتق بامرأة أجمل منها، وأرق منها، وأروع منها...

وكانت الكلمات تولد عندهما بكثرة عظيمة...

كانا، في مرافقتهما لبطاريات الصواريخ، ينتقلان من مدينة إلى مدينة، ومن ليلة حب إلى أخرى. قذائف «الكاتيوشا» تئن فوق رأسيهما، وهما يكرران صرخات الموت تلك. تفحّ أجهزة الرادار، لكنهما يغفلان عن سماعها غفلة إجرامية، وحين ينتبهان من غفلتهما فجأة...

عموماً، بقيت مع فصيلين من رماة الرشاشات والقناصين عند انتقال بطارية الصواريخ. هي لم تبق للدفاع عن الحديد، بل للدفاع عنه.

الألمان قتلوا الجميع تقريباً، لم يبق على قيد الحياة سوى ستة منهم، لكن البطارية انتقلت سالمة...

في هذه المعركة حملت ليبيدا لأول مرة بندقية قناصة... انتزعتها من يدي أحد القتلى...

حين لحقوا بالبطارية، أبلغ الملازم شتريكوف الرئاسة بدقة التسديد الخارقة عند أنجيلينا ليبيدا، التي أصابت عشرة من الألمان في معركة واحدة.

– هل تلك الممرضة بارعة إلى هذا الحد في إطلاق النار؟ – سأل مندهشاً قائد الملجأ، المقدم بيستروف، الذي كان هو نفسه، من رماة فوج فوروشيلوف، وقناصاً يندر أمثاله.

– هي كذلك، – قال شتريكوف مؤكداً.

– أليست هي تلك العصفورة التي تحلب الفيزيائي؟

أطرق شتريكوف غاضاً بصره، حين سمع كلمة «تحلب».

– هذه الكلبة تلهي عن الأعمال القتالية! سيعدموننا دون أن يرفّ لهم جفن، إذا قصّرنا في شيء!... ألم تر كيف تأخرنا في الانتقال، بسبب هذه السافلة!

نظر المقدم إلى سحنة الملازم شتريكوف المحمرّة، فقدّر أنها احمرّت بسبب البرد.

– أنا سأعالج هذه المسألة شخصياً!

مع اقتراب الربيع سحبت البطارية إلى الخطوط الخلفية لإجراء إصلاحات ضرورية.

كانت قرية لوتش الصغيرة غارقة في ليلة بلا معارك، فمارسا للمرة الأولى الحب على أصوات الهدوء. في البداية شعرا بالقلق لغياب صرير الرادارات وزعيق الصواريخ، واضطرا إلى كبت صراخهما كيلا يوقظا أحداً.

استيقظت جيليا في الصباح على صرير الباب، فرأت قرب السرير امرأة جميلة، فتية، بعينين ممتلئتين دهشة.

موفتشانوف لم يكن نائماً. ظلّ راقداً في هدوء ينظر إلى المرأة التي دخلت الغرفة.

– أرجو المعذرة، – قال بشكل مفاجئ.

أنجيلينا لم تفهم لمن كان يوجه كلمته.

– إنها من اللجنة الأمنية، – أضاف العقيد في سلاح الرادار، – ولكز خاصرتها برفق.

– اذهبي – اذهبي!...

شعرت بشيء ما ينكسر في روحها.

غريب هذا الأمر. لقد كانت إلى زمن قريب مستعدة لأن تكون زوجة مؤقتة للكثيرين، لكن كلماته الآن أعدمتها من دون سابق إنذار.

– لا تذهبي! – قالت المرأة الشابة بلهجة صلبة.

في هذه اللحظة حاول العقيد أن يقفز من السرير لكنها أوقفته بصوت هادئ آمر.

– لا ضرورة لهذه الحركات!... سيكون ليوليا أب آخر!

وخرجت.

قفز من السرير بقميصه الداخلي، وركض في إثرها، غاب ساعة، ثم عاد بمظهر بائس، كأنما أطلقوه من أحد القاذفات بدلاً من صاروخ «كاتيوشا».

جلس طويلاً محملقاً بالنافذة ثم سألها:

– هل تظنين أنها ستسامحني؟

– لا،– أجابته.

كتم عويله بكمه، ولكنها لم تشفق عليه أبداً. تذكرت كلمات النقيب عن العناية بمعيشته وصحته، لذلك أعدّت له طبقاً من البيض المقلي بهدوء تام، بل برضا إنسان نفّذ الأمر تنفيذاً تاماً.

– وأنت، هل ستهجرينني؟

كان في عينيه الناظرتين إليها من الرجاء ما يعادل الرجاء في عيني كلب عجوز أمام آخر باب لم تخرّشه أظافره بعد.

لم تجبه، لم تكن تسمعه تقريباً، بل لم تلاحظ حتى كيف اقترب منها ووضع يديه على كتفيها.

عند ذلك سرى في جسدها صقيع لا يحتمل. ارتجفت كما لو صبوا عليها آزوتاً سائلاً. حتى البيض المقلي كفّ عن الطقطقة في المقلاة وبرد في الحال.

هذا مستحيل! – صرخ صوت في أعماقها. – لقد كان دافئاً! لا يمكن أن أكون مخطئة!

ظلت ترتجف وترتجف.

بدا لها أنها تعاني معاناة شديدة. لذلك ضمها بقوة.

– هل ستسامحينني؟

البيض المقلي برد رغم أن عيداناً من البتولا كانت تتوهج مشتعلة في الموقد.

– هل ستسامحينني؟

– أنا، – قالت بهدوء، – زوجتك المؤقتة...

– طيّب، لا تستائي، – رجاها وهو يقبل أذنها. – هذا غير صحيح... إن لي هناك طفل.

استدارت نحوه وقبلت شفتيه.

انتهى إعفاء جيليا ليبيدا من الأعمال الرفيعة، وعادت إلى القيام بواجباتها التي كادت تنساها.

فيما بعد، استدعاها بيستروف وسماها حثالة.

– يبدو أنهم كانوا ينادونك بهذا الاسم، أليس كذلك؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

عرض عليها مباشرة وساماً ثانياً من أوسمة المجد مقابل انتقالها إلى مدرسة القناصين.

– اتركيه.

وأراها ورقة منح الوسام.

– أنت مقدم، – قالت مندهشة. – أنت لا تستطيع...

– أنا أستطيع كل شيء، أنا على اتصال مباشر مع بيريا!... اذهبي، وفكري...

ذهبت وهي متأكدة من أنها ستؤدي رسالتها حتى النهاية. هي لن تتركه، وجسدها وروحها سيكونان تحت تصرّف موفتشانوف حتى يموت.

الرجل يفترض...

في ذلك المساء نفسه قبضوا على موفتشانوف وشتريكوف.

ضربوا الاثنين عند اعتقالهما بقسوة تقول إنه لا داعي للإشفاق على الخنازير قبل ذبحها!...

لم تره جيليا بعد ذلك اليوم.

أعدموا موفتشانوف بتهمة التجسس لصالح الأمريكيين، وبيستروف لأنه غفل عن وجود الجاسوس...

المدير الجديد للبطارية الخاصة وجد على طاولة بيستروف ترشيح ليبيدا لنيل وسام «المجد» من الدرجة الثانية لشجاعتها في المعركة، فأرسله إلى الجهة المختصة، كذلك قرأ قرار نقل العريف ليبيدا إلى مدرسة القناصين، القرار كان مطبوعاً على الآلة الكاتبة، لكنه كان من دون توقيع. فرح لذلك، إذ كان من الضروري التخلص من العناصر القديمة التي عاصرت القضية... وها أن ذلك يتم تلقائياً. استدعى ليبيدا وأراها القرار.

– أين التوقيع؟

وقّعتْ إيصالاً باستلامه.

– هل أعدموه؟

نظرت إلى عيني الرئيس الجديد ففهمت كل شيء.

– التحقي غداً بمكان عملك الجديد.

– حاضر، – أجابته. وهكذا أصبحت أنجيلينا ليبيدا قناصاً.

# – 5 -

بعد موت النقيب في الـ (ك. جي. بي) جرت حياة يولكا في القسم المجهول من الوجود الأنثوي، الذي حوى وفرة من العناصر الجديدة نوعياً، وأحدث تحولاً في روحها ونفسها جعل عقلها يحاصر في ذاكرتها ذلك القسم الذي يحفظ ذكرى أفلاطون أنطونوف. فصارت يولكا، إذا ما تذكّرت رجلاً، تتذكّر فقط سيفيرتسيف العامل في الأراضي البكر. لم تكن ذكرياتها غرائزية، بل ذكريات يشوبها حزن خفيف على الوالد المقتول... الذي حرم موته الطفل من مثل رجالي أعلى يقلده.

الجنين الذي تعود بدرجة كافية على وجوده في جسد الأم، لم يكن يهتم مطلقاً بأبيه المقتول الذي عاش حياة خاوية، ومات ميتة لا معنى لها...

بنيته الخلوية استمرت في الانقسام بسرعة جنونية، فظهرت بدايات جملته العصبية، ونمت مكونات دماغه فصارت لا تقل حجماً عن مكونات دماغ سمكة.

كان يتوتر في أحيان كثيرة من سلوك أمه، لا سيما حين تحاول محاورته.

– يا حبيبي، – تخاطبه يولكا وهي تمسد بطنها الذي بدا لها أنه لا يكبر بالأيام، بل بالساعات. – أنت ستكبر وتصبح ضابطاً جميلاً! سأكوي لك بزتك الرسمية! سيظهر على بنطالك دائماً أثر الكي! الممتاز!...

يا لها من امرأة غبية، – يقول في سره غاضباً. – أي شيطان يدفعها لابتلاع تلك الحبوب التي أعطاها لها رافيكوفيتش! لولا تلك الحبوب لاستطاع بمساعدة السم، أن يقضي على هذيانها الغبي!... «ويحها، كيف تخيلتني ضابطاً؟! ما هذه التماثلات الفرويدية. ضابط الـ (ك. جي. بي) اغتصبها، وهي الآن تتخيل ابنها معتدياً!... جدها كان محارباً – أعدموه!...

أنا لن أكون ضابطاً!».

لعلي أرسلك إلى مدرسة الباليه؟ – تتخيل يولكا. – ستكون جميلاً جداً على خشبة مسرح البولشوي...

ما عاد ينقص عائلتنا غير أن يكون فيها شاذ جنسياً، – يقول الجنين في سره وقد أغضبه غباء أمه. – من سأكون؟... هذا هو حقاً أنسب الأوقات للتفكير في ذلك، فقد صار عمر مجموعة

خلاياي ثلاثة أشهر! الآن بالضبط يجب تحديد انتمائي المهني! يا لهذه الازدواجية! لقد حرم الرب الكون من العقل وأضاف إليه ملحقاً عديم المعنى يستطيع أن يفكر.

هذا الملحق هو دائماً في نظر الجنين، الجنس الذكوري.

الملحق يمكن رميه دائماً كربطة معكرونة غير ضرورية، ملحقة بعلبة كافيار، في عرض في مخزن للمواد الغذائية!... لقد كان هذا أكثر الأمور إغضاباً للجنين. إن وعيه لعدم ضرورته، ليس فقط للكون، بل للرب أيضاً، يجعل انقسام خلاياه أمراً لا معنى له على الإطلاق! لقد ظل، كما في السابق، يبحث عن وعي مختلف نوعياً يحدد معنى...

في الشهر الرابع من حبلها، حاول الجنين الانتحار، فبذل جهداً إرادياً أرغم به خلاياه على رفض الأوكسجين، غير أن طبيب الأمراض النسائية الماكر رافيكوفيتش زوّد يولكا بحبوب فيها أوكسجين فعال.

– هذه كي لا يحدث ضيق تنفس! – قال الطبيب موضحاً. – وهكذا يظل الطفل يجد هواء كافياً!...

– من ترانا ننتظر؟ سأل الطبيب.

– ولداً ذكراً – أجابته بلهجة واثقة مئة بالمئة. لم يشك رافيكوفيتش، وهو ينظر إلى هذه المرأة الحمراء الشعر، ذات العينين الصافيتين، كأنهما غسلتا للتو بماء الحياة، في أنها ستلد ولداً ذكراً. إن التواصل مع الجنين ينشأ عند هذا النوع من النساء في لحظة تلقيح البويضة تقريباً، لذلك هنّ يعرفن بالتأكيد جنس المولود القادم... إنه لو كان أصغر سناً، وأطول قامة بمقدار رأسين، ولو لم يكن لديه (دورا)، والطفل (فيما) لتزوج حتماً هذه البنت الروسية... دارت هذه الخيالات في رأس رافيكوفيتش، لكن (دورا) و (فيما) كانا أغلى على قلبه من هذه الرائعة يوليا! إنها، مع ذلك، امرأة رائعة! – قال رافيكوفيتش في سره، وهو يفكّر في ألّا يأخذ من يولكا نقوداً لقاء فحصها، لكنه، استرشاداً منه بحبه لدورا وفيما، غضّ بصره وأخذ عشرة روبلات وقبّل اليد التي قدمتها له...

جرى حبلها هانئاً تماماً. عملها كان يسير كالمعتاد، وكانت تأكل الفواكه التي تشتريها من سوق الخضار، وترافق كسانكا صديقة تشارمن.

كانوا يجتمعون في شقته الملأى بالتحف الشرقية القديمة، والطاولات الصغيرة، المرصعة بالعاج، ودلّات القهوة الكبيرة التي شربت منها كسانكا أطناناً من القهوة، والمزهريات الفضية الرائعة التي تتدلى من فوهاتها عناقيد عنب كبيرة الحبات يستطيع المرء أن يعدّ البذور في كل حبة منها حين تغمرها الشمس، وقطع السجاد التي تغطي الجدران والأرضيات بكثرة، وتزدان بعض زواياها بمجموعات من الأسلحة البيضاء، وبعض المسدسات القديمة التي تقول لها كسانكا همساً أن بوشكين قتل بواحد منها، وبآخر قتل ليرمانتوف.

– ماذا تقولين؟ – تصرخ يولكا وهي تضرب كفاً بكف مستنكرة فظاعة التاريخ.

– آها، – تؤكد لها صديقتها. – أما غريبويديف فقطّعوه بالسيف!

– هذا مستحيل! – صاحت، ثم تذّكرت فجأة كلية التاريخ في جامعة موسكو الحكومية. غريبويديف... هو من قتل نفسه...

قهقهت كسانكا بصوتها (الباص) وهي تفهم تشارمن أن النساء الحوامل يصبحن غبيات في كثير من الأحيان.

ضحكوا معاً، لكنهم لم يشربوا الخمرة معاً. قدّما العصير ليولكا التي تابعت بعد ذلك بإعجاب وحماسة كيف يتبادل تشارمن وكسانكا القبلات. لو كانت أنانية وقحة، لقالت في سرها إن القبلة بينهما كالقبلة بين سمك (السيلد) والجمل. لكن لم يكن في قلبها متسع لغير السعادة، لذلك بديا لها شبيهين بتريستيان وإيزولدا.

يولكا كانت تفرح كثيراً لفرح صديقتها، لذلك استغلت الفرصة، حين توقف تشارمن عن تبادل القبل، وذهب لإحضار لحم الغنم المشوي من المطبخ، وهمست في أذن كسانكا كلمات يشوبها اللوم متسائلة عما يمنعها من إنجاب طفل، فتشارمن رجل رائع فيه الكثير من الرجولة والشهامة ولذا سيكون الطفل الذي ينجبانه رائعاً!...

هي لم تلاحظ على الفور أن كسانكا لا تهتم عموماً بكلماتها، وأن روح صديقتها قد فقدت حالة الفرح، وأن ابتسامة تشارمن الذي عاد من المطبخ يحمل اللحم اللذيذ الرائحة، اكتسبت طابعاً من الحزن...

مزّقوا بأسنانهم الفتية اللحم عن أضلاع الخروف، وثملت كسانكا، فعاد إليها مرح روحها، وظل تشارمن، رغم أنه شرب كثيراً، صاحياً تماماً، لم يتغير فيه شيء سوى أن عينيه ازدادتا شبهاً بحبات الزيتون في الضباب.

فيما بعد، حين قامت يولكا عن الطاولة كي تذهب إلى دورة المياه، هكذا كانوا يسمون المكان، لأنه كامل تماماً وفيه شطّافة، وشموع لتعطير الجو، لحق بها تشارمن وقال همساً:

– هي لا تستطيع...

– لا تستطيع ماذا؟ – لم تفهم يولكا.

– أخفضي صوتك! – رجاها تشارمن، واضعاً إصبعه المزين بخاتم ذهبي جميل، على شفتيه. – هي لن تنجب أطفالاً!

هو لم يقل أي شيء آخر، ذهب إلى الغرفة. أما يولكا فوجدتهما حين عادت من دورة المياه، يتبادلان القبل من جديد.

كان عليها ألّا تعرّض نفسها للانفعالات الدرامية، لذلك قررت ألا تتأثر كثيراً، وأكدت لنفسها أن شخصاً مثل رافيكوفيتش سيساعد صديقتها... كيف لا تنجب!... كيف يمكن أن يحدث هذا!... هذا غباء!...

في الشهر السابع صار بطنها كبيراً، كأنه تلة خبئت فيها كنوز، لذلك أرغموها إرغاماً تقريباً على أخذ إجازة حمل. صارت تقضي الوقت كله تقريباً في غرفتها في الشقة الجماعية، مديرة أحاديث هامة عن المستقبل مع ابنها.

– هل أنت مرتاح في مياهي الدافئة؟ – تسأله يولكا مداعبة.

– آها، – يجيبها الجنين ملحقاً الجواب بضربة من الداخل، فقد صارت له أطراف. يحرك رأسه، ويفتح عينيه. – أتعجّب كيف لم أختنق! أنا لا أرى شيئاً في مياهك التي تحيط بجسدي!

– اصبر، ستولد قريباً، وسنعيش، أنا وأنت، سعيدين!

– أنت لن تستطيعي الإنفاق عليّ، لأن مطالبي كبيرة!

– سأبذل جهدي.

– أنا أريد أن أتزوج...

– من الآن؟!

– بل منذ زمن بعيد.

– ومن تريد أن تتزوج؟

– أريد أن أتزوجك أنت.

– أنت ابني! تفو! هذا لا يجوز!

– ولذلك أريده!

– ولماذا، عموماً تريد الزواج؟

– كي أحاول احتلال الفضاء.

– أنا لا أفهم...

– هذا طبيعي...

– هل تريد أن تكون رائد فضاء؟

– غبية!

لا يجوز أن توجه لأمك مثل هذه الكلمات!

– أريد أن أكون صاروخاً!

– الكائن لا يمكن أن يكون... إحِم... ولماذا صاروخ؟

– أنت، مع ذلك غبية!

كانت مستعدة للاعتراف بأنها غبية. من الطبيعي أن يكون الطفل أذكى من أمه، لا سيما إذا كان ذكراً. لقد كانت مستاءة قليلاً لأن طفلها يتسم بهذه الفظاظة قبل أن يولد، ولأنه يطلق الشتائم. باشكا لم يكن يشتم أبداً...

– كن صاروخاً إذا كنت تريد ذلك!

– إنها المرة الأولى التي تقولين فيها كلمات ذكية.

– شكراً... إلى أين ستطير؟

– لكل كائن فضاؤه.

– أنت مخطئ. الفضاء واحد للجميع. هذا ما تأكد منه يوري غاغارين.

– فضاؤه بالذات هو آخر ما يهمني!

– إنه بطل الاتحاد السوفييتي! أول إنسان في الأرض زار الفضاء!...

– هذا ليس الفضاء! هذا ثقب! إنه بطل زار ثقباً!

أخافها أنه مشاكس قبل أن يولد! ترى كيف سيكون فيما بعد؟

– هذا لا يجوز أيها الغالي! إنه بطل حقيقي! وتيتوف أيضاً!... و....

– هم لم يكونوا في الفضاء.

– أين كانوا إذن؟

– في المكان الخالي من الهواء.

– وأين الفضاء برأيك؟

– أنت لن تفهمي.

– يبدو لي أنك طفل شرير!

– ومع ذلك أنت تحبينني.

– طبعاً، – قالت له بودّ. – فأنت طفلي الصغير.

– التعلّق بالشخص بحكم القرابة – أمر فظيع! أنا أيضاً أشعر بهذا الشعور، فمثلاً، ها أنتذي غبية، ومع ذلك أنا أحبك...

كان يبدو لها أحياناً، أنها، هي نفسها، تختلق هذه الحوارات مع ابنها الذي لم يولد بعد، لذلك ذهبت إلى رافيكوفيتش وتحدثت معه عن هذا الموضوع الغريب.

أخبرها طبيب الأمراض النسائية أن هذا الأمر طبيعي، وأن التواصل مع الجنين أهم الأشياء التي تتوقف عليها الولادة، فتكون الولادة سهلة أو معقدة، ويكون الولد متشائماً أو متفائلاً...

– يبدو لي أني أزداد غباء، – قالت له.

– النساء كلهن يصبحن في فترة الحمل غبيات، قال لها رافيكوفيتش مهدئاً قلقها. – نعم، نعم... حين طرق (فيما) بوابة الحياة، أي، حين كانت دورا حاملاً، توقف نشاط ذهنها، وصارت تقوم بكل شيء بفعل الغريزة. سأقول لك أكثر من هذا: حين أبهج (فيما) العالم بميلاده، كفّت دورا طول عامين كاملين عن الاهتمام بأحد غير طفلها، صارت الطفل الذي يطعم طفلاً. كانت تلك الفترة صعبة عليّ جداً. أنت تفهمينني... صرت أعمل ثلاثة أضعاف ما كنت أعمل، وأرهقت إرهاقاً شديداً! سأعترف لك بسر: لقد كنت أغار على زوجتي من ابني.

قالت في سرها، بعد أن سمعت كلامه، إن هناك الكثير من الإيجابيات في ولادة طفل أبوه غير موجود. رافيكوفيتش هدأها تماماً ودعاها بلهجة أبوية، إلى أن تكثر من زياراتها، هكذا، من دون ضرورة صحية، وإلى أن تكون ضيفة يعرفها على العزيزين على قلبه.

– فطيرة الجوز والعسل التي تعدّها دورا رائعة! تطيّر العقل! سبع طبقات! أظل يوماً كاملاً قبل إعدادها أكسّر حبات الجوز بالمكواة الحديدية!

وعدته بإخلاص أن تأتي، لكنها حين عادت إلى البيت، نسيت كل شيء في الدنيا وغاصت في فضائها الخاص الذي ينمو فيه كائن، جسد من جسدها هي.

– المختص بالجبال يقفز من جديد! – أنذرها الجنين.

– دعك منه، – قالت معبّرة عن لا مبالاة تامة بالعين الغريبة. – إنه إنسان بائس.

– أهو بائس، أم تشفقين عليه؟ – سألها يطلب الدقة.

– بائس، وأشفق عليه...

– عينه مقرفة جداً!

– هل تكرهه؟

– أنا أغار منه...

في اليوم التالي استجمعت قواها، وذهبت بجنينها إلى مخزن الأدوات المنزلية، حيث اشترت «قفلاً إنكليزياً» جديداً، قام نجار من إدارة الحي السكنية بتركيبه بسهولة، وأراد أن يأخذ القفل القديم، غير أن يولكا لم تعطه إياه، رغم أنه عرض أن يأخذه بدلاً من أجر تركيب الجديد. استاء الرجل، لكن الجنين قال إنهم ينقلون الماء على ظهور المستائين، ويفعلون أشياء أخرى كثيرة!...

حين أدركت يولكا مغزى ما قاله الجنين شحب لون وجهها وبدا لها أن النجار سمع تلك الكلمات، فشعرت بالخجل أعطت الرجل القفل لكنها احتفظت بالمفتاح الأثري القديم.

– أنت لينة العريكة!

– أما أنت ففظ! – قالت ذلك بصوت مرتفع غاضبة، ثم وضعت سلسالاً في ثقب المفتاح، وعلقته في عنقها كما أرادت منذ زمن. – لا يجوز أن تخاطب الناس بهذه الوقاحة!

كانت كاتيا الفيلية، التي أقلقها جداً حبل جارتها، تسمعها في أحيان كثيرة تحادث نفسها، فراحت تفكر في الآثار التي يخلفها تصادم جسدين من جنسين مختلفين، فتستنتج أنه يذهب بالعقل، وهذا ما جعلها لا تحسد يولكا، بل تتعاطف معها...

ذات مرة دهنت كاتكا قطعة خبز أسود طازجة، بالزبدة، ورشت قليلاً من الملح على الشطيرة، ثم قرعت باب غرفة يولكا.

فتحت يولكا الباب ووقفت مندهشة، تسند بطنها المنتفخ بيديها، ناظرة إلى جارتها كنظرة طفل إلى يوري نيكولين في السيرك.

– هاكي. كليها! – مدّت كاتيا الفيلية يدها بالصحن وفيه الشطيرة، – أنت يجب أن تأكلي، في الزبدة فيتامينات وأنت لا تظهرين في المطبخ منذ أسابيع!

– خذيها – خذيها! – قال الجنين يشجعها وهو يحرك كل أطرافه، مؤكداً أنها يجب أن تكثر من الأكل! قدر ما تستطيع! «هذا كله ينفعني!»».

التهمت يولكا الشطيرة كلها دفعة واحدة، ومنذ ذلك اليوم حتى يوم الولادة، ظلت كاتيا الفيلية تقرع باب جارتها كل مساء حاملة إليها هديتها المتواضعة لمن ستكون أماً عن قريب – قطع خبز أسود مدهونة بالزبدة...

قبيل الولادة صارت يولكا تتردد كثيراً على رافيكوفيتش لتعرف هل حان الوقت أم لا. أما هو فكان يهدئها قائلاً إنها ستجد دائماً الوقت الكافي للوصول إلى مستشفى التوليد فهذه أول ولادة لها، والولادة الأولى عند النساء تستمر قرابة العشر ساعات.

– ستجدين وقتاً كافياً لجمع حاجاتك، وطلب سيارة أجرة، – قال لها طبيب النسائية يهدئها. – والاتصال بي للاطمئنان!...

– وأنت، ألن تحضر ولادتي؟

– أنا يا عزيزتي... طبيب أمراض نسائية، أما التوليد فاختصاص آخر...

عرّف رافيكوفيتش في وقت مبكر يولكا بقابلة – امرأة روسية بسيطة ترتدي (بريه) منسوجة يدوياً، لكنها نشيطة نشاطاً يدل على أنها أخرجت ما لا يقل عن ألف طفل من أرحام النساء!، – حتى أنهم منحوني ميدالية! – قالت باسمة. – لا تخافي من الولادة! سيجري كل شيء على أفضل وجه!

– ستبدئين الاستعداد للذهاب إلى المشفى، حين ينسكب الماء من الرحم، لك بطاقة عندنا في المشفى...

هدأ قلقها، وقررت أنه ما زال أمام الولادة أسبوعين، لا عمل لها فيهما غير التمدد على ظهرها، ومشاهدة التلفزيون.

كانت تحادثه بعد منتصف الليل، حين تنتهي البرامج كلها.

– سنلتقي قريباً يا حبيبي....

– أنا مرتاح هنا.

– أما أنا فمشتاقة.

– عجيب أمرك... أنا لن أكون أبداً أقرب إليك مني الآن...

– أنا أريد أن أحضنك!... أن أرى عينيك!

– ليس عندي مرآة كي أصفهما لك!

– وكيف هو شعرك؟... أم أنت أصلع؟...

– آها خصلات شعري طويلة حتى الكتفين!

– وأصابعك، أغلب ظني، طويلة...

– أستطيع أن أنكش بها أذنيّ! ها!

– ستكبر، حينذاك سأضربك على قفاك!

– كيف هذا؟! حين أكبر سأقوم أنا بضرب أقفية النساء! أنتن تحببن ذلك!

كانت في هذه الدقائق متأكدة من أنها هي من يختلق الحوارات مع الطفل القادم، فهو، في الحقيقة، لا يستطيع أن يكون قبل أن يولد، وقحاً إلى هذا الحد. وإلا، فمن تراه سيكون حين يكبر؟...

– نحن لسنا بحاجة إلى التنبؤ! – كان يجيب على أفكار أمه

– وهذا صحيح أيضاً، فالإنسان يفترض...

لم تمنحها الطبيعة الأسبوعين اللذين قدرتهما.

انتهى خروج الماء من رحمها في صباح يوم الأحد، رغم أن رافيكوفيتش قدّر بخبرته، إن الولادة ستبدأ في المساء.

– النساء يلدن ليلاً دائماً تقريباً...

بعد عشر دقائق كانت تقف مترددة، تفكّر أن مثانتها لم تتحمل ضغط البول، لكنها سمعته يخبرها بإيجاز برقي:

– هذا الماء من الرحم.

بدأت تجمع أشياءها، وهي غير مستعدة أبداً لأن تصبح أماً في هذا اليوم.

أين الأيام العشرة الأخرى التي وعدها بها الطبيب؟

دست في الحقيبة (بيجاما) وزوجاً من الملابس الداخلية، محاولة تركيز أفكارها، لكنها أخفقت في ذلك.

ساعدها الجنين.

– تلفني لرافيكوفيتش!

خرجت إلى الممر، ومشت حتى جهاز الهاتف تاركة وراءها خيطاً من البلل.

الرقم لم يجب، رغم أنها تركت الجهاز يرن طويلاً، بعد ذلك كررت الطلب... اليوم هو الأحد...

– كاتيا! – نادت يولكا جارتها طالبة النجدة. – كاتيا – هذه أنا! لكن كاتيا كانت في هذا الوقت تساوم في السوق لشراء البقدونس، جورجياً جميلاً يبتسم للفتيات كاشفاً بابتسامته عن أسنان بيضاء، طالبة منه أن يخفض من السعر خمسة وعشرين كوبيكاً، لكنه رفض حتى أن يخفض خمسة كوبيكات.

– اذهبي، يامرأة، اذهبي! – قال لها هذا الجميل وهو يبعدها غير غاضب. – أنت تعيقين متعة المشاهدة!

– هل جئت إلى هنا لتستمتع! – خرجت كاتيا الفيلية عن طورها، واستعدت للشجار. – تريد «متعة المشاهدة»! أنا سأجعلك تستمتع!...

– لمَ أنت غاضبة إلى هذا الحد؟! – قال الجميل مستاء.– يبدو أنك وحيدة! خذي ما تريدين من البقدونس مجاناً!

هي لم ترفض العرض طبعاً. أخذت ملء كيس صغير، وأرادت أن تأخذ قرص بندورة كبيراً أيضاً لكن الجورجي ضبطها، فمضت العجوز مسرورة بما حققته من نجاح...

يولكا الخائفة التفتت إلى الجهة المقابلة ونادت:

– سيرغي سيرغييتش!

لكن المختص بالجبال لم يكن موجوداً أيضاً في هذه الأثناء. لقد عرّفوه في القسم على طالبة دراسات عليا تضع نظارة، وراح هذان العالمان يتزلجان منذ الصباح في حديقة سوكولنيكي، يأكلان الفطائر ويتبادلان القبل بشفاه ملوثة بالدهن.

تذكرت كسانكا وطلبتها.

حالف الحظ يولكا هذه المرة.

رفع تشارمن السماعة وأخبرها أن زوجته غاطسة طول اليوم في عالم جمال النساء. وهذا يعني أن كسانكا ذهبت أولاً إلى مقلّمة أظافر اليدين، ثم إلى مقلّمة أظافر القدمين، وبعد ذلك إلى مزيلة شعر الساقين على الطريقة الفرنسية، ثم، في نهاية المطاف، إلى حلاق الشعر فلاديك الذي يتنكر بشاربين كثين كبيرين خشية أن يسجن بتهمة الشذوذ الجنسي. لقد كان أستاذاً ماهراً في فن الحلاقة، لذلك زوجوه شكلياً بامرأة تحمل اسماً طريفاً هو (كريسيا)[6]، زيادة في التموية... وكانوا يقولون في غيابه: لا يستطيع أحد أن يعيش مع امرأة بهذا الاسم إلا إذا كان شاذاً جنسياً...

– أنا ألد، – قالت بصوت كالفحيح.

– أنا قادم، – أجابها تشارمن على الفور.

وصل سريعاً جداً، أما هي فكانت تتمالك نفسها بصعوبة، لقد طغى الخوف على كيانها له، وكانت أطرافها باردة برودة الموت. أيمكن أن يكون الشتاء هو السبب؟...

اليوم هو الأحد – يوم رائع. إنه يوم عطلة. لذلك تكون السيارات في الشوارع قليلة جداً! قطعا المسافة إلى غراورمان في نحو عشر دقائق. ثم قطعت يولكا المسافة مشياً من موقف السيارات إلى مدخل المشفى. وكان تشارمن يبتسم وهو يمسك بقوة يدها، ويقودها إلى المبنى الذي يخرجون فيه الأطفال إلى النور.

– ليس لها بطاقة! – أبلغوه في مكتب تسجيل المرضى.

– كيف ذلك؟ – سألت مندهشة وهي تشعر كيف يتحرك الجنين في بطنها الذي بات ثقيلاً جداً. – لقد وعدنا الدكتور رافيكوفيتش بذلك!

– أي رافيكوفيتش؟! – ليس عندنا دكتور بهذا الاسم!

– والقابلة؟... ماذا كان اسمها؟...

لم تستطع تذكر اسمها، لكنها تذكرت (البيريه). ولم تدر ماذا تقول...

– هذه المرأة تلد! – تدخّل تشارمن. ما قيمة البطاقة؟! ستجدونها فيما بعد.

– هاتي البطاقة الذاتية! – قالت الموظفة المختصة بالتسجيل.

أعطتها يولكا البطاقة.

– لست من حيّنا!

– ما معنى ذلك! – قات يولكا بغضب. – الدكتور رافيكوفيتش...

– هو ليس طبيباً عندنا!

– ما هذا الهراء! – قال تشارمن بصوت منخفض، لكن بلهجة مخيفة، – هل أنتم مشفى توليد سوفييتي أم!... أن قسم هيبوقراط لا يعني لكم شيئاً!

– أنا لا أملك صلاحية! – قالت الموظفة تدافع عن موقفها. – لمَ لا تذهبان إلى مشفى التوليد التابع لحيها... هو ليس بعيداً... في نيكيتينسي، بجوار شارع ستانيسلافسكي... ستصلان إليه في ثلاث دقائق... عندي هنا ثلاث ولادات الآن، وطبيب توليد واحد، حديث العهد!...

ذهبا إلى نيكيتينسي، وقد ازداد خوفها وشرع جسدها كله يرتجف. جلست على المقعد الخلفي في ال «بوبيدا» لذا لم يكن بمقدورها أن تمدّ يدها فتلمس تشارمن الذي كانت ترى فيه النجاة، وتمنت أن يكون هو منقذها.

في نيكيتينسي استقبلوها بالترحيب، ظهر الطبيب المناوب بسرعة وسألها عن حالها. هي طبعاً، لم تكن تعرف بماذا تجيب، لذلك قالت له ببساطة أن مياه الرحم قد انسكبت كلها.

– منذ متى؟

– منذ ساعتين... أو ثلاث... أوي...

– ألا تعرف أنت؟ – سأل الطبيب تشارمن.

– لا.

– ألست والد الجنين؟

– أنا صديق.

– هل هي الولادة الأولى؟

– نعم، – أجاب الاثنان معاً.

– ما زال أمامنا الكثير من الوقت إذن. هيّا بنا، سأرافقك إلى قسم التوليد.

– سيكون كل شيء على ما يرام، – وعدها تشارمن، وهو يبتسم ابتسامته الحزينة.

–     إلى اللقاء، – قالت تودع زوج كسانكا، وهي تنظر إليه نظرة حزن يصعب وصفها، كأنها كانت تودعه إلى الأبد.

في الطريق إلى قسم التوليد توقفا، وأشار لها الطبيب إلى خزانة صغيرة، أمرها أن تضع فيها أشياءها كلها.

–     اخلعي ملابسك.

لم يكن باستطاعتها، طبعاً، أن تخجل، لأن أولى مغصات الطلق شدت جسدها كله حتى غدا بقساوة المعدن. أصدرت أنّة طويلة ونظر الطبيب إلى ساعته.

ظلت أشياؤها على الأرض. فيما بعد ستجمع تلك الأشياء إحدى العاملات في مشفى التوليد.

–     لماذا لم تحلقي الشعر – قال الطبيب فارداً ذراعيه.

الغريب أنها لم تستطع أبداً أن تركّز نظرها على وجهه.

–     لقد حددوا لي الولادة بعد أسبوعين! – أجابته.

أعطوها آلة حلاقة لا تشبه أبداً تلك الآلات التي كان أصدقاؤها من الرجال يستخدمونها. كانت آلة عتيقة، يبدو أنها من عصر ما قبل الثورة.

العاملون في المشفى أكدوا لها أن الشفرة التي في الآلة جديدة، ودفعوا بها إلى غرفة الاستحمام، حيث قحطت الشعر عن جسدها حتى غدا جلدها كجلد طفلة.

بعد ذلك ارتدت ثوباً أبيض مربوطاً بعقدة على الظهر، ومشت إلى غرفة التوليد، وفي الطريق انتزع أحدهم من عنقها مفتاح قفل شقتها القديم.

صاحت بصوت أنهكه الفزع.

–     هات المفتاح! هات المفتاح!

لكن مغصة ثانية خنقت حنجرتها.

أحدهم قال مازحاً: إنه، على الأغلب، مفتاح الخزنة التي تخبئ فيها النقود!

–     أو مفتاح السماء! – قال آخر.

أرغموها على الجلوس على أريكة التوليد فلسعت البرودة ظهرها وردفيها. بعد ذلك أحست لفترة قصيرة بأصابع الطبيب في داخلها.

– أربعة سنتيمترات، – أبلغ الطبيب أحدهم.

– ماذا يعني بأربعة سنتيمترات؟ – تساءلت في سرها.

أنزلوها عن الأريكة ومددوها على سرير عريض.

– وكيف سألد؟ – سألت خائفة.

– سنستدعيك بعد نحو ساعتين...

بقيت وحيدة، تعاني، كل خمس عشرة دقيقة، ألم طلقة. حاولت التحدث مع الجنين، رجته أن يجيب!... لكنه ظل صامتاً.

عموماً، هو لم يكن مهتماً بأمرها.

كان يعيش حالة من الذعر والفوضى. هكذا يشعر السمك في حوض أفرغ ماؤه. أضف إلى ذلك أن جسد الأم كان يتقلص بين الفينة والأخرى، من دون سبب واضح، فيسبب له ألماً جسدياً، وتلتمع في دماغه الذي تكوّن، كلمة «الموت» كشحنة كهربائية. هو لم يعد يفكّر بالانتقال من شكل إلى آخر من أشكال الوعي، بل راح جسده البشري يكافح يائساً كي يبقى حياً في هذه الظروف غير العادية.

كانت تصرخ طالبة المساعدة من الآخرين. وراحت تسمع، إلى جانب صيحاتها، عشرات الصرخات الأخرى، فتقول في سرها: يا إلهي، ما أفظع هذا الجحيم!... غير أنها تذكّرت بعد فترة أنها في مشفى توليد، ولا بد أن هناك أخريات يعانين في هذه الساعة المرعبة آلاماً فظيعة، وهنّ يهبن الدنيا ثمرات الحب أو المصادفة.

بعد بعض الوقت جاءتها امرأة ممسوحة قسمات وجهها، وطلبت منها برفق يشوبه الحزم، أن تتنفس كما يتنفس الكلب، وأرتها كيف يكون ذلك:

– هو! هو! هو! – عبر الفم!

في هذه الأثناء أصابتها مغصة جديدة... فأحست بدماغها ينفجر...

– هو! هو! هو!

اصبري دقيقتين، – قالت لها القابلة. – سنذهب من هنا قريباً

الجنين كان يكافح ببسالة. سحنته التصقت بالبوابة المغلقة، وكان من غير الممكن أن يفتح عينيه، وقد التوت يده اليمنى خلف ظهره، ولم تنكسر بسبب ليونتها. أما هي فكانت أحشاؤها تتقلص، وتتقلص ضاغطة جسد الجنين النامي.

– ما هذا الذي يجري؟! – صاح بها.

هي حتى لم تسمعه، لأنها، هي نفسها، كانت تصرخ بكل حنجرتها.

– ما عدت أستط يـ – يـ – ع!!!

– هيا بنا يا حبيبتي...

أنهضوها، واقتادوها خطوة، خطوة. أما هي فكانت تتوقف بين فترة وأخرى، توقفت عند الطلقة الخامسة والعشرين وراحت أنفاسها تتلاحق سريعة كأنفاس الكلب.

– أنا أموت! – صرخ الجنين. – هل تسمعينني؟!

هي لم تسمعه. كانت مضطرة لأن تعمل ما يجب عليها عمله، لا أن تتبادل معه الأحاديث.

راحت تتنفس، وتتنفس!

جمجمته انضغطت كأنها بين طرفي ملزمة.

هي صرخت فجأة، تريد الذهاب إلى المرحاض.

– أنت لا تحتاجين المرحاض، – قالوا لها. – يبدو أن!...

– سألوث جسمي كله!

أنزلوها عن أريكة التوليد، وأجلسوها على كرسي مرحاض كاذب.

شدّدت الضغط على أحشائها، فانضغط رأسه كقطعة من العجين.

– أنت تريدين إيذائي! – قال غاضباً وهو يغالب الألم. – ها قد تبين أي فضاء أنت!... يا تافهة!...

استجمع قواه كلها وأمسك بيده الحرة أمعاءها.

جلست من جديد على أريكة التوليد وهي تكاد تفقد وعيها من شدة الألم. من كان يراقب حالتها؟ – سأل الطبيب:

– لا أحد... تركوا الأمور تجري تلقائياً.

– يا لعقولهم القاصرة!

تتالت الطلقات، واحدة إثر أخرى، وبدأت حالة الولادة النشطة. هي لم تعد تصرخ، بل صارت تشهق، بعد أن نبحت كالكلاب حتى الإعياء.

هو كرهها! تجمّع مغالباً الألم. شدّ قوامه وانحنى ثم أطلق صرخة من فمه الأخرس، انقلب على ظهره كأنه رائد فضاء يدخل قمرة سفينته. وقف في بطنها منتصب القامة، وأطلق شتائم فظيعة، ثم فقد الوعي.

هي أيضاً فقدت الوعي نتيجة التشنجات في أحشائها، والضربة التي شعرت بها تحت القلب. وبينما كانوا يحاولون إيقاظها بمساعدة النشادر، انفتحت بوابة رحمها وانزلقت منها خارجاً قدم المولود.

أفزع هذا الحدث الطبيب فزعاً لا يوصف. من غير المعقول أن يكون قد ارتكب خطأ عند فحص الولّادة. لقد بدا له وضع الجنين عادياً تماماً!. هو تلمس رأس الطفل بإصبعه، ومن المستحيل أن يخطئ إصبعه فيخلط بين الرأس وكعب القدم!!...

– لا داعي للنشادر! – صرخ الطبيب. – هاتوا نقالة! وقناع أوكسجين!.

هنا تحرّك الجميع، عملوا بتنسيق. وضعوا الولّادة المغمى عليها على النقالة، واقتادوها إلى المصعد بأقصى سرعة ممكنة... ومن المصعد إلى غرفة العمليات.

استردت وعيها للحظة، فسمعت كلمة «قيصرية» وتحت تأثير الحالة العامة تركت وعيها يسبح في بحار مجهولة...

لقد أراد الرب ألا يعود وعيها ثانية إلى الجسد الرائع الذي يملكه. كان البنج سماً قاتلاً ليولكا.

حاولوا على مدى ساعتين تقريباً إنعاشها، أما هي فرقدت بعد ما عانته من آلام، ساكنة، مشرقة الوجه.

جسدها كان مفتوحاً عرضانياً، يتصاعد منه بخار خفيف بعد إخراج الطفل من رحمها. لقد كان المشهد، برأي بعضهم، يشبه بركاناً خامداً...

عموماً، لقد فعلت يولكا ما كان يجب أن تفعله.

الطفل الذي أخرجوه منها، عاش، بعد إجراءات معينة، حياة بشرية، وشرع يتنفس رغماً عنه. كان وزن الطفل الذي أنجبته يولكا أقل من ستة كيلوغرامات بقليل، أما طوله فكان عادياً، أي نحو خمسين سنتيمتراً.

لم يظل العاملون في مشفى التوليد فترة طويلة تحت تأثير الصدمة. لقد تعودوا مواجهة شتى الحالات بمرور السنين، وكان عليهم أن يتابعوا عملهم، فما الذي لا يحدث في الحياة. وحده

الطبيب الذي استقبل المولود سيظل يتذكر مدى الحياة هذا الموت غير المتوقع.

أخذوا جسد الوّلادة إلى عنبر الموتى، وانصرفوا، بينما كانت تتجمد، إلى التعامل مع الطفل الحي.

لم يقم الوليد خلافاً للعادة، بالبكاء حين إخراجه من رحم الأم، ولم يفرغ مثانته من البول، واكتفى بالنظر باهتمام إلى عيني الممرضة التي وجدت أن حالته هذه ليست طبيعية وصفعته على مؤخرته اللينة.

شعر بالألم، وأراد أن يشتم هذه المجنونة، لكن جهاز النطق لم يكن قد تكوّن عنده بشكل يناسب أفكاره الناضجة، لذلك خرجت من فمه فقاعة كبيرة من اللعاب، انفجرت فبللت وجه العاملة الصحية.

هي ظنت أن حنجرة الطفل ملأى بالبلغم وأن هذا هو ما يمنع الوليد من الصراخ كالمعتاد، ولذا دست إصبعها في فمه حتى البلعوم تقريباً، وحركته كي تتأكد من أن الطريق إلى الرئتين مفتوح. تحمّل هذا أيضاً.

لكن، حين اطمأنت إلى أنه ما من شيء يهدد حياة الطفل، ومددته على بطنه كي تمسح عن جلده ما علق به وتبودر ظهره، انتقم منها، فأرسل من جوفه نافورة مما يسمى «الخروج» الأول للطفل، أصابت الهدف... وتلوّث وجه الممرضة كله...

وبدا للممرضة أنها سمعت الطفل الوليد يضحك، لكنها، لأنها من أنصار الفلسفة المادية، عزت الأمر إلى خيالها المتعب، لذلك أعطت اليتيم، الذي ظهر حديثاً، إلى ممرضة أخرى، وذهبت إلى غرفة الفحص الطبي لتقيس ضغطها.

لفّوا يديه ورجليه وألبسوه قميصاً كالذي يلبسونه لمهتاج مصاب بالشيزوفرينيا كي يهدأ.

كيف يمكنه أن يُفهم هؤلاء المعتوهين أن هذا يؤلمه، وأن جلده كائن فيزيقي لما يتمّ نضجه إلى درجة تمكّنه من تحمّل اللفافة المنشّاة! إنها تحف مؤخرتي العارية كأنها ورق (الزجاج) الذي تحف به الجدران!... لقد عاش قبل هذا تسعة أشهر في وسط مائي. نفرت الدموع من عينيه، لكنه صبر، وظل يخترق بعينيه كل أولئك الذين يقتربون منه.

حين جاء الطبيب الذي أشرف على ولادته، ليراه، وليبلغ الجميع أنها ماتت بسبب تحسسها من المخدر، مبرئاً بذلك نفسه، إذا جاز التعبير، أدرك أنه يتكلم على أمه.

– لقد تقلّب هذا الطفل بشكل غير مفهوم في بطنها! – قال الطبيب. – إذ من غير الممكن أن أكون أخطأت فلم أميز الرأس من القدم!

كان الجميع يدركون تماماً أنه فعل ذلك بالضبط – أخطأ، فأشاحوا بأبصارهم عنه، لكنهم لم يلوموه كثيراً لأن ما قتل الأم الفتية، ليس خطأه، بل المخدر! هنا لم يستطع الطفل تمالك نفسه، فبكى،

بكى بمرارة، دفعت أحدهم إلى القول:

– كأن هذا الطفل يدرك أنه صار يتيماً!

وكيف يمكنه ألا يدرك! كيف يمكنه ألّا يعي، إن يتمه عظيم إلى حدّ لن يستطيع معه هؤلاء الأغبياء أبداً أن يستوعبوا كل تراجيدية ما حدث! لقد فقد فضاه! وهو لن يستطيع استرجاعه أبداً! إنه اليتيم الرئيس في هذا الكون!

بكى الطفل عدة ساعات دون توقف، إلى أن خلطوا له الحليب في زجاجة الرضاع بدواء مهدئ.

فيما بعد، تذكر أحدهم أن رجلاً أتى بالمرأة إلى مشفى التوليد، وأنهم لم يخبروه بما حدث.

كلّفوا، في صمت، «الطبيب – القاتل» بنقل النبأ السيئ. وذكروا همساً، كأنما من دون قصد، أن الأب ليس فتياً أبداً، وأن هذا ما يزيد درامية الحدث!...

في أثناء حدوث هذه المأساة في مشفى التوليد، وصلت كسانكا، مزينة كلها، وقد قصت شعرها وسرّحته كالفتيان، لكنها ظلت سمكة (سيلد) إنما من النوع الممتاز!.

أسندت رأسها إلى كتف تشارمن وهي تنتظر سماع أخبار سارة.

الاطلاع على ظروف وفاة يولكا استغرق دقيقتين، وبعد ستين ثانية قرر الاثنان تبني الطفل.

– ليونيتشكا، – قالت كسانكا. ليونيد...

– الآن صار عندنا ولد، – قال تشارمن وهو يبتسم ابتسامته الحزينة.

في عصر المادية، أحرقوا يولكا بعد ثلاثة أيام من وفاتها في محرقة دونسكويه. لم يحضر جنازتها كثيرون جداً، لكن الحضور لم يكونوا قلة. كاتيا الفيلية قبّلت جبينها طويلاً. وسي – سي غص ببكائه، أما زملاؤها في الدراسة فبكوا في صمت، وكل منهم يتصور حاله لو أصابته هذه الميتة في شبابه. وحضر لوداعها زملاؤها في أسرة تحرير البرامج الموسيقية، حضر حتى المقدم درونين الذي وقف في قاعة المراسم وفي يده قرنفلة حمراء.

لقد كان واثقاً من أن الطفل ابن أنطونوف، لذلك أخذ مكانه بالقرب من التابوت وراح يفكر في الزوال المحتوم لكل حيّ.

هو لم يكن يعرف الكثير عن المواطنة المتوفاة لارتسيفا، لكن معلوماته حوت الخبر الأهم، وهو أن هذه المرأة الشابة الميتة، قبرت في حياتها ثلاثة رجال. ثلاثة!... لم يكن مهماً أبداً كيف

انتقلوا إلى العام الآخر، ولماذا. المهم أنهم ماتوا في أثناء مساكنتهم لها. المقدم درونين لم يكن يحب الغيبيات، والحالات الغامضة، لذلك لم يأسف أبداً لموت المواطنة لارتسيفا.

– لم يمكّنوا كسانكا وتشارمن من تبني ليونيد.

لم يبينوا لهم السبب، كل ما قالوه هو أن الدولة سترعى هذا اليتيم. الدولة – ليست كأي أسرة. إنها القدرة والقوة!

لقد أسهم في حدوث هذا الرفض المقدم درونين، الذي كانت روحه ترفض بشدة أن يقوم بتربية ابن ضابط في الـ (ك. جي. بي) غجري تحاول الأجهزة دون جدوى أن تقبض عليه بالجرم المشهود وهو يهرّب تحفاً أثرية.

حثالة قذرة!

لقد حاول المقدم درونين نفسه أن يتبنى الطفل، وسعى إلى إقناع رئاسته بذلك.

أنا سأربي حفيد أنطونوف وسأزرع فيه أفضل التقاليد الموروثة عن جنود الاستطلاع! لقد كانت جدته من حملة الأوسمة!

تذكّر مظهر العميلة السرية الموحي بالقوة وأضاف:

– يا لعظمة تلك المرأة!...

الرئاسة لم تكن غبية، واستطاعت أن تزرع في صدر المقدم الشك في أن يكون أفلاطون أنطونوف والد الطفل، وأكدت له أن الاحتمال الأقوى هو أن يكون المجرم الذي أعدم كرينيتسين – سيفيرتسيف، هو والده، فشعر الطفل أسود، أما شعر أنطونوف....

– سينمو عندك مجرم!... ها – ها!

اتفقوا على أن تقوم الحكومة بتربيته.

تألمت كسانكا كثيراً! لقد كانت تلك فرصتها الأخيرة للحصول على طفل، أضف إلى ذلك أن القدر قدّم لها طفلاً يكاد يكون من صلبها. إنه ابن يوليتشكا! ظلت كسانكا تبكي شهراً تقريباً...

أعطوهما في مشفى التوليد أشياء المتوفاة التي وجدت كسانكا بينها مفتاحاً كبيراً نقشت عليه عبارة «مفتاح، عام 1905».

بكت مرة ثانية. وقرّرا أن يتوقفا عن زيارة رافيكوفيتش...

فيما بعد زارا حضانة الأطفال التي أرسلوا إليها الطفل اليتيم.

هناك استطاعت كسانكا أن تقنع مديرة الحضانة أن الميتة حلمت أن تسمي الطفل ليونيد.

– ألا تعرفين اسم أبيه؟

– كيف لا أعرفه، – أجابت كسانكا. – أعرفه. إن اسمه بافل بافلوفيتش سيفيرتسيف.

وهكذا ظهر إلى الوجود ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف.

لم يعمّدوا الطفل، بل تركوا لروحه الطفلة حرية اختيار انتمائها، وقد قامت هذه الروح بالاختيار آلياً بحسب الظرف.

كان ربيع عام 1964 يقترب من موسكو بعناد...

# - 6 –

الرقيب خموروف كان، بطبعه، لا يحب النساء المجندات، وها هم زادوا الطين بلة، فأرسلوا له فتاة قناصاً، فتاة ليست كالفتيات – في وجهها تعابير من عالم آخر، عيناها تخترقان أجساد الناس، وشفتاها مزمومتان كدودتين صغيرتين.

كانت تستعجله دائماً:

– متى سنذهب إلى حقل الرمي؟

فيجيبها بعقلانية:

– ما زال في الوقت متسع. النظرية هي الأهم.

كانت أنجيلينا تجلس في الدروس النظرية كأنها غير موجودة في الصف. وكان كثيرون من الطلبة، الفتيان صغيري السن، والرجال الناضجين، يحاولون التقرب منها فتستقبلهم بنظرة ملؤها الغضب، كأنها طلقة نارية مصوبة بدقة، فيفقدون الرغبة في التقرب من هذه المرأة ثانية.

أنجيلينا لم تكن تعرف أسماء زملائها في عملها الجديد. بعض الكنى كانت تدور في رأسها، لكنها لم تكن تربط أياً من هذه الكنى بأي من أولئك الزملاء، ما عدا الرقيب خموروف الذي كان يلقي عليهم خمس محاضرات في اليوم الواحد. ويعلمهم، إلى جانب ذلك، أسرار التعامل مع بندقية توكاريف ذات التلقيم الآلي، فقد كانت ليبيدا تحس به كما لو كان أحد أقاربها، فلو كان لها عمّ عمره يقارب الخمسين، وله أنف معقوف كأنفه، وعينان بسيطتان، فلاحيتان كعينيه، لشعرت بالثقة به، رغم محاولتها إخفاء ذلك.

– ليبيدا! – يناديها خموروف في كل درس وهو يخفض حاجبه البارز فوق عينه اليمنى، وسألها: – هل تسمعين ما أقول؟ – ثم يجيب بنفسه عن السؤال ساخراً. – طبعاً لا، فذلك غير ضروري!...

حين انتهت الدراسة النظرية تماماً، اقتادوا الطلاب إلى حقل الرمي.

هناك بدؤوا بالرمي منبطحاً من مسافة مئة متر.

يجدر القول إن المتدربين كانوا جيدين. المسؤولون لا يرسلون إلى خموروف طلاباً رديئين. فقد تم انتقاء جميع المتدربين عنده في أثناء الأعمال القتالية التي أظهروا فيها، بهذا الشكل أو ذاك، دقة في الرمي. لكن الرقيب الذي كان يعرف أن ليبيدا أصابت عشرة من الألمان في معركة واحدة، لم يكن يصدق ذلك أبداً. فليس كل ما يتضمنه التقرير صادقاً بالضرورة. أليس من المحتمل أن تكون نامت تحت أحدهم في فراشه؟!...

أمر المتدربين بأن يأخذوا مواقعهم.

انبطح الجميع فوق أوراق الصنوبر البري وشرعوا يصوبون بنادقهم.

– اذكّركم مرة أخرى! – أنذرهم الرقيب. – حافظوا على عيونكم، لا تلصقوها بفرضة التسديد! – مشى بمحاذاة خط الرماة. – ابدؤوا بإطلاق النار حين تكونون مستعدين. لكل رام الحق في عشر طلقات!...

جلس، أشعل سيجارة، وراح يفكّر بأمر ما. لقد كان يستطع حتى أن يغفو قليلاً على صوت طلقات تلاميذه، لو كان المخصص لكل منهم خمسين طلقة.

لكن بنادق «توكاريف» قذفت طلقاتها سريعاً، فسمح للجميع بالنهوض والانتظار في حالة راحة، حتى يتم حساب النتائج.

عند بلوغ الدريئة الخامسة خفق قلب خموروف بفرح، لأن طلّابه الذين دربهم كانوا عند حسن ظنه، فالنتائج فوق المتوسط. تابع خموروف سيره حتى الدريئة التاسعة التي كانت ترمي عليها الفتاة، وهو في غاية السعادة، فعنده الآن تسعة قناصين جاهزين للعمل منذ اليوم.

اقترب من دريئة ليبيدا وهو لا يتوقع الكثير، إنها لن تخرّب الصورة العامة حتى لو كانت خالية من أية إصابة، فتسعة أجزاء من المئة لا تعدّ شيئاً في مثل هذه الحالة! بل يمكن القول: إنها لا شيء!...

سمح خموروف لنفسه بالتدخين مرة ثانية، استنشق الدخان بعمق، وبعد ذلك نزع ورقة نتائج دريئة العريف.

عيناه رأتا وعقله رفض أن يصدق.

ثمانية وتسعون بالمئة... وعدد ثقوب الطلقات!... الطلقات العشر في ثقب واحد تقريباً...

دخل دخان السيجارة بلعومه خطأ، فسعل طويلاً، وراح يمسح الدموع التي سبّبها الدخان.

– إنها مصادفة! – قال في سره واثقاً. – حتى الأعمى يمكن أن يصيب الهدف بدقة مرة في حياته!

لكن خموروف أحس هنا، بكل رجولته، أنه يخدع نفسه، خوفاً من هذه المعجزة التي لا تتحقق إلا مرة واحدة لواحد من بين ألف من أفضل القناصين.

غير أنه استطاع أن يحتفظ بتعبير وجهه اللامبالي وهو يصرف المتدربين لتنظيف أسلحتهم. لكنه، حين انتحت ليبيدا جانباً، خلافاً لما فعله الآخرون، ولم تهتم بنتيجة رميها، ناداها بصوت منخفض:

– أيتها العريف!... أنت، يا ليبيدا، أنت! ابقي هنا!... عادت واقتربت منه، فأحس خموروف عند اقترابها، بالدهشة مجدداً من شحوب وجهها، وعينيها الممتلئتين بالخريف.

– ألا تهمك معرفة النتيجة؟

– ألم أصب الهدف؟

– أصبته.

– ألم أحقق النسبة المطلوبة؟

– حققتها.

– ما المشكلة إذن؟

يا لغرابة هذه المرأة، – قال الرقيب في سره.

– هل رميت من قبل؟

– رميت.

– أين؟

– سر حربي...

تذكّر خموروف التقرير الغامض عن الألمان المقتولين، ولم يتابع الاستفسار عن الموضوع.

– وهل تستطيعين إصابة الهدف على بعد مئتي متر؟

– أين هذا الهدف؟ – سألت وهي تنظر إلى البعيد، كأنها تبحث عن الأفق.

– هناك، في التلة، حيث أشجار السرو...

– أستطيع أن أجرّب.

– جرّبي إذن!

– سأجرب...

– جربي – جربي!

شرع يركض نحو التلة حاملاً دريئة وأوراقاً نظيفة وهو يدمدم: «جربي، هيا!»... لقد خدعها الرقيب. التلة تبعد أكثر من ثلاثمئة وخمسين متراً. دع هذه المرأة ترمي! هل يؤسفنا ذلك! عندنا رصاص. قد تنقصنا أشياء، لكن عندنا من الرصاص وفرة. هذه المسافة ليست مئة، بل ثلاثمئة وخمسون!...

عاد يتصبب عرقاً، كحصان عجوز عائد من الحقل في الكولوخوز. كانت أنفاسه تتلاحق، كأنه اجتاز الماراثون لتوه.

– انبطحي، – اقترح عليها.

بدت عبارته مزدوجة المعنى. لكنهما، هو وهي، لم يلاحظا هذه الازدواجية. أما القناصون الذين تجمعوا حولهما قهقهوا ضاحكين.

– أيمكنني أن أنبطح، أنا، معها، أيها الرفيق الرقيب، – قال أحدهم متواقحاً.

– يمكنك أن تنبطح، – أجابه خموروف. – لكن هل ستقوم بعد ذلك! انصرفوا يا أولاد الـ...! – صاح بهم. – انصراف حتى الغداء!

– حين بقيا وحدهما، قرفص الرقيب إلى جوارها وراح يتكلم بهدوء:

– سدّدي كما علمتكم، احسبي حساب الريح... هكذا... المسافة قد تكون خادعة... الطبيعة ميّالة إلى خداع البصر... إنها أمنا المخادعة...

هي لم تكن تصغي إليه، أصابعها كانت تقوم بالعمل تلقائياً، تفعل ما يجب، وكأنها كانت تمارس الرمي بالبندقية طول حياتها.

– حسناً، نار! – سمح خموروف لها بصوت هادئ أن تطلق النار.

أغمض الرقيب عينيه وهو يصغي إلى طلقات بندقية «توكاريف» المنتظمة الإيقاع، كأنه موسيقي يسمع أسطوانة مسجلة نادرة.

– خمس، ست، – همس مستمتعاً بصدى الطلقات. – ثمانية...

أنهت إطلاق الرصاصات العشر، وظلت منبطحة على ورق الصنوبر البري، بانتظار أن يسمح لها الرقيب بالنهوض، مستمتعة بالسكون هكذا ببساطة، تحت السماء الكبيرة.

أفاق خموروف من شروده، وركض من جديد نحو التلة يقفز فوق الكتل الحجرية كالجدي.

أما هي فابتسمت في إثر الرجل لأول مرة، وأدركت أنها تبتسم، لذلك تذكرت العقيد المختص بالرادار، من بعده العقيد تشودوف، وبعدهما الملازم فولوديشكا الذي تفوح منه رائحة كولونيا (شيبر)، وكوستيك طبعاً... أسندت خدها إلى أخمص البندقية ونظرت من جديد إلى مكان ما عبر الفضاء كله...

مشى خموروف في طريق العودة برزانة، حاملاً ورقة الدريئة المثقوبة بيد ممدودة. لو رأى مشيته طبيب نفسي لبدت له مهمة جداً، كأنها مشية رجل اكتشف لتوه كنزاً.

لكن، لو وُجد فعلاً مثل هذا الطبيب لأرسله الرقيب خموروف كي يدرس دماغ الخروف، لأن أي كنز لا يساوي شيئاً أمام ما حصل عليه.

ثمانية وتسعون من مئة، كل الطلقات في مركز الدريئة! – هذا ما كانت روحه تترنم به.

– هل تدركين من أنت؟! – قال وكل كيانه ينبض بروح معلم عبقري أمامه طالب يفوقه عبقرية.

– أعرف، – أجابت أنجيلينا وهي تستنشق بمتعة رائحة فوارغ الطلقات التي بردت.

– أنا أعرف أني حثالة!...

فيما بعد، أبلغ خموروف رؤساءه بأمر ليبيدا الموهوبة فطرياً، وأوضح للمحترفين أنه لم يلتق في حياته كلها مثل موهبتها.

– إنها ألماسة! – صرخ بأعلى صوته.

– اهدأ – نبهه رئيس المدرسة. – فأنت لا تتكلم على أويستراخ.

– هات لي هذا الأويستراخ، وسأرى كيف سيحقق ثماني وتسعين درجة بالرمي من مسافة ثلاثمئة وخمسين متراً، وفي أثناء هبوب ريح غير مواتية.

– لن نعطيك أويستراخ! إنه الوحيد في روسيا كلها!

– لقد أصابت من مسافة خمسمئة متر عيني الألماني المرسوم على الدريئة الاثنتين، وغرست رصاصة في فمه، وثلاث رصاصات في قلبه، وباثنتين مزقت خصيتيه!... ما رأيك؟!!

– والعاشرة؟... – سأل رئيس المدرسة بجزع.

– العاشرة في جبينه، يا بروكوبيتش.

«بروكوبيتش»صار الآن مهتماً بالأمر! أما الرقيب فصار في ذروة النشوة. فقد أصبح مفهوماً أن الأمر جديّ!

– من أين جاءت؟ – عذّب رئيس المدرسة رأسه بهذا السؤال الذي طرحه، هو حاول أن يعرف، فألمحوا له بوضوح – لا تحشر أنفك! هنا يأتي أيضاً وسام «المجد» من الدرجة الثانية... هو لم يحصل إلا على عدة ثقوب في سترته، وبعض شارات التميّز... أيمكن أن تكون هذه الليبيدا – رياضية؟

لقد بدا كأن الرقيب كان يسمع أفكاره، ففي المحادثة الثانية وصف له جسدها...

– تفحصت إصبعها. إصبع لينة، نما عليها مسمار من كثرة الاحتكاك. وخد أملس عليه وبر خفيف... إنها موهبة حقيقية! إنها الأولى من نوعها!...

– موهبة عذراء، – قال رئيس المدرسة مدققاً. – وماذا عن الآخرين، هل نخرجهم؟

– ولم لا؟! – فرد خمورروف ذراعيه. – الفتيان ممتازون! هم مستعدون لخوض المعارك منذ الغد. الأفضل ألّا تفكر بإبقائهم! لقد استنفرت قدراتهم كلها...

– وليبيدا؟

– أحتاج إلى المزيد معها! سأعمل، سأبذل جهدي، سأصقل موهبتها...

– هل ستعطيها أسرار الأستاذية؟

– هذا مؤكد! – وعده الرقيب.

باركه رئيس المدرسة، لكنه تريث لبعض الوقت، ولم يبلغ الجهات الأعلى بأمر ليبيدا. أراد أن يتأكد أن النتائج التي حققتها لم تكن مصادفة، فهو يعرف بخبرته أن مصادفات كثيرة تحدث عند القناصين، فقد يحقق قناص حديث العهد أعلى النتائج لمدة شهر، ثم تحين لحظة ينكسر فيها كل شيء، عينه يصيبها الحول، ويده تعوجّ، فيعيش من كان الطفل المدلل، كل ما تبقى من حياته لا يصيب هدفاً. لقد خبر رئيس المدرسة في عمله مديراً قبل الحرب، الكثير من الأمور، لذلك لم يسرع، بل تمهل حتى في تسليمها الوسام.

سمح بروكوبيتش لخمورروف أن يفعل بليبيدا كل ما يراه الرقيب ضرورياً، ولم يحدد له نظاماً، فما الحاجة للنظام ما دامت هي الطالبة الوحيدة في المدرسة!

عمل الرقيب خموروف حتى الخريف، عبر ربيع أشجار البتولا، وصيف الدفلى، مع أنجيلينا ليبيدا.

علّم البنت كل أسرار فن الرماية، أما هي فأتقنتها، ونشأ لدى خموروف إحساس بأن العريف ليبيدا إنما ولدت وولدت معها عادات القناص المحترف، فهي كانت تفهم توجيهاته (على الطاير) كما يقال.

علّمها الرمي من وضع القرفصاء. كان يرغمها على الجلوس في وضع القرفصاء، ساعات بلا أدنى حركة، وبعد ذلك فقط، يطلق شعاعاً من مرآة صغيرة هي الهدف. ولحسن الحظ، يثبت المرآة في رأس عصا، فلولا ذلك لفقد كلتا يديه.

وعلّمها خموروف كيف تتسلق الأشجار كقطة برية، وكيف تنام على الأغصان كالحية. وكان يكرر لها القول:

– وسادتك هي أخمص البندقية! ومنظار التسديد – أبوك، وسبطانة البندقية – أمك الحبيبة! أما هي فكانت تبتسم له، فيشعر أنها ممتنة شاكرة ما يقدمه من علم، لكنها لا تفتح أية صفحة من روحها. لقد كان خموروف رجلاً طيب القلب يرى أن المرء حرّ في أن يفتح روحه للآخر أو لا يفتحها، ويقدّر أن أموراً شتى حدثت في حياة هذه الليبيدا!... حسناً، إنها تبتسم – وهذا بحد ذاته أمر مفرح!

عاشا نصف عام هكذا، جنباً إلى جنب، وحان وقت الامتحان.

ليبيدا لم تكن تعرف ذلك، كان كل شيء مشفّراً، وقد وعدوا خموروف بإعدامه إذا زلّ لسانه وأخبرها.

أيقظوا أنجيلينا في منتصف الليل، وأمروها بالاستعداد في خلال خمس دقائق، ثم نقلوها في صندوق شاحنة صغيرة إلى مكان يبعد نحو عشرين كيلومتراً.

كانت المهمة محددة تحديداً غامضاً: التربص للعدو في النقطةA، الجهة التي سيظهر منها لم تكن محددة بدقة – زاوية رصد الهدف ستون درجة مئوية.

في تلك اللحظة وصل إلى المدرسة جنرال يحمل نجمة البطولة على صدره.

حضّروا مائدة لاستقباله، دعوا إليها حتى خموروف.

ظلّوا قرابة ساعتين يشربون الكحول في صمت، ويأكلون معه الخيار المخلل والبطاطا المسلوقة. بعد ذلك شرعوا يتحادثون.

– أهي جيدة إلى هذا الحد؟ – سأل الجنرال.

– إنها معجزة! – قال له رئيس المدرسة. – خارقة!...

– وما رأيك أنت، أيها الرقيب؟

– إنها تتفوق على أويستراخ بمئة نقطة!

– أي أويستراخ؟ – لم يفهم الجنرال.

– أفضل الرماة، – قال الرقيب موضحاً.

اكتفت القيادة بهز كتفيها، فهي لا تتذكر قناصاً بهذا الاسم.

هدّد بروكوبيتش خمورروف بقبضته، لكن الأخير لم يفهم لماذا.

– غير أن هذه البنت عبوس، – قال الرقيب بلهجة آسفة، وهي قليلة الكلام!

– أيها الرفيق الجنرال! – قال رئيس المدرسة ضاحكاً. – إن كنية الرقيب «خمورروف»[7]

– وماذا في ذلك؟

– ألا ترى في قوله إن «البنت عبوس» رغبة منه في منحها كنيته؟... ها – ها!

فقال الجنرال في سره، يبدو أن عقول من يكونون في المؤخرة في زمن الحرب، تصدأ، وحس المزاح يصبح عندهم نسائياً، ثم قال بصوت مسموع:

– ستطلق النار من بعد تسعمئة متر!

غص رئيس المدرسة بقطعة خيار وسعل طويلاً كالمسلول، وقرر بسرعة في سره أنهم سيزيحونه غداً عن إدارة المدرسة ولن يكون أمامه غير الجبهة. هو لا يخاف الرصاص، بل مثانته المريضة.

– كيف ذلك؟! – فرد خمورروف ذراعيه مستغرباً. – أنا نفسي لم أطلق النار من مسافة أكبر من ستمئة وخمسين متراً!

– نحن لا نحتاج قناصين من مسافة أقل فعندنا منهم الكثير!

التمعت عينا الجنرال، محوّلة وجهه البطولي إلى وجه تمثال، صب الكحول من الزجاجة في كأسه ثم شرب من دون أن يدعو الجماعة لمشاركته النخب:

– نخب النصر!

حرص رئيس المدرسة على اللحاق بالبطل لكنه غص من جديد، ليس بسبب الكحول، بل بصوت أحدهم يسبقه.

– نخب النصر!

الرقيب خموروف اكتفى بإحناءة من رأسه. وجهه الشاحب – اكتسى لوناً ينسجم ولون الجدران.

– يجب أن يتم الرمي في الساعة السادسة والربع صباحاً – أضاف الجنرال، وهو يمسح عن جبينه العرق الذي سببه السكر.

– ليلاً، – صاح خموروف.

– ليس ليلاً، وإنما صباحاً، – أجابه البطل مدققاً.

– أكلنا...! – قال بروكوبيتش بصوت ضعيف.

– الهدف سيظهر لمدة ست ثوانٍ فقط.

هنا شعر الجميع بالإحباط التام، بل إن رئيس المدرسة راح يدندن بصوت منخفض أغنية «السهب، السهب في كل الجهات»، أما الرقيب فأشفق على العريف ليبيدا، كما لو كانت ابنته، وقد تركت ليلاً في الغابة لتأكلها الذئاب، لكنه حبس دموعه.

حين بزغ الفجر كان خموروف الوحيد الذي لم ينم بل ظل جالساً إلى الطاولة واضعاً رأسه فوق ذراعيه المثنيين. لقد كان رجلاً مكتئباً.

الجنرال شخر شخيراً جنرالياً، أما رئيس المدرسة فبدا شخيره صدى لشخير الجنرال، لكن بصوت أخفض.

صاحت الديكة، منبهة حريمها الكثيرات العدد إلى أن الذكور في كامل الاستعداد القتالي، وأنهم سينقرون الآن الحبّ، ثم يقومون بتأدية واجبهم...

انفتح باب مكتب رئيس المدرسة بصخب جعل الجنرال يستيقظ على الفور، أما الرفيق المصاب بمرض المثانة ففتح عينيه ظاناً أن المكان يقصف.

على عتبة الباب وقف نقيب بصدر قوي وقامة بطول مترين، مباعداً بين ساقيه. وجهه أحمر، وعيناه زرقاوان، فللبطل الصنمي مرافق صنمي.

بعد ثانيتين كان الجنرال مستعداً لتلقي الأخبار.

– هيه؟ – هكذا سأل مرافقه.

النقيب أحنى رأسه.

كان هذا جوابه.

نهض الجنرال على الفور من وراء الطاولة. فسقطت الأواني على الأرض، لكنه لم يهتم إلى هذه التفاهات. أمسك رئيس المدرسة من تحت إبطيه، ثم أنهضه وقبّل شفتيه قبلة طويلة.

– لن أنساك!

ثم ضم البطل الرقيب خموروف ضمة طقطقت عظامه.

– شكراً يا رجل!

هنا فهم الجميع أن المهمة نُفّذت.

ابتسم رئيس المدرسة بكل فمه، أما الرقيب خموروف فبصعوبة حبس دموعه التي كانت هذه المرة دموع سعادة.

إنه أمر لا يصدق! من تسعمئة متر، في الفجر! – زغردت روحه.

– أتعرفون؟ – قال الجنرال. – أتعرفون أن هذه الليبيدا فقدت أربعة رجال في الحرب، كانت زوجة مؤقتة لكل منهم...

– ما رأيكم أن نسلمها الوسام؟ – سأل رئيس المدرسة.

– ألم تسلمه لها بعد؟ – سأل الجنرال بلهجة مهددة، لكنه هدأ في الحال. – الظرف الآن أكثر مناسبة لتسليمها الوسام... أحضره.

التقط رئيس المدرسة السكران توازنه ومال نحو طاولة المكتب.

– إنه هنا!

– يانيسليخالو! – نادى البطل.

– أنا هنا، أيها الرفيق الجنرال! – أجاب الوصيف الجميل.

– أين هذه المرأة؟ تفو، ماذا أقول! أين المقاتل ليبيدا؟

– إنها في المدخل، تنتظر! أجاب النقيب.

– أدخلها!

– حاضر

خرج نيسليخالو، أما الجنرال فصبّ القليل من الكحول في الكأس. كان هذا القليل كبيراً، قرابة المئة غرام، لكن الجنرال كان قويّ البنية أيضاً. شرب الكحول دفعة واحدة، من دون أن يشعر حتى بضيق نفس. ضغط في قبضته خيارة ضخمة وقضم نصفها محدثاً صوتاً، ثم غمز بعينه للرقيب، وأفرحه قائلاً:

– أنت يا خموروف ستمشي منذ الآن والنجمة على كتفك!

– أنا في خدمة الاتحاد السوفييتي!

– اخدمه، باركه الجنرال. – أما أنت، – التفت نحو رئيس المدرسة الذي كان يحمل بين يديه علبة الوسام. – ما رتبتك؟

– رائد!

– قناص؟

– هكذا بالضبط... قناص سابق...

– لا يوجد سابقون. أتريد العودة إلى العمل؟

– أنا لم أعد صالحاً للعمل – قال رئيس المدرسة بلهجة حزينة.

– لماذا؟ أنت بكامل صحتك، قويّ كثور!

هنا اقترب من كان رقيباً وصار ملازماً وهمس في أذن الجنرال موضحاً أن رئيس المدرسة ظل منبطحاً على الجليد، لا يتحرك، في مبارزة مع ألماني لمدة يومين. وهو الآن لم يعد سليماً. الصقيع أعطب مثانته...

– هل قضى على الألماني؟

– هكذا بالضبط.

– هكذا إذن، أيها الرفيق المقدم، – تابع الجنرال كلامه مخاطباً رئيس المدرسة.

– رائد، – قال من أصابه الصقيع مصححاً.

– هل سمعك رديء، أيها الرفيق المقدم؟

– أنا في خدمة الاتحاد السوفييتي!

– اخدمه، ودرّبْ لي قناصين كهذه! هل فهمت؟

– هكذا بالضبط.

ساد فرح كبير في مكتب رئيس المدرسة. وابتسم الجميع، حتى نيسلخالو الذي دخل وهو يطوق خصر ليبيدا بدلال..

دهش الجنرال بسرور حين رأى القناصة، حتى أنه هنأ أنجيلينا بلهجة أبوية، سلمية، غير عسكرية، بتنفيذها للمهمة، وأجابته بلهجة مواطنة مدنية:

– شكراً.

– لقد عثرنا هنا على وسامك، – أخبرها البطل بود. ونزع العلبة من يد رئيس المدرسة، فتحها، ثم راح يعلّق الوسام ببطء على صدر البنت، متلمساً بأصابعه غير المشغولة مرونة ثدييها.

أما أنجيلينا فسرت في قلبها قشعريرة صقيعية كأنها الإبر. عادت إليها الحالة من جديد.

– لكن، أين وسام «المجد» الذي نلته سابقاً؟ لمَ لا تعلقينه على صدرك؟ هزت كتفيها بتواضع فتاة تدعوها السماء لأداء رسالتها الغريبة.

– علقيه على صدرك، – قال الجنرال محاولاً إقناعها. – لقد منحك الوطن «المجد» فاقبليه، ولا تجعلي الوطن يزعل!

انتهى أخيراً من تثبيت الوسام على صدر سترة الفتاة، فشد على يدها، ثم توجه بالخطاب إلى الحضور:

– وهكذا أيها الرفاق الضباط... سآخذ العريف ليبيدا من عندكم... أنتم قمتم بعملكم بشكل ممتاز، والآن بات عليّ أنا أن أعمل!...

جمعوا أشياءهم في خمس دقائق. وصعد النقيب نيسليخالو إلى صندوق الشاحنة الصغيرة، أما الجنرال وأنجيلينا فاستقلا سيارة مرسيدس غنيمة حرب.

لوح رئيس المدرسة بيده في وداعهم وهو في غاية السعادة، أما الرقيب السابق خمorروف فبدا كمن صار يتيماً، انكمشت قامته في لحظة، وتهدل كتفاه... لقد كان يعرف أنه لن يرى بعد اليوم

أفضل تلميذة، وأحس في قلبه بالفراغ كأنه زجاجة كانت مملوءة بالكحول. ترى كيف، وبماذا ستملأ الآن؟

ظل خموروف طول أسبوع راقداً مكتئباً أعمق اكتئاب على فراشه الذي تفوح منه رائحة الحموضة، وحين وصلت إلى المدرسة دفعة جديدة من الطلاب، تأمل سحنهم الذكورية وقرر أن يكتب تقريراً يطلب فيه إرساله إلى الجبهة...

لماذا التأخير؟... في السيارة صارت زوجته المؤقتة على خط النار. لقد كان الجنرال رجلاً جريئاً، لم يخجل من السائق، نزع عن المرأة تنورتها وما تحتها بحركة واحدة، وراح يستمتع طول الطريق.

فيما بعد، حين وصلا إلى المكان المقصود، ضاجع البطل على مهل، من دون استعجال، جسد أنجيلينا في المنزل المخصص للجنرالات، فوق جلد دبّ.

ضاجعها بدرجة كافية من الرقة، تأمل بفرح في أثناء العملية شتى أسرار جسد المرأة. كان يعصر أحياناً بشدة صدرها القوي فتصرخ، وينفخ أحياناً أنفاسه الحارة في شعرها الذي تفوح منه رائحة الحناء.

الرجال جيدون في أثناء الحرب!

هي لم تعارضه في شيء. كانت تنفذ رغباته الجنرالية كلها، لكنها حين رضعت عصارته طلبت كأساً من الكونياك.

– لماذا؟ أهي منفرة إلى هذا الحد؟ – سألها البطل بصوت يشوبه الزعل.

السؤال هو السؤال...

كانت تستطيع أن تقول له الحقيقة، أن تخبره بأن ما ابتلعته سقط في أمعائها كقطعة من الثلج، لكنها أجابته كاذبة:

– أنا أحب الكونياك.

صب لها كأساً من الكونياك الأرمني، ثم مارس معها الحب مرة جديدة. كان هذا كثيراً حتى بالنسبة إليه. لكنه أراد أن يعرف أهي معجبة به شخصياً، أم أنها لا تفاضل بين من يضاجعونها! أهي جائعة جنسياً أم لا؟... هو لم يجد جواباً. وراح في الليل يفكر بالرجال الأربعة الذين قبرتهم.

– ترى هل سأكون الخامس؟ – أدخل هذا السؤال الرعب إلى قلبه. لكن البطل بطل إذا كان يخاف كالجميع، إلا أنه يعرف كيف يتغلب على خوفه، فينتصر عليه في معركة قصيرة، في جهد إرادة لحظي.

لقد تصرف الجنرال في هذه الحالة كما يجب. لن نموت – ما دمنا أحياء!...

أبقاها معه أسبوعاً، فتلفن له الجنرالات الأعلى مركزاً وسألوه: أين اختفت صاحبة الموهبة؟

– إنها موجودة عندي، – أخبرهم البطل وقد انتابه الحزن.

دعوه إلى اجتماع سريّ جداً رسموا فيه خطة لتدمير شخصية معينة.

– دعها تسافر غداً.

– ما المعلومات التي يمكن أن تعطى لها؟

– كل شيء بالخطوط العريضة، – قال مدير العملية. – أعطها طقم تمويه، ودعها تدرس صورة الشخصية الهدف. نبهها إلى أنها ستواجه ظروفاً لم تألفها.

– حسناً، – أحنى الجنرال رأسه موافقاً.

– وأبلغها أيضاً أن رجلنا سيزيل كل الآثار إذا حدث خطأ... هل ما زالت تحيض؟

– لا، – أجاب الجنرال على الفور.

الرجال الذين كانوا يخاطبونه أذكياء، لذلك سألوه:

– هل لنا أن نأمل ألّا تعيق علاقتكما الشخصية تنفيذ المهمة؟

– هي نفسها ستعالج الأمر إذا ظهر عائق... إنها امرأة من النوع الذي يعتمد على ذاته...

استمعت إلى أمر المهمة القادمة بهدوء، كأنها قامت من قبل بمئات العمليات المماثلة.

– المسافة ليست ألف متر – بل سبعمئة!... ستصيب الهدف!... أما ركوب الطائرة فقد حلمت به دائماً...

في هذه الليلة مارس البطل الحب مع جسد أنجيلينا وفي نفسه شعور خاص، كما لو أن هذه الفرحة الجنسية كلها ستنتقل اعتباراً من الغد إلى أيد غريبة ستداعب أصابعها الأماكن الحميمية من جسدها، كما داعبها هو، بل ربما أفضل... أو أن رصاصة ستخترق رأسها في حالة الإخفاق في تنفيذ المهمة!...

تصور للحظة انطلاق الرصاصة من سبطانة البندقية، ثم انصرف عن ذلك في الحال، كازّاً على أسنانه من فرط اللذة.

ارتجف جسدها من شدة البرودة القطبية التي سرت فيه، أما هو فظن أنه قد حقق معها البلوغ المتزامن للنشوة، فخفق قلبه بسعادة يشوبها ألم في الروح. كان ذلك شعوراً لم يعرف في حياته كلها مثله... تذكّر الأربعة الذين سبقوه، واعترف لنفسه بأنه يفهم الآن المصريين القدماء الذين كانوا يقدمون أرواحهم ثمناً لقضاء ليلة مع امرأة، وأي امرأة!

– كليوباترا... – همس لنفسه بحرارة.

أما هي فكانت نائمة في حضنه. لم تكن أبداً كليوباترا، بل أنجيلينا ليبيدا، القناصة، المرأة الروسية التي منّ عليها الرب بعبء سماوي يتحمله جسدها وروحها اللامتناهية.

أقلعت الطائرة بها ليلاً، يرافقها ابن إحدى القوميات عيناه آسيويتان، ووجهه شاحب، كأنه كان مصاباً بـ «أبو صفار». لم يعرّفها بنفسه، ولم يفتح معها أي حديث. كل ما كان يفعله هو النظر إلى الساعة بين وقت وآخر.

هي أيضاً لم تكن متشوقة لطرح أية أسئلة على شخص لا تعرفه، عادّة ذلك أمراً غير لائق في أثناء أداء الخدمة.

لم تفكر أنجيلينا مطلقاً بالمهمة التي تنتظرها، هي لم تكن تفكر بشيء، كانت فقط تصغي لهدير محركات الطائرة، وتحاول أن ترى ما وراء قمراتها في الليل. غير أنها لم تكن ترى شيئاً سوى التماعات البرق النادرة. لقد رأت للمرة الأولى في حياتها التماع البرق تحت قدميها، وليس فوق رأسها... خطرت في ذهنها صورة الجنرال، لكن صورة البطل لم تدم في ذهنها طويلاً، تشظّت ألف قطعة، كما تتشظى الصور في موشور الأطفال... أما صورة وجه المختص بالرادار مافتشانوف فبقيت في بالها فترة طويلة، حتى نهاية الرحلة بالطائرة تقريباً. ترى لماذا حدث ذلك؟ لم تجب نفسها على هذا السؤال، فهي مستسلمة للقدر منذ زمن طويل، شاعرة في أعمق أعماق كيانها بأن كل ما يحدث معها مقدّر سلفاً ولا داعي لإضاعة الوقت بالسير ضد التيار ما دام جريانه يقودها إلى الضفة التي يجب أن تستقر فوقها...

حين انتهت الساعة الرابعة من الطيران، واندفعت الشمس إلى داخل صالون الطائرة باهرة بصرها لقربها منها، تكلم ذو العينين الآسيويتين:

– تستطيعين إطلاق رصاصتين. لن يتسع الوقت لأكثر من ذلك... هل هناك أسئلة؟

– هل أنت مرافقي؟

– أنا... موجه. المرافق ينتظر في المكان المقصود.

– إلى أين نطير؟

– إلى أحد بلدان الشرق الأدنى. إنه بلد يجب ألّا تعرفيه.

– هل فيه الكثير من الرمال؟ – سألت ليبيدا.

– أنت شديدة الفطنة.

– ليس استنتاج ذلك صعباً، لا يسما وأن قناع التمويه أصفر اللون.

أحنى ذو العينين الآسيويتين رأسه مؤيداً.

– تستطيعين تغيير ملابسك. سنهبط بعد خمس وعشرين دقيقة.

– حاضر.

فتحت سحاب حقيبة الظهر بسرعة وأخرجت منها بدلة عمل، وضعتها على أرض الطائرة المعدنية، ثم خلعت ملابسها بسرعة أيضاً غير مكترثة بالموجه.

– الجو هنا حار. حار جداً.

كانت قد غاصت حتى نصفها في رداء التمويه، خلعته، وخلعت البنطال العسكري والكنزة، وبقيت في ثيابها الداخلية.

– سأظل بالسروال الداخلي وحمالة الصدر. الصدر من دون الحمالة قد يعيقني لحظة إطلاق النار.

هزّ ذو العينين الآسويتين كتفيه بلا مبالاة.

سألها، حين أتمت ارتداء ثوب العمل:

– هل أعطوك نظارة؟

– نعم.

– الأفضل أن تضعيها ولا تنزعيها إلا لحظة الرمي، فقد تهب الريح ويدخل الرمل إلى عينيك... هل فهمتني؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

لم ترحها النظارة، رفعتها فوق جبينها لحين هبوط الطائرة، فشعرت كأنها تمتطي دراجة نارية.

– هل أنت كازاخي؟ – سألته.

– أنا قيرغيزي، – أجاب الموجه.

لم يدهشه السؤال.

قال في سرها: يبدو أنه ما من شيء عموماً يدهش هذا الآسيوي.

– أنا مواطن في الاتحاد السوفييتي.

– هل سترافقني في العودة؟

– هذا إذا عدت...

لو قال هذه العبارة شخص آخر لعدّت ذلك مزاحاً، لكن يبدو أن هذا القيرغيزي لا يعرف حتى ما المزاح، لذلك استنتجت أنجيلينا من عبارته أن أموراً شتى قد تحدث، وحينذاك سيدفنونها في الرمل بكل بساطة، إذ لا داعي للمغامرة ونقل الجثة بالطائرة. ورأت أن الدفن في الرمل حلّ معقول.

بدأت الطائرة بالهبوط، فصاح ذو العينين الآسيويتين عبر ضجة المحركات:

– ضعي النظارة!...

أحنت رأسها بالإيجاب.

شعرت ببعض الغثيان بسبب ارتجاج الطائرة. وحين خرجت منها انتشقت هواء ساخناً ملأ رئتيها، أشاحت بوجهها، وانحنت، ثم وضعت إصبعيها في حلقها وأفرغت ما في أمعائها.

راقب القيرغيزي كل شيء باهتمام، وحين انتهت من الاستفراغ، أمسكها من يدها وأدارها مقدار تسعين درجة.

ظهرت أمام وجهها سحنة بنية تماماً، بلون الشوكولا، بقبعة حمراء، وعينين سوداوين، بياضهما، بدا لها، مخلوطاً بالدم.

– هذا زميلك، – قال القيرغيزي وهو يقدم لها هذه الشخصية من «ألف ليلة وليلة». – نحن نسميه إيفان.

دهشت وقامت بتقديم نفسها.

– جيليا.

– أنت في جميع الأحوال لن تتذكري اسمه، هو، بالمناسبة لن يتذكر اسمك أيضاً، إذ لا حاجة لذلك. هو يكاد يجهل اللغة الروسية.

دهشت مرة ثانية.

– سيأخذك إيفان إلى المكان ويريك النقطة التي سيكون فيها الهدف... والآن احملي أداتك.

الأداة هي بندقيتها الحبيبة «توكاريف» ملفوفة ببطانية، لذا بدت كصرة لا شكل لها. البندقية «توكاريف» ليست أداة بل جزء من روحها.

الرجل الذي بلون الشوكولا، المسمى إيفان قلب شفتيه وأطلق صفيراً منغّماً.

ظهر من خلف هنغار المطار فتى وجهه بلون الكاكاو، يرتدي ثوباً أبيض، وعلى رأسه قبعة، فبدا كأنه نسخة مصغرة من مرافقها. كان الفتى يجر خلفه حمارين، أو بغلين. أنجيلينا لم تعرف، فقد كانت ضعيفة المعرفة بعلم الحيوان.

لا بد أن الفتى ابن المرافق، – قالت في سرها.

وبينما كان القيرغيزي والمرافق يضعان الأداة على سرج الدابة، راحت أنجيلينا تتأمل عيني الفتى. كانتا سوداوين أيضاً كعيني أبيه، وقد أفرحها، لسبب ما، أن بياض عيني الولد ما زال يحتفظ بزرقة خفيفة لطيفة ولم يختلط الدم بلونيه السماويين.

– لقد حان الوقت، – أعلن القيرغيزي.

– نعم – نعم، – قالت وهي تحني رأسها بالإيجاب.

المرافق قال شيئاً للفتى بلغة كلغة الطيور، فشمّر الفتى ثوبه الأبيض حتى الركبتين وركض بسرعة نحو الهنغار.

– بعد أربع وعشرين ساعة سأغادر، – نبهها القيرغيزي.

أحنت رأسها بالإيجاب مرة ثانية.

لم تودعه، مشت إلى جانب الحمار وهي ممسكة بعنانه، تماماً كما فعل إيفان الذي قاد الحمار الآخر.

في الصرّة كلها حقيبتا ظهر وبندقية، قالت جيليا في سرها، أما الحماران فللتمويه فقط...

بعد المشي ساعة في الرمل المتحرك فكرت بشكل مختلف

إيفان قال لها شيئاً ما وأشار إلى سرج الحمار.

رطبت شفتيها بلسانها ثم امتطت الحمار وتابعت الرحلة متمايلة على ظهره. وبعد نصف ساعة امتطى إيفان ظهر الحمار الثاني.

كانت الشمس تلهب رأسها على الرغم من المنديل الأصفر الذي يغطيه وينعقد عقدتين متينتين تحت الذقن، وكان العرق يسيل من تحت نظارتها التي تشبه نظارات راكبي الدراجات النارية، فيشوه زجاجها المبلول العالم أمامها ويصعّب تعرفها عليه، ففقدت الإحساس بالزمن، وصار جسدها يبتلّ تارة ويجف في لحظة مسبباً حكة في جلدها كما لو أن سرباً من الطفيليات يدبّ فوقه.

– نحن نسير منذ ساعتين، – بلغت سمعها هذه العبارة.

لقد بدا لها أنها قضت دهراً على ظهر الحمار.

– آها! – قالت مبتهجة دون سبب واضح. – هذا الفتى يتكلم!

– ما اسمك؟ – سألته.

لم تحصل على جواب.

أعادت السؤال.

صمت.

فهمت أنه لن يجيب.

بعد قليل شعرت ببطتي ساقيها تلتهبان. حفّتهما على خاصرتي الحمار...

ازداد ألمها، غير أن الألم الجسدي أرغم عقلها على إدراك الواقع.

بعد فترة سمعت:

– نحن نسير منذ ثلاث ساعات.

ترى كم الساعة الآن؟ – تساءلت في سرها ونظرت إلى ساعتها عبر زجاج النظارة المتعرق، فلم تر غير إطار ميناء الساعة، حدّقت بإصرار محاولة أن ترى أين سهم الساعة الكبير، وأين سهمها الصغير...

لكنها أدركت فجأة أن الوقت الذي تشير إليه ساعتها هو الوقت في وطنها الحبيب البعيد جداً، أما هنا فالتوقيت مختلف حتماً لأننا في حزام توقيت مختلف...

فجأة صار حمارها يتعثر، فقررت أنه لا يصلح للعودة. إنه مهيأ لنقلها في اتجاه واحد. وهذا يعني أنها، هي أيضاً، يجب أن تموت...

قد تكون فكّرت على هذا النحو بسبب الحرّ، فالحمار سيرتاح و...

– هنا، – طرق سمعها صوت إيفان.

فتحت عينيها فرأت الإنسان الذي بلون الشوكولا يتحول فجأة إلى إنسان سريع الحركة بشكل غير عادي، أنزل الصرّة بسرعة عن ظهر حماره، وغطى وجه الحمار بكيس كبير، ثم قيّد قائمتيه الخلفيتين بزوج من الحبال، وأرغم هذه الوسيلة الحية للمواصلات على الانبطاح فوق الرمل.

كانت تنتظر ببلاهة إلى ما يجري إلى أن اقترب منها إيفان وربّت بكفه على ردفها.

فجأة حل في ذهنها وضوح كامل. تذكرت لماذا هي هنا، ترجلت عن الحمار، وأخرجت البندقية من لفافتها، وحملتها بين يديها كأنها طفل. كان الحيوانان يرقدان جنباً إلى جنب، ساكنين كالأموات لولا أنهما كانا يحركان قوائمهما المقيدة أحياناً، كأنهما يوشكان أن يختنقا.

لوح إيفان بيده داعياً الفتاة إلى اللحاق به. صعد فوق كثيب الرمل بمهارة قرد – كان ينقل قدميه سريعاً – سريعاً فوق الرمل.

وقبل أن يصل إلى ذروة الكثيب، التصق بالرمل ودعا أنجيلينا بحركة من يده إلى اللحاق به.

لم تكن لها مهارته في صعود التلة الرملية، أضف إلى ذلك أن بطتي ساقيها المخدوشتين سببتا لها ألماً لا يطاق، لكنها، رغم ذلك وصلت إلى حيث كان إيفان، فرأت حفرة بعمق يد ممدودة، مهيأة لتربص قناص.

زحفت بحذر إلى داخل الحفرة المعدة سلفاً، وسحبت معها بندقيتها. هي كانت تعرف ما الذي يجب أن تفعله، لذلك لم يلحق بها، بقي ملتصقاً بالرمل كذبابة عالقة بشريط دبق.

الحفرة كانت مفروشة ببساط عتيق وفي إحدى زواياها إبريق معدني فيه ماء وجراب جلدي فيه منظار.

أول عمل قامت به هو أنها فتحت الأقفال المعدنية لجراب المنظار وأخرجت العدسة المكبرة. ثم أخرجت رأسها من الحفرة ببطء، كما لو كان منظار غواصة، أو رأس أفعى الكوبرا وهي تستعد للهجوم، فكان من الصعب على أي مراقب خلف الكثبان أن يلحظها.

فحتى منظارها كان بلون الرمل.

في الأسفل لاح ما يشبه الواحة المهجورة، بضعة مبان نمت بينها أشجار نخيل. رأت جيليا مثلها في حديقة النباتات.

بدت لها الواحة خالية من الناس والحيوانات، يسودها الهدوء، ولا يتحرك فيها غير الريح التي كانت تجرف جداول من الرمل.

كانت تعرف أن كل ما تبذل من جهد يمكن أن يكون عبثاً، لكنها كانت تحس أيضاً أن العدو يملك خبرة بالتأكيد، وأنه حتى في هذا المكان، الذي نسيه الرب، يحمي حياته بدقة.

أخيراً نزعت عن عينيها نظارة راكب الدراجة النارية فأحست لدقيقة بالعمى، وكأنهم صبوا في عينيها ذهباً مصهوراً.

تمالكت نفسها بسرعة، وركّزت نظرها من جديد عبر عدسة المنظار، وراحت تتفحص المكان سنتيمتراً بعد سنتيمتر...

لا أحد...

شربت ماء، – الماء فاتر يشوبه طعم المعدن، – ثم عادت تنظر من جديد...

توقف عندها الزمن... هذا ما يحدث معها دائماً عندما يحين وقت العمل. تسكر بالزمن، تبتلعه بجرعات كبيرة وغير ملحوظة في الوقت نفسه. إنها ليبيدا – فرس مونخ هاوزن...

جيليا نسيت حتى مرافقها، بل نسيت العالم كله. الآن، حين أخرجت حبيبتها بندقيتها «توكاريف» من كيسها، وراحت تنظر عبر فرضة التسديد في منظار البندقية، صارت هذه الواحة المهجورة عالمها كله...

هي حتى لم تلحظ كيف زحفت عظاءة صغيرة خارجة من تحت جحر صغير، رفعت كفها ثم جمدت وهي تنظر إلى الإنسان. كانت العظاءة من الذهب الخالص، علماً بأن كل شيء هنا في الصحراء يبدو ذهبياً. شبعت العظاءة نظراً إلى الإنسان، فركضت بسرعة كبيرة – كبيرة في الرمل، وقفزت إلى كوع يد جيليا، ثم ركضت إلى كتفها، بعد ذلك اندست تحت المنديل المموه بالأصفر, ومشت عبر خصلات الشعر الدبقة. وصلت إلى الأذن فاندفعت بسرعة عبر الدهليز السمعي، تجاوزت غشاء الطبل ووصلت إلى المخ. شقت العظاءة في مادة مخ الإنسان الرمادية ممراً طويلاً نحو قاع الجمجمة، وصلت إلى الهيبوتلاموس وعضته عضة صغيرة. أخيراً أبصرته جيليا.

مظهره الجانبي كان مألوفاً تقريباً، وقد انطبع بوضوح في وعيها... وجه رجولي جميل، بشرة بيضاء رغم حرارة الشمس الحارقة... برودة تشع من الوجه، هذا ما أحست به جيليا عن بعد. غير أن ذلك كان في الواقع برودة مخلوطة بقيظ الصحراء... حسبت المسافة... إنها أكثر من ألف ومئة متر... لم يخفها ذلك، فهي تعرف أنها ستصيب الهدف بالتأكيد. إحساسها بالبرودة لم يكن عبثاً... ألم حاد كالإبر يخترق دماغها في لحظة، هي لم تشعر به تقريباً، فقد كانت غارقة في عملها...

أما العظاءة فانسلت في هذه الأثناء من أذن الإنسان، وقفزت عن كتفه، ثم ركضت فوق الرمل بسرعة مجنونة.. عبرت الصحراء ومرت راكضة بجانب مدن عديدة، واجتازت البحر على ظهر سفينة، ثم وقعت بين يدي عالم بيولوجيا محظوظ، فصبّر جسدها في الكحول، عادّاً إياها نوعاً جديداً سماه «عظاءة ميكيلو بولووس الذهبية». ميكيلو بولووس – هي كنية ذلك العالم البيولوجي...

بعد ذلك ضغطت جيليا برقة على الزناد.

ظلت الطلقة تطير أبداً. عينا الضحية تحركتا في أثناء انطلاقها، تركّز نظرهما على مسافة بعيدة، وكان بمقدورهما تماماً أن تلحظا التماع عيني جيليا.

أصابت الرصاصة فم الضحية الشاحب وخرجت من يافوخه... تريثت البنت حتى اختفت البرودة، عند ذلك فقط شرعت تجمع حاجاتها. لفّت البندقية «توكاريف» بالبطانية، وأرادت أن تضع النظارة على عينيها، لكنها أدركت أنها لم تعد تحتاجها. خرجت من الحفرة وانزلقت عن كثيب الرمل كما لو أنها كانت تنزلق عن تلة جليد، وتوقفت عند قدمي إيفان. وجهه الذي بلون الشوكولا كان يعبر عن القلق. كان يمسك عناني الحمارين بإحدى يديه، ويشد بالأخرى على مقبض سكين نصلها من الفولاذ الأسود.

يبدو أنه لا يصدق أنني أصبت الهدف، قالت جيليا في سرها، لكنها أطلقت شتيمة مقذعة بصوت مسموع.

تغيّرت تعابير وجه إيفان. بدا أنه فهم ما الذي تعنيه، فأشار برأسه إلى الحمارين المحررين من القيود، الجاهزين للانطلاق في طريق العودة.

في هذه اللحظة بدأ إطلاق النار...

حاولوا قتلهما بنيران الرشاشات... شعرت بأن رأسها ينفجر نتيجة ضجة الانفجارات. وامتلأ فمها وعيناها بالرمل في لحظة. فقدت إحساسها بالجهات، لكنها رغم ذلك لم تكن تشعر بالخوف. كانت تقف منتصبة القامة، فهي تعرف سلفاً أنها قد لا تعود من هذه المهمة.

أنقذها إيفان.

شدّها إليه، طوّق خصرها، وقذفها على كتفه كبساط ملفوف، وركض.

حاولت أن تقول شيئاً ما وسط صخب انفجارات القذائف، لكن فمها كان محشواً بالرمل، فقررت أن تسترخي. تذكرت فجأة أن الرجال في إحدى القوميات ينقلون زوجاتهم من مكان لآخر بهذه الطريقة نفسها. أتراهم الطليان؟ أم هم الأفارقة؟.. لم تتذكّر...

أما هو فاستمر يركض.

هي حاولت أن تتذكر شيئاً، لذلك لم تنتبه إلى أن ضجيج الانفجارات قد هدأ.

– اجلسي، تذكّرت.

أنزلها، بل رماها تقريباً، – عن كتفه.

هي لم تتمكن من فتح عينيها اللتين امتلأتا بالرمل. بعد لحظة أحست بجدول صغير، دافئ على وجهها، يغسل عينيها، ورأت مصدر ذلك الجدول. أرادت أن تمد يدها إلى «البندقية» لكن البندقية لم تكن موجودة. نسيت الإهانة في الحال، وقفزت واقفة، وصرخت:

– أين «البندقية»؟!! «البندقية» أين؟ أنا أسألك؟!!

– البندقية لم تعد موجودة... – قال إيفان وهو يترنح. – حطمتها قذيفة...

كان أسهل على أنجيلينا لو أنهم أطلقوا الرصاص على بطنها. تداعت ساقاها، وسقطت على الرمل.

– والحماران؟

– صارا لحماً...

أشار بإصبعه إلى الشرق وقال بصوت ضعيف:

– اركضي إلى هناك!...

بعد ذلك تكوّم على الأرض، رفّ بعينيه المشوب بياضهما بالدم، مرة أو مرتين، ثم أغمضهما ومات. مات وهو جالس. شحبت شوكولا وجهه، ثم صار الوجه أبيض تقريباً.

هي أكلت ذات مرة شوكولا بيضاء اشترتها من مخزن يليسييف.

الآن فقط، اكتشفت جيليا أن بدلة العمل التي ترتديها مبلولة بالدم.

بعض الشظايا أصابت ظهر مرافقها، وكلها في موقع القلب.

كيف حملني؟ – سألت نفسها مندهشة. – من أين له هذه القوة السحرية، ومن أجل ماذا قتل هذ الإنسان تاركاً بعده ولداً يتيماً؟...

أطلقت زفرة عبر أنفها وركضت نحو الشرق وهي تحاول أن تتذكّر ما إذا كانت قد تعلمت في المدرسة شيئاً ما عن الأحزاب الشيوعيّة في افريقيا... لم تسعفها الذاكرة، لكنها تذكّرت «البندقية» المحطمة.

سالت الدموع جداول من عينيها، كأنها طفل فقد أمه.

بعد ذلك فعلت الشمس فعلها. ركضت جيليا فوق الرمل الزلق، وعقلها مغلق.

اللـه وحده يعلم كم ركضت.

حملت ساقاها القويتان جسدها القوي في ظلمة الليل، وأضاءت النجوم المتوهجة قريباً جداً من الأرض، عدوها الليلي. أما القمر الذي لا يشبه أبداً القمر الروسي، المدوّر كرغيف خبز عربي، فكان يعكس الجانب الآخر المدمى من الأرض، الغارق في الحرب العالمية الثانية.

ثم حلّ الصباح

نظر القيرغيزي عبر قمرة الطائرة للمرة الأخيرة كنوع من الاحتياط فرآها. كانت تركض كأنها لا ترى الطائرة ولا تسمع هدير محركاتها.

هي لم تكن تحتاج عموماً إلى هذه الآلة. روحها كانت تطير بأجنحتها الخاصة إلى أرض وطنها الحبيبة، وكان هذا الركض جميلاً جمال ما في جسم المرأة من تناسق، الأمر الذي جعل القيرغيزي ينسى الحرب وينسى ذاته، وكل ما في العالم عموماً. لم ينتبه إلا حين كادت جيليا تختفي عن نظره، فصرخ بأعلى صوته يخاطب الطيار:

– أطفئ المحركات!!!

قفز من الطائرة من دون أن ينتظر السلم، وركض وراءها كما كان الرجل يركض في عصر ما قبل التاريخ كي يحصل على زوجة...

غير أن ساقيها كانتا أطول من ساقيه، أضف إلى ذلك أنها كانت تركض على إيقاع حب الوطن، لذلك اضطر الموجّه إلى إخراج مسدسه ويفرغ مخزنه كاملاً في الجو.

سقطت على الأرض شبه ميتة...

حملها على ذراعيه بحرص، رغم أن قلبه كان يخفق بحماسة، محاولاً إرغام حنجرته على إنشاد أغنية سحرية.

كيف وصلت؟!...كيف عرفت الطريق؟!...

دار في رأسه، ببعد الأغنية السحرية، نشيد البلاد العظيمة القادرة على إنجاب امرأة جبارة كهذه!...في أثناء سير الطائرة على المدرج تمهيداً للإقلاع، قرّب القيرغيزي من أنفها زجاجة نشادر، فتقلص وجهها، هذا يعني أنها حية...

على الأرض الغريبة، فتى يعتمر قبعة بيضاء، أقلعت الطائرة وبقي واقفاً قرب الهنغار ويبتسم في حيرة، وهو ينظر إلى الطائرة المغادرة...

إنه سيظل، حتى نهاية حياته، حتى آخر ثانية فيها، متأكداً أن الروس أخذوا أباه في الطائر الحديدي إلى بلادهم...

حين تأكدوا في الأركان من كل شيء، قبّل الجنرالات الكبار كلهم وجه جيليا.

أرادوا أن يطلبوا منحها لقب البطولة، لكنهم اتخذوا فيما بعد قراراً آخر، هو منحها وسام «المجد» للمرة الثالثة، وهكذا تكون حاملة هذا الوسام بكل درجاته، فالنساء اللواتي حققن ذلك قلة معدودة على كل الجبهات!...

الأمر الطريف للغاية هو أن جنرالها توفي بعد شهر من أدائها المهمة. هو لم يمت بعمل حربي، بل تسمم بحساء الفطر. يبدو أنه أكل فطراً ساماً... الأبطال تصيبهم أنواع شتى من الموت...

أطلقت جيليا النار مرات كثيرة في أثناء الحرب، وصارت زوجة مؤقتة لكثيرين، لكنها، فيما بعد تزوجت زواجاً غير متوقع من جندي غريب الأطوار، أحبها كثيراً، لكنه لم يكن يضاجعها إلا نادراً، معللاً ذلك بأن الولوج في جسد المرأة لا يجب أن يتم إلا بهدف إنجاب الأطفال...

هي لم تكن ضد إنجاب الأطفال، لا سيما وأن الحرب انتهت سريعاً وروحها تاقت إلى حياة السلم.

لكن حياتهما ظلت من دون إنجاب طفل، إما لخلل في جسدها، وإما بسبب إيمانه الخاطئ.

حين رقد الجندي الغريب الأطوار على فراش الموت في عام واحد وستين، اعترف لزوجته وهو يحتضر بأن له زوجة أخرى من المحتمل أنها ما تزال حية وما تزال تقيم في مكان قريب في العاصمة، وأنه تركها كرمى لأنجيلينا.

– ما اسمها؟ – سألته ليبيدا من دون أن تعرف سبباً لسؤالها.

– يكيترينا، – أجابها الجندي ثم انتقل إلى جنة الجنود، تاركاً على الأرض ذكرى قصيرة.

بعده لم تتزوج أنجيلينا ليبيدا أحداً.

## - 7 –

قضى ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف الشهور السبعة الأولى من حياته في حضانة للأطفال اليتامى، ولا يكن القول إن هذه الفترة كانت بالنسبة للطفل فترة طفولة سعيدة.

وضعوه في البداية في مهجع يضم خمسة عشر وليداً يتيماً يتطلعون باستمرار، ويتبرزون أوتوماتيكياً، ويرغبون في الطعام أربعاً وعشرين ساعة في اليوم، فلم يكن باستطاعته سوى الإحساس بتوتر غير إنساني.

فبعد الهدوء النسبي في رحم الأم، والقدرة على التحكم بجسمها، والأهم، القدرة على التفكير، وقتما يشاء، بعدم دوام الوجود، حُرم الطفل دفعة واحدة من كل الامتيازات وصار جزءاً من مجموعة هو مرغم على العيش بقوانينها سواء أراد أم لم يرد.

ليونيد الصغير كان كبقية الأطفال الحديثي الولادة يتغوّط لا إرادياً. وكان يعذّبه شعوره الدائم بالجوع، وتغوطه اللاإرادي، فيصرخ بأعلى صوته.

لماذا أصرخ؟ – كان ليونيد يقول في سره في الدقائق النادرة التي كان يشعر فيها بالرضى عن حالته الفيزيولوجية. – إنه لمقرف تماماً ألّا أكون قادراً على ضبط خروجي، وألّا أستطيع التحكم بتبوّلي! وأن تكون الجملة العصبية متسيبة إلى حد يجعلني عاجزاً عن ضبط صراخي الهستيري.

هو يعرف طبعاً أن جسده سينمو بمرور الوقت، وسيصبح كل شيء على ما يرام... لكن، كيف سيعيش حتى يجتاز هذه الفترة الملأى بالإذلال والخجل!...

كان يكره المربية فالكا التي كانت تغسله، كأنه دجاجة سترميها بعد قليل في قدر من الماء الغالي – وتتعامل بلا مبالاة مع عورته، كأنها لا ترى فيه رجلاً ذكراً، وكثيراً ما كانت تستخدم الماء البارد في العملية كلها... وذلك المسحوق الكريه الذي لم تكن تقتّر في استخدامه!... يا لها من بقرة لا عقل لها!

كانت الدموع تسيل على وجه ليونيد كبيرة، لا تشبه دموع الأطفال.

بعد غسله كانت فالكا تلفّه باللفافة بشكل يمنعه من الحركة، لا يمنعه من تحريك يديه وقدميه فحسب، بل بشكل يضطره كي لا يختنق إلى شد عضلات رقبته وتحريك رأسه وتأمين فضاء يبقيه حياً.

هو في هذه الفترة لم يكن يعيش، بل كان يحاول البقاء حياً!

لماذا لا تنظر هذه الـ (فالكا) إلى عينيه؟ لماذا لا تهتم بنظرته الليونيدية الممتلئة بالمعاني؟... يا لسوء حظه في علاقته بالنساء الغبيات!... إحداهن، كان من المفروض أن يحتل فضاءها طول حياته، لكنها تخلت عنه بنذالة، ومضت تبحث عن شكل آخر من الوعي، وأخرى تشبه رأس القرنبيط المخلل تذله جسدياً ومعنوياً، ولا تفهم دور الرجل وجوهر اختلافه عن المرأة! أضف إلى ذلك، هؤلاء الصغار، الرفاق في الشقاء، إذا صحّ التعبير، ذوي الأدمغة الملساء، الرمادية كورق التنظيف في المراحيض العامة، الذين يعكّرون وجوده بحاجاتهم الجسدية التي لا تنتهي.

كانت عملية الإطعام تعذب ليونيد بشكل خاص. إنها تتم بواسطة زجاجة ورضاعة تفوح منها رائحة المطاط، الثقب الذي يسمح بمرور الحليب عبرها، موجود دائماً في وضع غير صحيح، فهو تارة صغير جداً، وتارة على العكس، يكاد تدفق الحليب منه أن يخنق الرضيع!...والأمر الأهم – هو مذاق ذلك الحليب! مذاق الحليب– مذاق الفقد! كل عملية إطعام – دموع طفل فقد أمه! وهكذا يرضع الطفل سائلاً مقرفاً لا شكل له!...

الحليب المصنع أفضل من هذا! – حاول ليونيد أن يوحي لفالكا بذلك بواسطة طاقة الأفكار.
– قدّمي أي خليط سائل يا غبية! اجلبي بقرة إلى هنا، إن أي شيء سيكون أفضل من هذا!

لكن فالكا التي لم تكن تملك موهبة استقبال النداء الذهني، ظلت تدس في فمه الرضاعة المطاطية الوردية اللون، أما هو فكان يطبق فكيه الخاليين من الأسنان، مقاوماً هذا التدخل غير الطبيعي.

كانت فالكا تتمتع بحرفية كافية، لذلك كان سهلاً عليها أن تتغلب على احتجاجه بالضغط على خده بإصبعيها، مرغمة إياه على فتح فمه.

وكان ليونيد يتوعدها في ذهنه بأنه حين يكبر سيمارس ضدها العنف نفسه، وسيبين لها سبب انتقامه هذا! يا لفظاعة هذه الحيوانة فالكا!

لا شك في أنه كان يعرف اللغة الروسية، لكنه لم يكن قادراً على أن يقول بها ما يريد قوله. هو يدرك أن جهاز النطق عنده لم يكتمل بعد... لكن متى سيكتمل، متى!!

يجدر القول إنه نجح مرة واحدة في التعبير عما يريد.

حدث ذلك حين اعتدت فالكا على جسده الصغير الذي لا يحميه شيء، اعتداء غير مقبول أبداً، فقررت أنه يعاني من عسر هضم، ودست في مؤخرته حقنة. ضغط بكل طاقته ردفيه بعضاً

إلى بعض، لكن هذه المرأة المحتالة كانت قد دهنت فوهة الحقنة المطاطية بالفازيلين، وهكذا استطاعت تحقيق ما أرادت.

هو عدّ ذلك ببساطة، إهانة لطبيعته الذكورية.

اندفع الدم إلى رأس الطفل، فرفع ساقيه، وفتح فمه، كأنه يريد أن يصرخ صراخاً يُسمع به العالم، لكن ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف حشد كل هذه القوة الكامنة الضخمة في كلمة واحدة:

– غبية! – نطقها الكائن ابن الثلاثة أشهر.

خرجت هذه الكلمة واضحة جداً، ضاعف قوتها ثلاثاً البورسلان الذي كسيت به جدران غرفة الأطفال، فكادت فالكا تسقط الولد من بين يديها. هي، طبعاً، لم تُسقط الطفل، لكن رأسه اصطدم صدمة خفيفة بحرف المغسلة المعدني. أراد أن يطلق شتيمة، لكن حباله الصوتية كانت منهكة نتيجة العمل المرهق، لذلك شرع ليونيد يصرخ، ودموع العجز والزعل العظيم تنهمر من عينيه.

– هل أنت من قال ذلك؟ – سألته فالكا وقد جحظت عيناها كأنما صعقها مرض الصرع فجأة.

لم يجب ليونيد على سؤالها، بل تابع صراخه مخبراً العالم أن اصطدام رأس الطفل بالمعدن – شيء مؤلم...

فالنتينا امرأة لم تكمل بعد الثالثة والعشرين من عمرها، تعمل في دار حضانة الأطفال اليتامى بعد أن أنهت دراستها الجامعية، وتعدّ نفسها خبيرة في رعاية الأطفال الذين لا راعي لهم، لذلك هي تعمل للعام الرابع في المكان نفسه.

كانت فالنتينا ترى أن الأمور المهمة التي تجعل المربي مربياً جيداً لا تقتصر على امتلاكه صفات احترافية، بل إن أكثر ما تتضمنه أهمية هو حب الطفل وقدرة المربي على منحه جزءاً من روحه، شعوراً روحياً ضرورياً بالأمومة، حرمت الحياة هذه المخلوقات الصغيرة منه.

في الجامعة لم يعلموها هذا طبعاً، لكن المرأة الحقيقية لا تحتاج لأن تدرس ذلك، فالغريزة الجبارة تلهمها ما يجب أن تفعله ومتى.

المربيات الأكثر خبرة نصحنها أن تقلّل من جرعة المشاعر الحقيقية التي تسكبها في قلوب الأطفال، لأن هؤلاء بالذات سيكونون عرضة للنهب عاطفياً حين ينجبون أطفالاً.

– القلب الإنساني، – قالت لها مديرة الحضانة بوديونا ماتفييفنا تشيغير موضحة. – القلب الإنساني ليس أبداً برميلاً من الحب لا قاع له! إن كل ما في هذا الوعاء من حياة مقسم إلى جرعات محددة! ولا يجوز تبديد أهم المشاعر على من هبّ ودب.

«من هبّ ودبّ» هم أولئك الأطفال – اليتامى الذين كان عددهم في دار الحضانة الحكومية ثلاثة ستون رأساً، بينهم أربعون بنتاً، وثلاثة وعشرون ولداً.

– هؤلاء اليتامى – تابعت بوديونا ماتفييفنا أداء دور المديرة. – هؤلاء الذين تُركوا للأقدار – هم أبناء سكيرين، وعناصر إجرامية، ومرضى سيفليس، وما شابه ذلك، وأنت، تمنحين هؤلاء حبك!

– أظن أن ما قلته لا ينطبق على الجميع! – قالت فالينتينا. – فهناك أبناء من قتلوا في حوادث سيارات، ومن ماتت أمهاتهم في أثناء الولادة... الكوارث كثيرة في هذا العالم!

– ليس على الجميع، طبعاً. – وافقتها المديرة. – لكن هل تستطيعين معرفة من ابن من؟

هنا أحنى جميع العاملين رؤوسهم.

– أنا إنما أتكلم على هذه المسألة! الأمر الأهم – هو أن تعاملي الجميع معاملة واحدة من دون استثناء! يجب ألّا تميزي أياً منهم، ألا تعطي أياً منهم أكثر مما تعطيه للآخرين!

القسم الأكبر من العاملين عند بوديونا ماتفييفنا كان يستمع إليها بإخلاص، لكنهم كانوا جميعاً تقريباً، لا ينفذون توجيهاتها بإخلاص، فقد كانوا جميعاً والحمد لله، نساء يعطفن على الأطفال. المديرة، ذات الثلاثين عاماً، لم تنجب أطفالاً، وقد عينت في المنصب ليس بناء على طلبها، بل بناء على توجيهات الكومسومول.

قال لها الكومسومول: «اذهبي يا بوديونا وربي الأطفال!» فذهبت.

تشيغير نفسها كانت (زعلانة) من اتحاد الشبيبة لأنه لم يقدر حق التقدير إمكاناتها على مستوى البلاد كلها، فأنزلها لتدير مؤسسة محلية في منطقة. غير أن بوديونا كانت عضواً صادقاً في الكومسومول، لذلك قاومت (زعلها)، وحاولت اجتثاثه لتبرهن بذلك للكومسومول والحزب أنها تستحق القيام بأعمال عظيمة. إن هذه المرأة ذات الصبغة السياسية، لم تفكر حتى بالزواج، وذلك كي تركز اهتمامها على عملها الذي كانت تؤديه من دون حب، ولكن باندفاع صادق. هي، طبعاً، كانت تئن في الليالي وهي تحلم بصورة دافيد لميكيل أنجلو، وتماثيل الشباب من منحوتات رودان، لكنها كانت تكتفي بيديها، وأحياناً تستعين بالخيار، ذلك فقط في فصل الصيف... أما غير ذلك فسيأتي وقته فيما بعد، حين يقدم لها الحزب بطاقته مقدّراً حق القدر تضحيات قلب بوديونا!...

جميع من في دار الحضانة تقريباً يعرفون أن تشيغير – الأب أطلق على ابنته اسم بوديونا تقديراً لقائد الفرسان بوديوني. يبدو أن الوالد كان يحلم بإنجاب ولد ذكر، لكنه رزق ببنت، فاستنفر موهبته الشعرية، فحوّر كنية الفارس لتصبح اسماً لبنت.

قد يكون هذا هو السبب في إعدام تشيغير، من يدري؟! لكن ثمة حقيقة ثابتة هي أن بوديونا كانت، منذ بلغت الرابعة عشرة، تكتب في كل الاستمارات أنها بلا أب.

أضف إلى ذلك أن شاربين خفيفين أسودين يليقان بتلميذ ضابط من الماضي نموا فوق شفة بوديونا العليا.

– السبب في هذا هو أنها تعيش حياتها بلا رجل! – هكذا كانت تشرح الأمر بصوت منخفض للعاملات في الحضانة، اللواتي عندهن أزواج يؤدون واجبات الزوجية بانتظام.

هنا تتصدى لهن فالينتينا مدافعة عن بوديونا، قائلة إنها أيضاً غير متزوجة حتى الآن، لكن هذا لا يعني شيئاً أبداً!

– وأنتِ أيضاً ستنمو لك شوارب، – أنذرتها النساء.

– ولتنمُ لي لحية أيضاً فهذا لا يهمني! – أجابت الفتاة الشابة من دون استياء. لم تكن بوديونا تحب شاربيها، وقد حاولت فترة أن تحلقهما بانتظام، ثم تبودر مكان الحلاقة. لكن الشعرات صارت مع الوقت تنمو على مسافة أعرض من ذي قبل، الأمر الذي خشيت معه أن يصبح لها شاربان كشاربي الفارس الذي كُرّمت بحمل اسمه.

تركت الحلاقة وقررت تبييض الشاربين بماء الأوكسجين، فكانت النتيجة صورة في غاية الغرابة، صورة امرأة بشاربين أشيبين...

استجمعت بوديونا شجاعتها وكفت عن التفكير بالشاربين، قالت في سرها: لينموا كما يشاءان! وأبلغت الجميع أنها أرمنية! وأنها لن تتزوج إلا أرمنياً. غير أن معظم أحفاد دافيد ساسونسكي يعيشون في أرمينيا، أما في موسكو فعددهم قليل، وهم إما باعة في السوق، وإما أناس يشغلون مناصب عليا في الدولة. وهي لن تتزوج بياعاً في السوق، وليست في المستوى الذي يسمح لها بالتفكير بزوج من رجالات الدولة!... لذلك لجأت إلى يديها والخيار.

فالينتينا لم تكن أبداً تشبه رأس القرنبيط المخلل، الذي وصفها به ليونيد ذات مرة.

إنها امرأة شابة أعجب بها رجال كثيرون، ولا سيما حين عرفوا أنها شقراء بطبيعتها وليس نتيجة صبغ الشعر.

ترى لماذا يعجب الرجال بالشقراء أكثر من إعجابهم بالسمراء؟ – تتساءل فالينتينا مندهشة.
– هل بنية السمراء تختلف عن بنية الشقراء؟ – لكنها لا تجد جواباً على تساؤلها.

هي، طبعاً، في سن يجنبها آلام العنوسة، فقد كان لديها أصدقاء دائمون من الرجال، وهكذا كان جسدها ينال ما تحتاجه فيزيولوجياً، وكانت روحها تنال ما تحتاجه من حماية. لكنها كانت منضبطة. علاقاتها الحميمية كانت مع اثنين فقط، هما كيشا وغيشا، إلا أنها لم تجد في أي منهما ما يكفي لإرضائها روحياً وجسدياً.

كانت فالينتينا تجمعهما أحياناً في خيالها في شخص واحد... وتقول في سرها: لو حدث ذلك لاختلف الأمر...

لكن أمها كانت تقول لها دائماً – «الإكثار من قول «لو» و«لو» لا يؤدي إلا إلى نمو الفطور في الفم!».

لقد كانت فالينتينا تحرص على سلوكها في حياتها الشخصية، وتخفي تماماً أسرار علاقتها الحميمية حتى عن صديقاتها. ومن الطبيعي ألّا يكون أي من صديقيها يعلم شيئاً عن علاقة الآخر بها. كان كل منهما يعدّ نفسه موضوع حبها الفريد.

عمل فالينتينا كان في النهار، ولذلك كانت في الليالي التي يهتم بها الشباب كثيراً، حرة تماماً، تخصصها لكيشا وغيشا بالتناوب.

لكن كان يحدث أحياناً أن تضطر للمناوبة ليلاً بدلاً من زميلة مريضة. آنذاك كانت تجلس في الممر واضعة ساقاً على ساق، وتقرأ كتيّباً ذا موضوع رومانسي. كان الأطفال كلهم تقريباً ينامون نوماً عميقاً، فيجعل هذا فالينتينا تغوص في العوالم الشعرية حتى رأسها، كأنها تغطس في دوامة بحرية.

الحب في عصر ما قبل الثورة كان يشعل خيالها، لكن ما كان يثير فضولها على وجه الخصوص في الحياة في البلدان الأجنبية، المشاهد الجنسية التي لا تفهمها... فتنسى أحياناً أن تخرج من حكاية حب تقرؤها، فتغفو وهي جالسة على كرسيها الصغير، وتشاهد في منامها الجزء الذي لم تتم قراءته من الحكاية

غير أنه حدث منذ بعض الوقت، والأدق منذ نحو أربعة أشهر، أن استقبلت الحضانة طفلاً جديداً اسمه ليونيد.

كان الطفل من حيث المظهر، عادياً جداً، لكن طبعه المتميز ظهر منذ البداية. لم يكن يعجبه شيء في هذا العالم، لذلك كان يصرخ كثيراً، فيخرج العاملين كلهم تقريباً، عن طورهم، يستيقظ في الليل قرابة الخمس مرات، فيعلم على الفور، القمر والنجوم بذلك، بصراخ لا يوقظ فقط المقيمين في الحضانة، بل سكان البيوت المجاورة أيضاً.

– ضعي له في الطعام ديميدرول! – اقترحت بوديونا ماتفييفنا ذلك على المربيات في أحد الاجتماعات. – فينام وهو في غاية اللطف! يبدو أن أبويه كانا مريضين نفسياً! سنرى كيف ستجري الأمور، وسنحيله، إذا استمر على هذا الحال، إلى دار حضانة متخصصة!

صحيح أن فالينتينا كانت تعدّ بوديونا امرأة تعيسة، لكن توجيهات المديرة وأفكارها أذهلتها بغبائها وعدوانيتها، ولذلك فهي التي لم تولد ثورية، ولا حتى متمردة، سعت بطريق دبلوماسية، لينة، أن تحلّ المسألة، فاقترحت التريث في استخدام المخدر، ووعدت ببذل جهدها لجعل الطفل في حالة صحية عادية بطرق أخرى.

– قد يكون لديه مغص في البطن؟ – قالت فالينتينا. – غازات... سأحاول معالجته بحقنة!...

– طيب، جربي! – تكرّمت بوديونا فوافقتها. – بالمناسبة، عندنا زيكينا ستأخذ إجازة أمومة. هي ستكون في أمومة، وأنت ستحلين محلّها في المناوبات الليلية!

على نفسها جنت براقش، قالت في سرها مؤنبة نفسها. كيف سأنظم حياتي الآن؟

غير أنها لم تتكدّر كثيراً، بل أقنعت نفسها بأن الحياة الحميمية يمكن أن تكون نهاراً، ولهذا جماله أيضاً! أما الطفل فيجب إنقاذه!

صارت، بشكل تلقائي، تسمي الطفل الهيستيري الذي ترعاه لينتشيك. لقد أعجبها تدليع اسم ليونيد بهذا الشكل. وكانت تشعر بأن في كلمة «لينتشيك» (شقاوة) ما.

– لماذا تبكي يا لينيتشيك؟ – قالت تخاطب الطفل مبتسمة.

– من أنفاسك المقرفة التي منها رائحة (الكوتليت)[8] المقلي في المطعم! – هذا ما أراد أن يقوله لها ليونيد، لكنه لم يستطع أن يلفظ غير صرخة – «غي – إي!».

عيناه كانتا تدهشان فالينتينا – عينان صغيرتان، ذكيتان، عميقتان، يطلّ في نظرتهما إدراك لا حدود له، فيخيل لها أنها لو التقت برجل له مثل هذه النظرة لعشقته بجنون.

لكن لا بد من الاعتراف، على ما يبدو، أن الأطفال المولودين حديثاً لهم، جميعهم تقريباً، حتى البلهاء منهم، نظرة توحي بأنهم يعرفون العالم معرفة تامة، بل قد يعرفونه فعلاً، لكن معرفتهم تنمحي تماماً من أذهانهم عند ظهور أول سن من أسنانهم...

– هكذا يبدو لنا! – تقول المربيات ذوات الخبرة. – إنهم يبصرون مع أن بصرهم ضعيف! بل حتى قبل أن يعمل دماغهم!

– نعم – نعم، توافقهن فالينتينا.

حين كان لينتشيك يستيقظ ليلاً ويبدأ بالصراخ، كانت تسرع إليه، تحمله بين ذراعيها محاولة هدهدته، لكنه لم يكن، عادة، يهدأ سريعاً، بل كان يعري ساقيه ويحاول أن يلطم سحنتها بقدمه الصغيرة.

ما بالها تهزني كالمجنونة! – يقول ليونيد في سره غاضباً. – أتراها تُعدّني لأكون رائد فضاء! سيصيبني الغثيان نتيجة هذه الاهتزازات! توقفي يا رأس القرنبيط!

لم يكن يهدأ، كان يغص بالبكاء كي يغضبها، ويطلق نغمات سريعة من الصراخ، عند ذلك كانت تمدده على طاولة (التحفيض) وتحاول تدليك بطنه بحركات دائرية من يدها وتقول له:

– الآن سنتخلص من الغازات، فينام حبيبنا لينتشيك هانئاً!

وكان ليونيد يطلق فعلاً دفعات من الغازات من أمعائه، يفعل ذلك بحرص، كالكبار.

اقتنعت فالينتينا أن ثمة خللاً في أمعاء الطفل يؤلمه، لذلك سعت إلى فعل كل شيء يمكن أن يخفف ألمه، حتى الحقنة.

في المناوبة الليلية العاشرة قررت فالينتينا أنها مرهقة إلى درجة غير عادية، جعلتها تسمع كلمة «غبية» تخرج بوضوح من بين شفتي الطفل.

كانت الكلمة واضحة إلى حدّ أنها سألت لينتشيك:

– هل أنت من قال ذلك؟

ثم ما لبثت أن ضحكت من غبائها.

– الأفضل لك أن تنام! – قالت له محاولة إقناعه. – وإلا فإنهم سيضعون لك الديميدرول في الطعام!... بوديونا امرأة تنفذ ما تقرر أن تفعله!

حين سمع ليونيد كلمة «ديميدرول» هدأ في الحال. ما عاد ينقصه غير تعاطي المخدر، يريدون جعله مدمناً وهو ما زال في اللفافة!...

هدأ، رقد ببساطة على ذراعي فالينتينا، وراح ينظر إليها بكل عينيه، وهو يفكر بمستقبله غير المشرق، الذي لا يرى فيه ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف أي شيء يبعث الفرح.

اكتشفت فجأة أنها كانت نائمة، فقد اصطدم أنفها بشيء ما أيقظها. فتحت عينيها، فوجدته ينظر إليها نظرة نفّاذة أربكتها.

– أنا مرهقة، – قالت في سرها. – بسبب عدم الاعتياد.

نهضت عن الكرسي، وذهبت إلى الحمام كي تنشط نفسها ببرودة الماء المنعشة، فتكمل عملها بيقظة حتى الصباح.

أما هو الملفوف كعصا، الراقد على الكرسي، فراح ينظر إلى مربيته كيف تدور تحت رشاش الماء... يلاحظ تقاطيع جسد فالكا الجميل، فيشعر بشيء ما يتحرك في جسده حركة رديئة مقرفة، تكاد رئته تتعطل بسببها عن التنفس.

حين ثبّت ليونيد نظره على صدر فالكا، خفق قلبه كأنما وضعوا محله في صدره طبلاً وراحوا يدقون عليه إيقاعات جميلة.

حسناً، أنا الآن سأنتقل إلى صيغة أخرى من صيغ الوعي – هذه كانت قناعة الطفل. – طيّب، هذا رائع! لكن السعادة، مهما كانت الحال، ليست موجودة في هذا العالم، ليست موجودة، ولن توجد! لا وجود إلا للعذاب!!!

عادت فأخذته بين ذراعيها من جديد، كانت دافئة تفوح منها رائحة صابون عادي وشيء آخر.

التصق بها، تسارعت أنفاسه، ثم أمسك بفمه الخالي من الأسنان ثديها، فلم يحس لسانه بغير طعم ردائها المغسول.

نظرت إلى الطفل، كيف زمّ عينيه، محاولاً غريزياً الإمساك بصدرها، وكيف انمسحت ثنيات وجهه كأنه يتوقع أن يتذوق شيئاً ما...

أنفاس المرأة انحبست تقريباً، وكرجت الدموع من عينيها المحمرتين. فكّت أزار ثوبها المنزلي، ورفعت إلى ما تحت حنجرتها حمالة صدرها معريّة بذلك ثدييها الرائعين.

التقط بفمه الخالي من الأسنان الحلمة الوردية بعصبية جعلت فالينتينا تصرخ.

أما لينتشيك فراح يرضع الفراغ ويعض بنيرته الحلمة وكأنها الشيء الوحيد الذي يحتاجه في هذه الحياة!

وقد كان الأمر حينها كذلك الفعل.

لكن ثدي فالينتينا كان خالياً من الحليب، لذلك لم تكن هذه الرضاعة المزيفة إلا إرضاء جزئياً لغريزة الرضاعة، وبما أن هذا الثراء الأنثوي لم ينسكب حليباً في جسد الطفل، تحولت ردود أفعال ليونيد إلى المجال الجنسي في منظومته العصبية. فليبدأ في تعلّم اجتياح الفضاء ما دام لم يأكل!

بعد بضع ثواني ارتعبت فالينتينا من تصرفاتها، فانتزعت الطفل عن صدرها وجلست فترة طويلة مذهولة مما حدث. هي لم تعد تسمع لينتشيك يصرخ غير راض عن التجربة الجنسية الأولى في حياته. كانت تجلس فاتحة فمها كسمكة صرعها الديناميت...

فيما بعد، حين عادت إلى البيت بعد انتهاء نوبتها، ظلت طويلاً تتذكر ماحدث، مسوغة ذلك لنفسها بأن كل رضيع يحتاج إلى ثدي الأنثى سواء أكان ولداً أو بنتاً... طيّب، أنا سلمت جسدي لطفل....

كانت تخاف أن تعترف لنفسها أنه كان لعضات لينتشيك طعم خاص. وأنها، وقد جمّد الخوف ذهنها، تخشى أن تكاشف نفسها بذلك، مرسلة إحساسها بالإثم إلى أعماق اللاوعي...

بعد ذلك تفحصت صدرها أمام المرآة بحثاً عن آثار العضات!... ثم نادت كيشا ومارست معه الحب بشهوانية جنونية، ضاغطة رأس الفتى إلى صدرها بقوة، محاولة أن تحصل من خلال قبله على الشعور الذي عاشته ليلاً.

لكن كيشا لم ينجح في هذه المهمة، مع أنه ذهب إلى العمل، وهو متأكد من أنه كان اليوم مع فالينتينا مهراً جموحاً. إلا أنه لو عرف أن السيد غيشا، كان بعد ذهابه بساعة يحاول أن يكون ملتهب العواطف مثله، لأصاب جسمه جرح لن يشفى طول ما بقي من حياته.

هو لم يعرف ذلك على كل حال. زد على هذا أن فالينتينا لم تسمح لنفسها بعد ذلك اليوم بأي تصرف متهتك، وقررت بحزم أن تبقي واحداً من عشيقيها، وتطعن حياتها بخنجر الحرمان من الاخر. لكن من ستبقي؟ هذا هو السؤال!...

حاولت الإجابة عليه عن طريق القرعة، فرمت في الهواء قطعة نقدية معدنية، وحين كانت النتيجة الإبقاء على كيشا، غمرها حزن فظيع فظاعة لا تحتمل. رمت القطعة النقدية مرة أخرى محاولة الحصول على نتيجة مغايرة. لكن النتيجة كانت في صالح كيشا أيضاً حتى في هذه القرعة غير النزيهة، الأمر الذي سبب لها كآبة قاتلة، وصلت عبرها فالينتينا إلى القرار الصحيح وهو التخلص من الاثنين! وهذا ما فعلته بحزم، حيث نذرت نفسها راهبة لبعض الوقت!...

حاولت عدة ليال عدم الاقتراب من ليونيد، لكن الطفل كان يصرخ بشكل ينفطر له قلبها، كأنه كان ابنها الذي من لحمها ودمها فعلاً.

ماذا يحدث لي؟ – تساءلت فالينتينا متألمة. – كيف أحل هذه المعضلة! بعد إحدى المناوبات الليلية المرهقة استبقتها بوديونا ماتفييفنا.

– لم تنجحي في تهدئته؟ – سألتها المديرة بلهجة حامضية، وهي تمسد شاربيها بحركة عفوية. – صاحبك سيفيرتسيف ما زال يصرخ! هل نعطيه ديميدرول؟ أم نرسله مباشرة إلى مؤسسة متخصصة؟!

– لا، لا، لا تقولي ذلك! لا تقولي ذلك! – ردّت فالينتينا بلهجة سريعة. – الأمور كلها ممتازة! الطفل لم يعد يبكي!... تقريباً... وهو يشكو من بطنه... الأطفال الذكور يشكون من بطونهم دائماً!... أنا عالجته!... الديميدرول لا يساعد في مثل هذه الحالات!... وسيفيرتسيف ليس بحاجة إلى مؤسسة متخصصة!... لا، لا تقولي ذلك!...

نظرت بوديونا إلى المربية الشابة، كأنها تنظر إلى رشاش يطلق النار.

من أين لها هذه الحماسة؟ من أين هذا الاندفاع؟!... أحقاً أن رسالة هذه البنت الشابة هي رعاية الأطفال! – توقفت بوديونا برهة عن التفكير، – إنه لأمر جيد أن يحدث هذا في مؤسستها!... هذا يستحق التشجيع! يمكن أن نمنحها جائزة صغيرة! بعد ذلك يمكنها أن تلقي بحثاً عن تربية الأيتام!... المؤتمر سينعقد بعد شهرين، ستحضره دور الحضانة في المنطقة كلها، وكذلك اللجنة

المركزية الحزبية في المدينة! ومن المؤكد أن الكومسومول سيعدّ هذه الواقعة إنجازاً تحققه بوديونا!...

– أنت تستحقين الشكر ما دام الأمر كما تقولين، – تجيبها تشيغير باسمة. – (برافو) أحسنت. اذهبي الآن وارتاحي، سأحدثك فيما بعد عمّا سنفعله معاً!...

هي، طبعاً، لم تحتمل صرخات الطفل الغاضبة أسبوعاً ثانياً. أنا مجرمة! – قالت في سرها.

حملت الطفل اليتيم على ذراعيها وذهبت إلى «غرفة الأم والطفل» ووضعت ثدييها تحت تصرف لينتشيك. جلست على الكرسي، وقد ردت رأسها إلى الخلف، وشحب وجهها، أما هو فراح يعصر ثدييها كذئب جائع. كان اندفاعه الطفلي كبيراً، استمر ساعات، إلى أن تعبت عضلات فكيه وآلمته من شدة الإرهاق... عند ذلك بصق الحلمة التي مصّها طويلاً، قذفها من فمه عاجزاً وممتلئاً غضباً في الوقت نفسه.

ستمضي الأيام طويلة قبل أن يصبح جسمه قادراً على تفريغ ذلك الغضب، لكن عقله كان مستعداً لأن يخصب الفضاء الأنثوي حتى حين كان في الرحم.

هو غضب على فالنتينا غضباً شديداً رغم أنها كانت تمكنه بانتظام من رضاعة ثدييها الخاويين اللذين تشققت حلمتاهما كما عند الأمهات المرضعات. أما هي فكانت تدهن التشققات بالزيت النباتي، وتلاحظ كيف راح صدرها يفقد شكله، وينحل أمام ناظريها، كما لو كان يدرّ حليباً. هي أيضاً كانت تنحل، فيفقد جسدها تدريجياً شكله الجذاب، وتفقد جمالها أمام أنظار زميلاتها في الحضانة.

كان ليونيد حاقداً بشدة على أمه أيضاً، فهي وعدته وعوداً كثيرة ثم هربت، رمته عاجزاً وهربت متذرعة بالموت.

سنلتقي يوماً ما، راح يعد السماء ونفسه ملأى بالمشاعر الحزينة، سأثأر منك، في العالم الآخر!... ما مـ آ – آ، ويبكي بصوت خافت.

في يوم الأربعاء طلب مقابلة بوديونا ماتفييفنا رجل لا تعرفه.

هي، عموماً، لم تكن تحب الالتقاء بالغرباء الذين لا يوضحون سبب زيارتهم، فهي ليست موظفة بسيطة، بل مديرة مؤسسة حكومية.

– هو يقول إنه عالم! – أخبرها الحرس.

تشيغير كانت في مزاج ممتاز في ذلك الصباح، فالبارحة قبلوها كمرشحة للانتساب إلى الحزب الشيوعي، وأبرزوا بشكل خاص تقريرها عن تربية الأطفال اليتامى في المؤتمر. وقد أعجبت الأوساط الاجتماعية بشكل خاص بقول بوديونا ماتفييفنا إن كل مربية يجب أن تمنح الأطفال

التعساء المتروكين، نفسها كأم، فلا تكتفي بمسح أنوفهم، ومؤخراتهم، بل تعاملهم كأنهم جزء منها. عند ذلك فقط، يمكن أن ننشئ من الأيتام أناساً سوفييتيين حقيقيين، مستعدين لخدمة المجتمع الاشتراكي!

– هل قلت: عالم؟ – سألت الحرس، – دعه يدخل...

كان القادم عالماً فعلاً، شعره مشوش، يضع نظارة، وبزته مدعوكة.

حياها باستحياء وقدم نفسه: سيرغيي سيرغييتش، ثم ظل فترة طويلة لا يستطيع أن يشرح سبب زيارته.

نظرت بوديونا إليه طويلاً وهي تنتظره من دون استعجال.

– أنا أحببتها! – قذف العالم عبارته فجأة وهو ينظر إلى المديرة المشوربة نظرة يشوبها الشك.

– أحببت من؟ – لم تفهم بوديونا.

– يوليتشكا! – اعترف الزائر.

– ومن هي؟

– جارتي!

– وما المشكلة؟

– المشكلة أنها ماتت!

بوديونا قررت في سرها أنه مجنون. هذا ما كان ينقصها!... ستحاول. على كل حال، أن تتحدث مع هذا الزائر بود، كما يتحدثون مع المجانين الخطرين.

– كم يؤسفني هذا!... أنا آسفة جداً! – قالت ذلك وبسطت كفيها في حركة مسرحية.

– لا داعي للأسف عليّ! – قذف الزائر عبارة غريبة ثانية.

– لن أفعل، لن أفعل!

– المسألة تكمن في أنها تركت مولوداً!

– يا له من مسكين! – قالت بوديونا متعاطفة، وقد رسمت على وجهها قناعاً جعل الزائر يظن أن من أمامه ليست امرأة، بل كائن ضخم مشعر. – وأنت تريد أن تسلّمنا الطفل؟ – سألت المديرة متعجلة في الاستنتاج.

– لا، لا أبداً! – قال الزائر وقد تصاعد غضبه.

– ماذا تريد إذن؟

– أنا، على العكس، أريد أن آخذ الولد! أي أن أتبناه!...

لقد كنت إنساناً مقرباً من يوليتشكا! كانت تسميني سي – سي!

– وإذن، – بوديونا بدأت تفهم الموقف. – الطفل عندنا؟

– أنا أحاول أن أفهمك ذلك منذ ساعة!

– كفى!... ما كنيته؟

– كنية من؟

– الطفل!

صمت العالم برهة متفكراً.

– إذا كان الطفل بلا أب، – راح سي – سي يفكّر بصوت مسموع. – فلا بد أنهم أعطوه كنية الأم... لارتسيفا!

– لارتسيفا؟ – فكرت بوديونا برهة. – لا، ليس عندنا أولاد بهذه الكنية... مطلقاً، أنا متأكدة!

– كيف؟ – إن لديّ معطيات أن الولد يعيش هنا!

– وأنا أقول لك: لا! في موسكو عشرات من دور الحضانة للأيتام.

– وماذا أفعل الآن؟ – قال سي– سي بحزن.

– أنجب طفلك، – اقترحت عليه تشيغير.

– وماذا عن ابن يوليتشكا؟ لم يستسلم سيرغيي سيرغييتش. – هي ليست امرأة غريبة بالنسبة إلي!...

– ستربيه الدولة... أو أولئك الذين تبنوه...

– هل تظنين ذلك؟

– أنا واثقة من ذلك.

ودعت سي – سي، كأنها أخته الشقيقة – أمسكت ذراعه بحنان كي تساعده في المشي، وهي تقول له: إن رجلاً مثلك لا يجوز أن يبقى وحيداً!...

– عالم!... وجميل!... أضف إلى ذلك أنهم لن يسمحوا لك بتبني طفل دون زوجة. أنت لا تملك عادات تربية الأطفال، أليس كذلك؟... لا تملكها... واليتيم يحتاج إلى الماما أكثر بكثير من حاجته إلى بابا!...

مرّا بجانب مربّع ألعاب حيث كان ليونيد يتلقى درساً في علم ثقيل هو السير على أربع. لعابه كان يسيل من كثرة المصاعب!

رأى سي – سي فعرفه على الفور.

تذكّر ليونيد في الحال كيف كان هذا الشهواني المخادع يتلصص بعينه الشهوانية عبر الثقب في قفل باب غرفة أمه، فيلتهم عريها بنظره ويسيل لعابه.

ماذا جاء به إلى هنا؟

وبسبب خوفه من أن يكون سي – سي قد جاء يطلبه، قطع لينتشيك المسافة بين الخزانة والألعاب في ثانية، واختبأ وراء الخزانة ساحباً إلى داخله خيط اللعاب الممتد على الأرض.

المربية المناوبة نهاراً كانت شاهدة على هذا التقدم المفاجئ في الجهاز الحركي للطفل، فظلت جالسة فاغرة فمها فترة طويلة.

رافقت بوديونا سي – سي حتى الباب الخارجي، وطلبت منه، من باب الاحتياط، أن يترك لها عنوان إقامته.

– قد يظهر شيء ما فجأة! – قالت موضحة سبب الطلب.

غير أن سي – سي ترك لها، عدا العنوان، رقم هاتفه. وشكرها دون أن يوضح علامَ.

ودعت بوديونا زائرها الغريب، ولفت الورقة على شكل كرة ودستها في عمق جيب رداء المديرة، حيث ترقد إلى جانبه أشياء تافهة كثيرة غير صحية.

جلست تشيغير في مكتبها، وقررت أن تزور في أقرب يوم أحد، متحف فلاديمير إيليتش لينين، وتنحني احتراماً لذكراه، فبوديونا كانت تشعر أن القضية التي حملها لينين تعيش في قلبها، وهذا هو السبب الذي يمنع الفرح الذي يغلي في روحها الحزبية، من البحث عن ثغرة ينسكب منها على شخص ما!

تخيلت فجأة أن من في الصندوق الزجاجي ليس زعيم البروليتاريا العالمية، وإنما العالم الذي زارها اليوم. كانت الصورة واضحة إلى حد جعلها تفهق بصوت مرتفع.

حرّكت رأسها محاولة إحلال صورة أخرى محلّ الصورة الفظيعة التي تخيلتها، وقررت ألّا تشرب اليوم نبيذ الشمبانيا حتى تسكر، وأن تشرب وحدها، وكأنها كانت قبل اليوم تشرب الكحول مع جماعة من الأصدقاء، كما قررت ألّا تنسى شراء الخيار، فالوقت لحسن الحظ، ما زال خريفاً!...

أما ليونيد فظل فترة طويلة مختبئاً خلف الخزانة خائفاً من أن يعود ذلك المخادع سي – سي ليأخذ روحه.

هو لم يكن يحب حتى أن يتذكّر الحياة الماضية في الشقة الجماعية مع الجيران الأغبياء. ولم يخلصه من عدم حبه لها تذكّره أنه كان يرى العالم عبر رحم أمه المحمي بجسدها ورطوبته المنعشة... كما أنّه لا يهلّل هنا لحياته، الممتلئة بالعذابات والحرمانات. أمّا كم ستستمر هذه الحياة، فأمر لا يمكن أن يعرفه أحد.

انتظر بصعوبة انتهاء النهار كي يصبح جسد فالكا تحت تصرفه. وحين وصل إلى الجسد المنهك وحاول عبثاً أن يمتص من الثدي الخاوي لو نقطة مفيدة، حين وصل إلى أقصى الانفعال الجنسي، ولم يستطع أن يفعل شيئاً، تملكت الكآبة كل كيانه حتى الحواف! فقد فهم أن صاروخ جسده الخالي من الموهبة لا يستطيع حتى أن يحاول معرفة فضاء فالينتينا! إن فهم ليونيد لضحالته وضآلته، أغضبه إلى حد الجنون، عند ذلك عضّ ثدي فالينتينا بكل ما يملك من قوة، فانغرست أسنانه الأربعة كالأسافين في جسدها البريء.

– ماذا تفعل يا لينتشيك! – سألته وتساقطت دموعها على اللينوليوم الزلق الذي يغطي الأرضية.

– أنا أكرهك! – همهم الطفل.

– آلمتني!... أنا يمكن أن أموت! لا، أنا سأموت حتماً!

– لا ردّك اللـه!

لكن ليونيد استدرك متسائلاً في سره:

كيف ستموت؟ وشعر فجأة بالخوف! وأنا؟...

لم يستطع أن يتصور كيف سيبقى من دون صدر نسائي؟ صحيح أنه صدر خال من الحليب ومتهدل، لكنه حقيقي! ترى ما الذي سيفعله في هذا العالم ما دام جسده ما يزال ينمو، وهو لا يستطيع البحث عن ضرع آخر!...

– فالكا، لا تموتي!... إياك أن تموتي!

وبسبب فظاعة ما تخيله، وعدم رغبته في حدوث هذا المتخيّل الفظيع، نظر ليونيد فجأة إلى عيني فالينتينا، ولمس بيده الصغيرة ثديها لمسة سحرية، ماسحاً عنه نقاط الدم بأصابعه الوردية.

وابتسم لأول مرة في حياته. صحيح أن البسمة كانت معوجة قليلاً، لكنها كانت ساحرة...

فالكا تأثرت كثيراً، وبدفقة حب جوابية، قبلت وجه الطفل طويلاً، وأقسمت على أنها ستحب لينتشيك طول حياتها، وستظل تحبه حتى لو أنجبت أطفالاً من صلبها.

وقررت أن تذهب في الغد إلى بوديونا وتطلب منها البدء بإجراءات تبني سيفيرتسيف...

حين بلغ عمر ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف الستة أشهر انقلب نظره للمرة الأولى. فانقلب كل شيء رأساً على عقب. السقف صار أرضية، والأرضية صارت سقفاً.

المربيات كلهن صرن يمشين على السقف، والأشجار المطلة على النوافذ صارت تتدلى من السماء.

يقولون إن الفتيان جميعاً يولدون بنظر مقلوب، لكن هذا الزعم غير صحيح، فما من أحد منهم أكد ذلك. والبرهان العلمي على صحة هذه الفرضية لا يبدو ممكناً.

لكن تفسير ما حدث مع ليونيد بالقول إن الطفل حديث الولادة لا يصح، لأن الفتى كان يزحف بامتياز، بل يستطيع إمساك ملعقة الشاي بيده الصغيرة والضغط عليها.

ما عاد ينقصني إلا هذا! قال ليونيد في سره، وهو ينظر إلى طاولة الطعام فيراها متدلية من السقف. عجباً، كيف لا يسقط هذا الصحن المملوء بالحبوب المطبوخة على الأرض، فما من أحد، على حد علمي، ألغى الجاذبية...

وحين زحف زملاؤه في المجموعة بجانب الطاولة، وكانوا كلهم يزحفون على السقف، بدت له صورتهم لوحة عبثية مسلية.

لقد أفرحه العالم المقلوب رأساً على عقب، بل شرع الفتى يبتسم، الأمر الذي أدهش مجدداً المربية المتدلية من السقف.

وقالت العجوز في سرها: إن لهذا الفتى العابس دائماً، ابتسامة رائعة.

الأمر الذي كان ليونيد يرغب فيه أكثر من أي شيء آخر، هو أن يزحف في السماء، يتلمس ليونة الغيوم التي صارت قريبة جداً. إنه سيتعلم المشي قريباً، وسيركض فوق الشرشف الأبيض الضخم، ويندفع مرتداً عن الزغب السماوي، ويطير بلا وزن في فضائه.

هو، طبعاً، يذكر أن فضاءه ليس موجوداً، لكن قلبه لم يكن في هذه الدقيقة يرغب في الاعتراف بالحقيقة العلمية – فكل شيء في الانقلاب الذي جرى كان يبهج روحه الطفلية!...

سأركض إلى النجوم، سأعرف العوالم، سأُدهش بما لم أره من قبل، وأُدهش بذاتي!...

فالينتينا جاءته ليلاً ماشية على السقف أيضاً. أنهضته من السرير وحملته على ذراعيها.

بعد ذلك ظل فترة طويلة لا يشبع من النظر إلى صدرها العاري، فقد بدا له، بسبب تغير الاتجاهات، جديداً وجذاباً بشكل غير عادي،

المهم ألّا تتركني فالكا، وإلا فإني سأقع عن السقف وأتهشّم!

كانت تحمله بلطف وقوة، أما هو فراح يرضع شعور الجدة منتشياً....

فجأة تعلم ليونيد أن يضحك بصوت مسموع، وصار يكركر ضاحكاً بشكل خاص في الصباحات حين يجلسون جميع الأطفال على المباول... ثم يمسحون مؤخراتهم، فيتوقع أن ينهمر من الأعلى كل ما يتبرّزه الصغار سيلاً من القذارات فيغمره، هو الوحيد الباقي في الأسفل... وكان هذا، لسبب ما، يسليه كثيراً...

لكن خلافاً لكل قوانين الطبيعة، ظل ما تغوّطه الأطفال في أوعيته، إلا أن ليونيد ظل، مع ذلك، يقهقه حتى خارت قواه.

حتى أن بوديونا ماتفييفنا جاءت لتلقي نظرة على سيفيرتسيف. حين رأى ليونيد الإدارة العليا كاد يختنق بضحكه.

هو ألف منذ زمن منظر شوارب بوديونا، لكن الطفل، حين نظر إليها وهي تمشي على السقف واكتشف أن على ساقي المديرة من الشعر ما لا يقل عما تحت أنفها، فهم أنه يجب أن يتمالك نفسه، وإلا فإن غصة الضحك ستقلب معدته ظهراً على بطن!...

بوديونا ماتفييفنا نفسها أدهشتها التغيرات التي طرأت على الطفل الذي عدته مريضاً نفسياً غير عادي، وكادت، لولا تعاطف فالينتينا، أن ترسل هذا الكائن التعيس الذي لا يعبر عن أية عواطف إيجابية إلى مؤسسة متخصصة... لكن ها هي ذي الآن تراه يقهقه و (يكاغي) بشكل رائع!... ومع ذلك فكّرت بوديونا أن التطرف في السلوك هو أول علائم المرض النفسي!... وكان أن اتخذت قراراً صحيحاً فمنعت فالينتينا من تبني هذا الطفل الغريب الأطوار! هي الآن لن تفهم كم أفادها هذا المنع، سيكبر الطفل، فيبقر بطن أحدهم بسكين!...

تشيغير نفسها فهمت أنها بالغت في تصورها للمستقبل، لذلك ابتسمت ابتسامة مصطنعة لليونيد، وجلست القرفصاء راسمة بيديها قرني معزاة.

– أو – تيو – تيو! – قالت مرخّمة صوتها.

هي لم تكن لتبهج لينتشيك كثيراً. لكن ردة فعله على مشهد العنزة كانت فورية. قام بحركة كالبرق برأسه في ملاقاتها، وعض أصابع بوديونا المصبوغة باللون البنفسجي، عضة مستميت.

صرخات بأعلى صوتها من وقع المفاجأة والألم، فأخافت عناصر مجموعة الأطفال الذين راحوا بعد لحظة يصرخون بأعلى ما تستطيعه حناجرهم الطفلية.

وحده ليونيد ظل يلوك بحركات قصيرة من فكيه أصابع بوديونا ثم يبصقها خارج فمه، ولم يصرخ مع الجوقة الجماعية، بل راح يقهقه بكل طاقة حنجرته قهقهة بدت صدى لصراخ تلك الجوقة...

ظل العاملون ساعتين يسقون مديرتهم (الفاليريانكا) وهي تصرخ بصوت يملأ الروضة كلها:

– مجنون!... متعجرف! – تصيح وشاربها الأيمن يرتجف. أنا أحتاج إلى حقنة لقاح ضد داء الكلب!

– لكنه ليس كلباً، – قال لبوديونا أحدهم.

– إنه أسوأ من كلب! – صرخت بصوت أكثر علوّاً. – إنه جرذ صغير شرير!!!

هي، طبعاً، قررت في سرها كل شيء بشأن هذا الشرير الصغير. إن هذا البندوق سيكف منذ الغد عن الضحك!...

في هذه الليلة ضبطوا فالينتينا وهي تمارس عملها الغريب.

جاءت نائبة تشيغير فجأة إلى الحضانة في حملة تفتيش، فوجدت إحدى المربيات ترضع من ثديها الطفل سيفيرتسيف، الذي تقرر نقله إلى مؤسسة متخصصة.

صنفت النائبة هذا العمل، كفعل غريب لا أكثر. لكنها قررت في الوقت نفسه، تجنباً لتحمل أية مسؤولية، أن تخبر بوديونا ماتفييفنا بهذه الواقعة.

– أنا قادمة! – زعق الصوت عبر السماعة. – لا تنتظريني!!! اطلبي الشرطة!!!

– لماذا؟ – قالت النائبة في سرها. – الأمر هنا يحتاج إلى طبيب نفساني وليس إلى شرطة، – لكنها طلبت الرقم 02، وقد أخافها غضب المديرة.

في الساعة الثالثة ليلاً جرت معركة مدهشة في دار حضانة الأيتام. نصف الأطفال الأيتام أيقظهم صوت بوق سيارة الشرطة. وبهذه المناسبة تلامح في النوافذ أناس برتب على الأكتاف، ومربيات يرتدين مراويل بيضاء. وفي مكتب بوديونا دار حديث حاسم.

– أنا، في الواقع، لا أفهم ما الذي حدث؟ – سأل المقدم القادم من أقرب مركز شرطة مستفسراً – ما العمل الإجرامي في هذا التصرف؟

لقد أنهضوه من فراشه حين لم يستطع الفريق المناوب أن يتصرف في هذه الحالة غير المعتادة، التي نشأت في دار الحضانة رقم/ 32/.

الرقيب تاباكوف تمتم بكلام ما على إرضاع غير قانوني، وعلى طفل صغير، ومربية سيئة!... فاضطر المقدم إلى المجيء شخصياً إلى المكان مسترشداً بالمبدأ القائل: الأطفال أبناؤنا جميعاً!

– طيب، أين الجريمة هنا؟ – لم يفهم المقدم أوخوف، وهو أب لأربعة أولاد ناضجين تماماً تقريباً.

– أتعجب، كيف لا تفهم! – قالت بوديونا ماتفييفنا – هذه مربية! وليست أمه!

– طيب، هي أطعمت طفلاً، هزّ أوخوف كتفيه. شكراً لها على ذلك... فقد أطعمت يتيماً...

– ليس في ثديها حليب! – قفزت تشيغير عن كرسيها، وانحنت فوق رجل الشرطة تخيفه بشاربيها الذكوريين. – هذا – فظيع!!!

– ليس في صدرها حليب؟... ها – ها!...

– هل فهمت الآن؟!!

تنهد المقدم متأففاً، كأنه لم يفهم.

– هل أنت عضو في الحزب؟

– منذ عام ثلاثة وأربعين، – أخبرها أوخوف وهو ينظر إلى عينيها مباشرة.

– أعندك كل هذه الخبرة في حراسة القانون ولا تفهم!... حسناً، هذا غير مقبول، يجب أن أتصل بمجلس المدينة!

– بل أنا فهمت كل شيء، – اعترف أوخوف، وقد أحس في بطنه بشيء مقرف يضغط على نفسه. البطن تحت الصرة، أما النفس ففي الرأس.

إنه أمر في منتهى الغرابة...

– طفل صغير!... صدر امرأة غريبة! الطفل يُرغم على رضاعته!...

– ماذا يجب أن أفعل؟

– إلقاء القبض!

– على الطفل؟

– نعم، – صاحت بوديونا نافذة الصبر. – تفو عليك! أي طفل! اقبض على لاتسكينا!

– هل تعنين المرأة التي أطعمته؟ – استفسر المقدم طلباً للدقة.

– هي لم تطعمه! هل هذا غير مفهوم؟!! علائم الفعل الجنسي الشاذ ظاهرة على الوجه!

– أنا فهمت!...

هو فقط لم يفهم على وجه من.

ليونيد الذي نسيه الجميع، كان ممدداً على حافة النافذة في «غرفة الأم والطفل» ينظر كيف يخرجون فالكا من دار الحضانة. كانت تمشي في السماء منكسة الرأس، وشعرها يتطاير حراً في الهواء...وفجأة التفتت ناظرة إلى نوافذ الطابق الثاني.

هو رأى عينيها، فالتمعت عيناه تلتقيان بهما. أرادت فالكا بدافع من غريزتها أن تندفع عائدة، لكنهم منعوها ممسكين يديها بفظاظة تقريباً...

حينذاك بكى ليونيد.

حملوه إلى المهجع وأرقدوه كي ينام...

انتظر بعض الوقت مصغياً إلى الفضاء الذي هدأ فيه كل شيء، عند ذلك انزلق عن سريره وزحف...

اجتاز الدرج خطوة، خطوة، ثم دفع الباب طويلاً برأسه.

كان يزحف في السماء، مهتدياً فقط برائحة بنزين سيارة الشرطة المتوقفة، وكاد يغرق مختنقاً في بركة كبيرة، صارت بالنسبة إليه، البحر الأول. ابتلع طيناً حتى شبع، لكنه اجتاز البركة.

أنفه، كأنف جرو، راح يتشمم عبر سماكة الهواء العالمي الضخمة، رائحة فالكا التي تكاد لا تشم. كان يتحرك ببطء، لكن بثقة، متتبعاً ذلك الخيط الرفيع من الرائحة، ولم يكن في نهاية رحلته مختلفاً عن جرو صغير متسخ.

وجدوه بالقرب من باب قسم الشرطة قبالة دار حضانة الأيتام تماماً. يبعد عنها قرابة المئة والخمسين متراً تقريباً. لقد ظنوه في البداية جرواً فعلاً، سمّوه كاشتانكا، ونادوه: مو – مو، بعد ذلك اكتشفوا أنه طفل.

حين حملوا إلى المقدم أوخوف، الذي عذّبه التفكير بحادث الليلة الغريب، الطفل المتسخ، الذي راح ينظر إليه نظرة قائد خاض ثلاثة حروب رغم أن سنه لم يكن يتجاوز الثمانية أشهر، نهض من وراء مكتبه ولكمه بقبضته لكمة قوية.

– فلتذهبوا جميعاً إلى...! – صاح المقدم. – أنا لا يهمني أمرها حتى لو كانت ابنة بوديوني نفسه!

نظفوا وجه الطفل قدر المستطاع بمنديل جيب، وحملوه إلى «غرفة النظارة» حيث احتجزوا فالينتينا لاسكينا.

– هل هو ابنك؟ – سألوها.

– ابني – أجابت على الفور وهي تبكي.

ضغطت الطفل إلى صدرها، فراح الطفل يتشبث به.

لقد علّم عالم الشر رجال الشرطة القسوة والخشونة، لكنهم احتفظوا برقة قلوبهم، لذلك اغرورقت عيون بعضهم بالدمع، وبعضهم تمالك نفسه فابتلع دموعه.

هكذا ساد لبعض لوقت في هذا القسم للشرطة الموسكوفية جو من العواطف.

وفي هذا الجو الطيب، رضع ليونيد بشره ثدي فالينتينا آخر مرة، وقد بدا عليه أنّه هذه كان يشعر أن هذه المرة هي الأخيرة.

هي أرسلوها إلى مشفى كاشينكو، ووجهوا للمقدم أوخوف كتاب توبيخ، أما الطفل فأرسلوه إلى مؤسسة متخصصة تعنى بالأطفال.

بكى ليونيد من جديد، حين مددوه في سرير بين طفلين مشوهين خلقياً، واستنشق رائحة برازهما.

لقد فقد ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف امرأته الثانية، وهذا، إذا أخذنا بالحسبان سنه، كثير جداً.

في اليوم الثالث من البكاء الشديد، أعطوه حقنة، عاد بفضلها نظره إلى الحالة الطبيعية، فصارت السماء عالية من جديد، وصارت الأرض الصلبة قريبة منه.

لكنه استمر بالبكاء، وظل بكاؤه مستمراً ست سنوات وثلاثة أشهر.

## – 8 -

تعبت أنجيلينا تعباً شديداً وهي تنتظر أوتياكين. أرادت أن تتلفن له، لكن بطارية جوالها تحتاج إلى شحن، وقد نسيت أن تحمل شاحنها. بحثت عن هاتف آلي، فلم تجد في العيادة.

حاولت أن تسلي نفسها بهذا الشكل أو ذاك، لكن قنوات التلفزيون المتاحة كانت عامة، وكانت كلها تعرض برامج تافهة.

لم يكن في القسم أحد، يمكن أن تحادثه. الموجود الوحيد هو الممرضة ذات الذقن الذكورية، والساق كساق لاعب كرة السلة، وقد حملت إليها حبوباً مسلوقة، في حين كانت هي ترغب بقطعة لحم أو سمك.

نضجت في رأسها فكرة.

– أيتها الفتاة اللطيفة، – نادتها العجوز بصوت مرخّم وهي تبعد صحن الحبوب المسلوقة. – يا سنونوتي!

نظرت إليها الممرضة خائفة.

– لا تخافي مني!

أخرجت ليبيدا من تحت الفراش رزمة من الدولارات انتزعت منها ورقة واحدة.

– اذهبي يا حبيبتي إلى المخزن! اشتري مرتديلا، ولحم خنزير مملحاً وخبزاً طازجاً!... انتقي ما ترينه مناسباً، ما تحبينه!... هل تحبين الأكل؟... سنقيم هنا مأدبة رائعة!

ترنحت الفتاة الضخمة حين سمعت هذا الاقتراح، واستندت إلى الجدار.

– لماذا تخافين؟ هل أنا ممنوعة عن الطعام؟

– نعم، ممنوعة، – أجابتها الممرضة بصوت (باص) يحسدها عليه شاليابن نفسه.

ثمة شيء غير طبيعي، قالت ليبيدا في سرها. صوت البنت من طبقة «الباص»، وساقها ساق لاعب سلة، وقامتها، ولحيتها...

– بالمناسبة، ألست رجلاً أيتها المرأة؟ – سألتها العجوز مواجهة.

تشقق طلاء وجه الممرضة وبرزت من خلاله حمرة الخوف المختلط بالارتباك.

تراجعت بخطا صغيرة نحو الباب وهي تتمتم بكلام غير مفهوم.

– أنا... في داخلي دائماً...أنا كنت رجلاً... لكن امرأة كانت تعيش في داخلي دائماً...

– هيه، لا تخافي! – قالت لها العجوز.

خطت في ذهن ليبيدا معلومة مخزونة عميقاً في دماغها لعدم حاجتها إليها.

– وإذن، من أنت؟... توترت العجوز بشدة وهي تسألها. – هل أنت ما يسمونه مزدوج الجنس؟ – تذكرت أخيراً المعلومة المخزونة.

– ماذا تقولين؟! طبعاً لا! – قالت الممرضة بصوتها (الباص) وهي تحرك يديها بالنفي.

– لا؟ إذن من أنت؟...

– الأفضل أن أذهب...

قفزت العجوز برشاقة من السرير، وأمسكت بيد الممرضة.

– هيه، إلى أين ستذهبين؟... من سيأتيني بالطعام؟... لقد اعتدت عليك!... وعموماً، لا فرق عندي من تكونين: امرأة أو رجل، مزدوج الجنس أو أي شيء آخر!... ما يهمني هو أن يكون الشخص الذي أتعامل معه إنساناً جيداً!

– أنا امرأة! – قالت الممرضة باعتزاز.

وقفت فجأة منتصبة القامة، ورفّت بعينيها.

– وأنا – امرأة – قالت ليبيدا مبتسمة. – هل ستذهبين إلى المخزن؟

– أنت ممنوعة من تناول ما تطلبين!

– لا يهمني ذلك!... أنا، طول عمري، أفعل ما هو ممنوع!

– وأنا ممنوعة من الذهاب إلى المخزن...

– هل أنت ممنوعة من أكل المرتديلا؟... أنت ما زلت شابة!...

– أنا ممنوعة من الخروج إلى الشارع!... فأنا لم أتكيف بعد مع وضعي الجديد.

– حسناً، الممنوع – ممنوع،– تراجعت العجوز فجأة. – اجلسي إذن، على تلك الأريكة. هل هذا ممكن؟

أحنت الممرضة رأسها بالإيجاب. مشت متعثرة عبر المهجع كله، وجلست على الأريكة واضعة ساقاً على ساق.

– أتشربين الشاي؟ – قالت لها العجوز. – عندي شاي جيد بنكهة الياسمين.

أحنت الممرضة رأسها بالإيجاب.

– بالمناسبة، ما اسمك؟

– ساشا... أليكساندرا – قالت الممرضة.

فهمت ليبيدا، وهي تعدّ الشاي أن من يجلس أمامها صار أليكساندرا منذ زمن غير بعيد، وأنها كانت قبل ذلك أليكساندر... لقد تكلموا كثيراً عن عمليات التحول من جنس إلى جنس. كانوا يتكلمون على ذلك في التلفزيون يومياً تقريباً، وفي المجلات الملونة الغالية الثمن. كانت ماشا، صارت فاسا، وبالعكس! في شركة الأزياء التي تعمل فيها تكلموا على أن النجمة الأولى في الشركة داشا بولينوفا كانت في يوم من الأيام ديما بولينوف. لكن أنجيلينا لم تصدق ذلك.

– هل أوتياكين هو من أجرى لك العملية؟

أحنت أليكساندرا رأسها بالإيجاب.

صبت ليبيدا الشاي في الكأسين.

– كيف وجدته؟

هنا انطلق لسان «المتحولة». قالت في وصف أوتياكين أروع الكلمات، وقالت إنه عبقرية لا تضاهى، وجراح موهوب من اللـه، أنقذ روحها الأنثوية من قيود الجسد الذكوري!...

تكلمت عليه باندفاع شديد، وعاطفة صادقة، الأمر الذي غيّب عن سمع ليبيدا طبقة (الباص) الذكورية التي في صوتها، فلم تعد العجوز تسمع فيه غير النبرة الواثقة.

لقد كان اختياري صحيحاً، أوتياكين عبقري! سنحيا يا نساء!...

ظلتا بعد ذلك تشربان الشاي حتى المساء. ساشينكا، هكذا صارت ليبيدا تسميها، روت لها حكايتها المنسوجة بالمآسي.

لقد كان فيها كل شيء. الأب رفضها عاداً إياها ولداً شاذاً جنسياً، أما أصعب الأمور فكان وعيها لحقيقتها... حبها لرجل لم يفهم أن ذلك الحب لم يكن شذوذاً جنسياً، بل عاطفة أنثوية صادقة. فليس ذنبي أن الطبيعة أخطأت فحشرت في جسد ذكر روح أنثى!

– هذا طبعاً ليس ذنبك، – قالت لها العجوز تؤيدها. – فثمة أشياء كثيرة تحدث في الطبيعة! هناك عجول تولد برأسين!

نظرت ساشينكا إلى ليبيدا بود ممتنة لها على تأييدها، نظرة ابنة إلى أمها.

– الآن أنا امرأة!

– طبعاً...

– أوتياكين يقول أني سأتكيف مع الوضع تماماً في خلال عام. ستكف اللحية عن النمو، وردفاي سيتكوران وهكذا، أليس كذلك؟

– وكيف حال ذلك المكان؟ – لم تتمكن ليبيدا من كبت فضولها، وهي تنظر إلى أسفل بطن ساشينكا.

– الأمور هناك على ما يرام!

– هل بتروا تلك القذارة؟

– ذلك المكان صار عندي كما عند النساء جميعاً!

قالت ذلك وابتسمت، أما ليبيدا فشعرت في سرها أنها تجاوزت حد اللياقة بسؤالها، لكنها كانت تعدّ ما بتروه عند ساشينكا لعدم حاجتها إليه، شيئاً مهماً. وقد بذلت جهداً كي تكبت فضولها فلا تسأل: أكبير ذلك الشيء أم صغير؟... ونجحت في عدم فعل ذلك.

في هذه الأثناء، حصل الدكتور أوتياكين على النتائج الأخيرة لتحاليل العجوز ذات الاثنين والثمانين عاماً.

جلس في مكتبه الصغير محني الظهر قليلاً، وهو يحمّل الأرقام الطبية في الكمبيوتر.

أكدت النتائج كلها سلامة صحة العجوز.

معطيات تحليل الهرمونات كلها مطابقة لمعطيات الهرمونات عند امرأة في الخامسة والعشرين.

لا جود لتضيّق شرايين أو دهون أو أي اختلال في الضغط. تخطيط الدماغ أظهر أنه سليم كما عند أي إنسان عادي.

لا مؤشر على احتمال وجود أورام... أو أمراض نسائية، وأجهزة التنفس، والنظر، والسمع، كلها في وضع مثالي.

كان جسد أوتياكين كله يضطرب مترقباً شيئاً ما. وقد حاول الدكتور أن يوقف ارتعاشه، مقنعاً نفسه أن هناك، إلى جانب كل ما سبق تعداده، مظهر العجوز ليبيدا – الشيخوخة! الجلد الذابل المتجعد، والشعر الأشيب...

ومن الواضح أنه تذكّر إلى جانب ذلك، اللون الغني لعيني أنجيلينا، ولمعانهما الحي، شعرها الكثيف كشعر زوجته الشابة على الرغم من كونه أشيب. وفي نهاية المطاف، ما من أحد حتى اليوم برهن أن الشيب علامة الشيخوخة. غلامفيلد فقط هو من يؤكد ذلك. فالإنسان يمكن أن يشيب نتيجة ضغط الحياة، أو نتيجة المرض، أو أي شيء آخر. لكن آلية الشيب ما زالت مجهولة!... وماذا عن السمع الذي لا يمكن أن يستعاد، ولا تمكن حمايته؟...

إنه عند ليبيدا مئة بالمئة! هذا يعني أنه يتجدد! وجدتها! – تمتم أوتياكين، وقد تخلّى عن آخر شكوكه. – إنها ضالته، إنها المرأة التي سيشتغل عليها!

أما فيما يتعلق بالبشرة التي قال أوتياكين أن نصيبها من الحياة تسعون عاماً فقط، فلديه في هذا الشأن أبحاث قام بها بعد كتابة ذلك المقال... وهو يعرف ماذا سيفعل.

شدّ أوتياكين بشرة باطن كفه، فتقلصت بمرونة من دون أن تظهر عليها بعد شدها آثار احمرار. هذا أمر يتطلب البرهان أيضاً.

كم عمري؟ – سأل أوتياكين نفسه وهو ينظر في مرآة صغيرة. – ثلاثون، أربعون؟... خمسون؟...

العالم نفسه يعرف عدد الأعوام التي مضت من حياته في هذا العالم، لكن ما من أحد آخر يعرف ذلك، لا زوجته، ولا دائرة الذاتية في مؤسسته.

سفيتوشكا، رفيقة حياته التي أنجبت منذ فترة وجيزة طفلة ممتازة كانت ترى أن مظهر زوجها يتطابق تماماً وعمره المدوّن في جواز سفره. والعمر المدوّن في جواز السفر هو سبع وثلاثون. والداها عدّا أن فارقاً في العمر بينهما قدره خمسة عشر عاماً أمر مهم، وقد عبّرت أمّها علناً عن شكها في قدرة الزوج على إشباع ابنتها جنسياً، أما أبوها الذي كان يكبر أمها بخمسة عشر عاماً أيضاً، فكان يؤكد أن هذا الفارق ليس مهماً!...

– ما المهم إذن؟ – حاولت الأم ساخرة أن تنتزع منه جواباً دقيقاً.

– المهم أنه صار دكتوراً في العلوم وهو في السابعة والثلاثين! – صفعها الأب بجوابه.

– هذه نقطة في صالحه، – قالت أم سفيتوشكا دون أن تستسلم. – لكن ما الذي ستحصل عليه بنتنا من هذه النقطة؟ ها أنتذا كنت عضواً في اتحاد الكتاب وأنت في الخامسة والثلاثين، فماذا كانت النتيجة؟!!

لم يكن لدى الأب المزيد من الحجج. كان يتجنب النقاش الحاد خشية أن تزداد نسبة الأدرينالين في دمه فيموت فجأة، لذلك كان في مثل هذه الحالة يهز رأسه المثقف وينفرد في مكتبه كي يكتب أحد آثاره الخالدة...

الأمر كله أخذته سفيتوشكا على عاتقها، فقد ملّت نقاشاتهما!

تزوجت أوتياكين وعرفت فيه رجلاً حقيقياً. كان شفاف المظهر، نحيل الجسد، وقد تبين أنه مزوّد لا يتعب للمترو، يطلق في أنفاقه المزيد والمزيد من القطارات الجديدة، ولا يمكن بأي شكل أن يضاهيه أترابها مجتمعين. كان عناقه يدوم طويلاً، ولطيفاً، وينم على خبرة.

الأم التي كانت تسمع زقزقات ابنتها في الليل فقدت القدرة على النوم.

يا له من فحل لا يتعب، تقول في سرها، أما رجلي فكاتب... وكانت في مثل هذه اللحظة تلكز من دون شفقة خاصرة زوجها الغارق في النوم...

بعد شهر من السهاد في الليل اقترحت الحماة على صهرها أن يستأجر شقة وينتقل إليها.

هزّ أوتياكين كتفيه، وتمتم «طيب، طيب»، وفي عيادته في ذلك اليوم وجد في مكتبه حماه محمرّ الوجه من الخجل.

تبيّن له أن والد سفيتوشكا لم يكن ينام، بل كان يتظاهر بالنوم.

– هل تستطيع مساعدتي؟ – نطق الكاتب عبارته بصعوبة. – يبدو أن سبب حالتي هو المهنة، الجلوس فترات طويلة. الطبيعة تعطيك شيئاً وتأخذ منك شيئاً... أنت نفسك تعرف...

– أستطيع مساعدتك، – قال الصهر بثقة وأرسل عضو اتحاد الكتاب لإجراء الفحوصات.

ثم أجرى له عملية جراحية صغيرة، وكي لا تلحظ زوجة الكاتب شيئاً، تم الحصول على مهمة لزيارة ورشة بناء ضخمة، وبعد أسبوعين عاد حموه منتصراً لكنه لم يقدّم مخطوطته عن الورشة العظيمة للاتحاد.

الآن صارت الأسرتان تسهران الليالي، وتوقظان كل من في المبنى بأصوات الفرح الجنسي.

الحماة التي بدت أصغر من سنها بعشرين عاماً اضطرت مرة ثانية إلى الحديث عن الانتقال من الشقة. لكن أم سفيتوشكا اقترحت هذه المرة أن تدفع هي القسط الأول لشراء شقة من غرفتين.

تهامس الحم مع صهره في مكتبه المهجور، حيث روى لأوتياكين أن لديه أصدقاء أثرياء لا عمل لهم سوى تسويد الصفحات!

– ساعدهم، فيصبح بمقدورك شراء فيللا صغيرة بدلاً من شراء شقة!

– سأساعدهم، – وافق الصهر. – لكني لا أتقاضى نقوداً مقابل المعالجة الطبية...

– أنا سآخذ النقود. – سأكون مدير أعمالك.

مع ذلك رفض أوتياكين هذه المساعدة العائلية ونقل سفيتوشكا إلى شقة أمه، التي مضت على موتها سنوات كثيرة. كان الدكتور في أثنائها يؤجر تلك الشقة، لكنه بات الآن مضطراً لإخلاء المستأجرين...

الغريب في الأمر أن في الشقة غرفتين أخريين كانتا مقفلتين ولم يكن يظهر فيهما أي ساكن.

– هذا من حسن حظنا! – قال العريس مبتسماً

– فعلاً، – وافقته على كلامه سفيتوشكا سعيدة.

استدعى أوتياكين أنجيلينا ليبيدا إلى مكتبه يوم الخميس في الساعة التاسعة صباحاً.

– وطلب ألّا تتأخري! – قالت أليكساندرا بصوتها (الباص).

– دون تناول أي طعام؟

– هو لم يقل شيئاً بهذا الخصوص...

هكذا إذن، قالت أنجيلينا في سرها، وهي تشعر كيف يتقلص قلبها ومعدتها. كان لديها إحساس بأن كل شيء سيتقرر اليوم – فهي إما ستعتلي صهوة جواد الحظ، وإما ستستعد لملاقاة العالم الآخر. فقد ساقاها القوة، وتحدّب ظهرها، واستعدت لتلقي الحكم عليها بالموت.

– سيكون كل شيء على ما يرام، – قالت لها أليكساندرا تشجعها. فأوتياكين رجل طيب!...

يالروحها الطيبة، قالت العجوز في سرها وهي تهز رأسها، يبدو أن الطبيعة أخطأت فعلاً! وهي الآن تصحح خطأها!

مشت في الممر على مهل، بخطوة عسكرية واثقة، وقد تغلّبت على خوفها والأدق، أنها أخمدته في داخلها بإرادتها، فقد تحولت أنجيلينا في هذه اللحظة إلى جندي كما كانت في الماضي البعيد، في تلك الأوقات التي لم تعد تتذكرها أبداً.

دخلت إلى مكتب أوتياكين وفي عينيها نظرة باردة لا مبالية، وظهرها منتصب كظهر فتاة في العشرين من عمرها، وقد تملكها إحساس جيليا وعلى كتفها بندقيتها «توكاريف».

نظر إليها الدكتور بفرح، منظرها بدد كل ما تبقى لديه من شك.

– سنستعيد شبابنا وفق البرنامج التالي، – بدأ الطبيب كلامه، – ثلاثة أيام في المشفى، وثلاثة أيام في البيت! هل هذا مفهوم!

أشعلت هذه العبارة الأفكار في عقل العجوز، فابتسمت بكل فمها على اتساعه، وتحرر ظهرها من التوتر، ونشقت بأنفها فرحاً.

– كل شيء مفهوم، – أجابته.

– ستراعين كل تعليماتي بدقة!

– حاضر!

تأملها أوتياكين فشعر في داخله ببعض التوتر بسبب اندفاع زبونته. «إنها مرحة أكثر من اللازم!» قال في سره. لكن الدكتور كان يعرف كيف يتعامل بتجرد مع شخصية زبونه، فيعامله كموضوع عمل، كذلك الذي يود أن يحفر حفرة فلا يجد ضرورة للغضب على الطين المتجمد، لأن ذلك لن يجعله يلين!...

أضف إلى ذلك أن الخيال ساعد أوتياكين: تخيل أن كلمة «حاضر» الغبية لم تقلها أنجيلنا وإنما قالتها صبية في العشرين كسفيتوشكا مثلاً، فلانت نفسه على الفور، كما يلين الخبز اليابس حين تبلله بالماء. تنهد الدكتور عميقاً ثم تابع كلامه:

– يجب الامتناع عن أكل اللحم، وشرب الكحوليات! وإلغاء القهوة، والموالح والمنكهات الحادة من قائمة الطعام، والإكثار قدر الإمكان من تناول الخضار والسمك البحري الأحمر. السلمون

– جيد، واللاسوس النرويجي – مناسب جداً، وسمك البالتوس الذي يحوي دهوناً مفيدة تحمي الأوعية الدموية!... هل تسمعينني؟

– هكذا بالضبط!

اضطر مرة أخرى إلى تذكّر سفيتوشكا.

– سأقوم الآن بتسوير المادة اللازمة من جسدك. اذهبي إلى غرفة الكشف!

مشت العجوز بنشاط في الغرفة الملبسة جدرانها بالبورسلان الأبيض وسمعت من يقول وراء ظهرها:

– اخلعي ملابسك!

– العلوية أم السفلية؟

– أنا أحتاج إلى التعامل مع الجانب الأنسي من ردفك.

– عرفت المكان الذي يشير إليه، وفهمت أن عليها أن تخلع الجزء الأسفل من ملابسها، فعلت ذلك بسرعة ودقة.

أوتياكين أشار برأسه إلى كرسي فحص الأمراض النسائية من دون أن ينظر إليها.

حمل بيده أداة، وطلب من أنجيلينا أن تغطي عورتها بمنشفة لعدم الحاجة إليها.

– سأعطيك الآن حقنة مخدرة.

أغمضت عينيها، ولم تشعر تقريباً بانغراس الإبرة الرفيعة في جسدها.

بعد بضع دقائق تخدر الجانب الأنسي من ردفها، هكذا على الأرجح، تحس قائمة الخروف حين يجمدها الصقيع! فتحت أنجيلينا عينيها للحظة فرأت بين يدي أوتياكين حقنة جديدة بإبرة غليظة ففضلت أن تغمض عينيها من جديد.

– سآخذ خزعة من نقي عظامك، – أنذرها الطبيب.

أحنت رأسها بالموافقة.

قام أوتياكين بحركة اعتادها، فأدخل الإبرة تحت الجلد في الوجه الأنسي للردف، وبذل جهداً جسدياً وهو يدخل الإبرة فوق العظم، ثم راح يسحب على مهل لب العظم، فيملأ جسد الحقنة باللون الوردي.

على الرغم من التخدير، أحست ليبيدا إحساساً مزعجاً جداً يشبه ما يحس به المرء إذا ما كان بعضهم يحف الزجاج بشوكة من الألمنيوم، وكان لا يفعل ذلك على لوح زجاج واحد، بل على عشرة ألواح دفعة واحدة. وقد بدا لها أن أوتياكين يمتص الحياة نفسها... بل إنها أحست للحظة بالخوف من أن الدكتور لا ينوي مساعدتها، وإنما، على العكس تماماً، يستخدمها وينزع منها رحيق الحياة ليستعمله شخصياً، فأرادت أن تقفز عن الكرسي، إنها شرعت تفعل، لكنها وجدت أوتياكين يقف في هذه اللحظة مديراً لها ظهره، ويقول بصوت منخفض:

– انتهينا!، انتهينا!...

حفظ المادة في أنبوب، وفكّر برهة في السبب الذي جعل العجوز تحلق شعر الثنية التي فوق عظيمات الحوض الأمامية؟!... تذكّر أنها تعمل عارضة أزياء، ولا بد من أنها ستعرض أحياناً ألبسة داخلية!... برافو!...

أغلق أوتياكين مكان إدخال الإبرة بقطعة لاصق طبي.

– ارتدي ملابسك!

جلست تنتظره على الأريكة بوجه عابس وقد امتلأ ذهنها لسبب ما، بمفهوم – طبيب الموت.

عاد وهو يفرك كفاً شاحبة بأختها، وابتسم لها كما يبتسم المرء لشخص يحتضر.

– هل كان الأمر مزعجاً؟

ظلت صامتة.

– هو دائماً كذلك. صحيح أن العمل ليس مؤلماً، لكنه مزعج... سيزول هذا الإحساس كله بعد خمس دقائق!...

أحنت رأسها توافقه.

– تشعرين كأنهم يحكّون مقعدك، – قال أوتياكين فجأة، بصوت مرتفع. – من الداخل! – وضحك بصوت عال ومقرف، زاد في قرفه أنه ضحك من دون أن يفتح فمه.

إنه، بالتأكيد، طبيب الموت، قالت العجوز في سرها.

أما هو فاستمر يضحك ويضحك إلى أن احمرت أرنبة أنفه، وتشكل الزبد على زاويتي فمه.

توقف الدكتور عن الابتهاج فجأة كما بدأ. وبعد لحظة صار شبيهاً بشمعة بيضاء من البارافين، تحول إلى نبتة نمت دون أن ترى ضوء الشمس.

– ستكون المادة جاهزة بعد شهر، – قال لها أوتياكين.

– أهي خلايا جذعية؟

– ها أنت ذي تعرفين كل شيء.

– قرأت عنها.

– لكن ليس كل ما قرأته صحيحاً.

جلس مديراً لها ظهره مرة ثانية، وراح ينقر مفاتيح الكمبيوتر.

– وماذا عن اليوم؟ – سألته أنجيلينا.

– اذهبي إلى بيتك، وتعالي إليّ بعد ثلاثة أيام!

– آها! – قالت ليبيدا مبتهجة، وصارت قرب الباب في لحظة. – أنا ذاهبة.

– لا تتحدثي للآخرين عما نفعله!

– أنا لست غبية!

– ونفّذي التعليمات كلها.

– إلى اللقاء يوم الاثنين، – قالت أنجيلينا تودعه.

في أول مطعم ماكدونالد، التهمت شطيرتي تشيزبرغر كبيرتين، وحبة بطاطا كبيرة مغطسة بالكاتشاب، وفطيرة بالخوخ مع البوظة. ثم شربت بعد هذه الكمية من الطعام زجاجة كولا كبيرة محلاة.

شعرت العجوز بمتعة حقيقية بتناولها طعاماً ممنوعاً، لكنها بعد أن شبعت وراحت تنظف فمها بنكاشة أسنان، أحست بالخجل لعدم تنفيذها النظام الطبي لأكلها، وخافت ألّا يعود إليها الشباب بسبب ذلك. ففكرت بإخراج كل ما في معدتها وتركه في دورة المياه، غير أنها غيرت رأيها وتابعت السير ببساطة إلى البيت حاملة في جسمها حزن الوجبات السريعة.

لكن الشمس فعلت فعلها في مزاجها فحسنته حتى درجة «مقبول»، وهكذا وصلت العجوز ليبيدا إلى مكان إقامتها وعلى شفتيها ابتسامة خفيفة.

وضعت المفتاح في ثقب الباب وهي تتمتم «داسيش فانتاستيش»، وفي هذه اللحظة امتدت من خلفها أصابع صلبة، أمسكت حنجرتها مسكة حديدية، وضغطت عنقها بقوة أفقدت أنجيلينا وعيها. فكرة واحدة فقط خطرت في بالها وهي تفقد الوعي: «تتبعوني ليأخذوا النقود... لن أحصل على الشباب!» ثم تركت نفسها تغرق في ظلمة نقص الأوكسجين من دون أية مقاومة. فحملها رجل لا تعرفه على ذراعيه ودخل إلى شقتها.

كان الرجل طويل القامة، نحيل الجسد، غير أن نحوله لم يكن عادياً، كان أقرب إلى الجفاف. عادة، يسمون مثل هؤلاء الرجال «معروقين».

وضع الرجل العجوز على الديوانة دون جهد يذكر. عموماً، هو رمى جسدها على الوسائد من دون عناية، كأنه كان يرمي جثة. بعد ذلك وضع الرجل المجهول يده فترة على خاصرته كما لو كان ينتظر نوبة ألم. ثم اقترب من النافذة ونظر طويلاً إلى الفضاء كأنه يبحث عن شيء ما. أحنى رأسه كمن يرسل إشارة إلى أحد ما، ثم ابتعد عن النافذة وراح يتفحص الغرفة. وحين لم يجد في أثاثها أي شيء غير عادي، نشق الهواء بعمق عبر خيشومي أنفه الرفيع المعوج قليلاً. ركّز اهتمامه بالأوكسجين، لكنه لم يشتم في ذرات الهواء غير رائحة الشيخوخة والمكان المغلق الذي لم يتجدد هواؤه منذ زمن طويل... كما كانت في الهواء رائحة بطاطا خفيفة.

في هذه الأثناء تحركت العجوز الممددة على الديوانة. هي لم تسترد وعيها بعد، لكن الرجل المجهول قفز بسرعة فوقف عند رأسها، وانحنى فوق وجه أنجيلينا الراعش، منتظراً استعادتها لوعيها.

لم تكد العجوز تفتح عينيها حتى وضعت يديها على صدرها، تلمس الدولارات، وجدتها في مكانها فهدأت واسترخت ورفرفت بجفونها.

رأت أمامها وجهاً مجهولاً، وشمّت رائحة الغريب. كان رأسه قريباً جداً من وجهها، تفوح منه رائحة طازجة لعطر غالي الثمن.

شدت العجوز عضلات رقبتها في لحظة وقذفت برأسها إلى أعلى محاولة أن تضرب به جبين الضيف المتطفل. غير أن الضيف تفادى الضربة بسهولة، ثم هجم بدوره فأمسك ترقوة أنجيلينا بإصبعيه.

من المؤكد أن نهايتي قد حلت الآن، – قالت في سرها. – لكني لا أفهم لماذا، مادامت النقود سليمة، أم تراه لم يجدها حتى الآن؟ سيجدها بعد موتي وينزعها عن جثتي!...

– لا ترتجفي أيتها الكلبة العجوز! – أمرها الرجل بصوت منخفض صارم.

رفرفت بعينيها معبّرة عن فهمها الكامل لما قال، وعن أنها ستكون مطيعة كعروس شابة في ليلة زفافها. تسميني «كلبة»؟ أنا، إذن، كلبة، لا جدال في ذلك!

– لماذا أطلقت عليّ النار؟ – سألها الرجل المجهول وقد خفف قليلاً من ضغطه على حنجرتها بقبضته الحديدية. – قولي لماذا، أيتها القذرة!

في يوم الأحد التقى الدكتور أوتياكين مع رجل يشبه جملاً عجوزاً. قسمات وجهه ضخمة، وأنفه كبير، وعيناه زيتيتان، وشفتاه ثخينتان منتفختان... شعره الطويل الذي يتدلى على كتفين قويين، مشدودين داخل قماش سترة غالية الثمن، يميز هذا الرجل من الزائرين الآخرين. لم يكن لدى أي من الموجودين مثل ذلك الشعر الجميل. اللقاء بين الرجلين تم في ندوة فندق «ناسيونال» في جو نصف مظلم، في صالة مزدانة بديكورات فاخرة، وقد جلسا إلى طاولة صغيرة مضاءة من جانب، بأشعة ينعكس بريقها على الكريستال، والبورسلان والأواني الفضية.

على الطاولة نبيذ أحمر، وبعض الفاكهة وعدد من قطع الكيك الساخنة.

صب النادل الخمر في كأسين وانصرف.

كان الرجل الشبيه بالجمل صامتاً حتى تلك اللحظة، لا يصدر عنه سوى صوت امتصاصه لدخان سيجاره الغليظ الفواح. وكان أحياناً يقوم بحركة أرستقراطية فيرد بإصبعيه المتصالبين شعره الأسود الذي يخالطه الشيب عن جبينه، ويزيح خصلات الشعر عن صدغيه إلى ما وراء كتفيه.

لم يسع أوتياكين إلى أن يبدأ الحديث بمفرده، مدركاً أن وقت الحوار سيحل من تلقاء نفسه، لذلك اكتفى بالنظر إلى الخاتم الذي تزينه عظاءة ذهبية في يد جليسه.

– ماذا عندك؟

لقد بدأ الحديث.

– وجدتها، – أجاب أوتياكين

– هل أنت متأكد؟

– في زماننا لا يستطيع المرء أن يكون متأكداً مئة بالمئة من شيء ما!

– ما نسبة تأكدك؟

– خمس وتسعون بالمئة.

– كتأكدك يوم وجدت ذاك العضو في المكتب السياسي؟

– لا – لا! – هز أوتياكين رأسه بالنفي. – الأمر مختلف تماماً هذه المرة!

بعد هذه العبارة، نشأت فترة صمت طويلة، روى المتحادثان في أثنائها عطشهما بالنبيذ العقيقي، وجوعهما – بشطائر صغيرة من مسحوق كبدة الإوز بالزبدة.

ابتسم لهما بلطف مدير الندوة الدائم آليك. عمره تجاوز الستين، وكثيرون كانوا يخجلون من مناداته باسمه مجرّداً، فأضافوا إلى الاسم كلمة «عمّو» التي تنم على الاحترام.

الرجل ذو الوجه الشبيه بوجه الجمل أحنى رأسه إحناءة خفيفة للعم آليك.

– ومن هذا الذي وجدته؟

– إنها امرأة اسمها أنجيلينا ليبيدا.

أطلق الرجل نحو السقف خيطاً رفيعاً من دخان السيجار وهزّ كتفيه، دون أن يتذكّر أي شيء يتعلق بالاسم المذكور.

– عمرها اثنان وثمانون عاماً، وهي رياضية بمرتبة أستاذ من المستوى الدولي في رياضة الرماية بالسهام. شاركت في الحرب، حملت وسام «المجد» ثلاث مرات. إن هذا في بلادنا إنجاز محترم جداً، لا سيما الآن، حين لم يبق من المشاركين في الحرب إلا عدد قليل جداً، وخاصة من النساء اللواتي لهن سيرة حياة كهذه.

– أنا أيضاً من هذه البلاد، – ذكّره محادثه.

حاول أوتياكين النظر إلى عيني جليسه مباشرة، ونجح في ذلك، لكنه لم ير فيهما غير صورته هو – الرجل الذي ينظر في عيون غيره.

– أنا، على كل حال، أعيش السبعين عاماً الأخيرة في روسيا.

– طبعاً، – قال أوتياكين مؤكداً كلامه.

بعد ذلك قام محدّث الدكتور بحركات غريبة. أخذ الكأس بعناية، وصبّ منه عدة نقاط في صحن صغير للزبدة، وأخذ من الكيك (فتفوتة) صغيرة فيها حبة زبيب، وبللـها بالنبيذ الفرنسي، ثم نزع الخاتم من إصبعه ووضعه بحذر قرب الصحن الصغير وارتد مستنداً إلى ظهر المقعد الطريّ.

عينا أوتياكين اللتان تكونان عادة بلا لون، اشتعلتا الآن بنار الفضول.

في الحقيقة كان هناك ما يثير الفضول.

العظاءة التي بدا أن الصائغ ثبتها إلى الأبد بجسم الخاتم انتعشت فجأة ورفعت رأسها. نظرت بحيوية غير عادية إلى ما حولها ثم قفزت من حجر الخاتم نحو صحن الطعام. استندت إليه بقائمتيها الأماميتين وتلفتت حولها مرة ثانية، ثم شرعت تأكل الكيك المغمّس بالنبيذ.

شدت جسدها الذهبي وانزلقت كلها في الصحن، ثم أدارت رأسها نحو الرجل الشبيه بالجمل ونظرت إله متسائلة.

لم يطل انتظارها. اليد القوية الخشنة المكسوة بشعر أسود كثيف، أمسكت من جديد بساق الكأس الكريستال وصبت بسخاء هذه المرة، نبيذ بوردو منه في الصحن.

راحت العظاءة تسبح بسرعة متنقلة من طرف إلى آخر في حوض السباحة الصغير هذا. كان جسدها الذهبي الصغير يعكس نحو السقف أشعة الشمس، خالطاً النكتار العقيقي بالمعدن الغالي الثمن. غطست مطلقة من تحت الماء فقاعات صغيرة، وقفزت فوق سطح الماء لاهية برشاقة ثم غاصت من جديد في زبد الخمر.

اصطبغ وجه أوتياكين بالحمرة إما بتأثير المشهد الذي يتأمله، وإما بفعل رشفات الخمر التي زادت حيوية خدّيه، كأنه التهم المشهد، كما يلتهم الطعام، لكنه لم يكن يستمتع بتذوقه، بل كان شبيهاً بملتهم شره لا يشبع.

استمرت سباحة العظاءة بضع دقائق أخرى، ثم طرق صاحب الخاتم حافة الطاولة بظفر سبابته الفستقي اللون، فاستجابت العظاءة للطرقة وتسلقت حافة الصحن ثم نفضت عن بشرتها الذهبية نقاط الخمر، وبعد ذلك ركضت ببطء، على حافة الطاولة حتى وصلت إلى إطار الخاتم، فتمددت فوق الحجر الذي يزينه بحركة يبدو أنها اعتادتها، وجمدت كأنما نحتتها فوقه يد صائغ.

وأعاد صاحب الخاتم بحركة اعتاد عليها الخاتم إلى إصبعه المشعر.

ابتلع أوتياكين لعابه بصعوبة.

– طيب، وماذا بعد!

عادا إلى الحديث.

– هكذا يا تشارمن ديميستوفيتش، – قال الدكتوروهو يستجمع أفكاره. – نتائج التحاليل خيالية فعلاً! لا يستطيع المرء أن يتخيل أفضل منها!

– مثل نتائج تحاليلك!

– وتحاليلك أيضاً...

– أهي معجزة من معجزات الطبيعة؟

– لا أظن ذلك، الطبيعة لا تستطيع فعل ذلك! – قال أوتياكين بلهجة واثقة.

– قد لا تستطيع الطبيعة فعل ذلك، – قال تشارمن ديميسوفيتش مدققاً، وهو يشير بإصبعه إلى السقف. – أما هو فقادر على كل شيء.

– لكن لماذا اختار هذه العجوز بالذات؟

– أنت يجب ألّا تسألني عن ذلك، لأني أنا من يجب أن يسألك عنه!

– هذا صحيح طبعاً! – قال أوتياكين موافقاً.

قطع العم آليك هذا الحديث الجاد مقترباً من الطاولة وهو يبتسم.

– أنا سعيد – سعيد، – قال آليك وهو يشد على يد تشارمن ديميسوفيتش بيديه الاثنتين الدافئتين. – هل كل شيء على ما يرام؟

– كل شيء ممتاز يا آليك، شكراً... كيف حالك؟ وحال الأولاد؟

جميعهم كانوا يعرفون أن لدى آليك زوجة فتية، جميلة وطفلين رائعين توأمين عمرهما قرابة السنة. وقد ساعد هذا العبء آليك في المحافظة على شبابه والبقاء فتياً. هواية واحدة كانت تكدر حياة العم آليك الممتازة – هي لعب البوكر والمقامرة. كان خدّا آليك، إذا مضى يوم دون لعب يتهدلان كخدي كلب دوبرمان عجوز، وتصاب معدته بعسر الهضم.

تحت الندوة، في القبو، ثمة كازينو صغير لم يكونوا يسمحون لآليك باللعب فيه، لكنه كان يستطيع أن يراقب حركة أوراق اللعب من دون أي عائق، الأمر الذي يشبه مشاهدة حقل تعرّ (ستريبتيز) لا يتلوه فعل.

اليوم كان خدّا آليك نضرين، لا تهدّل فيهما، يشبهان تفاحتين حمراوين.

– هل مارست هوايتك؟ – سأله تشارمن ديميسوفيتش.

أحنى آليك رأسه بالإيجاب.

– هل يجب أن أفهم أنّك كنت موفقاً؟

– ولكم عندي زجاجة هدية؟ هكذا أجابه العم آليك.

– شكراً يا عزيزي، لكننا، أنا وميخائيل فاليريانوفيتش، أكثرنا من الشرب.... كما أن عمري...

– عن أي عمر تتحدث؟! – قال آليك باسطاً ذراعيه بحركة معبرة. – أنت لم تبلغ الستين بعد!

– على مهلك، على مهلك!... – ابتسم تشارمن ديميسوفيتش ابتسامة خفيفة وهو يعيد إشعال سيجاره.

أوتياكين رأى أن كل هذا الحديث كلام لا معنى له. وبدا له أن المرء حين يقضي وقته في المطاعم والمقاهي يضيع قيمة الحياة الغالية. ميخائيل فاليريانوفيتش لم يكن يطيق دخان التبغ وطعم الكحول. كان يعدّ الدخان سماً، ويصاب بالصداع من الكحول، وكان كالطفل، يرقد في السرير ويغمض عينيه – فيعوم كل شيء في رأسه، كأن دماغه قد تحوّل إلى دوامة!... حين حان وقت انتهاء اللقاء وجاؤوا إلى تشارمن بالحساب، حرص أوتياكين على عدم النظر إليه، فهو يعرف أن ثمن السم الكحولي المدون في الفاتورة بضعة آلاف من الدولارات. أما تشارمن ديميسوفيتش فكان قد نسي أن يحمل بطاقة ادفع، واضطر إلى أن يدفع نقداً رزمة سميكة من الدولارات الأمريكية، الأمر الذي كاد يصيب ميخائيل فاليريانوفيتش بالشلل، فهذا المبلغ كان كافياً لشراء سيارة، صحيح أنها ستكون صناعة وطنية، لكنها سيارة على كل حال.

انحنى العم آليك مرة ثانية ومضى لاستقبال ضيوف آخرين، تاركاً هذا الزوج الغريب الأطوار يتابع حديثه الغامض.

– وكيف حال بشرتها؟

أحنى أوتياكين رأسه قليلاً معبراً بذلك عن بعض الحزن.

– بشرتها كما عند الآخرين...

– وما هو اقتراحك؟

– حسناً، فلنجرب معها...

– لا تضع الوقت!

– لماذا لم يهتم حيوانك، أي – إي، الزاحف بالبشرة؟ سأله ميخائيل فاليريانوفيتش بلهجة متوترة تشوبها الملامة.

– أنت يا ميشينكا تخوض مجالاً ليس مجالك! – عينا تشارمن ديميسوفيتش الزتيتيان ازدادتا سواداً، وتقلصت شفتاه المنتفختان... لا تنس من أبقاك في هذا العالم حتى الآن. يا دُكيتري الصغير!... انظروا من يلوم حيواني! ها قد مضى عليك أربعون عاماً وأنت تبحث عن عقار، فماذا كانت النتيجة!... إذا عدت مرة أخرى وقلت كلاماً كهذا، سأهجرك ولن تراني أبداً بعد ذلك!

ارتجف أوتياكين كله من الإحساس بالإهانة، لكنه امتنع عن المواجهة، فهو يعرف بفضل ماذا، ومن، هو موجود. كان يشعر بالغضب بسبب التحقير الذي لحق بطموحاته، لكنه تمالك نفسه بفضل الخوف الذي تغلّب على حبه لذاته. لقد كان ميخائيل فاليريانوفيتش يحلم بالتأكيد بأن يلتقي بجليسه مرات كثيرة قدر الإمكان.

– ليتنا نجري تجربة أخرى... – تمتم ميخائيل فاليريانوفيتش.

– هي ليست دائمة! – قاطعه تشارمن. – يجب أن تستحقها!

– أنا أستحقها! – همس الدكتور.

بعد ذلك لم يتبادلا أي كلام.

رسم تشارمن ديميسوفيتش بإصبعه دائرة، فلم تبق هذه الحركة غير ملحوظة من النادل هالدييه الذي سارع ليقف قرب الصندوق ببطنه الشره، في انتظار الإكرامية السخية.

استند تشارمن ديميسوفيتش إلى عكازه ذي القبضة الفضية المصبوبة على شكل رأس بدوي عجوز، ليس بسبب الحاجة الجسدية، بل كمظهر من مظاهر الوجاهة، وخرج من الندوة محيياً أوتياكين بحركة من رأسه تكاد لا تلحظ، وجلس في سيارة بيضاء من طراز بينتلي. تحركت السيارة الغالية الثمن على مهل مبتعدة عن الرصيف، حاملة راكبها، باتجاه ساحة لوبيانكا.

أما ميخائيل فاليريانوفيتش فمشى مسرعاً إلى محطة مترو «تياترالنايا»، وقف ينتظر القطار، وحين أتى استقله حتى محطة كولومينسكويا، حيث كانت زوجته سفيتوشكا تنتظره.

تلت المساء العكر ليلة عكرة.

سفيتوشكا لم تكن نائمة، وقد انتابتها حالة من القلق الغريب.

وجهها كان شاحباً، وعيناها كانتا تعبران عن دهشة شديدة. عيناها الشهلاوان كانتا متسعتين اتساعاً غير طبيعي، فلو رأى طبيب غدد هذه المرأة في تلك اللحظة لقرر أنها مصابة بمرض (بازيدوف).

أوتياكين لم يلحظ في البداية حالة زوجته غير العادية، وأراد أن يجلس للعمل على كمبيوتره المنزلي، لكن سفيتوشكا كانت تقف خلفه، تتنفس بكل صدرها، فتتصاعد أنفاسها صاخبة، عصبية، متسارعة. ثبّت ميخائيل فاليريانوفيتش بصره على زوجته فأدرك أن شيئاً ما غير عادي قد حدث، فقد كان جسدها يرتجف كما لو أصابته حمى.

– ماذا حدث يا حبيبتي؟

لم تجب على سؤاله الودود، واكتفت بأن أرته يدها التي كانت تمسك فيها مفتاحاً.

أوتياكين كان يعرف جيداً ما هذا المفتاح، والقفل الذي يُفتح به. لقد كان يتصور أنه خبأ هذا المفتاح في مكان يصعب الوصول إليه، لكن ما حدث هو أن سفيتوشكا، المحظوظة في العثور على الأشياء المفقودة، وجدته. وما يهم ميخائيل فاليريانوفيتش الآن هو أن يعرف ماذا وجدت زوجته أيضاً في نوبة ضجرها النهارية.

– إنه مفتاح – قال لها.

– ميشينكا... – صمتت برهة. – أنا لا أفهم...

هو كان رجلاً ذا خبرة، لذلك احتفظ بهدوئه والابتسامة على وجهه.

– ما الأمر يا عزيزتي؟

– لقد وجدت هذا المفتاح... – تضرج عنق سفيتوشكا بالحمرة، وبدت في هذه اللحظة جذابة جداً. – إنه مفتاح باب الغرفة المجاورة... تلك التي على اليمين...

– وأين وجدته؟ – سألها أوتياكين.

– في قناة التهوية...

– هل من السلوك الجيد فتح أبواب غرف الآخرين بمفاتيح الآخرين؟ وما الذي كنت تبحثين عنه في قناة التهوية؟

أحست سفيتوشكا بجفاف في حلقها.

– أنا مخطئة، – اعترفتْ. – لكن فسّرْ لي من فضلك، ما هذه الغرفة؟... ومن يشغلها؟...

ضاقت عينا أوتياكين فجأة وبان فيهما الغضب.

– لماذا تسألين عن ذلك؟!... وعموماً، أي شيطان دفعك لدخول تلك الغرفة؟!... ما الذي أردت رؤيته؟! أجيبي فوراً!

خافت سفيتوشكا من هجوم زوجها المفاجئ. فقدت شجاعتها تماماً، وهي تنظر إلى عينيه الضيقتين اللتين لا لون لهما.

– لا تقلق، – رجته بلهجة شاكية. – أنا لم أبق في الغرفة أكثر من دقيقة!

الحمد لله، قال أوتياكين في سره، لكنه أبقى في عينيه الغضب، محاولاً بذلك الحصول على المزيد من المعلومات.

– (يا عيب الشوم عليك)! تسللت كاللصة إلى سكن إنسان غريب! ماذا أردت أن تأخذي من هناك؟! – رفع أوتياكين يديه نحو السقف في حركة مصطنعة. – أنا لم أكن أعرف أني أعيش مع لصة!

– أنا لم آخذ من هناك أي شيء! – قالت سفيتوشكا تتوسله. – أقسم لك!... أنا لست لصة!!! لكن قل لي ما هذه الصور التي وجدتها على الطاولة؟ – سألته والدموع تسيل من عينيها المفتوحتين على اتساعهما.

– أية صور؟ – سألها ميخائيل فاليريانوفيتش وقد شعر بتوتر في داخله.

– صورك وأنت في الخامسة من العمر!

– وماذا في ذلك؟

فهم أوتياكين الأمر كله، وراح الآن يحاول أن يمنح وجهه هيئة الطبيب النفسي، وكلامه لهجة المنوّم المغناطيسي.

– على قفا الصور... – قالت سفيتوشكا بانفعال شديد، كما لو أنها ستصاب بانهيار عصبي. – هناك على قفا الصور كتابات شتى... و... وكذلك – استديو غوستاف برلين، عام 1905.

– طيب يا عزيزتي، وماذا في ذلك؟...

– وهناك مكتوب أيضاً بخط اليد: ميشينكا أوتياكين، في عمر الخمس سنوات.

– وماذا في ذلك؟

– وهناك صورة يظهر فيها رجل وامرأة. وهي مأخوذة أيضاً في استديو برلين، عام 1900، وعلى قفاها عبارة – الدكتور فاليريان أندريانوفيتش أوتياكين وزوجته يلينا ستانيسلافوفنا...

– وما الغريب في ذلك يا حبيبتي؟

– كم عمرك؟ – كانت سفيتوشكا الآن كالمجنونة، وعقلها كان مشوشاً.

– أنا لا أفهم!

لم يكن أوتياكين يتمتع بمواهب تمثيلية، لكنه، حين واجه خطراً حقيقياً قاتلاً، استجمع طاقاته كلها موحداً في شخصه، لمرة واحدة، قدرات ستانيسلافسكي ونوميروفيتش التمثيلية.

صوّر ميخائيل فاليريانوفيتش بواقعية شديدة الحيرة وعدم الفهم على سحنته الشاحبة، وأرسل إشارة دقيقة إلى شفته السفلى التي استجابت لإشارته برعشة خفيفة، أما عيناه، اللتان تكونان عادة بلا لون، فامتلأتا بلون سماوي لازوردي فرضته إرادته القوية... إن كل هذا البورتريه الذي رسمه أوتياكين كان يخبر سفيتوشكا أن سوء فهم غبياً وسخيفاً قد حدث، فصار زوجها المخلص عرضة للشك في أمر سيئ، في حين أن روحه المهانة نقية حتى قاعها، حتى طفولته!...

– يا غبيتي الصغيرة! – قال ميخائيل فاليريانوفيتش. – أنت... أنت ماذا ظننت... – حرّك رأسه لائماً. – هذان... هذان جد والدي وجدته! أنت من ظننتهما؟

– كيف جد والدك وجدته؟

سفيتوشكا تراجعت خطوة إلى الوراء.

– الأمر بسيط جداَ! – خطا أوتياكين في إثرها. – في الصورة أسلافي... أما والدي فسمياني باسم جد أبي! ما الغريب غير المفهوم في ذلك؟ – قال ذلك وضحك ضحكة طبيعية جداً، فماذا ظننت أنت؟... هل ظننت أن عمري مئة سنة؟ ها – ها– ها!!!

شعرت بغباء موقفها. وانتشر الندم في صدرها طائراً ضخماً باسطاً جناحية! فنتيجة للتفسير البسيط لما بدا لها معقداً، ولأنها فتشت خفية غرفة الجارة، وشكها في سلوك زوجها من دون مسوغ، أحست في لحظة بالضعف، وانهمرت دموعها، هي المذنبة التائبة، كالمطر الربيعي، واندفعت نحو زوجها باسطة ذراعيها.

– ميشينكا! – قبلت وجهه، وأصابع يديه، وضغطت وجهها على ركبتيه. – يا حبيبي!

ظل أوتياكين محتفظاً على وجهه بنتائج جهده التمثيلي، وهو يشكر الرب في سره على انتهاء الإشكال بسلام هذه المرة.

استغلّ لوم زوجته لنفسها، الذي بدا رائعاً ومثيراً، فعرّاها برقة، وامتلكها امتلاكاً بعيداً عن اللطف، امتلاكاً بربرياً شابته عناصر سادية.

لكن سفيتوشكا التي غصت بأنفاسها نتيجة اقتران الألم باللذة وقد انهالا عليها في الوقت نفسه، أرادت في البداية أن تصرخ، فصرخت ثم صرخت بصوت أعلى بثلاثة أضعاف صرختها الأولى.

توقف عقل الصبية تماماً، ونسيت زمناً طويلاً الصور وغرف الجوار، وصارت الآن تنتظر في كل ليلة من زوجها هدية أكبر من هديته لها في الليلة السابقة، أما ميخائيل فاليريانوفيتش فلم يكن يجرؤ على رفض طلبات زوجته الحبيبة...

لم يكن أوتياكين ينام أكثر من ثلاث ساعات في اليوم، ويقضي بقية اليوم كله في العمل، محملقاً في كمبيوتره المنزلي الذي كان أحياناً يفحّ كأنه حيّ، حين يحتاج قرصه الصلب للتبريد.

كان ميخائيل فاليريانوفيتش يتذكّر في أوقات مختلفة تشارمن ديميسوفيتش، وعند ظهور وجه صاحبه الشيطاني في خياله يبدأ يكافح ببسالة فورات الغضب التي تنتابه.

هو لم يكن يفهم أبداً كيف تجري الأمور في الطبيعة، كيف يحصل بعضهم على كل شيء – المقصود بالضبط هو أولئك الذين لا يبذلون أي جهد من أجل الحصول على ما يحصلون عليه، بينما الآخرون الموهوبون قدرةَ سيزيف على العمل لا يحصلون على شيء.

ترى ما الذي قدّمه ذلك الرجل حتى استحق أن يمسك بحيوان ويسجنه في خاتمه؟! من الذي تصرّف بالفضاء على هذا النحو؟... لماذا لم يكن هو المحظوظ بهذا الشكل الأسطوري؟...

كان أوتياكين يشعر أحياناً بعزلة فظيعة وحزن عظيم في هذا العالم. لو أن غدد الدمع عند الدكتور كانت تعمل، لو استطاع، لبكى بدموع حارة.

لكن ميخائيل فاليريانوفيتش فقد الآن القدرة على البكاء، بل كان يعد هذا البلل أمراً عديم الفائدة بالنسبة إليه. وكان بعد هذه اللحظات العابرة من الضعف، يغرق كليّاً في العمل، ويكتب أعقد الصيغ الكيماوية. كان يفكر بليبيدا، وبالتجربة التي سيجريها قريباً وبالأمل العظيم الذي ستبعثه لديه في حال نجاحها.

غير أن زلزالاً قوياً كان ينتظر أوتياكين. ففي يوم الاثنين، انتظر يوم عمل كامل مجيء أنجيلينا ليبيدا، لكنها لم تأت، فانتابت فوضى شاملة كيانه كله في حوالي الساعة السادسة مساء... ولا سيما حين سأل المديرة ذات الشفتين المدعومتين بالسليكون، عن عنوان العجوز فأخبرته أن هذا العنوان ليس مدوناً عندها، ولا تتذكره.

– أنت – مجنونة! – صاح أوتياكين بصوت حاد. – عجوز ضعيفة العقل! ما لديك ليس رأساً بل علبة براز!... يا إلهي، كيف منحتك أيتها المشوهة، طفلين! – من تراهما سيصبحان حين يكبران على يديك!

أطبقت المديرة، وهي تواجه هذا الهجوم القوي، فمها بشفتيها، كسمكة (كارب) حية، مصابة بارتجاج في دماغها، تنتظر ترحيلها إلى مقلاة محمّاة.

– أنت لم تطلب مني تدوين العنوان... – قالت تدافع عن نفسها.

– هل أنت غبية؟! ألا تعرفين عملك!

– هذا خطأ غير مقصود!...

– غير مقصود!... سأمنع عنك جرعة الدواء!... عند ذلك سيطير ديكك الفتي سريعاً ليدوس الدجاجة الفتية! وستنفجر شفتاك مثل كاوتشوك عجلة دراجة، ويسيل السيليكون! وتصبحين كالفزّاعة.

– ميخائيل فاليريانوفيتش! – قالت المديرة.

– أنا...!!! ماذا «أنا»!!! أين سأبحث عنها الآن؟!...

تذكّر فجأة أن أنجيلينا تحدثت عن أعمال ما... عن نشاطها كعارضة أزياء، وذكرت أنها أقدم عارضة أزياء في أوروبا!

– كم دار أزياء لدينا في موسكو؟ – صاح أوتياكين يسألها.

– لا أعرف! – أجابت المديرة بصوت راعش.

– ابحثي يا غبية! افتحي الإنترنت، وجدي لي أفضل خمسة دور أزياء! هل هذا واضح؟!!!

– أنا بدأت أبحث!

صفق أوتياكين باب مكتبه وشرع ينتظر. غابت الشمس سريعاً خلف أسطح البيوت، والدكتور ما زال يفكّر، كيف تراه سيخبر تشارمن ديميسوفيتش في حال إخفاقه في العثور عليها؟ وما هي عواقب ذلك؟...

بعد خمس عشرة دقيقة من الانتظار وضعت المديرة على طاولته ورقة طبعت عليها أرقام تلفونات وأسماء مؤسسات بيزنس «الأزياء».

ظل التلفون صامتاً فترة طويلة، ففقد الدكتور تمالكه لنفسه، ونظر إلى الساعة وهو متأكد أن يوم العمل قد انتهى. وهذا ما كان فعلاً. لكنهم أجابوا من الطرف الآخر للسلك، حيّوه باحترام وودّ وغنج.

– ماذا تريد؟ هل سبق أن قدمنا لك خدماتنا؟

– أنا أريد التحدث إلى أنجيلينا ليبيدا.

– آها، تريد فتاة بعينها، – ازداد الصوت رقة. – ذكّرني، أهي شقراء أم سمراء؟

– إنها فريدة في نوعها! – قال أوتياكين بعصبية. إنها شيباء! عمرها اثنان وثمانون عاماً!

سمع ضحكات مكتومة في الطرف الاخر من الخط.

– اثنان وثمانون؟

– نعم، بالضبط!

سمع ميخائيل فاليريانوفيتش بوضوح صوت كفّ تغطي سماعة الهاتف في الطرف الآخر، تلت ذلك همهمة.

– لا توجد عندنا بنت كهذه. – عاد الصوت اللطيف يكلمه، لكن باستغراب شديد. – هل أنت زبون دائم عندنا؟... عندنا فتاة رائعة حمراء الشعر، لكنها أصغر سناً...

هنا فهم الدكتور أنه وقع في مكان غير الذي يقصده. اعتذر بإيجاز وقطع الاتصال.

لو كان في غير هذه الظروف لتسلى قليلا، لكن ما حدث الآن أقرب إلى الدراما، منه إلى الكوميديا.

طلب أوتياكين الرقم التالي في القائمة.

هنا أجابوه بالترحاب أيضاً إلى حد ظن معه أنه وقع مرة ثانية على بيت دعارة.

– هل هذه دار أزياء «النجوم الخمس»؟

– هي بالضبط.

– أنا الدكتور في العلوم الطبية ميخائيل فاليريانوفيتش أوتياكين!

– سررنا بمعرفتك... لكن الإدارة غير موجودة الآن...

– أنا أحتاج إلى معلومات...

– بماذا أستطيع مساعدتك؟

– هل أنتم قديمون في سوق الأزياء؟

– نحن من أقدم دور الأزياء في روسيا، أجاب الصوت بلهجة يشوبها الاعتزاز. – نحن الوحيدون المعترف بنا في الاتحاد الدولي!

– هذا جيد! – قال أوتياكين مبتهجاً. – أنت، إذن، تملكين المعلومات المتعلقة بالدار؟

– أملك المعلومات كلها! ماذا تريد؟

قرر أن يتحدث معها بصراحة.

– زبونتي هي عارضة الأزياء أنجيلينا ليبيدا!

– ليبيدا، ليبيدا...

– هي أيضاً – أكبر عارضات الأزياء سناً في أوروبا!...

– هل تعني جيليا الفريدة؟

– هي، هي! – قال أوتياكين بفرح.

– إنها عارضة أزياء، بقدر ما الحصان القزم فرس سباق! إنها ليست أكثر من عارضة للتسلية!

– موافق! موافق تماماً!

– ماذا تريد إذن؟

هنا اضطر أوتياكين للكذب.

– المسألة هي أننا اكتشفنا عندها حالة خطيرة من (السكري) وعنوان هذه الليبيدا ليس مسجلاً عندنا. إنها تحتاج إلى الحقن بالإنسولين فوراً! وإلا فإنها ستقع في (الكوما) وبعد ذلك...

– هل سمعتم؟!، جيلكا مصابة (بالسكري)! – قال الصوت يخاطب آخرين قريبين منه. – هل بينكم من يعرف عنوانها؟ إن هذه المرأة العجوز معرّضة للموت!

– أو هل تعرفون رقم هاتفها؟ – قال ميخائيل فاليريانوفيتش بصوت يملؤه الرجاء.

– أظن أنها تقيم في بناء يطل على أحد البوليفارات... لقد مررنا مرة لأخذها من بيتها... أعتقد أن البولفار هو بولفار بيتروفسكي... سأتأكد من الأمر حالاً... إن كل شيء مدون عندنا...

– أنا أشكرك شكراً جزيلاً! – قال أوتياكين بانفعال شديد جعله يخطئ التعبير عن الشكر باللغة الروسية فيتابع قائلاً: – من فضلك!...

– أنا أبحث، أبحث!... لكني لم أكن أعرف أن كنيتها ليبيدا!

– إنها إحدى بطلات الحرب!

– حقاً؟

– أكيد وقد منحت وسام «المجد» ثلاث مرات!

– يا لهذه الحياة التي اضطرتها إلى عرض المايوهات!

– وماذا وجدت؟ – لم يستطع الدكتور تمالك نفسه.

– أنا أبحث! عندنا أكثر من مئة بنت! وخمسين شاباً!

– أنا انتظر!

– لقد وجدت العنوان! سجّل عندك!

– أنا أكتب!

– بولفار بيتروفسكي 17، الشقة8، أنجيلينا ليبيدا.

هو حتى لم يشكرها. رمى السماعة، وخرج من المكتب ركضاً، مهدداً المديرة بقبضته، نزل الدرج، واستوقف سيارة أجرة. ذكر له العنوان، وظل طول الطريق يسعل بعصبية، الأمر الذي وتّر أعصاب السائق بشدة.

وقفا طويلاً نتيجة اختناق السير، وشعر أوتياكين بالندم لأنه لم يستخدم الميترو، فهو لو فعل لما استغرقت رحلته سوى نصف الوقت الذي تستغرقه الآن، ولما كلفته سوى ربع ما سيدفعه.

عاد ميخائيل فاليريانوفيتش إلى السعال من جديد.

– هل أنت مسلول؟ – لم يستطع السائق تمالك نفسه.

– ماذا؟ – لم يفهم الدكتور سؤاله.

– امش على قدميك إذا كنت مريضاً! وابتعد عن الناس كي لا تنقل إليهم المرض!

– لمن توجّه كلامك؟ – سأله أوتياكين مندهشاً.

– لك، فمن هنا غيرك؟!

نظر السائق ذو البنية الرياضية إلى الراكب الأشيب النحيل، من أعلى إلى أسفل، قالباً شفته السفلى في حركة تنم على الازدراء.

– ماذا تنتظر؟

ضغط السائق على مكبح السيارة «الفولغا» وأوقفها إلى جانب الرصيف.

– هات النقود، وانصرف!

– لم أفهم...

– هل أنت أطرش أيضاً؟... هات مئتين أجرة الطريق، ومئتين كتعويض عما ألحقته بي من ضرر!

مدّ السائق الفظ يده الضخمة إلى ياقة قميص أوتياكين النظيفة، لكنه لاحظ فجأة أن الزبون يحمل في يده إبرة، فأدهشه ذلك. وقبل أن يظهر أية ردّة فعل، انغرست الإبرة الطويلة في عنقه، في منطقة الشريان السباتي، ففقد رأسه الغبي الوعي، حتى قبل أن يدرك ما حدث.

أما ميخائيل فاليريانوفيتش فتابع رحلته بسرعة. هو لم يشعر بالشماتة أو الفرح لتخلصه بسهولة من السائق الوقح بحقنه بجرعة من المخدر ممزوجة بعقار سيشعره بالغثيان والدوار على مدى ساعتين بعد أن يستعيد وعيه.

لقد كان لدى ميخائيل فاليريانوفيتش هدف فائق الأهمية هو العثور على أنجيلينا ليبيدا. مشى قفزاً إلى المبنى رقم 17، وصعد راكضاً إلى الطابق الرابع. فعاوده السعال من جديد.

أنا فعلاً كالمسلول، قال في سره.

ضغط زر الجرس... لا جواب... حاول بإلحاح أكبر – رنات طويلة ومتقطعة... لا جواب...

أخذ اوتياكين يقرع الباب بكل ما عنده من قوة، لكن هنا... شرع الباب غير المقفل يهتز ثم انفتح. خطا ميخائيل فاليريانوفيتش بشجاعة إلى داخل عتمة الشقة الغريبة مادّاً يديه أمامه وهو ينادي همساً:

– أنجيلينا!... ليبيدا!... هل تسمعينني؟...

تلمست يداه الجدران في محاولة للبحث عن مفتاح الكهرباء، لكن سرعان ما صعقه التيار. يبدو أنه دس يده في مأخذ كهربائي.

ضغط إصبعه أخيراً زرّ الإضاءة، فأنارت الممر ثريّا مزيفة من الطراز الذي كان سائداً في الستينات، مع أن حامل المصباح لم يكن مزيفاً، بل كان تحفة حقيقية نادرة.

ومن الباب نصف المفتوح. المؤدي إلى الغرفة، برزت ساقان، كانتا مفتولتين في وضع غير طبيعي.

– ماتت، – صرخ أوتياكين متحسراً. – مادة التجربة، ماتت!...

# – 9 -

ليونيد بافلوفيتش واصل بكاءه، وبكاؤه استمر ست سنوات وثلاثة أشهر...

بذل الطاقم الطبي جهوداً عملاقة كي يوقف ذلك العويل الذي لا يطاق، فحقن دم الطفل بكل ما يعرفه العلم من عقاقير مهدئة، لكن حباله الصوتية، ورئتيه اللتين ترغمانها على العمل، ظلت تؤثر تأثيراً نفسياً مدمراً على نفسيات المرضى غير الطبيعيين في هذه المؤسسة المتخصصة، وكذلك على نفسيات العاملين فيها. وقام متخصصون مشاهير كثيرون بزيارة ليونيد لدراسة هذه الظاهرة الجسدية التي لا تؤثر فيها حتى العقاقير المخدرة. وفي كل الأحوال كان هؤلاء العلماء النفسانيون، البارزون يغادرون المكان مشبعين بخيبة أمل مطلقة بسبب عجزهم، بالإضافة إل اختلالات في أعصابهم التي تبدو كما لو أن هجمة جنون أصابتها. لم تكن الإدارة تعرف كيف تتعامل مع هذا المشوه الغريب الأطوار، لذلك وضعوه في المقصورة المنفردة رقم 19 التي لا تخترقها الأصوات، وكان العاملون يطلون عليه في أحيان نادرة عبر طاقة صغيرة في جدار المقصورة.

لم يعد الصراخ يقلق العاملين، غير أن هذا لم يكن ينطبق على المقيمين الاخرين في المؤسسة. كان الجميع – المرحون دائماً، والأنانيون، والمتخلفون عقلياً، والبلهاء، – يرددون بصوت منخفض صراخ ليونيد، فقد تبين أن في صوت هذا الطفل المقرف كثيراً من الموجات فوق الصوتية التي تخترق الجدران بسهولة. فتتسبب بتوترات نفسية غير عادية... لكنها كانت تتسبب أيضاً باختفاء الجرذان...

تم حلّ هذا الإشكال بمساعدة الفيزيائيين الذين طوقوا مهجع الطفل الصرّاخ بمادة خاصة تلتقط الأمواج ما فوق الصوتية، فهدأ الأطفال المشوهون، غير أن الجرذان عادت إلى الظهور، وقد اعتاد العاملون على وجودها كاعتيادهم على وجود أولادهم...

بهذه الطريقة تم حلّ مشاكل عزل الأصوات في هذه المؤسسة.

لم يعودوا عملياً يتذكرون ليونيد، نسوه كما يُنسى كلب يعيش في عمق الفناء، واكتفوا بتقديم الطعام له. غير أن الطفل البكاء رفض الطعام رفضاً قاطعاً، فكفّوا سريعاً عن تقديمه له، لأنه كان يبقى شهوراً غير مأكول فيفسد وتفوح رائحته. وكانت إدارة المؤسسة المتخصصة مسرورة بهذا

الانعطاف في مجرى الأحداث، فقد عدّت بقلب مشفق، أن موت هذا الكائن التعيس موتاً سريعاً سيكون أفضل له هو نفسه وسيقلل، طبعاً، من أعباء الرئاسة!...

بعد أسبوعين رأى رئيس الأطباء النفسيين في المشفى بانيتشكين، وهو ينظر من النافذة، عاملين ينقلان في الفناء، قدراً كبيراً من الحبوب المطبوخة وتابوت طفل صغير.

حسناً، هذا عظيم، – قال رئيس المشفى وهو يتنهد بارتياح.

لكن الذي صعدت روحه إلى السماء لم يكن أبداً سيفيرتسيف، بل دانيلكا المتخلفة عقلياً، التي نسيت كيف تتنفس فاختنقت بنجاح.

– وداعاً أيها الصيّاح! – قال بانيتشكين وهو يلوح بيده في إثر العربة، ونسي الحادثة.

ما كان يجري في رأس ليونيد في أوقات صراخه القوي، لم يكن معروفاً بالمعنى المعتاد للكلمات الإنسانية.

يمكننا أن نحاول الاقتراب من فيزياء المخ، لكن من الجانب الوصفي فقط.

في المادة الرمادية عند الطفل سيفيرتسيف كانت تعربد عواصف موجية. كانت شتى أنواع الطاقة تتصادم فترفع حرارة المخ إلى الخمسين درجة. وكانت بعض الأجسام التي في الرأس تتحول إلى سائل عدة مرات في اليوم. وعلى العكس من ذلك، كان بعضها الآخر يصبح أكثر كثافة. عيناه تطلقان شرارات وفي الليالي تنطلق منهما بروق كاملة تصدر فرقعات كهربائية.

وإلى جانب ذلك كله جسد الطفل ينمو كما ينمو أي جسم سليم. كانت يداه ورجلاه تنمو، وجذعه يطول، إلا أن عينيه كانتا تدوران مسعورتين، وتبدوان جاحظتين أكثر من اللازم، وهذا أمر طبيعي يسببه ذلك البكاء الذي لا ينتهي...

بعد ست سنوات وثلاثة أشهر، كفّ ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف عن البكاء فجأة.

ظل هذا الحدث غير ملحوظ. كثيرون من العاملين تغيروا في خلال هذه الفترة، وكثيرون من المرضى المقيمين ماتوا، أما العاملون الجدد فعدّوا المقصورة رقم 19 مستودعاً غير مستخدم، مغلقاً من أيام القيصر (حمّص)...

لكن ما من شيء في الكون يظل ضائعاً ومنسياً إلى ما لا نهاية.

في تلك الأيام بالذات، حيت اقترب بكاء ليونيد، الذي دام ست سنوات، من نهايته، احتاج رئيس الأطباء النفسيين بانيتشكين إلى مقصورة لابن صديقه المولود مصادفة بعقل مشوه. كان طفلاً جميلاً جمالاً مدهشاً، لكن دماغه كان صغيراً جداً كدماغ سمكة. كان هذا الطفل يرف بعينيه الرائعتين من دون أن يرى العالم، ومن دون أن يحسّ بالفضاء، أو يشعر بذاته. كانت روحه نائمة كقيصرة ميتة حكم عليها ألّا تستيقظ عبر العصور.

بانيتشكين الذي يتعاطف مع صديقه تعاطفاً صادقاً، أراد، طبعاً، أن يخفف معاناة الأبوين فاقترح على الزوجين الشقيين أن يضعا الطفل في رعاية الدولة، شارحاً لهما استحالة رعاية مثل هذا الولد في الظروف المنزلية، وأن وجوده في المنزل عذاب للزوجين وللطفل. بانيتشكين كذب في كلامه على الطفل ومعاناته – لأن مشوهي العقول لا يحسون بأية معاناة، لكنه كذب كي ينقذ الموقف.

وافق الأبوان الشقيان على الاقتراح، طالبين أن تؤمن للطفل التعيس شروط مريحة قدر الإمكان، وتعهدا بتقديم تبرعات مالية صغيرة مقابل الرعاية.

أمر فاعل الخير بانيتشكين أن يؤمنوا للقادم الجديد مقصورة مستقلة، ودهش هذا الطبيب النفساني دهشة كبيرة حين أبلغوه أن كل المقصورات مشغولة.

– أيولد الأطفال المشوهو العقول بهذه الكثرة؟ – سأل المدير الإداري بيريغيفودا.

– بل أكثر مما تتصور، – أجابه الرجل.

– جد حلاً للمسألة، – أمره رئيس الأطباء النفسيين. – أنا بحاجة إلى ذلك!

– سنحلها، – وافقه المدير الإداري بسهولة، وقد أرسل ذهنياً إيروشكا المتمردة إلى مقبرة المجهولين.

حاول بيريغيفودا وهو يمر بجانب المقصورة رقم 19 أن يتذكّر ما المخزون فيها، خلف البوابة المقفلة بإحكام بأقفال صارمة. حاول أن يطل على ما بداخلها عبر الطاقة الصغيرة، لكنها كانت متسخة إلى حد تتعذر معه رؤية أي شيء.

أراد المدير الإداري أن يعرف كم بقيت هذه المقصورة النادرة من دون عمل، وأين مفاتيحها، لكنه لم يتلق من أحد جواباً مفيداً.

أوضاع كهذا الوضع كانت تثير أعصاب بيريغيفودا، لذلك طلب استدعاء النجار وفتح الأقفال. فتحت الأقفال أخيراً بعد ساعتين من العمل، فأصابته دهشة عظيمة حين وجد في المقصورة الغامضة رقم 19 فتى عارياً في عمر السبع سنوات، شكله غريب، كأنه قادم من عالم آخر، لكن عينيه كانتا نظيفتين وصافيتين تماماً.

سلّطوا المزيد من الأضواء على المقصورة فرأوا على الجدار كتابة بأحرف ضخمة هي E=MC

طلبوا على الفور أن يحضر إلى مكان الحدث الطبيب النفسي بانيتشكين، الذي تأمل اللوحة السوريالية الظاهرة أمامه. وهو يتمتم بشيء ما، ثم سأل بصوت خافت:

– من أخذوا في العربة إذن؟

– في أية عربة؟ سأله بيريغيفودا مدققاً.

– في العربة مع الحبوب المطبوخة؟

في هذه الأثناء ظن المدير الإداري أن بانيتشكين نفسه سيحتاج قريباً إلى مقصورة مستقلة، لكن الطبيب النفسي بدا أكثر صلابة وهو يواجه الحدث المزلزل، إذ خاطب الجميع قائلاً:

– سنتحرى الأمر.

حين عاد طبيب النفس الإنسانية إلى مكتبه طرح على نفسه سؤالين مبدئيين – كيف عاش إنسان ست سنوات من دون طعام؟ وكيف ظهرت على الجدار هذه الصيغة التي وضعها العالم الشهير آ. إينشتاين؟

وقد وجد بانيتشكين جوابي السؤالين في السؤالين.

الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون طعام، وإذن، هناك من كان يطعم الطفل الصيّاح سراً. لا بد من التحقيق في ذلك... وآ. آينشتاين كما هو معروف، كان عالماً باحثاً... والطفل الصيّاح الذي كبر بهذا الشكل غير الصحيح في فضاء مغلق، يمكن تماماً أن يكون قد ضحي به أساساً لصالح العبقرية الفضائية التي نمت على حساب وجوده. وهو بذلك يكرر الاكتشاف الذي توصل إليه العبقري الحاصل على جائزة نوبل. لكن هنا أيضاً يمكن أن يكون ثمة خداع وتزوير!...

نهض بانيتشكين من وراء مكتبه بحزم، وقال بصوت مسموع:

– يجب استجواب جميع العاملين! بقسوة!

«بقسوة» كلمة تبعثت في نفس الطبيب النفسي بعض القلق. الدكتور يذكر قسم هيبوقراط، رغم أنه كان في بعض الأحيان يرى أن من الضروري إلغاءه ونسيانه. ففي الظروف السياسية المعاصرة لم يعد الطب النفسي فرعاً طبياً فحسب، بل أصبح أيضاً سلاحاً فعالاً هجومياً ودفاعياً في الوقت نفسه.

استدعى بانيتكشن المدير الإداري بيريغيفودا على عجل وكلّفه بإجراء تحقيق دقيق للغاية في الحالة التي نشأت.

– لقد أجريت التحقيق! – أجاب المدير الإداري بلهجة متعبة.

– وماذا وجدت؟

– ظاهرة غيبية.

– عبّر بشكل أوضح! – قال الطبيب النفسي رافعاً صوته، وقد أخافته كلمة «ظاهرة غيبية» كما لو أن أحدهم تنبأ له بموت عاجل.

– ليس هناك ما هو أوضح! الدخول إلى المقصورة لم يكن متاحاً لأحد. أقفال البوابة غطاها الصدأ! ألا تذكر أني عملت محققاً محترفاً في يوم ما؟

هذا صحيح، قال بانيتشكين في سره، فثمة في إضبارة المدير الإداري عبارة موجزة تقول: من عام 1935 حتى عام 1967 – عمل محققاً.

ترى ما نوع القضايا التي حقق فيها؟ – تساءل كبير الأطباء بقلق. – ولماذا تحول من محقق إلى مدير إداري؟ – أين تراه عمل محققاً؟

تغيرت نظرة بانيتشكين إلى مرؤوسيه، رأى في وجه بيريغيفودا عينين مزمومتين معبرتين، فأدرك فجأة أنه قوزاقي مبعد.

– كيف عاش ست سنوات من دون طعام؟ هذا غير معقول!

– لقد قلت لك إنها ظاهرة غيبية! – أجابه المدير الإداري. – يمكنك أن تعدّها ظاهرة لا يفسرها العلم!

هذا الاقتراح الذي قدمه بيريغيفودا بعث في نفس بانيتشكين الهدوء في الحال، فمفهوم «ظاهرة» لا يلزم أحداً بشيء. يمكن أن تدرس الظاهرة عشرات السنين من دون أن يطلب منك أحد تفسيراً لها! كما أنك أنت لست مضطراً لتفسيرها. أضف إلى ذلك أن بانيتشكين لم يكن، وقد بلغ من العمر ما بلغ، شديد الفضول. لقد رأى في حياته ما يملأ خمس حيوات!... لذلك وجد أن مصطلح «ظاهرة» مناسب.

– إنه ظاهرة «طبعاً»! – صاح كبير الأطباء مبتهجاً. – دعه يعيش في المقصورة نفسها!

– الأمر عندي سيان، – وافقه بيريغيفودا. – هذا لا يزعجني!...

إيروتشكا المتمردة إذن، قال المدير الإداري في سره وهو يعود إلى عمله، يجب تنبيه الممرضين كي ينسوا ضرورة إطعام البنت المجنونة فترة أسبوع! من غير المعقول أن تنشأ «ظاهرة» ثانية! العربة جاهزة دائماً... أما الآن، فلتعش مع الجماعة ما دامت في حماية الرئيس! فالأمور كلها سواء عند هذا المتخلف عقلياً!

ظل بانيتشكين عشرة أيام كاملة يحاول أن ينسى ساكن المقصورة 19، لكنه لم ينجح. صورة الفتى كانت تقلب دماغه، تحرمه النوم في الليالي، وتفقده الشهية للطعام نهاراً.

الطبيب النفسي لم يطلع حتى زوجته على ما جرى. لقد كان عقله الباطن يحرص بشدة على دفن هذه «الظاهرة» عميقاً ونهائياً.

وفي اليوم الحادي عشر استجمع بانيتشكين طاقته الروحية ودخل، رغم كل قلقه، إلى المقصورة رقم 19.

كانت ترتسم على وجهه، بسبب ارتجاج أعصابه، علائم ازدراء شديد، وبدت عيناه كشقين ضيقين، الأمر الذي أفقد ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف سيطرته على نفسه فصرخ قائلاً بوضوح:

– متخلف عقلياً!

شعر الطبيب النفسي بساقيه تتهاويان من وقع المفاجأة. وعدّ من الضروري أن يقنع نفسه على الفور بأن ما سمعه مجرد وهم، لكن كلمات أخرى تالية أقنعته بعكس ذلك.

– أبله، فاقد العقل، مهووس، مشوه، وجه خنزير!

عند سماع هذه الكلمات تشكل في كيان بانيتشكين الغضب المنقذ من الانهيار. كيف يمكن أن يهان عالم نفس سوفييتي بارز بمثل هذه الكلمات! وممن؟! من طفل مجهول ضعيف العقل!... لم يظهر كبير الأطباء غضبه، بل، على العكس، رسم على وجهه ابتسامة احترافية.

– حاول، أيها الفتى، أن تكون هادئاً، – قال ذلك واضعاً إصبعه السبابة أمامه كي يجلب إليها اهتمام مريضه. – وإلا فإنهم سيرسلونك إلى قسم مرضى الهياج، وهناك سيحقنونك بعقارات شتى... مؤلمة جداً!... اهدأ!...

كان بانيتشكين في هذا الوقت يكره بكل جوارحه زبونه الفتيّ سيفيرتسيف وقد قرر في سره أن يخضعه لإجراءات عقابية قاسية، لكن «الظاهرة» نطقت بلهجة طفلية مستغفرة:

– أرجو عفوك يا بروفيسور!

– لم أفهم! – انتاب الخوف بانيتشكين مجدداً.

نهض الطفل واقفاً، متصنعاً الخجل من عريه، ومخفياً بكفيه ما في أسفل بطنه، ومشى خطوتين إلى الأمام مميلاً رأسه وقال:

– الأعصاب يا بروفيسور! احكم بنفسك، ست سنوات في منفردة، من دون طعام... إن أعصاب أي إنسان يمكن أن تنهار في مثل هذه الحالة. أرجو أن يسامحني قلبك الكبير!... أنا عارٍ... وتحت ضغط نفسي...

كان بانيتشكين في حال من الذهول والانفعال جعلته عاجزاً عن البقاء في المقصورة مع سيفيرتسيف، فغادرها مسرعاً وأمر بإغلاقها نهائياً.

– هل نطعمه؟ – سأله المدير الإداري الذي كان يقف خلفه.

– ماذا؟

– هل نطعم ما وجدناه فيها؟

– طبعاً، طبعاً! – أجابه بانيتكشين من فوق كتفه. – نحن في نهاية المطاف، بشر!

وهل لا نكون بشراً إذا لم نطعم إيروتشكا الآن؟ – سأل بيريغيفودا نفسه.

تعذب كبير الأطباء النفسيين يومين آخرين في مكتبه. عشرات الافتراضات المختلفة خطرت في دماغه المتورم، ونشأت فيه شتى الاحتمالات العلمية حول ظهور هذا الطراز ذي السبع سنوات، وإمكانية بقائه حياً من دون طعام، والأصعب، من دون ماء. هل هذه حالة من (الليتارجيا)؟ أم حالة (مومياْئية). تفو، هذا غباء!... وخطرت في باله افتراضات وجودية منها تشويه متعمد لسمعة الطبيب النفسي بانيتشكين! وكان يشك في أن المحقق السابق بيريغيفودا هو من يقوم بذلك...

ومع اقتراب المساء صار الدماغ المتعب يطرح أشياء مخيفة تماماً: الطفل ليس طفلاً أبداً، بل هو تجل للشيطان، والأسوأ من ذلك أن يكون تجلياً للرب. وهو، سواء كان هذا التجلي أو ذاك، حضر ليعاقب بانيتشكين لمساهمته الفعالة في أزمنة الشر... وبسبب هذه الأفكار تناول بانيتشكين ثلاثة أقراص من الفينوزيبام واستعان لابتلاعها بالكونياك. فسرى في جسده بعد خمس دقائق خدر لذيذ وصار مستعداً لمصادقة الرب والشيطان، بعد ذلك استرخى وغفا على المقعد الجلدي في مكتبه.

في صباح اليوم الثالث أصدر بانيتشكين المرهق حتى العظم أمره بالهاتف بأن يحمموا النزيل سيفيرتسيف تحت (الدوش) ويقصوا شعر رأسه ويسرّحوه تسريحة مدنية، ويقدموا له على الغداء طعاماً كالمقرر للعاملين في المشفى، ثم يلبسوه ثوب مشفى جديداً، ويحضروه له، لبانيتشكين، في مكتبه مباشرة لمعالجته.

وقد نُفّذ الأمر.

ارتدى ليونيد ملابس جديدة بيضاء، وجلس على الكرسي المقابل للطبيب النفسي، كانت نظرته ملائكية، كأنه يواصل الاعتذار عن الإهانات التي وجهها سابقاً.

حرص بانيتشكين على الابتسام وهو يسأله بصوت منخفض:

– ما اسمك؟

– ليونيد، – أجاب أسير الطب النفسي السوفييتي.

– نعم – نعم. وأنا اسمي بانيتشكين. الدكتور بانيتشكين.

– تسرني جداً معرفتك.

– وأنا...

صمتنا طويلاً بعد ذلك. لم يحد ليونيد بنظرته النظيفة عن الطبيب النفسي الذي أطرق مثبتاً بصره على الأرض، رافعاً رأسه بين حين وآخر،

– لا تكتئب هكذا، قال ليونيد. – كل شيء سيكون على ما يرام.

– لكن، كيف بقيت حياً؟ – انفلت السؤال فجأة من فم بانيتشكين

– الأمر بسيط جداً، – قال سيفيرتسيف موضحاً. – لقد ساعدني دانيلكا.

– أيّ دانيلكا؟

– دانيلكا الذي نقلوه في العربة بدلاً مني.

– وهل هو ما يزال حياً أيضاً؟

– ما يزال حياً!... وإيروتشكا!

كان كلام الصبي، برأي بانيتشكين، غير طبيعي، يشكل عرضاً من أعراض الشيزوفرينيا، لكن الطبيب النفسي ظل، مع ذلك، يشعر بخوف لم يشعر بمثله أبداً في حياته التي رأى فيها مرضى بالشيزوفرينيا أكثر مما رأى من الناس الطبيعيين.

– هل أنت تمزح؟

ابتسم ليونيد ابتسامة مذنب وقال معترفاً:

– أمزح طبعاً! قل لي: هل يستطيع ميت متخلف عقلياً، أن يساعدني؟

– لا، – أجاب الطبيب النفسي بثقة.

– أنا، إذن، أمزح.

هنا فهم بانيتشكين الأمر كله. تراكضت الأفكار في ذهنه وتوضعت في بنيان منطقي:

من المؤكد أن الفاعل هو بيريغيفودا! المحقق السابق!... هذا كله من فعل يديه الملطختين بالدماء!... هو يزعم أن الأقفال لم تفتح منذ سنوات كثيرة! لكن من يشهد بذلك؟ لقد أرغم عنصر الـ (ك. جي. بي) هذا، العاملين على الصمت وعدم الاعتراف بأنهم كانوا يطعمون الصبي ويعلمونه، وأن حالته النفسية باتت طبيعية! لقد كان الجلاد يعدّ لي مقلباً خبيثاً!... يا له من طاغية! لم يكتف بذلك، بل خطّ لوحة مخيفة! أتراه لوّثها ببرازه أم...؟

أشرق وجه كبير الأطباء النفسيين. الصورة الآن واضحة في ذهنه وضوح صباح ربيعي في سماء صاحية.

– بيريغيفودا؟ – سأل بلهجة تآمرية.

أحنى ليونيد رأسه بالإيجاب، وقال:

– أنت ذو بصيرة نافذة!

– خبرة ثلاثين عاماً في الطب النفسي!

– خبرة محترمة.

– وأنت، كم عمرك؟

– سبع.

– لكنك تفكّر كما لو كنت في الثامنة.

– شكراً.

– وما حاجة بيريغيفودا إلى تشويه صورتي؟ أجب بجرأة، لا تخف مني!

– أنا لا أعرف، – أجاب ليونيد بصدق غير مصطنع. – أنا طفل، ولا أفهم في مثل هذه الأمور. عمري سبع سنوات، وأريد الذهاب إلى المدرسة!

– إلى المدرسة؟

– كي أتعلم.

– تتعلم؟... لا مشكلة في ذلك! نجري لك الاختبار الطبي اللازم، ثم بالتوفيق! كل الصبية الصغار يجب أن يتعلموا! هل تعرف من أينشتاين؟

– هذه كنية دانيلكا؟

بدا بانيتشكين راضياً تماماً. غادره الخوف، وشعر بنفسه مجدداً طبيباً نفسياً كبيراً يستطيع تفهّم أعقد الحالات. أما بيريغيفودا فيجب معالجة أمره في أسرع وقت ممكن!... إنه، هو بانيتشكين، ما زال يحتفظ بعلاقات كثيرة مع الأجهزة النافذة!

كرّر بانيتشكين وعده للصبي بأن تقوم اللجان بالشكليات الضرورية ثم يرسلون ليونيا إلى المدرسة.

في مساء ذلك اليوم اتصل الطبيب النفسي بانيتشكين بجنرال في لجنة أمن الدولة تربطه به علاقات قد لا تكون ودية لكنها موثوقة إلى حد كاف تماماً. أخبر الجنرال بما جرى، وحدثه بأمر المدير الإداري بيريغيفودا.

– إنه رجل غريب جداً! – قال بانيتشكين في نهاية حديثه.

– سنساعدك! – وعده الجنرال. – سأرسل غداً رجلاً، حدّثه بالأمر!...

في اليوم التالي دخل إلى مكتب كبير الأطباء النفسيين رجل يرتدي زياً مدنياً، اقترب مباشرة بجرأة من مكتب كبير الأطباء، وقدّم نفسه:

– العقيد درونين!...

حين عاد العقيد درونين من مستوصف العلاج النفسي، راح يفكر، وقد انتابه بعض الحزن بغرابة الأقدار، وبأن كل شيء في هذا العالم محصور في دوائر، ولا توجد خطوط سائرة إلى اللامكان! لقد كان محقاً ذلك المجنون الذي برهن أن الخطين المتوازيين يلتقيان.

لم يكن بمقدور العقيد أن يتصور أن كنية سيفيرتسيف ستصادفه مرة ثانية. هو، في البداية، لم يستطع أن يتذكر، وهو جالس يعصر ذاكرته في مكتب الطبيب النفسي، أين ومتى عرف هذه الكنية، لكن كل شيء اتضح في ذهنه حين خرج إلى الشارع، تذكر أن سيفيرتسيف هو المجرم الخطير كرينيتسين، وأن المرأة التي ماتت أثناء الولادة كانت على علاقة مع صديق درونين أفلاطون أنطونوف الذي غادر الحياة بطريقة غريبة جداً...

انهالت الذكريات على الضابط. حسب في ذهنه تواريخ الأحداث فاستنتج أن عمر الطفل يجب أن يكون سبع سنوات.

لكن لماذا وضعوه في مستشفى مجانين؟ ما أغرب هذه الحكاية!... مدير إداري يدعى بيريغيفودا، كان، على ما يبدو، محققاً... طيب، هذا يمكن التغلب عليه!... أما بانيتشكين نفسه، فبدا لدرونين مختل العقل قليلاً، حسناً، يقولون إنك تستطيع، وأنت مطمئن النفس، أن تضع الطبيب النفسي محلّ مريضه، وتضع المريض النفسي محلّ طبيبه... سيفيرتسيف ليونيد بافلوفيتش!... ترى كيف بقيت للصبي كنية أبيه المجرم واسمه. أمثاله من الأطفال يجب أن تتسلمهم المياتم من دون أسماء، وهناك في الميتم يعطونهم أسماء وكنى جديدة، كي لا يواجهوا في المستقبل أية مشاكل، وكي

لا يخجل مواطنو المستقبل في الاتحاد السوفييتي من أسماء آبائهم المجرمين، فنحن الآن لسنا في عام سبعة وثلاثين!... حين عاد درونين إلى دائرته أصدر أمرين:

– أخرجوا لي قضية كرينيتسين من أرشيف عام 1934، وهاتوا ما عندنا في المحفوظات من معلومات عن بيريغيفودا، نيكولاي تيموفييفيتش. يقولون إنه من الرجال الذين كانوا عندنا!

– الذين كانوا لا وجود لهم، – أجابوه بهذه العبارة الدارجة. هو نفسه يعرف هذه الحقيقة.

لكن ماذا لو كان هذا السيفيرتسيف – كرينيتسين ابن أفلاطون فعلاً؟... لا بد من رؤية ذلك الصبي!...

في هذا الوقت كان ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف الذي جاؤوا به إلى قسم النقاهة في مشفى الطب النفسي، يرقد على السرير ويداه تحت رأسه، يفكر باستمرار وعيناه تنظران إلى السقف الذي تشقق طلاؤه.

سرت أفكار الصبي في مجرى التفكير بمستقبله الذي لم يكن ليونيد يربطه أبداً بوجوده في مشفى المجانين، حتى لو كان في قسم النقاهة، فجميع من حوله مختلون مثلهم مثل جميع الأطفال في هذه المؤسسة، سواء كانوا في قسم النقاهة أم في الحجز – لا فرق! لقد كان ليونيد يفترض أن الأطفال حتى خارج جدران مؤسسة الطب النفسي – مختلون عقلياً. إن هذا الصبي لم يكن يطيق الغباء الإنساني، وكان الضعف العقلي عند الأطفال يغضبه أشد الغضب، فلا يتورع عن ضرب أنوف جيرانه حين كانوا يطلبون منه بسذاجة أن يلعب معهم لعبة الطبيب والمريض مثلاً. وكان يحب أن يرى هذه الكيانات المشوهة وهي تمسح الدم السائل من أنوفها المهشمة...

– هاكم! خذوها من الطبيب!

أما هذا البانيتشكين الذي شوه الغباء دماغه، البانيتشكين الوغد الذي نسيه سبعة أعوام بلا طعام وبلا ماء! فسيعاقبه في يوم ما، سيطلق في أذن ذلك الحقير مئة نملة شقراء!... لكن عليه الآن أن يستخدم ذكاءه ودهاءه كي لا يبقى في هذا المكان المقرف مدى الحياة!... اللحظة الأكثر صعوبة هي كيف يمكنه أن يفسّر بقاءه طول هذه الفترة غير المعقولة من دون طعام، ومن دون ماء... بصراحة، ليونيد نفسه لم يكن يعرف كيف يفسّر ذلك، وهو يعاني في الوقت الحالي شعوراً دائماً بالجوع والعطش – سيقول إن الجسم يعوّد نفسه في حالة الخطر القصوى، على الكينونة كينونة مستقلة، على صيغة ما من التفكير. ترى، هل البكاء ست سنوات – صيغة من صيغ التفكير؟! يجب عدم التطرق لهذا الموضوع! يجب عدم التكلم إلا بما هو مفهوم! أما ما الذي يستطيع بانيتشكين أن يفهمه، فقد عرفه من بانيتشكين نفسه. سيحمّل بيريغيفودا كل شيء! «هو كان يطعمني ويسقيني! وهو علمني الكلام أيضاً! لكني لا أعرف الكتابة والقراءة!...».

بعد أن اتخذ ليونيد هذا القرار، نام نوماً عميقاً...

جمع كبير الأطباء النفسيين بانيتشكين لجنة محترمة قررت مصير بعض الأطفال الذين أخذوا يتماثلون للشفاء.

من أصل تسعة من الأطفال المرشحين للحرية قررت اللجنة ردّ ثمانية إلى المشفى لاستكمال العلاج مدى الحياة، بوصفهم لا آفاق لشفائهم.

لقد انتقى بانيتشكين خصيصاً هذه المجموعة من المتخلفين إلى جانب سيفيرتسيف، كي ينتصر على زملائه من خلال التناقض، هو كان يكره جداً أن تبقى هذه «الظاهرة» بين جدران مؤسسته، تعذّب روحه بالقلق والخوف، وكان مستعداً للإقدام على أي شيء شرط أن يأخذوا الصبي فلا تراه عيناه أبداً.

اقتادوا ليونيد إلى صالة الكشف الطبي ممسكين بيده – وقد بدا ملاكاً مطواعاً، مشرق النظرة، أجعد الشعر. وهذا كل شيء.

لكن اللجنة المحترمة كانت تعرف بامتياز أن أكثر الأمراض النفسية صعوبة إنما توجد بالضبط عند الكائنات ذوات المظهر الملائكي، لذلك القى أعضاؤها على سيفيرتسيف نظرة غير ودية، مصدرين عليه حكمهم سلفاً.

– ما اسمك وكنيتك يا فتى؟ – طرحت السؤال سيدة سرّحت شعرها على شكل كعكة مقاساتها أكبر من مقاسات رأسها.

رفع عينيه نحو السائلة فارتعدت روحه من وقع المفاجأة. كانت تنظر إليه بشفتين معوجتين ارتسمت عليهما ابتسامة حامضة. إنها بوديونا ماتفييفنا تشيغير التي لم يتغير فيها شيء سوى اختفاء شاربيّ القيادة من تحت أنفها المبودر، الذي بقيت تحته بعض الشعيرات فقط.

– نحن نسمعك! – قالت بوديونا تستعجله.

– سيفيرتسيف، ليونيد، – قال الصبي بصوت يكاد لا يسمع.

– يجب ألّا يحدث أمر كهذا فتأتي في أخطر لحظات حياتك هذه المرأة المخيفة وتقرر مصيرك! يا له من ظلم فظيع!

كانت روح ليونيد تغلي كالحديد المصهور، وقلبه يدق كمطرقة هدّامة. غير أن الفتى حرص على ألّا تنعكس في عينيه هذه الطاقة الضخمة المنفلتة متمنياً أن تمر هذه اللحظات بسلام!...

يبدو أن بوديونا ماتفييفنا لم تعرف أن هذا الصبي ذا السنوات السبع، هو ذلك الطفل الذي أقلق ذات يوم راحة المؤسسة التي عهد بها إليها كي ترعاها. تأملته باهتمام، وسألته بلهجة تخلو من كل انفعال ثأري:

– كيف حالك؟

– حالي جيدة، شكراً لاهتمامك.

– رائع. – ابتسمت بوديونا ماتفييفنا للجنة مفسحة المجال للأخصائيين الآخرين.

امرأة صغيرة الحجم بنظارة ذات ذراعين معقوفتين تابعت الحديث معه:

– هل يعجبك هذا المكان يا ليونيد؟

– لا، أجاب الصبي بصدق.

– لماذا؟

– الناس الطبيعيون يجب أن يعيشوا مع الناس الطبيعيين.

الناس الذين أضجرتهم رتابة الحياة اليومية قبل ذلك، انشدّ اهتمامهم الآن، لا سيما الأطباء النفسيون الذكور. وانهالت الأسئلة كانهيال حبات البطاطا من كيس مثقوب.

– هل تعد نفسك إنساناً طبيعياً؟

– نعم.

– وما هي الحالة غير الطبيعية؟

– هي الحالة التي يتغوطون فيها تحتهم لا إرادياً، ولا يستطيعون الإجابة عن الأسئلة إجابة مناسبة.

– وأنت، ألا تتغوّط في ملابسك؟

هنا تدخل بانيتشكين في الحوار:

– فيزيولوجيا الصبي طبيعية بشكل مطلق. هو يعرف مثلنا أين هو، وكم الساعة، ومن هؤلاء الموجودون حوله.

– من هؤلاء الموجودون حولك؟ – سأل البروفيسور أبريكوسوف.

– أناس غير طبيعيين.

– من تقصد بكلامك؟ هل تقصد نحن؟

– أنتم أطباء!... أنا أتكلم على أولئك الذين يحيطون بي في القسم.

– من أولئك الذين يحيطون بك؟

– إنهم داونيّون، أوليغافرينيّون، آمبيتسيليون، وغيرهم من المصابين بأمراض عصبية ونفسية.

– أوه، – صاح أحدهم مندهشاً. – إنه يعرف المصطلحات جيداً!

– هذا غيض من فيض، – قال بانيتشكين مشجعاً اللجنة. – إن ذكاءه يفوق سنه!

ازداد انهمار الأسئلة بعد كلام بانيتشكين.

سألوه: في أي عام نحن؟ من الطلائع والشبيبة؟ من أين نحصل على الحليب؟ كيف يجب أن نتصرف مع البنات؟ هل يحب المرتديلا، وهكذا، وما شابه... وحرص ليونيد على الإجابة بإيجاز، وعلى عدم المبالغة في إظهار ذكائه في إجاباته.

ألقى مقطوعة شعرية من تأليفه عن البقرة والحليب، وقال إنه يرغب كثيراً في أن يكون طلائعياً، وعضواً في الشبيبة بعد ذلك، ثم يصبح، إذا حالفه الحظ عضواً في الحزب الذي ساعده كي يشفى!...

– أما المرتديلا، فأنا لم أتذوقها...

بعث جوابه الأخير في بعضهم مشاعر التعاطف والإشفاق، لا سيما عند النساء اللواتي في اللجنة. وتخلى كثيرون عن اعتقادهم المشكوك في صحته، بأن الشيطان يختفي وراء وجهه الملائكي، بل إن المرأة ذات النظارة قررت في سرها أن تذهب هي نفسها، إذا رفضت اللجنة طلبه، إلى المخزن وتشتري له مئتي غرام من مرتديلا «لوبيتلسكايا»... فيستمتع كثيراً بالتهام حبيبات الدهن المغروسة في رقائقها!

– من فضلكم! – قال الصبي في نهاية كلامه... إن المدير الإداري بيريغيفودا يضايقني كثيراً!

– كيف؟ – سأله البروفيسور أبريكوسوف مهتماً.

– إنه يطلب مني أن أقول بحق الرفيق بريجنيف شتى الكلمات السيئة.

بهذا التصريح ردّ ليونيد جميل كبير الأطباء النفسيين، وأضاف:

– في الليالي!

– ما هي تلك الكلمات؟

– دعونا نكفّ عن إرهاق الطفل أيها الزملاء! – اقترح البروفيسور بانتيشكين. – آمل أن نستطيع متابعة الموضوع بأنفسنا! – إن للمدير الإداري بيريغيفودا بعض التصرفات الغريبة المثيرة للشبهة...

– هذا صحيح – صحيح، – وافقته الأغلبية. – لنترك الصبي، ونتابع الموضوع بأنفسنا!

أعادوا ليونيد إلى المهجع في انتظار قرار اللجنة الرفيعة المستوى...

رقد من جديد على سرير ذي نوابض، يفكر في آلام الوعي الذي ظل، كما في السابق، يشعر بضيق الأطر الفيزيولوجية للدماغ البشري. أضف إلى ذلك أن وعيه ما يزال خائفاً قليلاً من المديرة «تشيغير» التي يعرفها منذ زمن، فهو متأكد من أنها لم تنس سيفيرتسيف، وأنها ستسيء إلى مصيره.

– نحن، طبعاً، سنحقق في موضوع المدير الإداري، – قالت بوديونا ماتفييفنا بصوت فولاذي. – لكن يبدو لي أن هذا... المريض... ما يزال يحتاج إلى البقاء فترة تحت المراقبة في قسم النقاهة!

– ما الأساس الذي استندت إليه في هذا الاستنتاج، أيتها الرفيقة المحترمة تشيغير؟ – سألها بانيتشكين مندهشاً. هل أنت طبيب نفسي؟

– أنا السكرتيرة الثالثة في اللجنة المنطقية للحزب! – قالت بوديونا ماتفييفنا تذكره، وهي تفرك أصابعها تحت الطاولة، متذكرة بشكل ممتاز عضة أسنان الطفل الحادة. – وأنا بالإضافة إلى ذلك، رئيسة مجلس رعاية الأطفال في المدينة! ولديّ خبرة في العمل التربوي!

– نعم – نعم! يجب علينا جميعاً أن نراعي خدمات بوديونا ماتفييفنا! قال البروفيسور أبريكوسوف بحماسة مبالغ فيها.

– ما القرار الذي يجب أن نتخذه؟ – سأل أحد أعضاء اللجنة المستقلين. – ما تشخيصنا للحالة؟

الدكتورة ذات النظارة لم تعد راغبة في الذهاب إلى المخزن لشراء المرتديلا، لأن المطر كان ينهمر خلف النافذة مختلطاً بحبيبات من الثلج، الأمر الذي جعلها تحلم بالعودة سريعاً إلى المنزل ومداعبة قطها الفارسي الذي يحمل اسماً غريباً هو «شيلما».

– شيزوفرينيا، – قالت ذات النظارة بلهجة متعبة.

– صريحة! – أضافت بوديونا بصوت آمر.

– هذا ممكن، ممكن! – قال البروفيسور أبريكوسوف وهو يهز رأسه.

– ماذا تقولون أيها الرفاق! – قال الطبيب النفسي بيختيريف ذو الثلاثين عاماً، وهو ينهض من مكانه في الصف الخلفي. – ماذا تقولون! على أي أساس يقوم تشخيصكم! هذا تعسّف لا أساس له. إننا، إذا سمحنا لأناس مسؤولين لا يحملون دبلوماً طبياً على الأقل، بتشخيص حالات المرضى النفسيين، إنما نحوّل الطب النفسي إلى جهاز تأديب!... أنا، مثلاً، لا أرى أي شيزوفرينيا لدى الصبي!... وليس هناك في سيرته المرضية ما يشير إلى ذلك. – قال وهو يلوح بتقرير المشفى عن حالة سيفيرتسيف. – لا شيء، لا شيء أبداً يشير إلى أي مرض! إنه سليم فعلاً! هنا يتفق تشخيصي لحالته مع تشخيص البروفيسور بانيتشكين! ومن يمكنه أن يعرف حالة هذا المريض أفضل منه!

– لو سمحت! – قاطعت تشيغير الطبيب الشاب بصوت آمر. – هل جئت إلى هنا كي تعلمنا!

– التعلم ليس أمراً سيئاً! – قال بيختيريف الذي لم يخفه هجومها.

لقد عيّنوه في لجنة الخبراء منذ زمن غير بعيد، وهو ما زال متحمساً لتأدية دور فعّال في عمله الجديد، أضف إلى ذلك أنه كنيته تلزمه بتأدية دور كهذا.

– كيف تجرؤ! – قالت بوديونا ماتفييفنا بصوت كالفحيح. – أن تخاطبني أنا العضو في الحزب، بهذه الطريقة.

– أنا أيضاً عضو في الحزب! – قاطعها بيختيريف. حزبيتنا، أنا وأنت، لا تمت إلى الطب النفسي بصلة.

كثيرون كانوا مستعدين لتبني هذا الاستنتاج، لكن في يوم الحساب العظيم...

– ولعلمك، أنا أحمل دكتوراه في الطب النفسي! – تابع بيختيريف كلامه. – أي، كما يقولون، أخصائي، من بعد إذنك!

– ماذا به، – توجهت بوديونا إلى الحضور طلباً للتأييد. – أتراه يشكك في صلاحيتي كعضو في اللجنة؟

– هذه وقاحة! – قال البوفيسور أنطونوف.

– يا لفتاي الجميل! – قالت ذات النظارة فجأة. كان هذا المديح موجهاً إلى قطها «شيلما»، وليس إلى ليونيد، ناهيك عن بيختيريف، بل إنها خافت من نطقها هذه العبارة بصوت

مسموع، لكنها لم تعد قادرة على التراجع، فهي لن تعلن أن مديحها كان للقط. – أنا أؤيد زميلي الشاب! الصبي سليم!.

ثلاثة آخرون من أعضاء اللجنة تحدثوا بطلاقة تجعل فقاعة الصابون تحسدهم على رشاقة تعابيرهم وخلوها من أي معنى.

– أنتم إذن، ترون أني غير مؤهلة!!! – قالت تشيغير بلهجة مهددة.

– نحن لا نقول إنك غير مؤهلة! – قال الطبيب النفسي بيختيريف وهو يبتسم ابتسامة ازدراء. – أنت في قضيتنا لا شيء، أيتها الرفيقة!

شطب البروفيسور أنطونوف، في قرارة نفسه، مستقبل الزميل الشاب، متخيلاً له نهاية مؤلمة.

غير أن بيختيريف كان آنذاك على سرج حصانه، فتابع يقول بلهجة متعالية بعض الشيء.

– تستطيعين دحض رأيي إذا أخبرت اللجنة المحترمة ما هي الشيزوفرينيا، وما أنواعها، ما أعراض هذا المرض؟... أو إذا حدثتنا عن اللوبوتوميا! ترى، هل تعرفين، عموماً، أي شيء عن الطب النفسي؟!...

صار وجه بوديونا شبيهاً بقرص بندورة متعفن، لكنها كانت تجيد التحكم بنفسها، وهي تعرف بالتأكيد أن أمتع أشكال الثأر هي تلك المتأخرة زمنياً، حيث لا يدرك من تثأر منه سبب تعرضه للأحداث الفظيعة التي تصيبه!... جلست في مكانها مهزومة. إنما في معركة محلية التأثير، وراحت تعدّ عدّتها للانتصار في المعركة الحاسمة، فالأمر الأكثر أهمية هو أن تصمد حتى حدوث تلك المعركة!

– هل هناك آراء أخرى؟ – قالت بصوت بدا كأنه يخرج من قبر.

كان آخر ما قيل كلمة موجزة لكبير الأطباء النفسيين في المستشفى البروفيسور بانيتشكين، فحواها أن المرء يستطيع أن يفسر الشيزوفرينيا بأشكال مختلفة، وأنه ما من أحد يشك في أهلية الرفيقة تشيغير، لكن هذه القضية معقدة من بدايتها، وقد زادتها تعقيداً عدوانية المدير الإداري بيريغيفودا، لذلك صار من الصعب فهم كل جوانبها، وقد اقترح البورفيسور بانيتشكين بشأن سيفيرتسيف، أن ترسل اللجنة الصبي إلى مدرسة أيتام داخلية عادية، على مسؤوليته...

– أما المدير الإداري بيريغيفودا فقد أبلغت عنه الأجهزة المختصة وهم بدؤوا اتخاذ الإجراءات اللازمة!

بعد ذلك جرى تصويت علني بشأن ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف المولود عام 1964.

انقسمت الأصوات بين «مع» و«ضد» بالتساوي رغم أن ذلك ما كان يجب أن يحدث، لأن عدد أعضاء اللجنة كان منذ البداية عدداً فردياً.

الدكتورة ذات النظارة المعقوفة الذراعين التي راحت أنظار جميع الأطباء النفسيين والحضور تتجه نحوها الآن، كانت في لحظة التصويت غارقة في خيالاتها إلى حدّ اضطروا معه إلى مناداتها ثلاث مرات.

– سيدتي! – قال البروفيسور أبريكوسوف مصفقاً بيديه. – سيدتي، نحن نحتاج إلى رأيك! إلى صوتك!

عادت من أحلامها مذهولة نوعاً ما، غير عارفة كيف جرى التصويت. واضطرت إلى استعادة وعيها بسرعة – رأسها الذي على جانبيه أذنان بارزتان قليلاً، ظلت أنظار الزملاء تحاول اختراقه في انتظار أن ينتهي يوم عملهم الطويل. أرادت أن تقول شيئاً...

– هل أنت «مع» أم «ضد»؟ – ضغطت عليها بوديونا ماتفييفنا.– أمامك اليوم، يا رفيقة، رأيان! أم أنك تريدين الامتناع عن التصويت؟

ذات النظارة لم تكن غبية، لذلك أدركت أن الأصوات توزعت بالتساوي، وأن كل شيء يتوقف الآن على الموقف الذي تتخذه. لقد كان هذا أسوأ ما توقعت حدوثه. إنها، إذا صوتت لصالح إخراج الصبي من المستشفى، ستكون مهددة بغضب الحزبيات، أما، إذا صوتت لصالح الجانب الآخر، فلن يحترمها زملاؤها الأطباء الحقيقيون، ولن يعاملوها بجدية أبداً... ما وضعها عند هذه الحافة ليس سوى لحظة شرود، لحظة ابتعاد عن الواقع!... لو رفعت يدها مع الآخرين لمرّ الأمر بسلام، سواء كانت «مع» أم «ضد»! أما الآن فهي مضطرة لإصدار الحكم وحدها. وماذا لو امتنعت عن التصويت؟...

– هيا يا صديقتي اللطيفة! – قال أبريكوسوف يستعجلها. – أين ستضعين صوتك؟

– أنت تؤخرين عملنا، – تابعت تشيغير ضغطها عليها.

– كوني مبدئية في نهاية المطاف! – قال لها بيختيريف.

لقد كانت تتساءل دائماً: – هل هذا الشاب الواعد هو قريب ذلك الـ بيختيريف؟...

شيء ما تحرّك في مستوى وعيها الباطن فأطلقت ذات النظارة حكمها رافعة يدها فوق رأسها:

– أنا – مع!

– «مع» ماذا؟! – سألتها بوديونا ماتفييفنا وقد تملكها الغضب. – مع الإقرار بأنه مريض، أم مع الإقرار بأنه سليم؟!

أدارت الدكتورة عنقها مرة ثانية فالتقت عيناها بعيني بيختيريف الرماديتين، فخطر في بالها أنه جذاب، جاذبيته تكاد تضاهي جاذبية قطها «شيلما»، فدفعها ذلك للقول بصوت مسموع:

– إنه سليم!

هنا نهض جميع المؤتمرين من مقاعدهم واتجهوا نحو باب الخروج من القاعة ناسين بلمح البصر يوم العمل الطويل، وقد كفّوا عن كونهم ممثلين للهيئة الاجتماعية وأطباء، متحولين إلى متعيشين لطفاء يسعون للوصول بأقصى سرعة إلى مخازن المواد الغذائية، والانغماس في الدور، لشراء شيء ما للعشاء، ثم الذهاب إلى شققهم لينعموا في داخلها بالجو الإنساني لمريح.

رافق بيختيريف الشاب الدكتورة ذات النظارة إلى محطة المترو وهو يقول لها شيئاً ما عن المبدئية، أما هي فلم تكن تسمعه، وقد أدهشها أن قريب تلك الشخصية الكلاسيكية الشهيرة لا يملك حتى سيارة من طراز قديم... ولماذا بدا لها أنه لطيف كقطها «شيلما»؟... إنه ليس كذلك أبداً!... طيّب، لقد كان عليها أن تقول شيئاً!...

أما البروفيسور أبريكوسوف فحاول مرافقة بوديونا ماتفييفنا، معبّراً لها بطريقة مسرحية عن استيائه من لا مبدئية بعض الرفاق. أحنت رأسها مؤيدة كلامه لكنها تركت هذا المتطفل عند المدخل، ومضت متأبطة ذراع زوجها.

آخر ما سمعه البروفيسور أبريكوسوف، كان شكوى المرأة:

– سيريوجينكا، لقد كان يومي صعباً جداً... إيه يا سي – سي!...

الوحيد الذي لم يسرع إلى بيته كان الطبيب النفسي بانيتشكين.

قام على عجل بتحضير الوثائق اللازمة لإخراج سيفيرتسيف من المشفى، وأجبر السكرتيرة على العمل الإضافي.

لقد كان بانتيشكين يأمل أن ينسى في خلال أسبوع هذا «الصبي – الظاهرة»، بعد أن يفارقه إلى الأبد... أما المدير الإداري فسيقبره!

لم يعرف ليونيد بالحرية التي تنتظره إلا في يوم الاثنين، فكاد يفرح دون أن يفكّر بالأمر، كما يفعل الطائر حين يفتح له باب القفص، لكن عقله سبق مشاعره، موضحاً للصبي أن ما ينتظره ليس حياة يغطيها مسحوق السكر، بل مدرسة داخلية سوفييتية عادية فيها من الحرية قدر ما في معسكر اعتقال.

من أين له هذه المعرفة؟... هذا أمر لم يفكر فيه، هو يعرف وكفى!... لقد كانت المعارف تظهر في دماغه بحسب حاجته إليها!... هكذا كانت الحال منذ كان في رحم أمه...

تلقى العقيد درونين إجابات على أسئلته.

قال له النقيب ريكوف في جلسة ودية وهما يشربان الشاي في مكتبه – سيفيرتسيف – كرينيتسين... – صمت ريكوف برهة ثم تابع. – هرب من السجن بعد صدور الحكم عليه بنصف عام.

– كيف هرب؟ – سأله درونين مضطرباً.

– كيف، أنا لا أعرف... لا تقلق هكذا أيها الرفيق العقيد. لقد تتبعوا أثره، وحين أمسكوا به غرسوا طلقة في رأسه!

– قتلوه؟

– أكثر من ذلك.

استرخى درونين.

– وماذا بشأن المدير الإداري؟

– الأمر أكثر جدية في قضية المدير الإداري... – امتص النقيب بسرعة قطعة الليمون التي في كأس الشاي، ولحس الحامض عن شفتيه. – المدير الإداري رجلنا...

– أعرف ذلك.

– أنت تعرف أنه كان أحد رجالنا، أما أنا فأقول لك إنه الآن أحد رجالنا.

– لم أفهم.

لم يجب النقيب، بل نظر إلى العقيد بثبات.

– ما رتبته؟ سأل درونين.

– يبدو أنه يحمل رتبتك نفسها.

– هل هو مزروع هناك؟

– لم يوضحوا لي الأمر. اكتفوا بالقول همساً: الأفضل ألّا تتدخلوا، تابع درونين رشف الشاي وهو يفكر كم عدد الفروع في إدارتهم؟ ما أكثرها! وكل منها يعوم في مسبح مستقل. ما من جهاز غير جهازنا يخضع فيه الجنرال للمقدم، ويتخفى العقيد في منصب مدير إداري في مستشفى مجانين، باحثاً فيه عن شيء ما، أو ضابطاً شيئاً ما.

– ونحن لن نتدخل! – قال درونين.

وفي ذلك المساء أبلغ جنراله أن بيريغيفودا عنصر عامل من عناصر الإدارة، وأن التحقيق في شؤونه او الاطلاع عليها ممنوع! ثم بسط يديه علامة عدم فهمه لهذه الحالة.

لماذا أمنع من الاطلاع على عمله، إذا كان عمله في القضايا الداخلية؟ أما إذا كان عمله في مكافحة الجاسوسية، فمن المحتمل أن يكون موضوعه بانيتشكين نفسه أو واحداً ممن حوله... وفي هذه الحالة أكون أنا في دائرة الضوء...

استبق الجنرال الأحداث وأخبر الإدارة عن اتصال غريب من طبيب نفسي يدعى بانيتشكين يطلب فيه معرفة من هو بيريغيفودا. فأخبرته الإدارة أنها ستنظر في الأمر.

اتصل الجنرال ببانيتشكين وبدد مخاوف الطبيب النفسي، ثم قام بأعماله المكتبية.

وقد اتضح فيما بعد أن هناك شخصاً آخر، غير المدير الإداري بيريغيفودا يحمل الكنية نفسها، كان فعلاً في الإدارة برتبة عقيد يعمل محققاً في قسم شرطة عادي في أحد أحياء مدينة كيمرا، وكان لقبه «المدير الإداري». ضاجع زوجة نائب رئيس اللجنة السياسية ففصلوه من العمل لسوء أخلاقه... عموماً، بيريغيفودا العامل في المستشفى هو غير ذلك العقيد.

أبلغوا الجنرال بأمر التشابه المصادف في الأسماء، فاتصل بدوره ببانيتشكين، مسروراً بكون المسألة قد حلت من دون أن تلحق به أية خسائر، ومن دون أن يعتقلوا أحداً عن طريق الخطأ، وبكونه يستطيع الآن أن يقنع الطبيب النفسي بأنه مدينٌ له بخدمة كبيرة.

– لقد درست ملفّ صاحبك المدير الإداري! – قال الجنرال لبانيتشكين وهما جالسان في مطعم (تسي – دي – إيل). ونظر نظرة تهديد طويلة إلى عيني جليسه الذي كان، بالمناسبة، ينظر إليه نظرة لا تقل احترافاً من حيث القوة، لكن بانيتشكين حافظ على هدوئه، ولم يظهر القلق الفظيع الذي كان يشعر به في تلك اللحظة. راح الجنرال يتناول عشاءه في هدوء تام.

– ها قد عرفت أن بيريغيفودا – رجلنا، – قال ضابط أمن الدولة، ثم صمت فترة التهم فيها قطعة (كوتليت) كاملة محضرة بالطريقة الكييفية، وراح يمصمص العظمة الباقية في يده بعناية فائقة... عند ذاك شعر بانيتشكين بالانكسار وسعل طويلاً على إيقاع البيانو، معلّلاً سعاله بحبة فلفل علقت في حلقه. – وهكذا، إذن، المدير الإداري رجلنا، – تابع الجنرال، – ولكن... لكن تربطنا بك علاقات طيبة وقديمة...

هزّ بانيتشكين رأسه في انحناءات سريعة علامة الموافقة.

– أنا أسمح لك بتسريح بيريغيفودا من العمل كي تطمئن، ويزول قلقك... سنكلفه الآن بالعمل في مجال آخر... هذا أمر سهل!...

– شكراً، – قال الطبيب النفسي وهو يضغط قلبه بيده. – أنا لا أعرف كيف أردّ لك هذا الجميل!...

– سنجد طريقة لتصفية حساباتنا – قال الجنرال مبتسماً بمودّة.

– لكن ما هو الخطأ الذي ارتكبته؟

– لقد غفرنا لك خطأك، – أجابه الجنرال فزرع في نفس الطبيب النفسي قلقاً ممضاً، سيرافقه طول حياته. ترى ما الخطأ الذي غفروه له؟!!

وهكذا انتهى العشاء.

الجنرال كان راضياً عن مسائه، فالطعام كان لذيذاً، والكونياك كان سلساً، وقد استطاع أن يهيمن على رجل مهم، ويضعه في خدمة أهدافه...

ودّع الطبيب النفسي بانيتشكين بيريغيفودا وفي قلبه حسرة: أبلغ المدير الإداري قرار تسريحه، وهو يعتذر منه ويكاد يعانقه، قائلاً له إنه يأسف كثيراً لفقدانه هذا الموظف الكفوء.

أما الموظف المسرّح فكان يلمّح، مكتئباً ومندهشاً من غرابة الموقف، إلى أن تسريحه بهذه الطريقة لن يمرّ ببساطة!

– فلتغفر لي، ولتسامحني روحك النبيلة، – تمتم بانيتشكين وقد أدهشه السلوك الطبيعي لمرؤوسه السابق. – أشكرك على ما قمنا به من عمل مشترك!

إن هذا الكلب السافل يسخر مني – قال المدير الإداري (سابقاً) وهو يدرك أنه لن يستطيع بسمعته الملوثة أن يثأر من شخصية مهمة كبانيتشكين.

بينما كنت أنا أفرغ مقصورة لأصدقاء هذا الحقير، – قال يكلّم نفسه في غرفته في الشقة الجماعية الكبيرة وغضبه يتصاعد – فأترك إيروتشكا تموت، كان هو يسرحني من العمل!...

هنا، خطرت في بال المدير الإداري طريقة للانتقام ممن أساء إليه،

جلس بيريغيفودا إلى طاولة المطبخ وكتب تقريراً إلى لجنة أمن الدولة يبلغها فيه أن البروفيسور بانيتشكين أخفى عن الأجهزة «ظاهرة» نفسية إنسانية خارقة، هي إنسان يستطيع أن يعيش من دون طعام أو شراب، وفي عزلة تامة، أعواماً طويلة، وبذلك ألحق بانيتشكين بأمن الدولة

خسارة بحرمان الوطن من إمكانية التصرف بالقوة الكامنة في هذه «الظاهرة» المكتشفة، تصرفاً صحيحاً... ويبلغ اللجنة أيضاً عن علاقات مدير المشفى، وكذلك عن سوقه المتعمد للأطفال المرضى نفسياً إلى الموت...

لم يضع بيريغيفودا الرسالة في صندوق بريد عادي، بل أوصلها شخصياً إلى ساحة لوبيانكا، حيث أسقطها في صندوق تلقي الشكاوى المخصص لتلقي مثل هذه التقارير...

– سأرقصك أيها الكلب السافل! – قال المدير الإداري بصوت مسموع.

المساعد كيسكين المكلف بتصوير كل من يرد الصندوق بآلة مثبته في الصندوق نفسه، فرح بحقد هذا المرسل، فقال مؤكداً كلامه بصوت مرتفع أيضاً:

– سيرقص، سيرقص! سنرسله إلى كاليما!

تسكّع بيريغيفودا الذي سمعه، دقيقة أخرى قرب جدار الاتحاد السوفييتي الرمادي العابس، ثم ابتعد عنه فجأة وانطلق ركضاً تقريباً نحو محطة مترو «كوزنيتسكي موست» واختفى هناك مختلطاً بحشد المواطنين...

– وداعاً يا سيفيرتسيف! – قال بانيتشكين وهو يبتسم مودعاً ليونيد.

– نظر الصبي إلى الطبيب النفسي عبر زجاج سيارة المشفى من طراز «رافيك»، لكنه لم يبادله البسمة، بل راح يتصور النملة الشقراء وهي تلتهم غشاء طبل أذن الطبيب...

أخذوه إلى المدرسة الداخلية رقم59 الكائنة في حي ليسنوأوستروفسكي، وهي مدرسة عادية تضم أنواعاً شتى من الأولاد الأيتام، أو الذين حُرموا رعاية الأبوين، وكذلك أولاداً فيتناميين وتشيليين وإسبانيين – هم أبناء المناضلين الأمميين.

وضعوا ليونيد في مهجع يضم أربعة عشر صبياً من طلاب الصف الأول.

الوضع كما في مستشفى الأمراض النفسية – ليس هناك أي اختلاف، – قال سيفيرتسيف في سره، وهو يضرب أنف صبي حاول الاحتكاك به ضربة قوية.

الصبي الذي تلقى الضربة كان أحمر اللون من كعبه حتى يافوخه، اسمه رومكا.

راح رومكا، الذي تلقى ضربة بلا سبب، ينشق مخاطه الممزوج بالدم، وقد تملكه الخوف في البداية، لكنه وثب فجأة نحو ليونيد فاتحاً فماً تملؤه أسنان صغيرة حادة، غرسها بقوة في أذن سيفيرتسيف، راح يلوك بلؤم لحم الأذن الطريّ، الأمر الذي جعل القادم الجديد يدور حول محوره يصعقه الألم.... أما رومكا الأحمر فأضاف إلى عمل فكيه ضربات قبضتيه الصغيرتين الصلبتين، اللتين اندفعتا تمتحنان صلابة أضلاع ليونيد...

رومكا الأحمر صبي صقلته المآسي. عاش السنين الست الأولى في قرية موغيليتسا مع أم سكيرة، فاعتاد على إهمالها المطلق لشخصه، لذلك كان يقضي كل وقته في رفقة أطفال أكبر منه سناً، يخوض معهم شجاراً في أحيان كثيرة، ينتهي في كل مرة بتلقيه ضرباً مبرحاً، لكنه كان في كل معركة يدافع عن نفسه ببسالة، مستخدماً كل الوسائل المتاحة له، وحين لا يجدي ذلك، كان يكمن لخصمه ويضربه من الخلف بشيء صلب، لذلك سمّوه مجنوناً وكفّوا عن الاحتكاك به اتقاء لشره... فيما بعد اختفت أم رومكا بلا أثر، فأخذ شرطي الطفل من القرية وسلّمه إلى قسم الأطفال في مقسم الشرطة... ومن هناك أرسلوا رومكا المجنون إلى المدرسة الداخلية رقم 59.

في المدرسة اكتسب لقب «عدواني» بسرعة، كان يلاحق الأمميين بوجه خاص، فيضربهم بلا سبب. أما أبناء بلده فكان يعاملهم بتواضع، ويدافع خاصة عن أبناء صفه الذين اعترفوا بلا جدال بتفوقه الجسدي التام.

وقد كانت دهشة رومكا المجنون عظيمة حين قوبل تودده بلكمة قوية...

وبغض النظر عن الألم الذي لم يكن ليونيد قد ألفه بعد، وعن الاعتداء غير المتوقع على شخصه، تقبّل الصبيّ الشجار كحدث مبهج ومفرح بجدة أحاسيسه الجسدية، واكتشاف سارّ بوجود نماذج تستحق الاهتمام بين أترابه. هو، حتى أتاح لرومكا الفرصة كي يستمر فترة أطول في عض أذنه، مغامراً بالبقاء من دون أذن عموماً، وحين تلقى ضربة بالركبة تحت ضلوعه، تحرّك جسده الذي بقي عدة ثوان بلا أوكسجين، كما يجب، فتجمعت أصابعه قبضة، وانشدت عضلاته، وتحدب ظهره كظهر قطة. في البداية دفع عنه رومكا، الذي اقتلع بين أسنانه قطعة من أذنه، بصقها بدقة فأصاب بها عين القادم الجديد...

في هذه اللحظة امتلأ المعهد بطلاب السنة الأولى الصغار كما يمتلئ برميل بأسماك (السيلد) وشهد الصراع القاسي، بين المتشاجرين، إلى جانب زملائهما في الصف، المقيمون في الطوابق الأخرى، تلاميذ الصفوف من الثالث حتى السابع. كما جاء لمشاهدة المبارزة الأمميون الراغبون في الثأر لانحراف عيونهم ولون بشرتهم.

مسح ليونيد نتف شحمة أذنه عن عينيه، وضرب برأس قدمه صدر الأحمر، في موقع القلب بالضبط، فعوى الأخير كالكلب، لكنه ابتلع ألمه في الحال، وقفز واقفاً على قدميه، فغرس أظافر كفه اليسرى في وجه القادم الجديد تاركاً على خده خدوشاً عميقة مدمّاة، كما لو أن أحدهم حكّ ذلك الخد بمذراة.

تأوه الصغار مندهشين من هذه الهجمة غير المتوقعة، وواثقين من أنها ستضع نهاية لهذا الشجار... حتى أن الأمميين بدؤوا في العودة كيلا يقعوا تحت يد المجنون الحامية. غير أن ليونيد أطال الاستعراض أمام المشاهدين بضع دقائق إضافية. مسح الدم عن وجهه، ولحس أصابعه متذوقاً طعمه، ثم ضحك ضحكة شريرة ارتعد لها كثيرون من أبناء الصفوف العليا...

رأى ليونيد بطرف عينه، وهو يستعد لتوجيه ضربة إلى خصيتي الأحمر، بنتا في الثانية عشرة تقريباً – بيضاء لها عينا دمية حزينة. كانت تتأمل ما يجري بنظرة محايدة تقريباً، توحي بأنها

معتادة على رؤية هذه المشاهد...

وفي اللحظة ذاتها أصابت قدم القادم الجديد الأحمر بدقة في الموضع الذي سُددت إليه. فدوت صرخة مزعجة وانتهى الشجار.

تكوّم رومكا على الأرض ممسكاً أسفل بطنه، وفي هذه الأثناء لم تكن عيناه تدوران في محجريهما من شدة الألم، ولم تنغلقا بل استمرتا تلاحقان بحقد وجه ليونيد المدمى، كأنهما عينا حية.

يجب أن يتوقع المرء من هذا المجنون الغدر والنذالة – قال سيفيرتسيف في سره. لكنه أعجب بالأحمر لهذا السبب عينه، وقرر أن يستميل هذا الوحش إلى جانبه في نهاية المطاف...

أنهت مدرسة الرياضيات فيرا فيكتوروفنا ريبار هذا الاستعراض. كان تلاميذ المدرسة كلهم يخافونها، حتى طلاب الصفوف العليا، لذلك خلا المكان من الجميع فور ظهورها، حتى رومكا الأحمر زحف إلى مكان ما في زاوية مظلمة، وهو يفح فحيحاً من شدة الغضب.

جلس ليونيد في سريره بعد أن مسح الدم عن وجهه، وراح يتأمل بهدوء ظهور شخصية جديدة في حياته.

مشت المدرسة مسرعة بساقيها القصيرتين، اللتين برزت بطتاهما القويتان، وجسدها الضئيل البدين، ورأسها المستدير الشبيه بالبطيخة الصفراء شكلاً ولوناً، ووجهها الشبيه بحبة خضار، نحو القادم الجديد، وصفعت ليونيد مرتين على خده بقفا يدها التي يزينها خاتم زواج.

– أنا هنا سيدة المكان، – قالت تنذره بصوت طفلي لكنه سلطوي آمر. – من لا يطيعني سيعاقب على الفور! هل فهمت!

لم يدهش ليونيد كثيراً بسلوك المرأة، فهو يدرك أن حاملات الفضاء يكنّ تارة طيبات بلا حدود، وتارة شريرات بلا حدود. الأوليات يملكن حاسة سادسة يشعرن بواسطتها بوجود اللانهاية في ذواتهن، أما الثانيات فغبيات تتوتر أعصابهن حتى من حلول العادة الشهرية!... كارليتسا ذات الوجه البطيخي تنتمي إلى هؤلاء الثانيات. فإذا استحال قهر الشر بالشر، وجب خلطه بنسبة غير خطرة بالخير.

أجاب ليونيد بالإيجاب على سؤال «هل فهمت؟» وابتسم لفيرا فيكتوروفنا ابتسامة مشرقة جعلتها تقف مذهولة كما لو انصبت عليها خيرات العالم كله. لقد كانت تتوقع من القادم مجدداً من مستشفى المجانين ردّاً قد يصل إلى حد لكمة جوابية... لكن ردّ ليونيد جعلها كالمنومة مغناطيسياً، استرخت كلها، حتى أن بطنها بات يقرقع.

– أنا وأنت سنتفاهم، – قالت فجأة ومدت يدها للصبي. – تعال معي، سأطعمك. ألست جائعاً؟ هل تحب المعكرونة؟... و«الكوتليت؟...».

حين رأى تلاميذ المدرسة الداخلية هذا المشهد المؤثر – الكلبة الجيستابوية تمسك بيد المذنب وتقوده، ليس إلى حيث يلقى عقابه، بل إلى المطعم ليأكل طعاماً لذيذاً، قرروا جماعة الاعتراف فوراً بأن لدى سيفيرتسيف مؤهلات غير عادية يستحق بسببها الاحترام حتماً...

القادم الجديد الجالس إلى المائدة، أرغم نفسه، رغم اكتفائه، على التهام قطعة «الكوتليت» السادسة بينما كانت مدرّسة الجبر ريبار تمسّد رأسه، كأنها تمسّد رأس ابنها. لقد كان ذلك مشهداً أقل ما يقال فيه إنه عجيب!... فلا أحد يذكر أن كارليتسا أطعمت أياً منهم قشة يابسة، أما هذا فها هي ذي تقدم له كمية كبيرة من الطعام وتمنحه حناناً يضاهي حنان أم...

لقد أدهش سيفيرتسيف ابن السبع سنوات في أول يوم من وجوده في مدرسة لوسينوأوسترفسكي الداخلية، هذا العالم المغلق مرتين، الأولى بانتصاره على رومكا المجنون، والثانية، حين ليّن إنساناً بالغاً، هو كارليتسا أكثر العاملين في المدرسة قسوة.

لم يكن ليونيد يفكّر أبداً بانتصاره، وهو يأكل قطع (الكوتليت)، بل كانت تتوهج في خياله، بين فينة وأخرى، صورة البنت البيضاء ذات العينين الحزينتين. لقد أدرك أن هذه الرائعة الصغيرة ستكون في المستقبل حاملة للفضاء، وأنها، هي بالضبط، من سيحاول طول حياته تخصيب الكون من خلالها...

إنها هادئة، خجولة، أحزنها القدر، تعيش في المدرسة الداخلية، أميرة منغلقة على ذاتها التي، بالمناسبة، لا يستطيع أحد ان يكتشفها. هي لم تكن تهتم بالحياة الواقعية، بل كانت الفانتازيا (البنّاتية) العادية تبعدها أكثر فأكثر عن السعادة الاشتراكية.

كان اسم الفتاة ماشينكا، لقد كان من الممكن، بحكم بنيتها الروحية وإحساسها الداخلي بأسطورية الوجود، أن تولد «بيلوسنيجكا»، أو أن تشعر، في أقل تقدير، بأنها لودميلا البوشكينية. غير أن الطفلة لم تتذوق بعد شعر المبدع الروسي العظيم، فليس في المكتبة سوى شارل بيرو، لذلك لم تكن ماشينكا بحكم تخلف نموها، تتخيل نفسها إلا «ذات القبعة الحمراء»، وكل «ذات قبعة حمراء» تحتاج إلى ذئب رمادي!...

قد يتحقق للنفس ما تحتاجه حتى في حياة «أسطورية» كحياة ماشينكا، التي دخلها ليونيد ذئباً رمادياً.

تسلل ليلاً إلى مهجع البنات باحثاً بحس وحشي عن السرير الذي يضم البنت التي اختارها، نظر الصبي إليها نائمة كملاك، جسدها كله من الرأس حتى القدم كان، لسبب ما، يرتجف، كأن إصبعها الصغير موصولة بتيار كهربائي، واستنشق عميقاً بخيشوميه رائحة ماشينكا الشبيهة برائحة الكراميل، وقلب بصره الحياة رأساً على عقب للمرة الثانية...

فرآها نائمة على السقف، ورأى نفسه يطير إلى جانبها على سريرها كأنه يطير على بساط طائر. أعجبه ذلك كثيراً، فذرف الدمع في السماء من شدة تأثره، وحين فتحت فجأة عينيها الرائعتين الشبيهتين بعيني الدمية قال لها وحدها:

– أنا أحبك! كوني زوجتي!...

## – 10 -

برزت من باب الغرفة نصف المفتوح ساقان مفتولتان بشكل غير طبيعي.

– ماتت، – صرخ في جزع أوتياكين. – ماتت مادة التجربة!...

بقفزتين صار ميخائيل فاليريانوفيتش بالقرب من جسد أنجيلينا. راح، في البداية يتأمل ذلك الجسد الراقد على ظهره بلا وعي باسطاً يديه. شعر ليبيدا الأشيب مفروش على الأرضية المحفوفة بالشمع، أما وجهها فظل لا مبالياً، الأمر الذي أوحى لأوتياكين بفكرة موت الزبونة فأخافه.

– لا! – صاح بلهجة مأسوية. – لا!!!

سقط ميخائيل فاليريانوفيتش على ركبتيه أمام أنجيلينا، كأنه يريد أن يشحذ الحياة لها من الرب، لكنه كان يتمتم «ما هذا الذي أراه!»، محاولاً أن يتلمس نبض ليبيدا في شريانها السباتي.

– لا يوجد نبض! – راح الدكتور يفقد تماسكه ثانية بعد أخرى. – كيف هذا؟!!

يجب أن أستدعي «الإسعاف»، قال لنفسه وهو يجوب الغرفة مضطرباً، لكنه أدرك بسرعة أن قراره غبي، فهي ميتة ولن يساعدها أي «إسعاف»! لماذا هو سيئ الحظ إلى هذا الحد! لماذا يعاني كل هذه المعاناة في حياته! لماذا ما إن يجد شيئاً، حتى يختطف آخر غريب ما عثر عليه!... هذا لا يجوز! هذا يجب ألّا يكون! فليذهب الجميع إلى الشيطان! الجميع!!!

أغلب الظن أنه، هو نفسه، لم يكن يعرف بدقة أولئك الذين أرسلهم في هذا المشوار البعيد.

لا بد أن الدكتور كان في الواقع يعني الجميع، الجميع، وهو بينهم! جلس أوتياكين بالقرب من جثة ليبيدا شارد الذهن، عيناه ظلتا مفتوحتين، لكنهما لا تريان شيئاً. لقد جمدت الحياة في جسد ميخائيل فاليريانوفيتش كجرذ حقل صغير خائف...

مضت فترة غير محددة من الوقت، وسُمعت طقّة في جهاز تشغيل التلفزيون، فامتلأت غرفة أنجيلينا بأصوات غريبة.

– داسيش فانتاستيش! – صدر الصوت من الشاشة آ– آ – آ!... يي – يي – يي!...

انتزع أوتياكين نفسه من جموده، رفرف بعينيه، ونظر إلى التلفزيون، فرأى على الشاشة أعضاء ذكرية وأنثوية تملأ مستطيل الكينوسكوب كله.

– هيّا، هيّا!... – كانت تزعق مكبرات الصوت في الجهاز.

هذا ما كان ينقصني، قال ميخائيل فاليريانوفيتش في سره، وهو يلاحظ على الشاشة، بشكل آلي، الطول المضاف إلى عضو الرجل، والسيقان النسائية المشعرة، التي لم يكن يطيق منظرها.

أوتياكين نفسه لم يلحظ كيف امتدت أصابعه مجدداً تتلمس شريان أنجيلينا السباتي. شعرت رؤوس أصابعه اللينة، البيضاء، كما لو أن الدم لا يصل إليها، بدقات ضعيفة.

وبينما كانت الإشارة تنتقل من أصابع أوتياكين إلى دماغه، كانوا يصيحون من شاشة التلفزيون بأصوات حادة تردد صداها في السقف.

ثمة طرقات، – قال ميخائيل فاليريانوفيتش في سره. – أحدهم يطرق الباب...

يا إلهي! هذا ليس طرقاً على الباب، بل نبضها!... ها هو ذا، ضعيف، كخيط!... إنها حية، حية!!! هيّا، لا بد من العمل على وجه السرعة! زال توتر أعصاب أوتياكين وتحوّل إلى طبيب جادّ.

عرّى أنجيلينا حتى الخصر بسرعة، ثم نزع عن عنقه السماعة، ووضعها على صدر العجوز. كانت دقات القلب ضعيفة لكنها كانت منتظمة.

لا، هذا ليس جلطة، أوتياكين أدرك ذلك. أتراه احتشاء في عضلة القلب؟... إذا كان الأمر كذلك، ضاع كل شيء.

فتح ميخائيل فاليريانوفيتش جفن أنجيلينا وأضاء عينها بمصباح جيب صغير. حاول أن يرى قعر العين محاولاً العثور على نقطة دم.

لا، ليس احتشاء!... لا، لا... ترى ماذا أصابها إذن؟...

دسّ أوتياكين يده تحت رأس أنجيلينا محاولاً رفعه إلى أعلى، مقدّراً أن الأمر قد يكون مجرد إغماء بسيط، رغم أنه عميق، لكن يد الدكتور لمست فجأة شيئاً لزجاً دافئاً، فأكدت له خبرته أنه دم.

هو، إذن، إغماء، قرر ميخائيل فاليريانوفيتش. فقدت وعيها فتعثرت وسقطت سقوطاً مؤذياً!...

عند ذلك تصرف أوتياكين بسرعة قصوى. طلب بتلفونه الجوال «الإسعاف» المأجور، وهو يلوم نفسه على إبطائه، عرّف المناوب في «الإسعاف» بنفسه، ودلّه على الطريق التي يجب أن يسلكها.

– أسرعوا، من فضلكم! – قال يرجوهم.

– الوقت الآن ليل، ولا يوجد ازدحام في الطرقات، – قال المناوب يطمئنه. – ستكون السيارة عندكم في خلال خمس دقائق!

لم ينتظر أوتياكين وصول السيارة من دون عمل. تحدث في هذا الوقت مع الطبيب المناوب في المستشفى، مستفسراً عن عنوان جراح الأعصاب بيجيكوف، الذي ساعده ذات مرة في حلّ مسائل ذكورية.

عثر على بيجيكوف في الحال تقريباً، أيقظه باتصاله الهاتفي، وطلب من الجراح، ببساطة أن يحضر إلى المستشفى في غير وقت دوامه، وألحّ في طلبه لا بوصفه طبيباً، بل بوصفه زبوناً مريضاً.

بيجيكوف استاء من أوتياكين لأنه ذكّره بشكل سيئ بالمسائل الجنسية التي يشكو منها.

قال له:

– لماذا تذكّرني يا ميشا! أنا كنت سأحضر من دون تذكيري بذلك!...

– أنا أحتاج إلى الـ «توموغراف!».

– سأتلفن للمناوبين في المستشفى كي يحضروا الجهاز، – قال طبيب الأعصاب لأوتياكين بلهجة يشوبها الحزن.

– شكراً يالونيا! – شكره أوتياكين وهو يسمع وقع خطوات وضحك عال وراء ظهره. هكذا يتصرف أطباء الإسعاف حين يأتون لزيارة مريض.

التفت نحوهم. أنظار مجموعة «الإسعاف» كلها كانت تحملق بشاشة التلفزيون التي كانت تعرض أحداثاً قبيحة مقرفة تماماً.

– هل تتسلّى بهذه المشاهد الفاضحة؟ – قال كبير المجموعة متسائلاً – ماذا بها؟

– يبدو أنها وقعت وقعة آذتها، – أجاب أوتياكين، وقد وجد مفتاح إغلاق التلفزيون بعد جهد. – من المحتمل أن تكون مصابة بارتجاج في المخ.

نظر كبير المجموعة إلى السماعة في عنق ميخائيل فاليريانوفيتش.

– هل أنت طبيب؟

– أنا دكتور في العلوم الطبية... ضعوا حول عنقها طوقاً ولننقلها إلى المستشفى بسرعة!

استبق أوتياكين الأسئلة فحدثهم عن نبض العجوز، وعن أنها زبونته، وأنه جاء إليها لأن غيابها اليوم عن عيادته أقلقه.

آها، – قال كبير المجموعة مسترخياً بعد أن كان يعمل بكل طاقته كما يليق بالعاملين في «الإسعاف المأجور»! – إلى أين؟

– إلى مشفاي، – أجاب ميخائيل فاليريانوفيتش، لكنه استدرك، فأبلغه عنوان المستشفى.

انطلقت السيارة مسرعة في ليل موسكو، وصوت بوقها يلعلع، إلا عند انقطاع الطرق، وذلك حرصاً على راحة المواطنين.

في الطريق تبلغوا بالهاتف اللاسلكي نداء سائق سيارة أجرة يستدعي «الإسعاف» مؤكداً للمناوب على الاتصالات أن محتالاً هاجمه وحقنه في عنقه بعقار فظيع يكاد رأسه يتفجر من تأثيره.

– قد يكون ذلك العقار مخدراً قوياً!

– ذلك ما تستحقه أيها الحيوان! – قال أوتياكين مبتهجاً دون أن تظهر علائم الفرح على وجهه.

اجتازت «سيارة الإسعاف» بوابة المستشفى. وكانت أنجيلينا ليبيدا قد صارت، في أثناء الرحلة تتنفس ملء صدرها بفضل الحقن الضرورية التي أعطيت لها. غير أنها لم تكن بعد قد استردت وعيها الذي ظل يهيم في مكان قريب جداً.

دفع أوتياكين أجرة «الإسعاف» بحسب التعرفة من دون أية زيادة، الأمر الذي استاء منه رئيس المجموعة.

هزّ الرئيس رأسه بحركة تنم على الحزن وقال:

– حتى الأخ لا يكرم أخاه!

– أي أخ لي أنت! – قال ميخائيل فاليريانوفيتش مستنكراً. – أنت يا من تستغل الطب لكسب المال!...

نسي سريعاً أمر طبيب «الإسعاف» وهو يرافق النقالة التي تحمل ليبيدا العائدة تدريجياً إلى وعيها، لذلك لم يسمع الكلمات المكدّرة التي وجهت إليه:

– لا بد أنك من ضرب العجوز على رأسها!... ونحن مضطرون إلى إبلاغ الشرطة عن كل الحوادث المشبوهة التي نصادفها!... نحن لا نستطيع إلا أن نفعل ذلك!...

هدّأ بيجيكوف من روع أوتياكين وهو يفحص أنجيلينا فحصاً سريعاً.

– ارتجاج في المخ، على الأغلب! لكنه ليس ارتجاجاً قوياً!...كانوا ينقلون العجوز إلى الجهاز الذي سيحملها إلى الـ «توموغراف» حين استعادت وعيها وفتحت عينيها.

– ميخائيل فاليريانوفيتش!... – قالت بصوت ضعيف.

– لا تجهدي نفسك! – قال لها أوتياكين بلهجة صارمة.

– ماذا أصابني؟

– سنعرف الآن، – وعدها بيجيكوف. – لا تقلقي، إنه جهاز الـ «توموغراف» استرخي لمدة خمس عشرة دقيقة، وسنعرف كل شيء!

في أثناء قيام الآلة بتصوير طبقات دماغ ليبيدا واحدة بعد أخرى، أصدر أوتياكين تعليماته للمرضة أليكساندرا كي تهيء القطّارة وتملأها بمهدئ مخدّر.

– ستناوبين طول الليل قرب سريرها مباشرة! – أمرها الدكتور.

– بقرب من؟ – سألت الممرضة. – أبقرب رجل أم امرأة؟

– بقرب أنجيلينا.

– أنجيلينا زبونتنا؟!... صاحت ألكسندرا

– زبونتنا، زبونتنا!...

– آه، يا إلهي!...

راح بيجيكوف يقلبُ صور الدماغ ويبلغ أوتياكين.

– لا يوجد ارتجاج!... يبدو أنه فعلاً مجرّد جرح... انظر إلى أوعيتها الدموية! أوعية تحسد عليها! لو كان عندي مثلها لصرت عضواً في الأكاديمية!...

– لن تصير، – دمدم أوتياكين، وهو ينظر إلى شاشة الكمبيوتر، ولم يلاحظ أنه يسيء إلى بيجيكوف مرة أخرى.

أخذ أوتياكين على عاتقه قيادة النقالة إلى القسم، وهو يأمر أنجيلينا بعدم التكلم فسمع أحدهم يقول خلف ظهره:

– أنت يا ميشا أنجدتني ذات يوم، وها أنذا أنجدتك... – نحن الآن متكافئان. فأرجو عدم طلب أي شيء مني بعد اليوم.

– طيّب، طيّب. قال أوتياكين الغارق كلياً في التفكير بزبونته.

كاد جراح الأعصاب بيجيكوف أن يبكي بسبب هذا النكران للجميل، لكنه تمالك نفسه، وحرص على تجزئة زعله، ثم نفخه عبر خيشوميه...

أما أليكسندرا فبذلت قصارى جهدها. حملت ليبيدا على ذراعيها وأرقدتها في السرير الذي نضدت وساداته بشكل مثالي.

– ماذا أصابك يا أنغيلونتشكا! – قالت بصوتها (الباص). – كيف حدث ذلك!

أما العجوز التي كانت تستعيد قوتها بين لحظة وأخرى فاكتفت بالابتسام. أعطاها أوتياكين حقنة بالوريد، وثبت القطارة، ثم سألها أخيراً:

– ماذا حدث؟

سرى العلاج في الوريد جدولاً يبعث فيها الحياة ويدعّم دمها، أما ليبيدا فاكتسبت عيناها تعبيراً غبياً وقالت بصوت يكاد لا يسمع:

– لا أذكر... لقد تعطلت ذاكرتي...

تأمل أوتياكين زبونته باهتمام وشجعها قائلاً:

– لا بأس، سيعود كل شيء كما كان!

ترك العجوز برعاية أليكسندرا، ومضى إلى مكتبه حيث جلس حتى الصباح غير مهتم بشيء. كان هاتفه الجوال يرن أحياناً. الرقم على الشاشة هو رقم المنزل – سفيتوشكا قلقة. ولكن ميخائيل فاليريانوفيتش لم يكن مستعداً للتحادث مع آخر، وتهدئة قلقه، حتى لو كان زوجته، فهو نفسه مشبع بالقلق...

لكن ميخائيل فاليريانوفيتش المتوتر الأعصاب والمرهق، فوّت على نفسه اتصالاً مهماً...

بعد أن اشترى تشارمن ديميسوفيتش علبة من سيجاره المفضل من مخزن «دافيدوف» جلس في سيارته الـ «بينتلي» وأمر سائقه عبر «الإنترفون» بالانطلاق. وفي الطريق وضع السيجارات التي اشتراها في علبة أثرية خاصة بالرحلات، لكنه أبقى سيجاراً واحداً وشرع يدخنه، مطلقاً دخانه الكثيف عبر فمه وخيشوميه في الوقت نفسه.

مزاج تشارمن ديميسوفيتش كان في هذا المساء حزيناً، كما في كل الأماسي التي سبقته في هذا العام عموماً. إنه، وهو الإنسان الصلب الروح جداً، لم يكن يسمح لكيانه بالغرق في لجة محيط من الاكتئاب، على الرغم من وجود سبب كوني لذلك...

لم يكن قد دخن سوى ربع سيجاره، حين توقفت السيارة أمام مدخل نظيف لبيت قديم تم ترميمه ترميماً رائعاً.

يملك تشارمن ديميسوفيتش طابقاً في هذا البيت القريب من ساحة لوبيانكا. وهو طابق مساحته نحو ألف متر، مفروش بأسلوب حديث.

موبيليا أثرية، ولوحات أصلية لفنانين حقيقيين، وحوض سباحة مفروش بقطع بلاط من صنع يدوي، رفعت من سفينة يونانية غارقة عمرها أكثر من خمسمئة عام، ومجموعة من الخمور المصنفة بين أفضل عشرة خمور في العالم، لكن ما من شيء من كل ما ذكر أعلاه، كان يبهج تشارمن ديميسوفيتش في العام الأخير. إن هذا التعبير الرفيع الذوق عن الثروة، لم يكن بالنسبة إليه أكثر من زركشة تخفي قبح الحياة الزائلة.

خرج من المصعد في مدخل شقته مباشرة. خلع عن كتفيه المعطف الخفيف ذا القبة المخيطة من الفرو، ورماه بين يدي الخادمة التي تحمل اسم (إيزولدا) غير المألوف، وأعطاها عكازه ذا القبضة التي لها شكل رأس بدوي، وانطلق فوراً، من دون أن يخلع حذاءه وينتعل الحذاء المنزلي المفضل لديه ذا الأنف المعقوف إلى أعلى على الطراز الشرقي، إلى غرفة النوم النسائية في الطابق الثاني.

كانت تجلس ساكنة، على مقعد قرب النافذة تتأمل حركة الشارع، منتصبة الظهر كالعادة، وقد صارت أكثر نحولاً مما كانت في شبابها، وما زالت تشبه سمكة (السيلد).

هي لم تلتفت نحو زوجها حين قدومه، واكتفت بأن خفضت قليلاً كتفها البارزة عظامه مظهرة بذلك لتشارمن أن الزوجة لاحظت مجيء زوجها.

أما هو فنقّل قدميه مراوحاً في مكانه قرب الباب، ثم دخل دخول من قرر القيام بعمل ليس بسيطاً.

إنه الآن يشبه جملاً حزيناً مرهقاً تماماً، جمدت الدموع في عينيه. توقف على بعد متر من زوجته وناداها بصوت خافت:

– كسانا!...

فأجابته بصوت خافت أيضاً:

– تشارمن...

تقدم خطوة أخرى، انحنى ولامست شفتاه المنتفختان رقبتها نصف العارية.

– أنت لم تخلع حذاءك هذه المرة أيضاً،– قالت وهي ما زالت مديرة ظهرها.

– لم أخلعه، – قال تشارمن مؤكداً كلامها.

– هل كل شيء على ما يرام.

– نعم يا غاليتي... كل شيء على ما يرام.

لو أنها التفتت للاحظت حباً عظيماً في عيني زوجها. لكنها لم تكن تقوى على الالتفات.

– أنت ستعذّبني مرة ثانية؟

– أنت تعرفين يا حبيبتي كم أن هذا ضروري، – قال بلهجة مؤثرة.

– لمن؟

– لك ولي.

– بل لك على الأرجح.

كان هذا الحوار يتكرر بدرجات متفاوتة التشابه في كل يوم تقريباً. وقد كرهت أداء دورها فيه، وملّ هو أيضاً الاستمرار بتكراره، لكن أداءه كان خالياً تماماً من اللامبالاة. على العكس من ذلك، كان قلبه الكبير يتألم من الحزن الذي يسكنه، لذا كان يريد أن يفعل كل ما هو ممكن لأجلها من دون أن يتكلم، أما هي فكانت بصدق غير مبالية بمصيرها، لا يمكّنها من الصمود سوى ذكرى حبها له. والأدق هو أن نقول: إنها لو كانت تملك القوة لأحبته طبعاً في زمن الواقع الحالي، لكن شيئاً ما غريباً حدث في داخلها، فراح الموت يحوم في العام الأخير بالقرب من جسدها. غير أن تشارمن لم يمكّن ذلك (الحاصود)، من اقتلاع هذه السنبلة الذابلة التي أرهقها الوقوف، قاومه، وحمى الأوراق الذابلة من آخر هبة ريح.

أما هي فراحت تتوسل إليه:

– اتركني!...

هو بصدق لم يكن يعرف ماذا «هناك»، لذلك تمسّك بها ولم يتركها تغادر حبه، وهكذا تحوّل إلى معذّب لها رغماً عنه.

– كسانوتشكا...

– أنا أعرف – أنت لن تتركني... لكن قل لي: متى ستفطس هذه العظاءة؟

كان تشارمن يتمنى من أعماق قلبه، وهو ينزع الخاتم من إصبعه، أن تكون العظاءة خالدة، وأن تكون قواها التي لا تنضب، مرسلة إليه، كي تدلّه على أن الـ «هناك» الذي تطلب كسانا الذهاب إليه لا وجود له! إنه لا شيء!...وإن كل ما هو موجود – موجود في الـ «هنا» بالضبط، وإنه إذا كنا نأمل في العثور على الأفضل في الـ «هناك» فلا حاجة لنا بالـ «هنا»... إننا كالطفل الذي ينتظر الحلوى بعد الطعام، فيلتهم المقبلات دون حس أو تذوّق، ويرفض تناول حساء البصل اللذيذ، ولحم الغنم الطريّ المضمخ بالنبيذ المز، لينال في نهاية معاناته قطعة سكاكر مصنوعة من مواد كيماوية، علّقت عليها آمال الطفل فجعلتها نقطة تتركز فيها أفراح العالم كلها...

المهم ليس النقاط في الفضاء، بل المسافات التي بينها!...

السعادة ليست في المعبد بل في الدرب الموصل إليه! لأن المعبد لا وجود له!...

كان يرجوها قائلاً: – «عيشي»! هناك لا شيء! كافحي، لا تفقدي الأمل، وسيتحقق هنا كل ما هو أفضل!... أما هي فتجيبه بسؤال:

– ما بك؟ ألا تؤمن بالرب؟

– لا، يعترف هو مرة بعد مرة.

– وكيف عشت معك حياتي كلها؟

– حين كنت شابة لم تكوني تذكرين اسم الرب. لم يكن هناك مؤمنون!

– لقد كنت غبية، بالمناسبة، الشباب كله غباء! – تقول بلهجة متأسفة! لكن جدتي اعتنت بي، عمّدتني في طفولتي... أنا الآن لا أؤمن، أنا أعرف!

– وماذا تعرفين؟!... – يعارضها بإلحاح، – ما تشعرين به هو نتيجة مرضك، ونتيجة الإحساس بقرب الهلاك، العقل يتشبث بالخيالات الغبية! هناك فقط انتصار الحياة ثم – الفناء! الفناء لا يهتم به أحد غير مخرجي أفلام الرعب!...

– أنت – كافر!

– أنا لن أتركك!

نفخ تشارمن ديميسوفيتش على الخاتم فانبعثت الحياة في العظاءة. كانت ذهبية كشعاع شمس صغير، رفعت قوائمها بالتناوب محركة جسدها، ثم حرّكت رأسها بحدة ناظرة مباشرة بعينيها الصغيرتين جداً، إلى عيني صاحبها اللتين كعيني جمل. أشار لها بانحناءة من رأسه، فقفزت إلى كمّ

العباءة الكشمير التي تدفئ جسد كسانا. ركضت سريعاً – سريعاً إلى أعلى متشبثة بوبر القماش، حتى بلغت الكتف. هناك توقفت لحظة كأنها تطلب التأكيد ثانية على صواب فعلها، فأحنى لها رأسه بحزم مرة ثانية، فانطلقت العظاءة، لا يخامرها أي شك هذه المرة، ركضت مباعدة بين خصلات شعر كسانا، إلى أذنها، دخلت إلى عمق الأذن، فاتحة في الدماغ نفقاً صغيراً، زحفت إلى قشرة الدماغ وغرست في نهاياتها العصبة أسنانها السامة.

– آخ! – صرخت كسانا من الألم. لماذا؟...

لكن كل ما كان يريده تشارمن قد تم، وانتهى الأمر.

إنه الآن يأمل أن تلتفت زوجته نحوه، ويتجلى في عيني هذه المرأة التي يحبها كل هذا الحب القوي، شبابها وحبها له.

انتظر تلك اللحظة وقد جمدت الحركة في كل جسده الكبير الضخم، كجمود صياد فراشات يحلم بأن تحط الفراشة الأجمل طوعاً على يده الممدودة...

عادت العظاءة إلى خاتمها المعدني وهمدت فيه كقطعة طبيعية غير حية، أما الزوجة فلم تلتفت، أخاف ذلك تشارمن فأحس بالضعف يسري في ساقيه...

في الماضي كانت ردّة فعلها على عضة العظاءة فورية، أما الآن... فيمر المزيد والمزيد من الوقت قبل أن تلتفت... ترى هل شاخت العظاءة أيضاً؟.

تشارمن دميسوفيتش يخاف منذ بعض الوقت ألا يكون عظاءته الذهبية خالدة، وأن تنكسر بمرور الزمن! وتتحطّم مثل مقياس زمن غريب الشكل... لكن كانت تصدر عنه ردّة فعل فورية على استفزازات شكوكه الإنسانية، مدمراً شكه القبيح بصرير أسنانه.

لن يحدث للعظاءة شيء!... إنها في حالة ممتازة! ممتلئة قوة وطاقة!

هو لم يكن يستخدم العظاءة لتحقيق حاجاته إلا قليلاً جداً! ومع ذلك، قد تكون بشرتها تغيرت بعض الشيء...

هنا، كان يتوقف عن التفكير في الأمر، لأن كسانا التفتت إليه أخيراً، من عينيها ينهمر نور دافئ...

– أريد خمراً، – قالت له.

– طبعاً، طبعاً! – أجاب مبتهجاً ومضى مسرعاً إلى الغرفة المخصصة لذلك، ينفض الغبار عن زجاجة نبيذ أحمر معتق. – يا حبيبتي!... – لقد بدا له أنها عبرت عن رغبتها بلهجة يشوبها دلال، وهذا لم يلحظه منذ زمن... – عيشي، عيشي!... المطلوب هو فقط أن تعيشي!...

ما أقلّ ما يحتاجه الإنسان كي ينتعش فيه الأمل بحدوث معجزة.

وضع تشارمن على صينية فضية كأسين من زجاج عقيقي اللون، وطبقاً من الجبن المقطّع وعنقود عنب بلون الزمرّد، وبعض الفاكهة الفواحة الرائحة في طبق من البورسلان الأبيض بياضاً مدهشاً...

عاد إليها محتفظاً في روحه بنظرتها القادمة من شبابها، وهو يهمس في سرّه برجاء واحد: «ليت أوتياكين لا يخيب ظني»! افعلها يا ميشا! أنا لن أضن عليك بشيء إذا نجحت!...

شربا الخمر وامتدحاه، ثم أكلا الجبن وراحا يتحدثان غافلين عن سرعة انقضاء ساعات الليل.

– أتذكر كيف تعارفنا؟ – سألته.

بشرتها تحت الطبقة السميكة من الكريم بدت مصطبغة بالحمرة نتيجة تسارع دوران الدم، ونتيجة الذكرى التي راودتها.

– طبعاً، أذكر، – قال وقد وجّه قلبه بهمة نحو الماضي. – لقد كنت شاباً...

– أنت دائماً كذلك، – قالت مبتسمة. – كنت دائماً إنساناً شرقياً كبيراً غير محدد العمر! أنت لم تتغير مطلقاً في خلال الأربعين عاماً المنقضية!... أنت غجري! يجب أن تعترف بذلك في نهاية المطاف.

– لا – لا!

– بلى طبعاً!

أخذت عنقود العنب وانتزعت منه حبة. كانت حبة العنب ناضجة إلى حد أن قشرتها انفجرت وسال عصيرها

– هذا ما يحدث لبشرتي، – قالت كسانا وهي تبتسم. – هكذا يتشقق جلدي، لكن ليس من النضج، بل من سعيه، كما تقول، إلى الفناء!

حاول أن يتجاهل كلماتها، أن يتظاهر بذلك، على الرغم من أنه كان يشعر بالألم والضيق في صدره.

– أتذكرين كيف جئت إليكم في دار الإذاعة الحكومية؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

– لقد دخلت إلى قسمكم بالمصادفة، كنت أبحث عن قسم الرسائل، فوجدت نفسي في قسم إعداد البرنامج الموسيقي!

– يومها أعجبت بك كل النساء في القسم. وقد ظللن يتكلمن عليك أسبوعاً بعد ذلك!

– أما أنا فلم أعجب إلا بك!

– أنا، حتى اليوم، لا أستطيع أن أفهم ماذا وجدت فيّ؟

ثبتت كسانا سيجارة في مبسم السجائر المتشقق، أشعلتها، ونشقت دخانها.

– دخلت فلم أر غيرك، – قال تشارمن متذكّراً. – أنت كنت واقفة عند النافذة تدخنين هكذا؟. مبسم من العظم، وأصابع طويلة نحيلة، وصوت منخفض... آنذاك أدركت أنك المرأة التي كنت أحلم بلقائها طول عمري!

شعرت بامتنان عميق لقوله هذه الكلمات، لحبه لها الذي استمر طويلاً، لرعايته الحنون لها في شيخوختها.

– أنا الآن، عجوز. وأنت لم تتغير! – جمدت في عينيها دمعتان.

– لا– لا! – قال تشارمن محتجاً. – أنت ما زلت رائعة كما كنت! وأنت، بالمناسبة، لست عجوزاً أبداً. أوتياكين يقول إن جسدك كجسد امرأة في الخامسة والعشرين!

– والجلد... – قالت مبتسمة ابتسامة حزينة.

– أوتياكين سيفعل كل ما يلزم!... أنا لا أحتمل رؤية دموعك!...

– أوتياكين، – كررت قوله وهي تمطّ لفظ الكنية، كأنها تحاول أن تتذوقها، مقارنة بين مذاقها ومذاق طعام آخر، وكأنهم وضعوا في فمها لقمة بمذاق رديء. – وهل تذكر يوليتشكا؟

رفع حاجبيه اللذين برزت عظامهما إلى أعلى.

– يوليتشكا لارتسيفا، – قالت مدققة. – أقرب أصدقائي إليّ!...

حسناً، هو يتذكرها طبعاً. البنت التي ماتت وهي تلد. لقد أرادا آنذاك أن يتبنيا مولودها، لكن سلطات ذلك الزمن لم تسمح لهما بذلك.

لقد تذكّرا في وقت واحد تلك الرغبة التي لم تتحقق.

– ترى، هل ما زال طفلها حياً؟

– عمره الآن يجب أن يكون فوق الثلاثين، – قال تشارمن مدققاً...

– يا إلهي ما أسرع ما يمر الوقت!

لقد بات واضحاً له أن الدم هوب من بشرتها فصارت قسمات وجهها شاحبة وميتة تقريباً. وقد أبهجه هذا كثيراً! فهو يعني أنها تريد أن تعيش، وأنها تخاف الموت!...

– أنا لا أخاف الموت، – قالت تقاطع أفكاره. – ما يخيفني هو أني لم أصبح في حياتي أماً!... هذا الطفل... ترى كيف هو الآن؟...

– أنت ستشفين! أنت ستشفين حتماً! وسنأخذ طفلاً غيره من الميتم ونتبناه! الآن صار التبني سهلاً! المهم هو ألّا تستسلمي!

التمعت عيناها لحظة، كأن فيهما ناراً بنغالية، ثم انطفأ التماعهما بسرعة كما ظهر.

– لقد تأخرنا، قالت.

– أرجوك، لا تقولي ذلك! – قال هو يحاول إخفاء ارتجاف صوته. – حديثك هذا يؤلمني كثيراً!

– سامحني. أنت أقرب الناس إليّ. أنا لم أحبب أحداً، حتى أمي، كما أحببتك!... أنا لا أريد أن أسبب لك ألماً... كل ما أرجوه هو فقط أن تتركني. أنت ستتغلب على معاناتك، أنت – قويّ!... ألمك سيختفي!

هي الغبية لم تفهم أن الخلود لا يكون ممتعاً إلا حين يتقاسمه معك شخص آخر. أن تكون وحيداً مثل أبي الهول أو هرم خوفو، أمر يشعرك بالعزة، لكنه يخلو من الفرح الإنساني!... لقد كان تشارمن يدرك في مكان ما من أعماق وعيه أن صورة كسانا ستنساها الذاكرة في الأبدية، ستذوب كالسكر في كأس من الشاي. هو كان يعرف أن صوراً أخرى ستظهر، وأنها ستكون بالآلاف، بل بمئات الآلاف... السعادة تكمن في هذه الطريق! السعادة – في اللانهاية! أما المعبد – فعمود تصطدم به فيتحطم جبينك وتموت! إن كل نهاية تفترض أن تكون حقائبك جاهزة، أن تعيش مستعداً للرحيل السريع. وهم لن يسألوك لماذا تود الانطلاق في رحلة لها نهاية، ينطفئ فيها النور!....

لكنه، مع ذلك، لا يريد أن يسير في طريق الخلود إلا معها!...

صار فجأة صارم الوجه، وضاقت عيناه، وانطبقت شفتاه انطباقاً تاماً.

– لن أتركك. لا تحلمي بذلك!

لم تجبه بشيء، دفعت الكأس عن الصينية قبل أن تنتهي شرب ما فيه من خمر.

طار الكأس الكريستال نحو الأسفل، كما لو كان لقطة في مشهد بالتصوير البطيء، فاصطدم بسيراميك الأرضية دون أن ينكسر، بل إنه ارتد إلى أعلى عدة مرات ناثراً في المكان رذاذاً بلون الدم، ثم تدحرج فارغاً واستقر تحت الديوانة.

تابعت بنظرها الكأس مندهشة، ثم توهجت عيناها، ودفعت بكفها إبريق الخمر الذي كان أيضاً «ضد الكسر»، فارتطم بالأرض ثم راح يدور حول محوره كالدوامة... وراحت تدوس في هياج عنقود العنب بقدميها خالطة بحذائها حباته مع الجبن، وقاذفة الفواكه التي طارت فارتطمت بلوحة «طبيعة صامتة» هولندية معلقة على الجدار، والتصقت بها كأنها قطع من المعجون.

أما هو فظل ينظر صامتاً إليها، وهو يعرف أن ما يجري هو مجرد بداية.

– أنا أكرهك! – قالت له فجأة.

اكتفى تشارمن بأن خفض عينيه.

– أنا أكر – ر– هـ – ك!!! – صاحت بصوت عال هذه المرة – صوت أجش، متقطع.
– أنت سادي، عجوز شاذ! أنت خرّبت حياتي! فلتذهب إلى الجحيم أنت وصاحبك أوتياكين!...

تلت بعد ذلك شتائم مقذعة قد تليق بحمال في مرفأ.

لم يقاطعها، استمع إليها حابساً أنفاسه، فقد تعود على هذه الحالات بمرور الأعوام الطويلة.

حتى في سنوات الشباب كان مزاج كسانا يتغير جذرياً في ثوانٍ. لقد كان باستطاعتها أن تبدو رقيقة إلى درجة مدهشة، وأن تتسم بشاعرية رفيعة المستوى في حوار غرامي، لكن كان من الممكن لأية ظاهرة صغيرة، رائحة الإسفلت مثلاً، أن تبعث فيها نوبة غضب تصبه عليه، هو الذي لم يكن آنذاك قد اعتاد ذلك، سيلاً لا تضاهيه صهارة بركان فيزوف في انصبابها على مدينة بومبي...

كانت بعد نوبات الهياج، تزداد رقة، وبمرور الزمن بدأ تشارمن يألف هذا التناقض ويقيّمه تقييماً عالياً.

لا شيء في الحياة أكثر عذوبة من المرأة التي يمكن أن يفاجئنا سلوكها.

هي لم تكن تشبه مياه غدير تجري بهدوء – بل كانت أكثر شبهاً ببحر يدهشك بعواصفه غير المتوقعة التي تحاول أن تحطمك على صخر الشاطئ، ويبهجك وهو يهدهدك بهدوئه الصيفي في حين يعدك متنبئو الأرصاد الجوية بيوم عاصف ماطر.

لقد استطاعت، على كل حال، أن تحطم بكسارة جوز ثقيلة المرآة التي اقتناها منذ أربعين عاماً وأحبها كقطعة غالية على قلبه.

– أنت عبد للأشياء! – استمرت تهاجمه دون توقف – لقد ملّت روحي من أشيائك المنتقاة! أنا أريد حياة إنسانية بسيطة!

أريد صحناً طبيعياً كصحون باقي البشر، ومرآة عادية رخيصة الثمن، أكره السرير الذي في أعلى قوائمه طابات، أشد الكره!!! أريد خمر «البورتفين» الذي يباع في المخزن رقم/ 16/! أخلطه بالبيرة وآكل معه مرتديلا رخيصة!... أريد الانتساب إلى الحزب الشيوعي!!!

– انتسبي، – قال لها. – سأكلمهم من أجلك.

غصت بالكلام، ابتلعت الهواء بفمها كأنها سمكة تم اصطيادها وألقيت على الشط. ثم انكسر شيء ما في نوبتها الهيستيرية، فقهقهت فجأة بصدق جعل عدوى الضحك تسري إليه فشرع يضحك بإيقاع منسجم مع قهقهتها، وكل جسده الضخم يهتز.

ارتمت على الأريكة وظلت فترة طويلة غير قادرة على إيقاف قهقهتها.

– أنا أريد أن أكون... ها – ها– ! شيوعية... ها – ها!!!

– ستكون لديك بطاقة حزبية! مهما كلفني ذلك!

– ها – ها! أنا – بلشفية!... لقد كانوا يقولون لي دائماً أنني أشبه فانيا كابلان!...ها – ها!

– أنا، في هذه الحالة – لينين! – قال تشارمن معلّقاً على كلامها.

– أنت – ستالين!

توقفت عن الضحك بشكل مفاجئ كما بدأته.

– أنت، مع ذلك، سادي، – قالت له بجدية.

– أنا أحبك.

– وأنا أحبك، سامحني على كسري المرآة، أنا أعرف أنك تحبها.

– أحبها فقط لأنها تذكرني بك وأنت صبية.

– حسناً، ماذا تريد أن تقول لي عن صاحبك أوتياكين؟

– إنه قريب جداً من تحقيق المعجزة! إنه عبقري لا جدال في ذلك!

– وأنت من تكون، إذن؟

– أنا مالك تلك العبقرية.

– جد سيفيرتسيف، قد يكون بحاجة إلى المساعدة!

– أي سيفيرتسيف؟ – هو لم يفهم السؤال.

– ابن يوليتشكا لارتسيفا.

– طيّب – طيّب، طبعاً، – قال وهو يهز رأسه مؤكداً، مندهشاً مجدداً لانتقالها غير المتوقع من موضوع إلى آخر. – سأبذل جهدي... – كيف لم أفكر قبلاً بذلك. من الصعب جداً على الطفل أن يكبر من دون أم.

– لقد كبر، – قال تشارمن يذكّرها وهو يرفع الكأسين عن الأرض. – ومن المحتمل أن يكون لديه أطفاله.

– دعك من ترتيب المكان، أنا سأقوم بذلك، – قالت كسانا وهي تشير بيدها النحيلة إلى الفوضى التي أحدثتها في الغرفة. – من الضروري أن يعرف الرجل من كانت أمه. أنا سأحدثه عن يوليتشكا لارتسيفا!...

تذكّر تشارمن كيف أراد ذات يوم أن يبحث عن مفتاح غرفة يوليتشكا الذي أعطوه له بعد موتها... كان ذلك قبل عشر سنوات تقريباً. غير أنه وجد آنذاك صندوقاً مخلوع قفله وفيه أشياء من الماضي... لم يهتم تشارمن يومها بالأمر، لأنه لم يلحظ فقدان أي شيء ثمين... إلا المفتاح...

ردت كسانا رأسها إلى الخلف مسندة إياه إلى ظهر الديوانة اللين وأغفت على الفور.

جلس تشارمن ديميسوفيتش بعض الوقت ساكناً بلا حراك، محاولاً ألّا يوقظ زوجته، ثم نزل إلى المدخل، ودسّ يديه في كمّي معطفه بمساعدة الخادمة إيزولدا، وتسلح بعكازه الذي لقبضته شكل رأس البدوي، وخرج من البيت إلى الشارع. لم يجلس في سيارته «البنتلي»، بل سار بخطوات منتظمة نحو «المدينة الصينية»...

هزّ ميخائيل فاليريانوفيتش كتفيه باعثاً الحياة في جسده الذي انتابه الخدر. الساعة تجاوزت الثامنة في ذلك الصباح المشرق حين طلب عن طريق الهاتف الداخلي كأساً من الشاي الثقيل، وعدداً من أرغفة خبز الصويا الصغيرة، لتحلّ محلّ فطور الدكتور. حاولت مديرة المكتب، التي كانت تشعر بأنها مذنبة ذنباً كبيراً أمام صاحب عملها، لفت نظره بالقدر الذي تسمح به عزة نفسها. راحت تبتسم له ابتسامات عريضة، وتمطّ شفتيها المنتفختين بالسيليكون بتوتر، وتجثو أمامه نصف جثو ثانية ركبتيها.

أوتياكين لم يكترث بحركات مديرة مكتبه، بل راح يتفحص المكالمات الفائتة على شاشة جواله، وعند رقم تكرر أربع مرات جمد كأن عنكبوتاً عضه... ضغط بإصبعه المرمري على زر

إعادة الاتصال و راح يصغي متوتراً إلى صوت صفرات التلفون.

– أين كنت؟ – سأله صوت صارم عبر السماعة.

– تشارمن ديميسوفيتش، – تمتم ميخائيل فاليريانوفيتش متلعثماً. – لقد وقع حدث طارئ.

– ماذا حدث؟ – جاء الصوت مشوباً بقلق مكبوت. – هل أصيبت العجوز بمكروه؟!...

– كل شيء انتهى على خير! – قال الدكتور يطمئن راعيه. – لقد غفلت عنها قليلاً، لكن الأمور كلها سليمة الآن!

– لا تكذب!!

– ماذا دهاك يا تشارمن ديميسوفيتش؟ – قال أوتياكين مستاء.

– إياك – أن...

عبارة «إياك – أن»قيلت بصوت هادئ ومن دون انفعال، لكن هذه العبارة أخافت أوتياكين ففضّل إنهاء الحديث والذهاب إلى دورة المياه، ليقف هناك مباعداً بين ساقيه، ويفرغ داخله مما تكدّس فيه من التوتر والخوف. لكنه اضطر رغماً عنه، إلى متابعة الحديث الهاتفي.

– لقد ساءت حالتها!

– ماذا جرى لها؟

– لقد رأيتها في الحمام. جلدها ينسلخ نتفاً...

– الجسد فتيّ... الجلد... السرطان، أنت نفسك تفهم ذلك... الجلد ينسلخ، أما هي فستعيش!... كل شيء على ما يرام!

أجابته السماعة بالصمت.

– آلو! هل تسمعني؟... تشارمن ديميسوفيتش!...

كان تشارمن في هذه الأثناء يفكر بأن جميع العباقرة متخلفون في النمو. إذا كان هناك تفوق عند أحدهم في شيء، فسيكون لديه نقص في شيء آخر يقابله!... عند أوتياكين، مثلاً، ينعدم كل ما هو إنساني...

– أنا أسمعك يا ميشا. أنت، إذن، تقول إنها ستعيش من دون جلد؟... متى ستبدأ الشغل على العجوز؟

– أنوي أن أبدأ في الأسبوع المقبل، إذا لم يحدث طارئ!

– صلّ يا ميشا...

– لمن؟ – انفلت السؤال من فم الدكتور.

– لي، – أجابه تشارمن ديميسوفيتش على الفور.

– أنا، دائماً...

انقطع الاتصال، لكن الهاتف رنّ في الحال في أذن ميخائيل فاليريانوفيتش فاهتز لرنينه جسده النحيل كله. ضغط زر الاتصال بتوتر، مستعداً لمتابعة الحديث.

– لقد انقطع الخط يا تشارمن ديميسوفيتش.

– هذه أنا يا ميشينكا! – اخترق أذنه صوت أنثوي قلق.

– ماذا حدث يا حبيبتي؟!...

هو لم يكن يتوقع أبداً أن يسمع صوت سفيتوشكا الآن، لذلك صرخ:

– كم مرة رجوتك ألّا تتصلي بي في أثناء العمل!

– لقد اتصلت على الجوال...

– متى ستفهمين أني أنسى وجودي حين أكون في العمل! أموت!... أفطس!...

– لا تقل ذلك، – ردّت سفيتوشكا باكية. لقد تلفنت لكل المستشفيات! أنت لم تعد ليلاً، وجوّالك لا يجيب!

كان يفهم أن من حقها الآن أن تقلق فهي زوجة في نهاية المطاف، لكن ما حدث أخرجه تماماً من حالة الانضباط المعهود لذلك لم يتمالك نفسه فانقض يهاجم زوجته.

– سأتركك إذا كنت ستعيقين عملي! – قال أوتياكين وتابع: سأطلقك ولتذهبي إلى الشيطان!

– ما هذا الذي تقوله يا ميشا؟!

– أنا لا أطيق أن يتجسس أحد عليّ، (ويشمشم) طول الوقت أخباري!

– كيف تجرؤ فتقول ذلك لي؟!...

– أنت جاسوسة غير مكتملة!...

كان ميخائيل فاليريانوفيتش يريد أن يُسمع زوجته المزيد من الكلمات القذرة التي لا تستحقها، فكل إنسان، حتى ضعيف الطبع، يخرج عن طوره أحياناً، لذلك فإن الناس، حتى الذين بلا إرادة أو عزة نفس، يستدينون تلك الكلمات من مكان ما في الفضاء، فتحدث نتيجة ذلك ثورات صغيرة.

– قذفت سفيتوشكا سماعة التلفون على الجدار، واتجهت مباشرة إلى الخزانة العائلية لتخرج منها، وتضع في الحقيبة، أشياءها كي تأخذها إلى بيت ماما... لكنها قبل أن يمتلئ رفيق دربها الجلدي، وبينما كانت ترتب في كيس صغير سراويلها الداخلية الحريرية الصغيرة، تذكّرت زوجها فجأة في مشهد حب، فبكت أكثر من ساعة مفرغة مع دموعها كل زعلها منه، ثم راحت تخرج أشياءها من الحقيبة وتعيدها إلى أماكنها. انتهى صخب الثورة الصغيرة في الشقة المستقلة التي تسكنها، وشرعت سفيتوشكا، الزوجة المثالية تنتظر حبيبها ميشينكا كل الزمن الذي يحتاجه غيابه، وأعدت في غمرة الحب عشاء لذيذاً له، وغضبت من جسدها بسبب العادة الشهرية التي حلّت فجأة، فممارسة الحب منقوصاً أمر يربكها...

عمل أوتياكين طول عشرة أيام بكثافة محاولاً أن يعيد أنجيلينا ذاكرتها. لكن المحاليل الفيزيائية والعقارات المهدئة كلها لم تساعد دماغ العجوز في فتح مخزن ذكرياتها.

– لا أذكر! – تقول ليبيدا متوترة يائسة. – لا أذكر شيئاً!... استدعى طبيباً نفسياً لاستشارته، فاكتفى الطبيب النفسي ببسط ذراعيه قائلاً: «الناس ينسون أشياء كثيرة، لا سيما إذا كانوا لا يريدون تذكرها»!

– ألا يمكن أن أكون سقطت وأغمي عليّ بسبب تبدّل الطقس؟ – تتساءل العجوز. فيغضب ميخائيل فاليريانوفيتش غضباً شديداً. «الأوعية الدموية عندك أفضل من التي عندي»، يقول في سره، «أنا لم أخطئ الظن حين قدّرت أن العظاءة عضتك. لكن كيف عثرت عليها؟... أو كيف عثرت هي عليك؟».

كان أوتياكين يشك في ادعاء العجوز فقدها لوعيها، هو لم ينجح في جعلها تقول الحقيقة، غير أن هذا ليس مهماً، فهي الآن تحت مراقبة دائمة.

– استعدي، يا سيدتي المحترمة، لعمليات العلاج! – قال الدكتور ينبه العجوز. – غداً سنبدأ!

أقلق هذا الخبر أنجيلينا إقلاقاً فوق العادة، فلم تنم، ظلت تكرر على أليكسندرا سؤالاً واحداً:

– ما رأيك، هل سينجح العلاج؟

– العلاج عنده ينجح دائماً، – تجيبها الممرضة بصوتها (الباص) وتطلق من فمها الضخم عبارة «إنه عبقري!»...

– هل أنت مغرمة به؟

تطرق أليكسندرا فجأة، وتضم ركبتيها الضخمتين، بعضهما إلى بعض، خجلاً، في حركة أنثوية تماماً، فتدرك ليبيدا أنها بسؤالها نفذت إلى أعماق الروح النسائية الظاهرة إلى الوجود حديثاً.

– هذا جيد! – قالت أنجيلينا. – المريضات يقعن دائماً في حب أطبائهن!

– وأنت أيضاً؟ – سألتها أليكسندرا.

– ماذا؟ – لم تفهم العجوز.

– هل أنت واقعة في حب ميخائيل فاليريانوفيتش؟

– ما هذا الذي تقولينه! – أجابتها ليبيدا وهي تضحك ضحكة مكتومة. – أنا، كما ترين، عجوز!... أما أنت فحورية ذهبية، أحبيه بالصحة والعافية، فلن ينافسك أحد!...

قبيل الفجر أغفت العجوز قليلاً، فرأت في منامها رجلاً فتياً، رشيق القوام، جميل الوجه، تزين وجهه عينان واسعتان زرقاوان بلون السماء. كانت عيناه تحدجانها عبر الحلم ممتلئتين باللامبالاة، وكان صوته الخافت، الواثق يكرر عليها السؤال:

– لماذا أطلقت عليّ النار أيتها الكلبة السافلة؟

استيقظت وهي تشعر في نفسها برغبة في الرد على الشخصية التي في الحلم ردّاً مناسباً، لكنها لم تفعل، بل بقيت راقدة فاغرة الفم. الوقت لم يتجاوز السادسة بعد، غير أنها لم تعد إلى النوم. ولم يكن هناك من صوت غير صوت شخير أليكسندرا المغرمة النائمة على الأريكة، الذي يشبه هدير جرافة.

أثارت عبارة «أطلقت النار» في ذاكرة ليبيدا ذكريات من نوع مختلف تماماً.

عانت أنجيلينا ليبيدا طويلاً، بعد موت زوجها الشرعي، من الحزن والبحث عما يمكن أن يصرفها قليلاً عن التفكير بالواقع الكئيب. حاولت العمل رئيسة لإدارة الحي السكنية، لكن الروتين قهرها وأضجرها في خلال شهر، فسعت للعمل في مصنع، لكنها اكتشفت أن يديها غير مؤهلتين للعمل في المصانع، بعد ذلك لم ترد أن تجرب أي عمل آخر.

في أحد صباحات عام 1966، في ذروة قيظ تموز، جمعت أنجيلينا ليبيدا وثائقها وجاءت إلى ساحة لوبيانكا.

حاولت طويلاً أن تشرح في قسم تصاريح الدخول، أنها تريد مقابلة رئيس قسم تصفية الأشخاص، لكنها لم تلق ردّاً على طلبها، سوى نظرات استغراب مساعدي الضباط المناوبين.

دست في النافذة وثائق الجوائز التي نالتها، ولم يحمها من استدعاء الضباط «لسيارة نقل المجانين» سوى الأوسمة الثلاثة التي نالتها، وهكذا قرر الضباط إبلاغ رئيس قسم الحراسة.

اقتادوها إلى القسم المناوب حيث حاولوا التأكد من أن هذه المرأة الغريبة الأطوار ليست شريكة في عمل استفزازي. سألوها كثيراً وطويلاً، لكنهم لم يحصلوا على أية أجوبة محددة.

– أنا أريد لقاء رئيس قسم تصفية الأشخاص! – أصرت أنجيلينا على طلبها. – أهذا أمر يصعب فهمه؟!

– لا وجود لهذا القسم يا مجنونة! – صرخ المناوب وقد نفد صبره.

– تلفن، إذن، إلى الرئيس!

– إلى من؟

– إلى رئيس لـ (ك. جي. بي)!

– سأتصل لك بليونيد إيليتش، ما رأيك؟ – اقترح عليها المناوب.

– هذا ليس اختصاصه، – قالت أنجيلينا رافضة اقتراحه. – إنه يعمل في مجال أمن الحزب. أنا أريد لقاء رئيس القسم ذي الاختصاص!

هنا أدرك الضابط أن عقله لا يملك القدرة الكافية على التعامل مع بطلة الحرب الوطنية، وقرر أن يلجأ إلى الطريق الأسلم لشخصه، وتسليم المرأة نصف المجنونة لأيد أمينة.

اقتادوا ليبيدا عبر ممرات طويلة، واستخدموا المصعد، ثم ساروا في ممرات، ثم استقلوا المصعد ثانية، لكن في الاتجاه إلى أسفل. وفي مركز ضبط بيني، سلّم المرافق المرأة لضابط آخر أصدر أمراً قصيراً «إلى الأمام!»وهو يصعد خلف أنجيلينا سلّماً مغطى ببساط سميك يحجب صوت الخطوات.

– إلى اليمين! – أمر المرافق. – إلى الأمام... هنا... قف!

قاد الضابط أنجيلينا إلى غرفة واسعة كبيرة حيث جلس وراء طاولة المكتب رائد محني الظهر، يطبع نصاً على الآلة الكاتبة.

– أيها الرفيق الرائد، – أعلن المرافق عن حضوره بصوت خافت.

– تستطيع الانصراف!

الباب المغلف بجلد طبيعي محشو بالقطن بقصد حجب الضجة، انغلق خلف المرافق المنصرف.

– أوراقك! – أمرها الرائد.

يعجبها أن يصدروا إليها الأوامر، فذلك يذكّرها بأجمل أيام حياتها... مدت يدها إلى الرائد بجواز السفر وشهادات الأوسمة... تأمل الضابط الأوراق طويلاً، وهو يتفحص بعناية كل صفحة من صفحاتها، ثم نهض عن كرسيه ومشى نحو باب آخر في الغرفة وفتحه.

– أتسمح أيها الرفيق الجنرال!

انغلق الباب خلفها تاركاً الرائد – مدير المكتب خارجاً، وهكذا بقيت أنجيلينا وحدها مع جنرال قصير القامة يقف مديراً ظهره لها، وهو يتأمل المنظر في الأسفل عبر النافذة.

وقفا فترة طويلة صامتين، ثم التفت الجنرال نحوها.

– آه منك يا محروف العينين، – قالت في سرها.

بدا لأنجيلينا أن في العينين المحروفتين شيئاً ما تعرفه، فأحست بوخزة في قلبها... يا إلهي...

– الآسيوي! – هتفت. القرغيزي!

هو أيضاً عرفها على الفور تقريباً.

تذكر هربها الكبير فوق الرمال الصحراويّة، وإحساسه الكبير بالاعتزاز بهذه المرأة وبوطنه! يا إلهي! كم مضى من الوقت على ذلك! وها هو ذا يتذكره وكأنه حدث يوم أمس!...

– جيليا!

اندفعت نحوه، كأنه حبيب حميم، عانقت القيرغيزي كمن يعانق طفله، رغم أنها لم تلتق بذا الآسيوي سوى بضع ساعات من عمرها، من دون أن تعرف حتى اسمه!... غير أنها كانت ساعات لا تتنسى!

– أيها الرفيق الجنرال!...

استطاعت، كعادتها دائماً، أن تحبس دموعها.

– اهدئي، اهدئي! – قال القيرغيزي مبتسماً. – ستسحقينني!

تركته غير راغبة في الابتعاد عنه، لكنها ظلت تتأمل وجهه من أسفل إلى أعلى، الأمر الذي أربك الجنرال.

– أما زلت حية؟... – ذلك كل ما استطاع الجنرال القيرغيزي المرتبك أن يقوله.

– ما زلت حية، – قالت بلهجة واثقة.

وقفا بعض الوقت متقاربين يكاد جسداهما يتلامسان، ثم افترقا، فجلس هو إلى طاولة الجنرال، أما هي فجلست في الأريكة المخصصة للزوار.

– كيف حالك؟ – سألها الجنرال.

– عادية... لكنني ما زلت حتى الآن لا أعرف اسمك... ترى هل أستطيع معرفته الآن؟

– تيمور أشرابوفيتش.

– هل سمّوك بهذا الاسم تكريماً لفرونزه؟!

– لا، – قال وهو يكتم ضحكة. – حين ولدت لم يكن أحد قد سمع بفرونزه... اختاروا لي هذا الاسم من إحدى الأساطير!...

– مفهوم...

بعد فترة أحضر الرائد مدير المكتب شاياً بالليمون، لم يكن مناسباً أبداً للطقس الحار في ذلك اليوم. لكنهما شرباه واستبدلا بمائه الساخن الحديث الذي لم يبدأ. كان الاثنان يشعران بأنهما متقاربان، لكنهما كانا يجهلان تماماً بأية صيغة كلامية يمكنهما التعبير عن ذلك.

هو كرجل، بدأ الكلام.

– هل تواجهين أية مشاكل؟

– آ – ها، أجابته.

– هل أستطيع المساعدة؟

– أريد أن أمارس الرماية.

– كان هذا منذ عشرين عاماً! لكن ما حاجتك للرماية الآن؟

هزّت كتفيها ثم قالت:

– أنا لا أجيد شيئاً غير ذلك.

– ماذا كنت تعملين طول الأعوام الماضية؟

– هل كنت متزوجة؟

– هل تطلقتما؟

– مات.

– هل كان يحارب؟

أحنت رأسها بالإيجاب.

– نحن نساعد أرامل الجنود! ابقي جالسة هنا، سأعود حالاً!

– آ– ها...

خرج إلى المدخل، تحدث مع وصيفه الرائد.

– دعوها تتدرب في حقلنا!

– كيف ذلك أيها الرفيق الجنرال! – قال الضابط متعجباً. – لقد كان زوجها من طائفة دينية سرية متعصبة.

– كيف اكتشفت ذلك بهذه السرعة؟

– لو لم أكتشف ذلك لقمتم بقطع رأسي!

ما قاله الوصيف كان صحيحاً تماماً.

– زوجها مات...

– وهل يعني ذلك أن نأتمن الآن المنتمين إلى الطوائف المتعصبة على السلاح؟! – قال الوصيف بلهجة يشوبها الاستياء بالقدر الذي تسمح به رتبته.

– مهلاً، هل تعرف من هي؟ – قال القرغيزي وقد ضاقت عيناه حتى كادتا تنغلقان. – إن هذه المرأة قتلت شتيبسكو في الوقت الذي كنت أنت تتفقد فيه العمل في المكاتب!

– هي قامت بذلك؟! – سأل الرائد غير مصدق.

– وهل تعرف من كان هذا الشتييسكو؟

– يقولون إنه ما يزال حيّاً حتى اليوم.

– من يقول ذلك؟!... – قال الجنرال وقد انكمشت قامته فبدا أقصر طولاً. – لو أنه ظل حياً، لقتل الرفيق ستالين في عام ثلاثة وأربعين!

الرائد يعرف أن الفاشي الروماني أندريان شتييسكو كان أحد أشهر المختصين بتنفيذ العمليات الدقيقة المعروفين في الدوائر الضيقة، لذا ارتسمت في رأسه على الفور اللوحة كاملة. لقد كان شتييسكو مكلفاً بقتل قائد جميع الشعوب، لكن الموت عاجله منطلقاً من بندقية ضغط على زنادها أصبع من يد امرأة هي الآن في مكتب تيمور أشرابوفيتش.

– حاضر، أيها الرفيق الجنرال! – هتف الوصيف. سأهتم شخصياً بشأن حقل التدريب على الرمي!

– هذا جيد...

وقف الآسيوي طويلاً في مكانه وأنفه يكاد يلامس إطار الباب قبل أن يعود إلى مكتبه. كان يفكّر في دعوة جيليا مساء للعشاء في أحد المطاعم... لكنه قرر أن يبقي ذلك اليوم كما ارتسم في ذاكرته، من دون أن يقحم الواقع الحالي في الماضي... وقرر أيضاً أن يذهب يوم الأحد مع أحفاده إلى «حديقة غوركي» فيستقل الأولاد الزورق في بحيرة البجع.

– حلّت المسألة، – قال الجنرال لأنجيلينا. – ستتدربين، وبعد ذلك نرى ما يمكن عمله. سيخبرك الرائد بكل ما يلزم!...

بعد أسبوع تسلّمت جيليا بطاقة مهمة عليها صورتها.

– لا تظهري هذه البطاقة إلا عند الحاجة! – قال لها الرائد منبهاً وهو يودعها.

أحنت رأسها بالإيجاب، وفي الصباح الباكر، في اليوم التالي سافرت إلى توشينو حيث يوجد حقل التدريب.

استغرقوا في نقطة المراقبة بعض الوقت في تدقيق بطاقتها، وبعد ذلك سألها الجندي مندهشاً:

– لم أنت مبكّرة هكذا؟ الساعة الآن هي السابعة فقط...

لم تحدثه عن جسدها كيف يرتجف من شدة الرغبة في أن تنظر عبر عدسة التسديد، وترصد الهدف، ثم تضغط على الزناد، وتحس بروحها كلها، بطيران الطلقة إلى هدفها... وبدلاً من ذلك سألت الجندي:

– ألا يوجد أحد؟

– كيف لا يوجد؟!... المدير موجود دائماً. إنه يعيش هنا.

عبرت نقطة المراقبة، ومشت فوق العشب الطويل الساق.

من حولها، على مدّ البصر، حقل بري شاسع. أغمضت جيليا عينيها نصف إغماضة، وقد تراءت لها في البعيد هياكل الدريئات... هذه هي السعادة، قالت في سرها.

مشت بمحاذاة مرابض الرمي، وأعماقها كلها تبتسم، وهي تحرك أصابعها أوتوماتيكياً، كما كانت تفعل قبل عشرين عاماً.

بعد ذلك رأت جيليا عجوزاً محني الظهر، بشعرات شيباء متفرقة في صلعته بدلاً من الشعر. لم تصدق عينيها.

– خموروف! – صرخت فملأت صرختها الحقل الشاسع. – خمـ – و – رو – ف! – تردد صدى صرختها في روسيا.

أما هو فمشى للقائها منقّلاً قدميه كعنزة صغيرة، تماماً كما كان يفعل في الماضي، وقد غمرت السعادة وجهه المجعد وسالت دموعاً من عينيه...

انتشل جيليا من ذكرياتها صرير باب المهجع.

– هيا بنا! – قال لها أوتياكين.

– طيّب، طيّب، – قالت مضطربة، هل حان الوقت؟!...

– اخلعي ملابسك هنا! – أمرها الدكتور. – استحمي واحلقي الشعر تحت الابطين وأسفل البطن!... ستساعدك أليكسندرا!

– لماذا؟ – سألت أنجيلينا، لكن عينيها التقيتا بنظرة ميخائيل فاليريانوفيتش، فابتسمت ابتسامة مصطنعة خفيفة. – فهمت، فهمت!...

قامت بإجراءات النظافة الصحية من دون مساعدة، فأليكسندرا، على كل حال، كانت رجلاً قبل أن تتحول. بعد ذلك ظهرت بقميص طبي ثبت طرفاه بعقد على الظهر.

أجلسوها على كرسي نقال واقتادوها عبر الممرات إلى قسم الجراحة.

جراحة؟ – انتاب ليبيدا قلق. – هل سأخضع لجراحة؟...

لم تكن في المكان الواسع المضاء جيداً طاولة جراحة، لكن كان فيه جسم يشبه جهاز تعديل الضغط، مائلاً على جنبه، تتصل به أسلاك كهربائية وأنابيب مطاطية كثيرة، وطبق معدني يزدان بعشرات الأدوات التي توضعت بأشكال مختلفة.

نظرت أنجيلينا إلى هذا الجهاز فشعرت بالاطمئنان من دون سبب.

– أطلب من جميع الذين لا عمل لهم الخروج، – أمر أوتياكين.

الذين لا عمل لهم كانوا شخصاً واحداً هو أليكسندرا، التي باركت ليبيدا برسم شارة الصليب، ثم تراجعت إلى الخلف فاصطدمت بحرف الباب وكادت تخلعه...

في هذه الأثناء انصرف أوتياكين عن كل شيء عدا عمله. أخذ من الطبق المعدني حقنة ممتلئة بسائل عكر، وأمر ليبيدا أن تحرّك قبضتها. ثبت حول عضلة ذراعها حزاماً من الشاش والمطاط ثم غرس في وريدها رأس الحقنة الدقيق، وراح يفرغ العقار في دم أنجيلينا التي تألمت قليلاً ثم شعرت باسترخاء تام وابتسمت. لقد فعل العقار فعله، لم تنم جيليا، لكن العقار خفّض نشاط دماغها إلى أدنى حدّ ممكن.

– لا تنامي! – أمرها أوتياكين. انهضي!

نهضت عن الأريكة وهي تشعر برشاقة غير معهودة في ساقيها، وبدفقة من الحب في روحها، بل أرادت أن تعترف للدكتور في الحال بشعورها الكبير لكنه سبقها بإصدار أمره:

– اذهبي إلى الجهاز!

اقتربت من الجهاز وهي مستعدة لأن تذهب في سبيل محبوبها إلى أي مكان، حتى إلى الموت؛ من دون تلكؤ!

– ضعي النظارة!

أخذت شيئاً لا يمت لأجهزة تحسين البصر إلا بصلة بعيدة، فقد كان أشبه بقناع ضيق تلتصق به فتحتان زجاجيتان غير شفافتين.

– أنا لا أرى شيئاً! – قالت أنجيلينا بغنج. – هل سنقوم بأعمال لحام كهربائي؟

– اخلعي ثوبك!

خلعت الثوب وواصلت التمتمة بدلال، لكن أوتياكين لم يكن يسمعها.

في الساعات القريبة القادمة يجب أن يتحقق ما عمل من أجله طول الأعوام العشرين الأخيرة! فعلى هذه التجربة يتوقف مستقبل حياته. كان، وهو يقود أنجيلينا نحو الجهاز، يصلي أو يلعن أحداً ما. كانت شفتاه تتحركان لا إرادياً، وبشرة وجهه الجافة تصبح أكثر شحوباً.

فتح أوتياكين باب الجهاز وساعد ليبيدا في الدخول إلى جوفه.

– ضعي في فمك واقي الشفاه! إنه كجهاز التنفس تحت الماء! هل وجدته؟

سمع صوتاً عميقاً يؤكد أن ليبيدا وجدت ما طلبوا منها أن تعثر عليه.

أغلق ميخائيل فاليريانوفيتش باب حجرة الجهاز، وبصق على أرض المكان المبلطة بصقة كثيفة من دون سبب واضح، ثم أدار مفتاح تشغيل الجهاز.

ارتفع صوت حاد، مديد، كأنه صيحة طير، وبعد خمس عشرة ثانية شعرت أنجيلينا بألم غير معقول، من غير المحتمل أن يكون قد شعر به أي إنسان عاش على سطح الأرض...

# - 11 -

رآها نائمة على السقف، وهو يحوم بقربها على سريرها، كأنه على متن بساط طائر... تملكه الإعجاب والحماسة، فذرف دمعة في السماء، وحين فتحت فجأة عينيها الرائعتين كعيني دمية، قال لها فقط:

– أنا أحبك! كوني زوجتي!...

رفرفت برموشها الملائكية، كأنها فراشة ليلية ترفرف بجناحيها، وتأملت الفتى الذي كان طفلاً، الجالس في تختها. إنه هو من ضرب رومكا المجنون وقهره.

ترى ماذا يفعل هنا في مهجع البنات؟ – سألت ماشينكا نفسها.

أما ليونيد فظل ينتظر جواب محبوبته وجسده كله يرتجف.

– سيقبضون عليك ويعاقبونك! – همست ماشينكا. – اذهب من هنا بسرعة!...

في ردّه عليها مدّ يده من تحت لحافها، متحسساً بكل أصابعه الفضاء الدافئ تحته، شاعراً بقرب الجسد الدافئ الحي من كفه قرباً شديداً.

– ماذا تفعل؟

استدارت عينا ماشينكا، فهي لم تتوقع شيئاً كهذا أبداً، وكانت، ببساطة، مندهشة مما يجري.

بحث ليونيد عن يدها الرطبة قليلاً، وأمسكها وكرّر قوله:

– أنا أحبك! كوني زوجتي!...

هي حاولت بحذر أن تحرر أصابعها من يده، لكن أصابعه كانت كشباك الفخ، كلما ألححت في محاولتك التخلص منها، ازدادت قوة إمساكها بك! أضف إلى ذلك، أن ماشينكا حين سمعت هذا الاعتراف المفاجئ بالحب، الذي كان عقلها الباطن ينتظره منذ كانت في الخامسة، ارتفعت حرارة جسدها كله دفعة واحدة، وانفرجت شفتاها، أما قلبها الصغير فخفق كقلب طائر حرّ صغير مسجون في قفص. صمتت وهي تجهل تماماً بماذا تجيبه، وماذا تفعل...

أما هو، الذي لم يكن قد تعوّد بعد على انقلاب كل شيء رأساً على عقب، الناظر باشتهاء في العتمة إلى تضاريس جسدها، فراح، بكل كيانه، يطالبها بالجواب على اعترافه.

– هل تحبينني؟ – سألها.

أحست ماشينكا فجأة بقوة يديه، وانتابها شعور لم تعرفه من قبل، الأماكن الحساسة في جسد البنت، فقالت له كلاماً غبياً متقطعة الأنفاس.

– أنت ما زلت صغيراً!

بدا، عند سماعه هذه الكلمات المسيئة، كالجريح، شدّ على أصابعه حتى طقطقت، لكنه تمالك نفسه بصعوبة، ثم همس بحرارة:

– أنا لست صغيراً!... أنا – كبير!... وأنت – مجنونة!

أرادت ماشينكا أن تغضب من الإهانة، لكن سلطوية صوت القادم الجديد لامست أوتاراً جديدة في روح البنت لم يسبق أن رنّت في جسدها. أصغت إلى أصوات تلك الأوتار، فوجدت أنها ليست مخيفة في الواقع... بل هي أحاسيس ومشاعر جديدة غير معروفة من قبل، نشأت عندها مع زيارة هذا الفتى الليلية... قالت له فجأة:

– أظن أني أستطيع أن أحبك!

أفلت في الحال أصابعها الهشة من قبضة يده، ومال بجسده نحو السماء، حيث استقر وجهها الشاحب الصغير، مال بنهم وتنفّس بحرارة، وقبل شفتي ماشينكا بحماسة شديدة. قاومته غريزياً، زامة شفتيها بقوة، مدافعة عن قبلتها الأولى. لكن لسانه المتين، الصلب ضغط شفتيها بعدوانية إلى ان حطّم دفاعها في النهاية، ونفذ إلى ما وراء أسنانها السكرية المذاق، غارقاً في حلاوة حياتها البنّاتية. ظلّا يتبادلان القبل حتى طلع الصباح وعلا صخب الحركة خلف ستائر النوافذ.

– اذهب! – همست ماشينكا تطلب منه المغادرة. – سيقبضون عليك!

– هل تقبلين أن تتزوجيني؟ – سألها غير مكترث بتحذيرها.

– أنت مجنون!

– هل تقبلين؟

– لن يعقد قراننا أحد!

– هذه مسؤوليتي!

أواه، كم أحبت هجمته عليها، وثقته بنفسه! لقد رغبت، طبعاً في أن تتوارى على الفور حياة المدرسة الداخلية، وان يحملها هذا الذئب الرمادي الذي نبع من أحلامها، على ظهره، ويمضي

بها إلى حياة أخرى أسطورية، لذلك كانت مستعدة روحياً لقبول دعوته غير المعقولة، فقالت بصوت مسموع:

– أنا موافقة... – شعرت، هي نفسها، بالخوف من جوابها.

لم يفرح كثيراً بكلماتها، فقد بدا أنه كان واثقاً سلفاً من موافقتها، واكتفى بتقبيل صدغها الرقيق، قبلة كبار ثم قال لها:

– لا تخبري أحداً بأي شيء!... أنا سأدبر الأمر كله! غداً، في زمن الفرصة الكبيرة، انتظريني عند الدرج الاحتياطي! هل فهمت؟

أحنت رأسها بالإيجاب، أما هو فنهض في هذه اللحظة، وغادر بخطا ليّنة مهجع البنات. لم يكن ليونيد قد عرف جيداً عالمه الجديد، لذلك لم يسرع خشية أن يؤذي رأسه الذكي...

نام ليونيد قبل موعد الاستيقاظ بساعتين، نوماً هادئاً، يكاد يكون سعيداً أما ماشينكا، فعلى العكس من ذلك، لم تغمض عينيها الجميلتين، وظلت مستيقظة حتى دوّى بوق الطلائع. كانت طول الوقت تفكّر وتفكّر بالحياة الجديدة، التي ستلي التغيرات الجديدة الكبيرة. تخيلت شتى أنواع الوسائد، المعبأة في وجوه مطرّزة من التول، ودباً صغيراً أصلع، ودمعتين تمشيان آلياً، وورقة نقدية بقيمة عشرة روبلات...

لقد ظلت طويلاً لا تفهم لماذا تنظر إليها البنات. كلهن كنّ ينظرن إليها في المغاسل بفضول. لكنها حين نظرت إلى وجهها في المرآة وجدت فيه شفتين متورمتين... حركتهما فشعرت بألم شديد فعلاً كانت شفتاها حمراوين كأنهما صبغتا بأحمر شفاه بعد القبل الليلية.

قالت إحداهن بلؤم:

– لقد رأيتك، رأيتك، سأخبر فيرا فيكتوروفنا بكل شيء!

– هذا لا يهمني، – أجابت ماشينكا دون خوف، لأن ما يفصلها عن بداية الحياة الجديدة ليس أكثر من بضع ساعات. – يا لك من بنت رديئة يا كاترينا!

فتيات كثيرات كن سيحسدن ماشينكا لو لم يكن هذا الولد الجديد صغيراً جداً. من العار أن تتبادل ماينكا القبل مع تلميذ من الصف الأول، لو كان من تلاميذ الصف العاشر، أو من تلاميذ صفها على الأقل، لاختلف الأمر!

انطلاقاً من هذه الأفكار لم يحاول أحد منع كاترينا من تحقيق نيتها السيئة والقيام بفعل الوشاية القبيح، وظلت الفتيات لا مباليات تجاه نذالتها.

مارينا بيتكينا أقرب صديقات ماشينكا، جلست إلى جانبها في درس الرسم وراحت تسألها همساً بإلحاح:

– هل رأيت تلميذ الصف الأول هذا عارياً؟

أربك هذا السؤال ماشينكا قليلاً، حاولت أن تتذكّر واقعة ما من وقائع حياة الصغار... وقد استطاعت فعل ذلك من دون جهد، لأن الصغار لم يكونوا يخجلون أبداً من بطونهم العارية بحكم صغر سنهم، وكان ما يختلف به الصبيان عن البنات شبيهاً بإبريق تخمير الشاي الصغير المصنوع من التوتياء والمدهون باللون الأبيض.

– رأيته – أجابتها همساً، ورسمت صورة قلبها بالألوان المائية على لوح الكرتون.

– وماذا ستفعلين معه؟

– ماذا يجب أن أفعل؟

مارينا بيتكينا ل تكن تعرف شيئاً عن الأفعال التي يمارسها الصبيان والبنات، لكنها كانت تخمّن أن تلك الأفعال التي تجهلها تقتضي أن يكون الصبي أكبر سناً وأكثر خبرة من البنت.

– ماما كانت أكبر بكثير من بابا، لذلك ماتت في وقت مبكر! – قالت مارينا تصف مأساتها كوسيلة إيضاح. – وبابا لم يستطع العيش معي من دون ماما... سيولد لكما طفل و... – هنا تلعثمت البنت، لأن السلسلة المنطقية في كلامها كانت تقود إلى مأساة كمأساتها.

– هل سأموت أنا أيضاً؟

– أظن ذلك...

ماشينكا لم تدرك إدراكاً حقيقياً أنها ستموت في يوم من الأيام، إلا قبل عام. قبل ذلك كانت تنظر إلى الموت كأنه حدث أسطوري لا علاقة له بها مطلقاً. «أحبّا بعضهما بعضاً، وماتا في يوم واحد»!... لكنها استيقظت ذات مرة فجأة في الليل وقد خطرت في بالها فكرة مفادها أنها ستنتهي، وأنها، هي أيضاً، ستموت كأسرتها التي ماتت بكاملها في حادث سير مأساوي. يومذاك عاشت رعباً لا مثيل له، بكت وأجهشت في البكاء خوفاً من الموت القادم، ولم يكن هناك كتف حبيب تستند إليه في تلك اللحظة المخيفة من طفولتها، كتف تدس فيه أنفها مختبئة من الرعب الفظيع!... وها هي ذي الآن تتذكّر متأثرة بكلام مارينا، ما عانته آنذاك، فيرتعش قلبها الصغير. هي لا تريد ابداً أن تموت!.... هي، من حيث المبدأ، ألغت في خلال عام فكرة أنها ستضطر إلى فعل ذلك في يوم ما. أما الآن! الآن هذا مستحيل!...

نفرت الدموع من بين رموش ماشينكا وسقطت على الألوان المائية في لوحاتها، فتمددت ألوان خطوط اللوحة قليلاً، فامتدح إيغور أفاناسيفيتش، مدرس الرسم، البنت لاستخدامها الصحيح للألوان المائية.

– الماء يجعل الألوان المائية حية! – قال موجهاً الكلام للجميع.

– لا تبكي! – همست مارينا بيتكينا في أذنها. – قولي له أنه يجب أن يكبر أولاً!

– حاضر، – وافقتها ماشينكا.

– سنجد لك من هو أكبر سناً! سأعطيك ألوان الظل التي عندي، فيعجب بك أحدهم حالاً في إحدى حفلات الرقص!

– طيّب، – أجابتها ماشينكا مستسلمة.

المهم هو أن تؤخر قدوم الموت!...

جلس ليونيد في المقعد الخلفي إلى جانب الأحمر الذي ظهرت على سحنته بوضوح آثار ضربات البارحة. أصدر رومكا ردّاً على هذه الوقاحة صوتاً كفحيح قط بريّ، لكن القادم الجديد اقترح عليه في الحال اقتراحاً لم يستطع هذا (الأزعر) المتمرس أن يرفضه.

– أنت – فتى ممتاز!– اعترف له ليونيد وهو ينظر إلى عينيه مباشرة نظرة صلبة. – أنت صمدت صمود الرجال! – مدّ يده له وهو يتابع مدحه. – أعترف بأنك من أولئك الذين لا يستسلمون أبداً! أنا أحتاج إلى أمثالك بالضبط. نحن الاثنان – قوة لا يستطيع أحد قهرها!

– وماذا عن فيركا؟!... – قال رومكا بانفعال.– أنت الآن متصالح معها! أما أنا فتكرهني! وتهددني بالمعتقل!...

– أنت تقصد فيرا فيكتوروفنا؟... – سأله ليونيد وهو يكتم ضحكة. – الرجل يستطيع دائماً تسوية الأمر مع أية امرأة! المهم الأسلوب!... اعتمد عليّ! هل أنت صديقي؟

بدا رومكا متردداً وتذكر، وهو ينظر إلى اليد الممدودة لمصافحته، ما حدث البارحة، فأحس بألم في خاصرته. لكن هل من حقك أن ترفض الصداقة. إذا كان من يعرضها عليك هو الطرف الأقوى؟ رمى الصبي شكوكه كلها جانباً، وكما لا يحدث إلا في الطفولة، قبل أن يكون صديقاً لليونيد مدى الحياة. شدّ على اليد المدودة إليه بقوة، ثم وضع يده على كتف ليونيد بوصفه صديقاً له مدى الحياة، مظهراً صدقه وإخلاصه.

اضطر سيفيرتسيف إلى تحمّل هذا التطور غير المتوقع في العلاقة، رغم أن جسده كان ينفر من الاحتكاك العاطفي بأجساد الذكور أمثاله، لكنه كان مضطراً لتحمل ذلك كي يحقق هدفه. وهكذا أرغم نفسه على الابتسام ثم كشف لصديقه الجديد سرّه.

– أنا أنوي الزواج!

– بمن؟ – سأله رومكا مذهولاً. صديقه الجديد، الصديق الأفضل عنده، يدهشه أكثر فأكثر، بنزواته، فكل كلمة يقولها تصدم رأسه كالمطرقة.

– بماشا.

– بأية ماشا؟ – تامل الأحمر بنات صفه وأضاف: – لم تكن في صفنا أية ماشا في أي يوم...

– إنها من الصف الخامس.

– من؟ – حاول رومكا أن يتذكر. – هل تعني ماخاونوفا؟... البنت ذات العينين الشبيهتين بعيني الدمية؟

– هي بالذات.

في هذه اللحظة دخلت إلى الصف مدرسة الرياضيات ذات الساقين المعوجتين فيرا فيكتوروفنا فرأت على الفور القادم الجديد سيفيرتسيف جالساً في المقعد الأخير، معانقاً (أزعر) المدرسة الأول. تغيرت ملامح وجه المعلمة التي لم تخف انزعاجها، وهي تقترب من الصديقين.

– لقد ظننت أنك يا سيفيرتسيف ولد ذكي! – قالت بصوت منخفض. لكنك... استبق ليونيد استنتاجها، وقال بأسلوب يكاد يكون طلائعياً:

– أنا، يا فيرا فيكتوروفنا، أخذت حق الإشراف على رومان! آمل أنه لن يفعل ما يزعجك بعد اليوم!

فيرا فيكتوروفنا كادت تغصّ بكلمة «مجنون» التي لم تقلها لليونيد، بل راحت تنقّل بصرها بين القادم الجديد ورومكا محاولة اكتشاف ما إذا كانا يدبّران أمراً يظهران فيه غباءها.

– قل الصدق يا رومان، – تابع سيفيرتسيف. – هل ستكفّ فعلاً عن (الزعرنة) بعد اليوم؟

كان الصفّ كله ينظر الآن إلى المقعد الخلفي منتظراً من رومكا، الذي وعدت مدرسة الرياضيات أن ترسله إلى معسكر عمل ذي نظام صارم عند بلوغه التاسعة من العمر، جواباً حاسماً، وأمل التلاميذ جميعاً أن يستعرض المجنون الأحمر معرفته لمصطلحات نادرة في معجم الشتائم المقذعة. لكن ما حدث كان معجزة. في البداية اخضرّ وجه رومكا المجنون، ثم اصطبغ بالحمرة، وحين بلغ حدّاً غير معقول من الشحوب، أجاب إجابة غير متوقعة:

– نعم يا فيرا فيكتورفنا، أنا لن أشاغب بعد اليوم! – قال لها ثم همس منحياً وجهه جانباً: – أيتها الذبابة القحبة...

بدت كلماته كثغاء حمل لطيف، الأمر الذي أفقد مدرسة الرياضيات توازنها الروحي، فتجرأت حتى على مداعبة خِصلات شعر رومكا الحمراء بأصابعها، وتجعّد وجهها بابتسامة.

تنهد الصف مكتئباً، فبدلاً من حدوث أمر خارق، سمع ردّاً عادياً – وبدأ الدرس.

– كيف فعلت بي هذا؟ – همس رومكا الذي احتفظ وجهه بشحوبه. – أنا أفقد سمعتي! أسقط إلى ما تحت الصفر!...

– ستستردها، – قال ليونيد يشجعه.– يمكنك أن تحصل بالحيلة على ما هو أكثر بكثير مما تحصل عليه بالمواجهة المباشرة!... نحن سنحاسب... هذه الخالة... سنحاسبها بالتأكيد! صدّقني، إنها ستندم طويلاً على تدخلها في أمر صداقتنا!

– أتعدني بذلك؟ – سأل رومكا وقد بدا عليه الانتعاش واضحاً، وهو يرى في صديقه، في كلمات صديقه، ثقة وقوة غير عادية.

– أعدك...

– نضربها بقرميدة على الرأس! – اقترح المجنون.

– بل ندخل نملة في أذنها...

جعل هذا الاقتراح رومكا يفكر عميقاً بجوهر الأشياء. أدرك أنه وجد في شخص ليونيد قائداً صامداً. نملة في الأذن – اقتراح جادّ! إنه ليس ساذجاً كرشّ وجه الخصم بمسحوق تنظيف الأسنان!

بعد أن أدهش ليونيد فيرا فيكتوروفنا بمعرفته جدول الضرب، الذي سرده أمامها في دقيقة، أجاب رومكا عن سؤاله – «متى ستتزوج»؟

– اليوم، – قال له همساً.

– ولماذا؟ – انفلت السؤال من بين شفتي الأحمر، لكنه اتخذ في الحال مظهراً يوحي بأنه لا ينتظر جواباً على سؤاله الغبي.

ومع ذلك أجابه ليونيد بصدق:

– لأني أريد ذلك!

– وهل يستطيع الإنسان أن يتزوج في السابعة؟

– ومن هنا في سن السابعة؟

– أنا، – اعترف رومكا، هل أنت في الثامنة؟

– أنا – في الخامسة عشرة.

نطق ليونيد ذلك بلهجة عادية ومن دون اهتمام، فجعل هذا رومكا يصدق ما قاله تقريباً. صحيح أن بعض الشك ظلّ يراوده، لكنه صدّق كلام ليونيد من حيث المبدأ، وراح ينتظر توضيحاً لما قاله:

– أنا – إنسان قصير القامة، أنمو ببطء.

– فهمت... لكن لماذا أنت في الصف الأول؟

– لأني كنت أعرف أني سأجد هنا صديقاً.

اصطبغ وجه رومكا بحمرة كثيفة، فكسب صديق في الخامسة عشرة أمر لا يستهان به!

– وإذن، أنت قزم؟

– أنا لست قزماً!... أنا من قصار القامة. قصار القامة أناس صغيرو الحجم، لكنهم شعب فخور بنفسه!

بعد ذلك أخبر ليونيد رومكا أنه سيتزوج ماشينكا ماخاونوفا وسيغادر المدرسة الداخلية فوراً ليعيش حياة مستقلة. لكن سيفيرتسيف لم ينس أن يعد رومكا بزيارة، فهو ليس من النوع الذي يتخلى عن أصدقائه!

– آ– ها، – تمتم رومكا الأحمر وفي صوته رعشة بكاء، فهو ما إن حظي بصديق، حتى وجد نفسه يستعد لفراقه فراقاً يطول أمده. – هل حقاً ستعود لتأخذني؟...

رنّ جرس الفرصة الكبيرة، فمشى ليونيد بخطا ثابتة نحو الدرج الاحتياطي. مشى لكي يلقى فضاءه الصغير، فيخترقه بصاروخ بالغ الصغر، يمزقه، محوّلاً الكون إلى ثقب أسود.

هي جاءت، على كل حال، رغم تحذيرات صديقتها، وخوفها الفظيع من الموت. لقد أرادت ماشينكا أن تقول للصبي الصغير أن الناس في أحيان كثيرة يمارسون في الليل أعمالاً غبية ويقولون ما يجب ألّا يقولوه، وقررت أن تقترح على القادم الجديد صداقتها القلبية، وراحت، بعد هذا القرار، تنتظر باطمئنان قدوم تلميذ الصف الأول.

جاء، يكاد لا يصل حتى كتفها طولاً. ضحكت في سرها من كونها فكّرت بالزواج منه.

– مرحباً يا ليونيتشكا! – رحبت به بلهجة متعالية نوعاً ما. – أنا...

أرادت ماشينكا أن تقول له مباشرة كل ما فكّرت به، لكنها اصطدمت بالنظرة القاسية لهذا الفتى الغريب الأطوار. شعرت كما لو أنها تلقت صفعة على خدها. علقت في حلقها الكلمات التي

حضرتها، فوقفت، كأنها دمية بلا عقل، فاتحة عينيها على اتساعهما، فاغرة فمها.

– ماذا بك، – سألها الصبي بلهجة متعالية. – هل غيرت رأيك؟

– أنا...

– هل تعرفين أن قصار القامة لا يغفرون الخيانة؟

– ماذا تقول؟ – ازداد اتساع عيني ماشينكا دهشة. – هل أنت من قصار القامة؟

– وهل ظننت أن عمري سبع سنوات، وأني أريد الزواج بك وأنا في هذا العمر؟... نعم، أنا من قصار القامة. لكنني أنمو، إنما ببطء! إن عمري خمسة عشر عاماً!

– ولماذا أنت في الصف الأول؟

– لقد جئت من أجلك! قصار القامة ماهرون في الحب!

كل ما كان في رأس ماشينكا الصغير، كل البنى المنطقية المتعلقة بالموت والزوج الأصغر سناً، والشكوك حول استحالة تحقق الأسطورة في الحياة، كل ذلك تبدد في لحظة. إنها الآن تقف من جديد أمام ليونيد كأنها الفتاة ذات القبعة الحمراء تقف أما الذئب الرمادي، الذي كان عليه أن يأتي حتماً ليأخذها!

– أنا لن أخونك! – همست ماشينكا وهي تضع يدها على صدرها في حركة ترجوه بها أن يصدقها.– أنا موافقة!

– اليوم، إذن!

– نعم، نعم، طبعاً، – قالت وهي تهز رأسها بالإيجاب، لكنها سألت بعد ذلك: – ماذا سيحدث اليوم؟

– سأتزوجك... – اقترب من عروسه حتى التصق بها، مدّ يده إلى رأسها، كأنه يريد أن يمسّد شعرها، غير أنه اكتفى بنزع بكلة طويلة من بكلاته. – مساء، بعد النزهة المسائية، انتظريني قرب الثغرة التي في الجدار! مفهوم؟...

أحنت رأسها وتمتمت في خضوع.

– نعم.

تسلل ليونيد بعد الدروس إلى غرفة المعلمين الفارغة بسبب اجتماعهم العام عند المدير، جمع كل ما في حقائبهم من نقود، وأخذ من أحداها المفاتيح، ثم توجه إلى غرفة أمين السر، التي حوت خزانة كبيرة غير قابلة للاحتراق. فتح الصبي بمساعدة بكلة شعر ماشينكا، الخزانة الحديدية بمهارة، وأخذ منها كمية كبيرة من النقود مكدسة في رزمة ثخينة مربوطة بحزام مطاطي...

في حوش المدرسة لم يلعب مع أحد في أثناء النزهة الليلية، محافظاً على النقود التي في جيبه، وحين أراد رومكا، صديقه، الاقتراب منه، رسم على وجهه علائم تحذير جعلت رومكا يغير خطته في الحال، فيستدير مئة وثمانين درجة، ويركض ليشارك الأولاد الآخرين في لعب كرة القدم.

كل شيء في الواقع استعدّ لاستقبال المساء. علا صوت بوق الطلائع داعياً التلاميذ لطعام العشاء، فامتد طابور الشعب نحو قاعة الطعام، ما عدا اثنين من بين المئتي يتيم، قررا البقاء جائعين كي يحصلا على السعادة بدلاً من الطعام.

ركضا عبر الحرج الصغير، يمسك كل منهما بيد الآخر. بدا كأن الأفكار قد تجمدت في رأس ماشينكا، فهي لم تكن تفكر بشيء، كانت، ببساطة، تطيع هذا القصير القامة، المفترس المحنّك، القزم الرهيب الذي دخل حياتها عنوة... أما ليونيد فقبل أن يخرجا من الحرج إلى الطريق العام، أخرج من جيبه سكيناً مثلّمة صغيرة، وقص من شعر ماشينكا خصلة معقودة بشريطة، وتركها قرب شجرة صنوبر بري... بعد ذلك استقلّا الباص باتجاه موسكو. هما، بالمناسبة، اضطرا، بسبب نظرات الركاب الفضولية، إلى النزول من الحافلة قبل الوصول إلى الطريق الدائرية بمحطتين، وظلا طويلاً يحاولان التقاط سيارة عابرة.

كان بعض السائقين يبتسم لدى سماعه نداء الفتيين، من دون أن يتوقف أو يبطئ سيره، وبعضهم كان يصرخ من نافذة سيارته: «التنزه حتى هذا الوقت المتأخر ممنوع»، لكن أحدهم توقف بسيارته من طراز «موسكوفيتش – أربعمئة وواحد»، وسألهما:

– ماذا تريدان؟

– نحن، أيها الرفيق، نريد الوصول إلى مركز المدينة.

– ثلاثة روبلات.

– موافق.

انطلقت بهما السيارة صامتين. كان ليونيد يمسك بقوة يد ماشينكا الباردة كالثلج، أما السائق فراح ينظر إليهما بين وقت وآخر، في المرآة.

– هل أنتما هاربان من البيت؟ – سألهما.

– تعال يوم الأحد إلى السيرك! – قال ليونيد فجأة لسائق التاكسي غير المرخص. – نحن من فرقة قصيري القامة. السيرك في بولفار «تسفيتنويه»، هل تعرفه؟

– ماذا؟

– نحن نقدم «نمرة» في البرنامج. إيكفيليبر، هل تعرف...

ابتهج السائق فجأة، شيء ما غائم، معروف، طفا في عقله. قصار القامة، طبعاً! السيرك!... لقد شاهد في طفولته أشخاصاً صغار الحجم بلباس السباحة في الصيف. إنهم كالأطفال تماماً!

– هل الرفيق نيكولين ما زال يعمل؟ – سأل السائق غير المرخص مبتسماً.

– يورا؟... الذي يشترك في المعرض مع شويدين. لا بأس بالاثنين. (النمرة) التي نستخدم فيها عصا التوازن جيدة!

– وهل تقومان بالقفز و (الشقلبة)؟

– ولم لا؟... سنفعل أليس كذلك يا ماشينكا؟

لم تستطع البنت أن تنطق بشيء سوى «آ – ها» مخنوقة.

ما أشد شبه هؤلاء القصار القامة بالأطفال، – قال السائق مبتسماً.

– هل أستطيع القدوم يوم الأحد؟ – سألهما.

– ادخل من باب الخدمة، واطلبني، سآتي أليك!

– لكن قل لي ما اسمك؟

– سيفيرتسيف... ليونيد بافلوفيتش!

– أما أنا فاسمي جيجكين. يمكنك تناديني ببساطة «فاليرا».

– مفهوم.

كان ليونيد يتكمل ببساطة مدهشة. يكذب بطلاقة كأنه يقول الحقيقة، بل قد يكون ما يقوله حقيقة، لكن من الجزء الذي تجهله ماشينكا من حياته. أما ماشينكا فازداد هدوءها وهي تنظر بعينين معجبتين إلى عريسها، وترى كيف يتحدث إلى الكبار بيسر! يدها المتجمدة برداً ذاب جليدها في يده، وتعرّقت قليلاً بسبب الانفعال البهيج.

– أهي زوجتك؟ – سأله السائق غير المرخص.

أحنى رأسه بالإيجاب قائلاً:

– ماريا، زوجتي.

دارت السيارة الـ «موسكوفيتش» حول تمثال دزرجينسكي. ورأت ماشينكا عبر نافذة السيارة مخزن «عالم الأطفال» المغمور بالأنوار، فأرادت أن تزور هذا المخزن الكبير فوراً، لكنها كبتت رغبتها وحاولت أن تملأ رأسها بأفكار جادة عن الحياة العائلية التي تنتظرها، فوقت شراء الدمى واللعب معها قد فات!...

– هل نذهب إلى السيرك؟

– لا، – قال ليونيد. – خذنا، من فضلك، إلى الكنيسة التي خلف اتحاد الموسيقيين!

– فهمت...

صرّت مكابح الـ «موسكوفيتش»، وهبطت في يد فاليرا ورقة نقدية زرقاء بقيمة عشرة روبلات.

– ليس عندي «فكّة» كي أرد...

– لا داعي لذلك! شكراً لك.

خرج ليونيد من السيارة ومد يده لماشينكا.

ابتعد السائق عن الرصيف، لكنه ظل ينظر من فوق كتفه إليهما وهو يفكّر بعجائب الطبيعة.

إنهما كالأطفال حقاً! كصبي وبنت صغيرة حقيقيين!

كانت الكنيسة خالية تقريباً. الوقت يكاد يكون ليلاً، وليس في الكنيسة سوى عجوزين راحتا تنفخان بعزم في أنبوبين تطفئان بهما الشموع المشتعلة فتصدر هسيساً.

– ماذا تريدان أيها الولدان؟ – سألتهما إحداهما. كان مظهر العجوز ينم على الطيبة: وجهها كان نظيفاً، ويغطي رأسها منديل أبيض.

– نحن لسنا ولدين، – أجاب ليونيد.

– نحن من قصار القامة، أضافت ماشينكا، الأمر الذي أبهج حتى الأعماق روح من سيكون زوجها.

رسم ليونيد على زاوية فمه وهو يكتشف أنه اختار زوجته اختياراً صحيحاً.

رسمت العجوز شارة الصليب على صدرها.

– غفرانك يا ربي!

– نادي أبانا!

– إنه يستعد للذهاب إلى بيته! وزوجته تنتظره في باحة الكنيسة!

– استدعيه، الأمر ضروري جداً!

– أرجوك، – قالت لها ماشينكا وهي ترفرف برموشها!

تراجعت العجوز خطوة، وهي تفكّر: ترى من يكون قصار القامة؟ هي سمعت بالأقزام، بل رأت أحدهم، لقد كان قصير اليدين، معوجّ الساقين، ضئيل الجسم، لكن رأسه كان كبيراً جداً. وقد كان ذلك المشوه يبيع السمك المملح في الساحة... أما قصار القامة...

أبونا الخوري كان مثقفاً إلى حد ما، وقد سمع بوجود قصار القامة، لذا خرج إليهما وهو يبتسم مرحباً، محاولاً ألّا يظهر فضوله.

لقد ظن كالسائق فاليرا أن قصيري القامة اللذين يريدان مقابلته يشبهان الأطفال تماماً.

– مرحباً، – حياهما وهو يتخيل نفسه الكاتب «جولفيرن».

– إيفان صمويلوفيتش.

– سررنا بمعرفتك يا أبانا، – أجابه ليونيد. – أنا ليونيد بافلوفيتش. وهذه ماريا.

– مرحباً...

– ما الذي جاء بكما في هذه الساعة المتأخرة؟

– الحب يا أبتِ، – قال ليونيد بصوت خافت.

– هذا خبر سار، يسرني أن أسمع ذلك... قلائل من يأتون إلى الكنيسة بدافع الحب في هذه الأيام! قلائل...

– زوجنا يا أبتِ!

طلب ليونيد ذلك بلهجة آمرة تقريباً، خرج الطلب من بين شفتيه كالطلقة، وهذا ما جعل إيفان صمويلوفيتش يرتجف من وقع المفاجأة ويطرح سؤالاً غبياً بدلاً من الجواب:

– هل أنتما برافوسلافيان؟

– وهل تظننا من ملة أخرى لأننا قصيرا القامة؟

اختلطت الأمور قليلاً في رأس ليونيد بسبب البريق الفضي لصور وجوه الأيقونات الناظرة إلى الأرض، والصلبان الناظرة إلى الأعماق، والشموع المتصاعد ضوءها نحو السماء! لقد أحس أنه يقف مع ماشينكا بين الغيوم، لأنه أضاف. – نحن قريبون من السماء يا أبتِ!

قد يكون الأب فكّر بالموت، فالشيطان وحده يفهم هؤلاء القصار القامة! استاء كثيراً من طلب عقد القران، وشعر بوهن في ساقه.

– العرسان لا يتكللون مساء! – قال خادم الكنيسة محاولاً التملّص.

– لماذا؟ – دهش ليونيد.

– ليس مسموحاً بذلك.

– من الذي يمنع؟ أهو الرب؟

– القانون.

– قانون من؟ – تابع ليونيد الاستفسار.

– وما الذي يدفعك إلى عقد قرانك ليلاً؟ – قال الأب بلهجة شاكية. – كل ما هو نظيف يجب أن يتم صباحاً!

– هذا رأيك أنت يا إيفان صمويلوفيتش! أنا لم أقرأ هذا ولم أسمع به! هو غير موجود في الكتاب المقدس، أو في المصادر الحديثة!

هنا اهتدى ايفان صمويلوفيتش إلى فكرة تنقذه:

– هل سجّلت زواجك في مكتب الأحوال الشخصية؟

– نحن لسنا بحاجة إلى مكتب الأحوال الشخصية. من المستحسن أن يسجلوك في هذا المكتب حين تولد، وحين تموت! حتى هذا يتم من أجل إحصائية إشغال الشقق.

تنهّد إيفان صمويلوفيتش مرتاحاً وبسط ذراعيه قائلاً:

– يسرني أن أفعل ذلك، لكن القانون لا يسمح بفعله! الكنيسة مفصولة عن الدولة، لذلك هي تخضع للقوانين حقوقياً، ولا بد، في البداية، من تسجيل العلاقة الزوجية في المؤسسة الحكومية أولاً، وبعد ذلك سأقوم بتكليلكما بكل سرور!

أدار الخوري ظهره للزائرين الليليين وأراد الاختفاء بسرعة خلف المذبح.

علقت دمعتان في عيني ماشينكا، على رموشها الطويلة المنحنية إلى أعلى، – إلى أين تذهب يا أبانا! – نادى ليونيد القس الهارب: – ما قولك في قانون الرب؟ هل تضعه في مرتبة أدنى من قانون الدولة؟

– إن هذين القانونين متوازيان ولا يتقاطعان في أية نقطة!

كاد باب المذبح ينغلق ويختفي إيفان صمويلوفيتش خلفه، حين طرح ليونيد حجته الأقوى:

– ألف روبل يا أبانا، مقابل عقد قراننا.

جمد ظهرُ القس الذي كان ينزلق خلف المذبح في فتحة الباب!

– ومئتا روبل إضافية إلى الألف إذا أسرعت في ذلك! – أضاف ليونيد ليعزز حجته.

في الثانية التالية رأى ليونيد وماشينكا وجه أبينا المبتسم بود، وقد تجسد فيه كل ما في الكون من خير. انفتحت روح إيفان صمويلوفيتش على مصراعيها أمام الصغيرين العاشقين، مظهرة كل ما فيها من رقة.

– لا فرق بين الليل والنهار! – قال القس بصوت يكاد يكون غناء. – إنهما مجرد علامتين على تعاقب الزمن! لا فرق بين النقش والكتابة على وجه العملة!

– أنت شاعر يا أبتِ!

– وقانون الدولة ليس ملزماً للـ ....!

– ليت الجميع يرون الأمر كما تراه!...

بدأت عملية عقد القران على الفور. لم يلتزموا الدقة في تطبيق الطقوس فجعلوا المرأتين العجوزين تحلان محل الإشبينين!

– يتكلل عبد الرب ليونيد زوجاً لعبدة الرب ماريا... – أعلن الأب بصوت عذب من طبقة (التينور).

– هليلويا – يا! – أنشدت العجوزان بصوت رفيع.

– هل أنت موافق في السرّاء والضراء!...

– موافق! – أجاب ليونيد بلهجة صلبة.

– هل أنت موافق – ة... يا ماريـ...ا؟

– موافـ..قـ..ـة! أجابت ماريا فجأة وهي تحت الإكليل.

– ... أعلنكما زوجاً وزوجة!...

بعد ذلك انضمت العجوزان بالتهنئة إلى الأب الذي راح يوقع بخط عريض وثيقة الزواج.

– حسناً أيها العروسان، أنتما الآن برعاية العليّ القدير!

أخرج ليونيد من جيب بنطاله رزمة النقود المسروقة وعدّ منها المبلغ الموعود.

كان عليّ أن أساوم، قال أبونا في سره، لكن العريس القصير القامة، اقترب في هذه اللحظة من إيفان صمويلوفيتش وهو يقف على رؤوس أصابعه، وراح يهمس طويلاً في أذنه بكلام ما، ثم قال بصوت مسموع:

– وأنت نفسك تفهم أننا لا نستطيع فعل ذلك في السيرك!

انتقلت من يد ليونيد إلى جيب رداء الخوري مئة روبل إضافية.

– لا مشكلة في ذلك!... – قال خادم الرب واستجاب فوراً. – سيرافيما إيلينيتشنا!

– نعم يا أبتِ! – ردّت العجوز ذات المنديل الأبيض.

– أنت عندك غرفتان صغيرتان أليس كذلك؟

– نعم، اثنتان، – أيّدته العجوز. – ومطبخ متواضع واسع...

– خذي الشابين ليبيتا عندك!... ولك الثواب!

– أهلاً وسهلاً، – وافقته العجوز. – أنا أعيش غير بعيد، في شارع غيرتسين، الذي كان من قبل شارع نيكيتسكايا!...

في شقة سيرافيما إيلينيتشنا كانت تفوح رائحة القِدَم ورائحة قطة.

أظهرت العجوز روحاً طيبة جداً، فأعدّت بسرعة في هذا الوقت المتأخر من الليل مائدة احتفال بالعروسين – مرتديلا، وجبن، وعلبة سردين، ونصف زجاجة من عنبرية الخوخ.

وأخبرتهما الجدة الطيبة أنهم قدّموا لها في يوم عرسها زجاجة من هذه العنبرية نفسها.

– لكن زوجي إيفان إيفانيتش كان يفضل الفودكا، التي بسببها، كان مريض قلب!... مات بنوبة قلبية! يا حسرة! – قالت سيرافيما إيلينيتشنا بصوت ضعيف، وراحت تنظر بحنان إلى قصيري القامة وهما يتبادلان القبل كلأطفال الصغار.

بعد ذلك أغفت العجوز هنا، وهي جالسة إلى المائدة. رأسها الذي حمل حياتها الطويلة انحنى مسنداً ذقنها إلى صدرها...

أمسك ليونيد بيد ماشينكا، واقتاد زوجته إلى الغرفة المجاورة، إلى مضجع العروسين – سرير حديدي كبير تزين قوائمه طابات لماعة، وعلى شبكته الحديدية فراش من الريش، فوقه وسائد كثيرة مطرزة بأشكال شتى من الدانتيل.

هنا، وفي الدقيقة الحاسمة التي يقال إنها، تتوج طقوس الزواج، حيث يكافأ الجسد لالتزامه بالقانون الأسمى، بحلاوة يجب أن يستمتع بها العروسان. لم يشعر الشابان بأية حلاوة... فموعد نضج الجسد لم يحن بعد، بل إن جسديهما لم يستجيبا لشيء.

إن كل شيء سيأتي في موعده سواء استعجلت الطبيعة أم لم تستعجلها!...

لقد بدا كل شيء مختلفاً عما كان عليه في مهجع البنات في المدرسة الداخلية. لم يكن هناك إحساس بلمسات اليد، ولم تكن هناك قبل بالسر.

كان ليونيد يقبلها علناً، كان أيضاً يضغط جسدها بيديه، لكن ماشينكا لم تكن تشعر بأية أحاسيس مهمة، بل كانت تحاول أن تدركها بعقلها.

طلب منها أن تتعرى.

– لماذا؟ سألته وهي ترفرف بجفونها كالفراشات.

– أنت زوجتي، – همس في أذنها ليونيد.

ماشينكا سمعت، طبعاً أحاديث عن ليلة الزواج الأولى، لكنها لم تتخيل أبداً أنها ستتعرى فيها. لقد تصورت أنها ستكون في ليلة الزفاف بقميص نوم طويل حتى الكعبين، مزين بالخرز، ولم تفكر بما هو أبعد من ذلك... هي أبداً لم تتصور أنها ستكون في تلك الليلة... عارية...

– هيا! – قال لها الزوج يستعجلها.

في هذه اللحظة شعرت ماشينكا كأن غمامة انقشعت عن عينيها.

– يا أمي، يا غالية، صرخت روحها خائفة، أين أنا؟ كيف حدث هذا كله؟... يا إلهي كم أنا خائفة، يا ماما!

أبونا المحتال والصبي القصير القامة الذي صار زوجها، – كل ذلك أخافها إلى حد الإغماء تقريباً! وأرادت فجأة أن تجد نفسها في سريرها في المدرسة الداخلية، وأن تنسى كل شيء كأنه حلم مزعج.

بكت البنت، أما هو، ليونيد، ذئب قلبها الرمادي، العالم النفسي بشكوك البنات، فصار فجأة رقيقاً فوق العادة... كفّ فجأة عن عض شفتيها بشره، في قبل شهوانية، وترك يدها وهو يقول شارد الذهن تقريباً:

– أنا أحبك!

أغلب الظن أنه لو كان ستانيسلافسكي إلى جانبه لصاح قائلاً – «أصدقك!» ولقبل على الفور ليونيد سيفيرتسيف في فرقة مسرح موسكو الدرامي «م. خ. آ. ت» ولمنحه لقب «فنان الشعب السوفييتي».

أما ما يمكن أن يقال عن ماشينكا فهو أنها حرمت حتى سن الثانية عشرة من كل حنان، ولم يحببها أحد منذ زمن بعيد، وإذا كان هناك من داعب وجودها بكلمة، فهو والداها اللذان ماتا منذ سنوات، لذلك هي الآن، بعد كلمات الحب التي صارت فجأة مفتاحاً لروحها، انفتحت كلها للزوج الراغب في دخولها، ناسية الفزع الذي انتابها قبل قليل، وسألته:

– هل التعري ضروري؟

– آ – ها، – قال بلهجة تأكيد.

شرعت تتعرى ببطء، تخلع بعناية كل قطعة من ملابسها وتعلقها على ظهر الكرسي، إلى أن صارت عارية تماماً، تنقل قدميها الحافيتين واحدة بعد أخرى على أرض الغرفة الباردة المضاءة في الوقت نفسه، بنور القمر، وأشعة الشمس التي بدأت تشرق.

كان جسد ماشينكا كله يرتجف وقد ضمت ساقيها بركبتيها الناحلتين، وراحت تنظر إلى زوجها.

هو أيضاً صار يتأملها مندهشاً من نحول كتفيها، وصدرها الشبيه بصدور الأطفال، وثدييها الأكبر قليلاً من صدور الصبيان.

تأمل طويلاً أضلاع البنت النافرة تحت الجلد المغطى بموجات ارتعاش كبيرة، وبطنها المحدب قليلاً، وقد توضعت تحته خاصتها الأنثوية، التي بدت كأنها لطفلة وليدة، ليس فيها ما يحرك

غريزته الذكورية.

– أديري لي ظهرك! – طلب منها وهو يشعر كيف تنطفئ في داخله اندفاعة رائد للفضاء الذي يهمّ بالانطلاق لاكتشاف الفضاء.

استدارت فأظهرت كبرهان على انعدام أنوثتها مؤخرة صغيرة يشوبها ازرقاق، ولوحي كتفين بارزين على ظهرها كجناحي صوص.

بوابة دخولي إلى فضائي ليست جاهزة للفتح بعد، – قال ليونيد في سره، وفي داخله حزن فلسفي.

نزع ملابسه بسرعة، فبدا، هو نفسه، كطفل وليد في أسفل بطنه بدلاً من الصاروخ الحقيقي، أنف إبريق صغير لتخمير الشاي، فاندس سريعاً تحت اللحاف الدافئ وأغفى على الفور.

أما هي التي تركت عارية، فظلت تنتظر شيئاً ما، حتى جمّدها البرد، بعد ذلك استدارت فرأته نائماً، ذهلت في البداية من لؤمه أو من شيء ما آخر، لكن ماشينكا شعرت، بعد لحظة، بالامتنان لزوجها القصير القامة، من دون أن تعرف، هي نفسها، سبباً لذلك.

ارتدت سروالها الداخلي، واندست تحت اللحاف المشترك بحذر كي لا توقظه، وأغفت راقدة على طرف الفراش، خفيفة كريشة، ونقية كزهرة.

استيقظا في الصباح في وقت واحد، وتبادلا قبلة ببساطة وفرح. كان ليونيد هادئاً بغض النظر عما اكتشفه البارحة. لقد كان يعرف أن الوقت سيحين، وسينفتح الكون أمامه بسخاء ملكي، أما الآن، فهو يحب ماشينكا متوقعاً تفتّحها زهرة في المستقبل، متلذذاً برائحة حساء الشعيرية التي تفوح من جسدها.

– أنا أحبك! – قال لها بلهجة تأكيد.

– وأنا أحبك أيضاً! – أجابته ماشينكا بفرح.

لقد كانا سعيدين بهذا الحب الأفلاطوني سعادة فوق العادة، سعادة اغرورقت لها عيونهما بالدموع، وأحسا بطعم الدم على شفاههما!...

بعد ذلك أكلا بنهم البيض المقلي الذي حضرته لهما الجدة سيرافيما.

الجدة الباسمة، النضرة، التي غسلت وجهها بالماء المقدس بشارة الصليب، قلت لهما البيض مع النقانق والبطاطا، وزينت الطبق ببصل أخضر ينمو عندها على حافة النافذة في قطرميز صغير.

– أظنكما تفضلان القهوة؟ – سألتهما الجدة. – هاكما، إذن، القهوة!

لم يكن ما قدمته لهما قهوة، بل شراب «ليتو» بطعم القهوة، مع السكّرين، ممزوجاً بالحليب، ومحلى بثلاث قطع من السكر السريع الذوبان، وقد وجداه شراباً لذيذاً لذة غير عادية.

لقد كان أول صباح في حياتهما المشتركة صباحاً رائعاً ومدهشاً. نظرا من شبّاك غرفة سيرافيما إلى الشمس، وإلى أشعتها المتدحرجة فوق القباب الذهبية للكنائس الصغيرة، ثم، حين هطلت فجأة زخات قصيرة من المطر، وضعا أيديهما تحت جداول المطر الدافئ، ورشقا بعضهما بعضاً بالماء النقي الذي تفوح منه رائحة الكهرباء، وتبادلا الابتسام طويلاً حتى تألمت خدودهما...

بعد ذلك خرجا راكضين من بيت سيرافيما، وتمشيا طول النهار في موسكو.

في الحديقة العامة راح العرسان يبددان نقودهما بحماسة طفلية، أنفقا كمية كبيرة من المال على الألعاب، ركبا في الدوّامات، والأراجيح، ومارسا الرماية، واستقلا قارباً وراحا يطاردان الإوزات، وأكلا لحماً مشوياً صلباً كنعل الحذاء، أتبعاه بحلوى مرشوشة بالسكر المطحون، وشربا بحراً من المياه الغازية الممزوجة بشراب ثلاثي التكثيف... كان ذلك كله يسمى سعادة! وقد امتلأ قلباهما بتلك السعادة!...

قبيل المساء حملهما الدولاب الدوّار إلى السماء، فتبادلا قبلة تحت الغيوم تقريباً؛ لقد أنهكهما تماماً هذا النهار الذي لا ينتهي. كانت الشمس تحاول أن تختفي وراء البيوت على (كورنيش) فرونزه، لكن الدولاب كان يلحق بها ليودعها، حتى ليونيد حاول ذلك، فوقف في الحجرة التي كانا يجلسان فيها، فأخاف ذلك ماشينكا.

– حاذر أن تقع! – قالت وهي تشد بنطال زوجها.

أما هو فشعر فجأة، حين بلغ الدولاب ذروة ارتفاعه، بخفة غير عادية في كل أعضائه، كأن جسده فد وزنه. وقد عزا ليونيد ذلك إلى فرط سعادته، لكنه حين نظر إلى أرضية الحجرة، وإلى ساقيه، رأى أن قدميه المنتعلتين صندلاً، لا تلامسان الأرضية أبداً، وبدا له أنه يطير على ارتفاع ثلاثة سنتيمترات، رأسه إلى أسفل، وساقاه متجهتان إلى السماء.

أنا أستطيع الطيران، – قال الصبي في سره.

بقي ليونيد لا مبالياً تماماً تجاه هذا الاكتشاف، كأن أحدهم أخبره منذ زمن بعيد بكل إمكاناته الرائعة التي ستتكشف له في حياته...

لكن الأمر الأهم هو أن الصبي يعرف منذ كان في رحم الأم أن حالته اليوم، وإحساسه بالحياة البشرية مجرّد مقدمة لشكل آخر من الوعي، لا يستطيع العقل البشري تخمينه، وأن شعور السعادة الذي يملأ صدره الآن ليس إلا رذاذ الطاقة الكونية – غاز مخدّراً يخفي واقعاً عظيماً!... يا إلهي ما ألذ هذا الخدر!...

انقطع طيرانه فجأة ولامست قدماه أرضية الحجرة، وفي الوقت نفسه انفجر شيء ما في رأسه، ودار الفضاء أمام عينيه، وحين توقف اتخذ كل شيء في العالم مكانه السابق. السماء صارت

فوق رأسه، والأرض تحت قدميه.

– اجلس من فضلك، – رجته ماشينكا التي لم تلحظ طيرانه.

جلس ليونيد على المقعد الخشبي، ونظر إلى الفتاة التي اختارها، باحثاً في عينيها عن قلقها الحقيقي عليه، فذلك القلق هو ما جعله ممتناً لها ومتأثراً... ما أروعها بهذا الشكل! وليس بالشكل المقلوب رأساً على عقب!...

تعانقا وقبّل شفتيها الطفليتين مكرراً:

– أحبك!...

بعد ذلك اشتريا الكثير من الطعام في مخزن سمولينسك؛ مرتديلا، وأجباناً، وسمكاً أحمر، وأبيض، وحملا كل ذلك إلى بيت سيرافيما.

احتفلا طول المساء وشربا عنبرية الخوخ بعد الطعام الدسم!... ثم تمددا على الفراش المحشو بالريش للنوم وقد ضم كل منهما جسد الآخر بشدة...

هي نامت سعيدة...

في بداية الساعة الثالثة ليلاً نهض ليونيد من الفراش مسرعاً، ارتدى ثيابه على عجل، وخرج من بيت سيرافيما. التقط في شارع كالينين سيارة أجرة خاصة تعمل كسيارة أجرة غير مرخصة، وذهب في اتجاه مجهول...

غاب ساعتين بالضبط، وفي أوائل الساعة الرابعة كان يستنشق من جديد رائحة شعر ماشينكا...

رومكا المجنون استيقظ بمزاج سيئ. كان هذا، في الواقع، استيقاظه الثاني في حالة نفسية سيئة. وقد عزا ذلك، هو الذي لم يعتد أبداً على تحليل حالته النفسية، إلى درس الرياضيات القادم، والأدق، إلى الالتقاء بفيرا فيكتوروفنا التي ضربته يوم أمس في دورة المياه بمنشفة مبللة في رأسها عقدة، ضرباً مبرحاً طال جسده كله... والأمر الأهم أنها فعلت ذلك من دون مسوغ!... لم تكن لرومكا أية علاقة بسرقة النقود من غرفة المعلمين، ناهيك عن السرقة من الخزانة... لكن فيركا راحت تصرخ أنه هو السارق بالاشتراك مع التلميذ الجديد لذي اختفى ليلاً.

– أين سيفيرتسيف؟!! – راحت مدرسة الرياضيات المعوجة الساقين تصرخ بقوة فائقة وهي تلوح بالمنشفة. – أين خبأتما النقود!...

– لا يحق لك أن تضربي! – كان رومكا يصرخ في ردّه عليها.

– أين النقود! أين النقود!!! أين ماخاونوفا؟!!!

– أنا لا أعـ ر – ف!!! – يجأر الفتى الذي آلمه الضرب.

– آه منك، أيها الوغد!!!

جرّت فيركا رومكا من شعره على بلاط أرضية دورة المياه، وهي تضرب جسده الصغير من كل الزوايا.

– أيتها السحنة المجرمة المقرفة!!!

– سيأتي أبي – يجيبها رومكا رافضاً الاستسلام. – فيقلع عينك ويدسها في مؤخرتك يا كلبة الماء المعوجة الساقين!...

ضربته حتى أصابها، هي نفسها، الإعياء. صارت تتنفس ككلبة عجوز مشرّدة يطاردها قتلة قساة... ثم قالت له وقد خارت قوها:

– انقلع من هنا!...

وظلّ جسدها يؤلمها طول الليل...

كان رومكا المجنون يفكّر، وهو ينظف أسنانه بإصبعه، بسيفيرتسيف الذي عاهده على الصداقة الأبدية، وقد فهم الآن أن ليونتشيك استخدمه درعاً، وأنه سرق المدرسة، ثم فرّ بغنيمته آخذاً معه ماروخا ماخاونوفا، وتركه ضحية...

والضحية تتحمل المسؤولية كلها!... لقد خدعتُ!... ما أكثر ما خدعتُ في هذه الحياة!...

وقرر رومكا أنه إذا استمر التحقيق اليوم، فسيفضح حتماً ليونيتشكا الذي خدعه.

يا له من سافل، قال الأحمر في سره وقد استولى عليه الغضب، هذا القصير القامة يعانق الآن في مكان ما ماخاونوفا، أما، هو رومكا، فمضطر إلى تغطية خيانته.

دخل رومكا إلى الصف ببطء وحذر. ومع اقتراب رنين جرس الدرس اشتد كثيراً ألم جسده المنهوك بالضرب. لقد وعدته فيركا بأن تستدعي اليوم الشرطة، وتسلّمه لهم كي يعاقبوه، ثم يرسلوه إلى مدرسة الغابات، التي سينقلونه منها إلى سيبيريا على الأغلب، رغم أن الغابات كثيرة وكثيفة حول مدرسة لوسينوأوستروفسكي الداخلية...

اجتمع الصف، ورنّ الجرس، لكن فيركا لم تأت. لا بد أنها تتحدث إلى رجال الشرطة... غير أن الثلث الأول من وقت الدرس انقضى ولم تظهر معلمة الرياضيات.

قد يكون هذا إشارة طيبة! – قال الأحمر في سره. – وقد تمرّ الأمور بسلام!

وفعلاً، انقضت خمس عشرة دقيقة أخرى دون أن تظهر، وراح الصف الذي لم يكن هناك من يضبطه، يضج بكل قوته، أما فيركا فلم يظهر لها أثر.. غير أن الموجه زارهم بدلاً منها زيارة قصيرة، وقد علا وجهه الشحوب، وبدا غارقاً في فكرة غامضة.

– هدوء يا أولاد، – قال من دون انفعال. – هدوء!... كان واضحاً أن ظروفاً يجهلونها تربكه، وأنه غير مهتم بصخب الأولاد. – فيرا فيكتوروفنا لن تأتي اليوم! – أبلغهم الموجه.

هدر الصف حماسة، لكن حماسته هدأت حينن سمع أن معلم الرياضة سيحلّ محلها.

ارتاح قلب رومكا... لكنه استغرب الأمر، لقد كانوا يروون عن فيركا الأساطير في المدرسة، فهي في خلال خمسة وعشرين عاماً من العمل في لوسينوأوستروفسكي لم تصب حتى بالزكام، لقد كانت هذه البطيخة الصفراء المعوجة الساقين صحيحة كبقرة أصيلة في المعرض القومي للإنجازات الاقتصادية، لكن القدر لا يستثني أحداً!...

قوة مجهولة، قد تكون قوة الفضول أرغمت رومكا على أن يخرج من مقعده الخلفي، ويتسلل منحنياً كجندي استطلاع إلى خارج القاعة، ثم يمشي بمحاذاة جدار الممر إلى غرفة المعلمين، وهناك...

كان باب غرفة المعلمين مفتوحاً نصف فتحة، يخرج منها دخان السجائر بكثافة، وكان المدير يقول شيئاً غريباً بصوت مرتفع.

– سنشيعها في المدرسة. نضع التابوت في قاعة النشاطات!

– ألا يؤذي ذلك مشاعر الأطفال؟ – قالت معلّمة البيولوجيا، كأنها تطرح السؤال على نفسها.

– لقد عملت المتوفاة في فريقنا، ونحن من يجب أن يشيّعها! – أجابها المدير مقاطعاً. – أما الأطفال فمن غير الممكن أن تخفي عنهم الموت!

ترى من سيشيّعون في قاعة النشاطات؟ – تساءل رومكا وقد تجمّد عقله مما سمع. – عن أي أطفال يجب إخفاء الموت؟....

في هذه الأثناء كان المدير يتابع كلامه بحزم:

– سندعو أقاربها إلى هنا!

– ليس لفيرا فيكتوروفنا أقارب، – أبلغت مديرة الذاتية الحضور.

– طيب، هذا جيد! – قال المدير دون تفكير، ثم استدرك: – الأدق أن هذا سيئ طبعاً... – شعر بحكة في صلعته الملساء. – عموماً، نحن أسرتها، ونحن سنشيّع زميلتنا! أتمنى أن تكونوا جميعاً موافقين!

ضجت غرفة المعلمين مؤيدة، وقد أعجب المعلمون كلهم بحسن تخلص المدير من الوضع المحرج.

– فيركا ماتت! – قال رومكا المنذهل بصوت يكاد يكون مرتفعاً. لقد أسعده هذا الخبر حتى كاد يصرخ بأعلى صوته «هورا»! لكن الصبي الأحمر ضبط نفسه، فقد كانوا في غرفة المعلمين يتابعون الحديث عن أشياء مثيرة للاهتمام.

– أنا، على كل حال، لا أفهم! صرخت معلمة اللغة الفرنسية بصوت هيستيري تقريباً. ضربت رأسها بيدها بعصبية، فانزلقت نظارتها عن أنفها الشبيه بأنف البطة، وكادت تسقط على الأرض. وقد تكرّم بالتقاطها معلم التربية العملية الذي وُفّق بشرب بعض الخمر في الصباح، فصارت يداه تعملان بمهارة. – شكراً!... ومع ذلك أنا لا أفهم كيف دخلت هذه النمال إلى أذن فيرا فيكتوروفنا؟...

– في الحياة كل شيء يحدث يا إيرا! – يقول لها معلم التربية العملية بلهجة فلسفية، وقد سرت في دمه أحاسيس طيبة. لقد كان يتقرّب من «معلمة اللغة الفرنسية» لكنها لم تكن تلحظ ذلك.

– نعم، – قال المدير مؤكداً، – في الحياة كل شيء يحدث!

– لكن ليس إلى الحد الذي تلتهم فيه هذه الحيوانات القذرة نصف دماغها!

– هذه ليست حيوانات! – قالت معلمة البيولوجيا تدقق لها المصطلح. – إنها حشرات!

– وما الفرق؟

– الفرق كبير جداً!

– اصمتي!

– اهدؤوا – أمر المدير. – دعوا الشرطة تحقق في الأمر! عملنا هو أن ندفن المتوفاة! أرجو من الموافقين أن يرفعوا أيديهم!...

لم يعد رومكا يسمع شيئاً في المكان الذي يقف فيه، فأسرع إلى دورة المياه حيث استمتع بإفراغ مثانته، موجهاً بوله خارج حوض المرحاض، تارة إلى هذه الزاوية، وتارة إلى تلك، تعبيراً عن فرحه، ضاغطاً على مثانته كي يندفع البول إلى مسافة أبعد.

ما أحلاك يا سيفيرتسيف! – هتفت روحه. – يا صديقي العظيم!

أنت لم تخدعني! فعلت كل ما وعدتني به، أيها الصديق الكبير! لقد زعلت منك عبثاً! والأسوأ أني أردت الوشاية بك!...

بلغ إيمان رومكا بالصداقة حدّاً من التأثير جعله يبول على حذائه، ويسمي نفسه نذلاً لأنه فكّر تفكيراً قذراً، وضرب الأحمر المجنون رأسه بالجدار عقاباً لنفسه. صرخ من شدة الألم، وحين خف ألم الصبي أقسم مرة ثانية أمام صورته في المرآة أن يظل حتى نهاية حياته صديقاً مخلصاً لليونكا سيفيرتسيف.

– كم كان ذكياً في استخدام النمل!...

لقد بحثوا عنهما طبعاً، لكنهم فعلوا ذلك في وقت متأخر إلى حد ما، فهم دفنوا معلمة الرياضيات، وحققوا بالتفصيل في أسباب ميتتها الغريبة، وحين أبلغهم المحقق بمسؤولية الخدمات الصحية التي لم تلحظ عشّ النمل وعدّت موتها حدثاً عادياً، حينذاك فقط، لاحظوا غياب الطفلين.

بحثوا عنهما بحماسة لأن الأطفال – مفهوم مقدس عند الدولة. لكنهم لم يعثروا على أي أثر للصبي والبنت في كل اتجاهات بحثهم. زعموا أن مجنوناً ظهر في منطقتهم يخطف الأطفال، يقتل أجسادهم الفتية ويخفيها إلى الأبد تحت طبقة سميكة من التراب.

بعد عدة أشهر من البحث، فقدت الشرطة حماستها للأمر، رغم أن الملفّ لم يغلق من الناحية الشكلية، وقد تعزز إهمال الشرطة للقضية بعد أن تم القبض على مختل ادعى مسؤوليته عن كل حوادث اختفاء الأطفال في الأعوام الأخيرة. في الحقيقة، لم تكن لدى المحققين أدلة مباشرة... لكن ما أكد موت الولدين اللذين يجري البحث عنهما، كان العثور في الغابة، غير بعيد عن المدرسة الداخلية، على خصلات شعر تشبه كثيراً شعر ماشينكا ماخاونوفا. وقد أكدت صديقاتها من خلال الشريطة المعقودة حول تلك الخصلات، أنها تعود فعلاً إلى ماشينكا، هكذا أقفلوا الملف وهم مرتاحو الضمير. تم إعدام المجنون، وعادت الحياة في المدرسة الداخلية في لوسينو أوستروفسكي إلى مجراها الطبيعي...

رومكا الأحمر وحده، كان يعرف الحقيقة، لكنه لم يحدث أحداً عن ذلك، وحفظ السر كأنه ريتشارد زورغه...

بعد انقضاء عدة أشهر على الهرب، عثر ليونيد في منطقة محطة قازان، على متخصص بالتزوير، زوّر لهما مقابل، مئتي روبل، جوازيّ سفر جديدين، أبقى فيهما اسميهما، لكنّه عدّل عمريهما تعديلاً كبيراً، فكتب في الجواز أن عمر ليونيد سيفيرتسيف الروسي القومية تسعة عشر عاماً، أما ماشينكا ماخاونوفا فعمرها أقل قليلاً، إنها، كما جاء في الجواز، أتمت الثامنة عشرة.

وهكذا استطاع الشابان المكلّلان في الكنيسة أن يسجّلا علاقتهما الزوجية رسمياً في دائرة الأحوال الشخصية. دون جهد يذكر.

ظلّا يقيمان عند سيرافيما التي لم تكن تحلم بمثل هذه السعادة في شيخوختها. لقد شفيت العجوز من مرض العزلة. حتى زياراتها للكنيسة صارت أقل من قبل، لانهماكها في تدليل ضيفيها وإطعامهما المأكولات اللذيذة التي يجيئان بها، الأدق أن نقول: التي يشتريها ليونيد، فماشينكا لم تكن تعرف من أين تحصل أسرتها على النقود.

كانت البنت تسأل زوجها أحياناً عن عمله الذي يكسب منه رزقه، فيكتفي ليونيد بأن يردّ بابتسامة غامضة، أما سيرافيما فكانت تنصح ماشينكا بعدم التدخل في أعمال الرجال.

– يكسب – هذا جيد!...هذا ليس شأننا، ما يهمنا هو أن يتحقق للزوج الكسّيب الدفء الأسري، ويسود في الأسرة السلام والخير.

علّمت العجوز ماشينكا فن الطبخ، وبعض أعمال الخياطة، وتنظيف البيت وترتيبه ترتيباً صحيحاً، وكانت في أوقات الفراغ تحدث الصبيّة عن يسوع المسيح...

وظل ليونيد وماشينكا، كما كانا في السابق، من أحفاد أفلاطون، على الرغم من أن مداعباتها في الفراش كانت تزداد، يوماً بعد يوم، شبهاً بالممارسة الجنسية...

بعد عامين ماتت العجوز سيرافيما، فعلت ذلك هدوء، دون أن تتسبب بأي إزعاج، ماشينكا كانت تعرف أن كل ما تحتاجه العجوز في رحلتها الأخيرة، موجود في الخزانة الصغيرة، وأن النقود اللازمة للجنازة مخبأة في منديل أنف صغير عقدت أطرافه.

– يجب أن نقيم قدّاس لسيرافيما، – قالت ماشينكا بثقة وهي تمسح الدموع عن وجهها الصغير الجميل.

– لماذا؟ – قال ليونيد مندهشاً.

– كي تقف بين يدي الرب.

– بين يدي أي رب؟ – سأل ليونيد وقد زادت دهشته.

– يدي ربنا يسوع المسيح.

– أي يسوع مسيح. – قال ليونيد بلهجة ساخرة. – إن ذلك كله مضيعة للوقت!

هنا أظهرت ماشينكا بعض العناد.

– بل يوجد، – قالت بإصرار.

– غباء!

– أنت حرّ في ألّا تؤمن، أما أنا فسأفعل ما يأمرني به قلبي!

– أنت زوجتي، ويجب أن تفعلي ما آمرك به! لقد قال ذلك أبونا عندما تكللنا!

– وسيرافيما قالت لي ذلك، – أجابته ماشينكا مؤكدة كلامه.

– وإذن، – قال ليونيد بلهجة راضية.

– يجب أن نقيم القداس لأن سيرافيما نفسها أرادت ذلك!... وإلا أجبني، لماذا تكللنا؟

– آنذاك ما كانوا سيقبلون تسجيل زواجنا في دائرة الأحوال الشخصية، وورقة الإكليل وثيقة على كل حال.

– يجب أن نقيم القداس!

أعجب ليونيد إعجاباً شديداً بهذا النمو المفاجئ لشخصية زوجته، وراح يكرر لنفسه أنه لم يخطئ في اختياره، وأنها، هي بالذات، من سيتيح له الطيران في الفضاء. هو، طبعاً، لم يظهر لها رضاه، لكنه فكّر قليلاً ثم قال:

– فليكن، ما دامت سيرافيما أرادت ذلك. لقد كانت طيبة في تعاملها معنا...

فرحت ماشينكا بذلك فرحاً كثيراً، وأشرق وجهها، ولم يستطع ليونيد تمالك نفسه، فضحكت عيناه وهو يتأمل زوجته.

القداس عن روح سيرافيما إيلينيتشنا أقامه الأب إيفان صمويلوفيتش الذي عرفاه منذ زمن، ثم ودّعوا العجوز بشرب عنبرية الخوخ، وبعد ثلاثة أيام، عثروا في الخزانة الصغيرة على وصية بشأن الشقة جاء فيها أن العجوز تمنح الغرفتين اللتين اتضح أنها اشترتهما عن طريق التعاون السكني، إلى أسره سيفيرتسيف...

وهكذا أصبح للعروسين الشابين سكنهما الخاص.

مرت أعوام ثلاثة نعمت فيها طفولتهما بالسكاكر والحفلات الممتلئة بالحب الصادق.

بدا ليونيد، وهو في الثانية عشرة، شاباً راشداً، أما ماشينكا فتحولت ببساطة إلى غادة غير عادية. لقد كانت هذه الغرسة التي زرعها الحب، جميلة في طفولتها جمالاً آسراً، أما الآن فإن جمالها الفتي الأنثوي اندفع نحو الكمال. ما من رجل التقى بماشينكا مصادفة في الشارع، إلا راح يتابعها ببصره طويلاً، معيداً النظر في حياته كلها منذ بدايتها، طارحاً على نفسه تساؤلاً عاطفياً عما إذا كان قد أخطأ في انتقاء نصفه الثاني! وعما إذا كان كيانه قد استعجل في طرح هرموناته الفوّارة في أول امرأة التقى بها، ولذلك لم يظهر في حياته ملاك كهذه الفتاة... كانت صورة هذه الغادة غير العادية

ذات العينين المطرقتين الممتلئتين وداعة حقيقية، وتواضعاً أنثوياً جذاباً، تهيّج طويلاً خيال كل الرجال الذين تلتقي بهم.

لم يكن يخطر أبداً في بال ماشينكا أن تعدّ نفسها غادة جميلة، لأنها كانت تحب ليونيد وحده، ولا تهتم بأي شيء آخر في العالم غير زوجها. لقد عاش الزوجان من دون شجار أو عبوس، أمر واحد كان يقلق ماشينكا هو انتقال ليونيد للإقامة في الغرفة الثانية، والأدق، للمبيت في الغرفة الثانية، تاركاً إياها وحيدة في الليل، حيث كانت تستيقظ أحياناً شاعرة بآلام غريبة تسكن في الوقت نفسه، في رأسها وبطنها. آنذاك كانت ماشينكا تتنفس بصعوبة محاولة أن تطرد من جسدها الشعور الممض بالألم، وتستيقظ في الصباح وهي تعاني من الصداع.

كان ليونيد يسافر كثيراً دون موعد مسبق، ودون أن يذكر إلى أين، وكان يعود دائماً بنقود كثيرة وملابس جديدة حديثة الطراز لماشينكا.

حينذاك ترتمي ماشينكا سعيدة بعد فراق لم تكن في أثنائه تذهب إلا إلى الكنيسة، على عنق زوجها وتقبل وجهه بقوة. هو أيضاً كان يستجيب لعناقها بحرارة، ضاغطاً، إلى حد مؤلم أحياناً، صدرها الممتلئ مرونة (بنّاتية)، فيبدو على هذين العاشقين أنهما سينسيان بعد برهة نصائح أفلاطون ويتحولان إلى منارة أخرى. عند ذلك كانت تتمزق خيوط الملابس وتتفتق... لكن، في لحظة ما، يبدو ليونيد كمن يضغط على المكابح في يأس وقد انتصب أمامه جدار من البيتون يبعد زوجته عنه، ويجمد شاحباً بعض الوقت، ثم يغادر إلى الغرفة الثانية...

قررت ذات يوم أن تطرح عليه السؤال الذي تخافه أكثر من أي شيء.

– ألم تعد تحبني؟

في رده نظر إليها نظرة غريبة باحثاً عن شيء ما في عينيها الواسعتين الممتلئتين حزناً فازداد خوفها وقد تذكّرت فجأة الذئب الرمادي الذي قرأت عنه في طفولتها.

– أنا أحبك، – أجابها بلهجة واثقة.

– أتراني أقوم بشيء ما بطريقة غير صحيحة؟

– أنت تفعلين كل شيء كما يجب...

بعد ذلك لم تجد ما تسأل عنه أيضاً. بعض الأصوات كاد ينفلت من لسانها، لكنه كان مجرد أصوات وليس كلمات... فكزّت على أسنانها...

اختفى من جديد ثم عاد، أما هي فزارت الكنيسة وطلبت بحرارة من «السيدة مريم» السعادة لزوجها ليونيد، وقليلاً من السعادة لها، هي ماشينكا، إذا أمكن ذلك...

في عام1976 زار ليونيد سيفيرتسيف مشفى كاشينكو للأمراض النفسية، حيث دسّ في يد رئيس القسم رشوى ليدبر له لقاء منفرداً مع نزيلة في القسم النسائي للأمراض المزمنة.

دهش رئيس القسم من هذه الزيارة الغريبة التي يطلبها شاب، فالمريضة موجودة للمعالجة منذ زمن بعيد، ومنذ ذلك الزمن لم يزرها أحد أبداً. بل إن أحداً لم يزر هذا القسم عموماً.

– ولماذا تريد لقاءها؟ – سأله الطبيب النفسي مظهراً فضولاً، لكنه تلقى ردّاً قاسياً:

– هذا لا يعنيك! أنت قبضت المال!

– لكني أستطيع أن أردّه لك! – قال الطبيب مستاء.

– لا تستطيع!...

تركوه وحيداً في غرفة العلاج الفيزيائي.

– لا تحاولوا التجسس! – أنذرهم ليونيد.

كاد رئيس القسم يبكي من شدة تأثره بالإهانة، لكن الرشوى كانت كبيرة إلى حد أرضى حبه لذاته أكثر من أي ردّ على الإهانة...

هو لم يعرفها أبداً للوهلة الأولى.

أدخلوا إلى الغرفة امرأة نحيلة، شعرها قصير، وعيناها جاحظتان ومجنونتان تماماً.

نظرت المجنونة بفزع ظاهر إلى ليونيد، وحرص هو بدوره، على تأمل هذه المرأة، محاولاً أن يجد فيها شيئاً ما.

أتراها هي أم لا؟ – دار السؤال في رأسه. واستنشق، دون أن يحيد ببصره عنها، رائحة مشفى الأمراض النفسية، التي يعرفها. ملأته الرائحة كما يملأ دلواً بالماء. شلال قوي يندفع من خرطوم. سيارة إطفاء. أراد كثيراً أن يصرخ، كما كان يفعل في طفولته!...

حاولت المرأة أن تتفادى النظرة المتفحصة لهذا الرجل القادم من العالم الكبير، فاحتمت بكتفها النافر العظام، فعرفها كلها من خلال هذه الحركة. اعترته رعشة سرت في جسده كله، ومشى نحوها بساقين راجفتين.

– فالينتينا!... – قال بلهجة متناهية الرقة. – فالينتينا!

ابتعدت المرأة عن هذا الرجل الذي لا تعرفه، ملصقة جسدها كله بجدار المشفى.

– فالينتينا!...

اقترب منها راعشاً كما لو كان مصاباً بحمى، أمسك يديها وشدها إليه بقوة، دسّ أنفه في شعرها المشبع برائحة الكاربولا وأشياء أخرى، ونادى من جديد – «فالينتينا»، أما هي فناحت بصوت خافت من شدة الفزع.

– هذا أنا، ليونيد!... هل عرفتني؟

استمرت، في ردّها، بنواح وحشي، وهي تحاول، منهارة القوى، الإفلات من يده.

عند ذلك لمس ليونيد ثدييها الجافين، المتهدلين، الفاقدي الحيوية، من فوق القماش الخشن لثوب المستشفى.

– هذا أنا، ليونيتشيك الصغير الذي رعيته!

أخذ يقبّل وجهها، محاولاً أن يطرد من عينيها الجاحظتين الجنون، وراح يدلّك كتفيها، وظهرها وهو يكرر:

– هذا أنا ليونتشيك! هل تذكرينني؟ هل تذكرينني؟...

بدا له للحظة أن عيني فالينتينا أشرقتا، وأن جنونهما قد تراجع أمام هجمته العاطفية. وهذا كان ما حدث فعلاً، لكنه لم يستمر سوى لحظة كشعاع شمس التمع عبر عتمة الليل. لكن هذه اللحظة من الوعي كانت كافية لكي تتهالك أماً عجوزاً بين يديه، وتسكب دموع الحزن على حياتها الضائعة، وتتذكّره، وتتبنّاه، ثم تغرق في الظلمة من جديد...

– ليونتشيك... – قالت وهي تقترب بكيانها كله من وجهه، لكن إشراق عينيها انطفأ فجأة كما ينطفئ النور في مصباح كهربائي يحترق، واختفى فيهما المعنى، واختفى معه الوعي...

أخرجها الممرضون من الغرفة متظاهرين بشكل مفضوح باحترامها، وابتسموا على الطريقة الصينية في وداعه، أما رئيس القسم فبسط يديه قائلاً:

– لقد قلت لك إن طلبك غريب... فهي لن تستعيد وعيها أبداً... وإنه لمن المدهش أن تظل هذه النزيلة حية كل هذا الوقت، إذ كان يجب، في تقديري، أن تموت قبل ما يقرب السبع سنوات... ثم...

صمت الطبيب النفسي وقد وقع بصره على نظرة الزائر التي كانت كنظرة وحش... شعر فجأة بأن هذا الشاب سينقض الآن عليه ويقضم حلقه، فشحب وجهه واستعد للموت.

لكن ليونيد اكتفى بإطباق فكّ على فكّ، ورفرف بجفونه، مطفئاً النار المشتعلة في عينيه، ثم أخرج من جيبه رزمة سميكة من النقود، وأعطاها للطبيب.

– دعها تعش قدر ما تريد! وأمّن لها أسباب العيش!

– طبعاً – طبعاً، بالتأكيد!...

ظل الطبيب النفسي خمسة عشر عاماً رئيساً للقسم بعد هذا اللقاء، لكنه لم يلتق مرة أخرى بذلك الزائر الغريب الأطوار. لم يكن الطبيب يرفض أن تبقى المريضة التي كلّف برعايتها حيّة دهراً، لكنها، هي نفسها، لم تكن راغبة في الاستمرار بالعيش، فماتت بعد تلك الزيارة الغريبة بأربعة أشهر.

يجدر بنا هنا أن نحترم سلوك الطبيب، فقد أنفق جزءاً من المال ثمناً للتابوت، والزهور الاصطناعية، ومواد التجميل التي أكسبت وجه الميتة مظهراً لائقاً.

دفنوها في مقبرة المستشفى، ووضعوا على القبر عند موضع الرأس لوحة معدنية كتبوا عليها: «كيرديابكينا فايينا». لقد أخطؤوا في كتابة اسمها وكنيتها... لكن ذلك لم يكن مهماً، فما من أحد سيأتي في أي يوم من الأيام لزيارة هذا القبر...

في الثامن عشر من آذار، عام تسعة وسبعين، أطلق ليونيد سيفيرتسيف من مسدس من طراز «T– T» النار في مدخل بنك التوفير، فأصاب حراس سيارة نقل النقود فور خروجهم من صالون السيارة وهم يحملون حقائب ثقيلة مملوءة نقوداً.

أظهر الشاب قدرة خارقة على التسديد، إذ أصاب الرجال الثلاثة في مفاصل ركبهم فأسقطهم أرضاً...

واختفى من مكان الجريمة مبلغ يقارب المليون روبل، أخذه ليونيد سيفيرتسيف وذهب في اتجاه مجهول.

فريق التحقيق الذي وصل إلى مكان الجريمة وجد على ميناء ساعة يد أحد الجرحى بصمة الإصبع السبابة التي يفترض أن تكون للمجرم. أرسلوا البصمة إلى المركز، حيث تطابقت وبصمة إصبع مجرم محكوم لارتكابه جريمة مماثلة في عام 1964، كنيته كرينيتسين.

سُلّمت القضية فوراً إلى العقيد درونين في الـ (كي. جي. بي).

– هذا غير معقول! – صرخ الضابط غاضباً. – هاتوا لي ريكوف!

النقيب ريكوف لم يضطره للانتظار، فقد ظهر فوراً، ببزة مكويّة وذقن محلوقة نظيفة.

– حاضر، أيها الرفيق العقيد.

نهض درونين بحدة من وراء مكتبه، ورمى أوراق قضية ا «الهجوم على سيارة نقل النقود»، في وجه ريكوف.

– ما هذا؟!!

لم يفقد النقيب هدوءه، قلب الأوراق القليلة التي في المصنف ثم راح يقدم ملخصاً منطقياً للقضية.

– جريمة سطو مكتملة الأركان والشروط، وتخريب لقدرة البلاد الاقتصادية... إن حكم هذه القضية هو الإعدام!

– لا تقل لي ما أعرفه من دون مساعدتك! – قال درونين وهو يكتم غضبه بصعوبة.

– انظر إلى نتيجة فحص البصمة!

تفحص النقيب القضية مرة ثانية وهو يحرّك شفتيه متذكّراً شيئاً ما.

– سيفيرتسيف – كرينيتسين... هذا هراء، أيها الرفيق العقيد!

– هل تذكّرت؟

– أنا لا أشكو من ضعف الذاكرة.

– لقد ذكرت في تقريرك أنهم قتلوه ككلب مسعور في أثناء محاولته الهرب!

– هذا ما حدث.

– والإصبع، الإصبع من أين؟ أنا أسألك!...

هنا انغلق دماغ النقيب. هو كان يعرف طبعاً، أن خطوط بصمات الأصابع فريدة لا تتكرر، وأنه لا توجد في العالم بصمات متطابقة.

– هذا مستحيل! – قال وهو يبتسم ابتسامة غريبة كأنه يعتذر.

– طبعاً مستحيل! – قال العقيد مؤيداً كلامه. – هذا يعني أن ذلك الكلب الحقير ما زال حياً!... ما الذي يمكن أن يكون قد حدث؟...

فكّر أيها النقيب!... تمثيلية؟... رشوة؟... لم يصب إصابة قاتلة؟... ليتني أعرف، – قال النقيب في سره.

– اسمح لي، أيها الرفيق العقيد؟ – قال ريكوف وهو يرفع سماعة التلفون ويطلب رقماً ثلاثياً داخلياً.

– أرشيف؟... قضية كرينيتسين إلى مكتب العقيد درونين بسرعة! ثم جلس إلى الطاولة ينتظر. ظل الضابطان صامتين، مشدودي الأعصاب، شاعري بالعجز.

تذكّر درونين في هذه الأثناء صديقه الذي انتحر، أفلاطون أنطونوف. وتذكّر سؤالاً لم يخطر في باله منذ أعوام كثيرة... أليس من المحتمل أن يكون الصبي ابنه رغم كل ما قيل؟... ترى كم عمره الآن؟ لا بد أن يكون عمره حوالي الخامسة عشرة...

في هذه الأثناء جاؤوهما بالقضية المطلوبة بالبريد الخاص.

قلّب النقيب ريكوف أوراق القضية بسرعة، باحثاً عن الصور.

– هاك، أيها الرفيق العقيد! – مدّ يده بالصور إلى رئيسه. – رأسه يكاد ينفلق نصفين!... تقرير الخبرة يؤكد موته من جرح لا يمكن أن يبقيه حياً.

تأمل درونين الوثائق، ثم مشى إلى النافذة، ونظر عبرها إلى تمثال دزرجينسكي وهو يقول:

– هل تعلم أن كل شيء قابل للتزوير؟... قد يكون هذا الكرينيتسين وضع «خروفاً» آخر بدلاً منه!... لقد كان باستطاعته أن يشتري أيّ شخص غيره، فالنقود اختفت ولم يتم العثور عليها! ثلاثمئة وعشرون ألف روبل سوفييتي!... هل تعرف حجم هذا المبلغ؟

– لا أستطيع حتى أن أتصوره، – اعترف النقيب.

– يقولون إن ثمن بيت زيكينا الريفي عشرون ألفاً...

– ستة عشر بيتاً كبيت زيكينا، – قال ريكوف بعد عملية حساب سريعة.

– والمبلغ المفقود هذه المرة هو مليون!

– خمسون.

– خمسون ماذا؟ – لم يفهم درونين.

– خمسون بيتاً ريفياً.

– قد يكون من المفيد أن نعينك محاسباً؟! ذلك سيجعلك تشغّل دماغك، لا أن...

– لا تقلق أيها الرفيق العقيد، – قال يعده من أعماق قلبه. – سأحلّ هذه القضية! أنا حتى اليوم لم أخفق في أية مهمة!

– هيا، هيا افعل!

– أتسمح لي بالانصراف؟

– انصرف...

النقيب ريكوف، والحق يقال، عنصر جيد، ينفذ كل ما يكلّف به. إنه ذو ذهن متقد، رغم أنه ليس متخصصاً في التحقيقات، ولا بأس في تكليفه بهذه القضية...

غرق العقيد من جديد في مقاطع قصيرة من الذكريات، مقاطع مجزوءة مشتتة – قائمة على التداعي. تذكّر الطبيب النفسي بانيتشكين، ثم عاد إلى تذكّر الصبي، ابن أفلاطون أو ابن كرينيتسين... وخطرت في باله كنية بيريغيفودا... طيّب، ماذا عندنا من معلومات عن هذا البيريغيفودا؟

طلب العقيد المعلومات كي ينشط ذاكرته...

تصفح الأوراق الخاصة بهذا المحقق غير الناجح، وبعمله في مشفى الأمراض النفسية تحت إدارة البروفيسور بانيتشكين... لم يطرأ على القضية أي جديد منذ ذلك الوقت... أراد أن يترك العمل غير الضروري، لكنه وجد فجأة، في الصفحة الأخيرة، صورة ملتقطة بكاميرا صندوق الإدارة البريدي، ومغلفاً فيه وشاية بذلك البروفيسور بانيتشكين نفسه. وقد جاء في رسالة الواشي أن بانيتشكين حجب عن العلم «ظاهرة» إنسانية في شخص سيفيرتسيف الذي يستطيع أن يعيش في غرفة معزولة ست سنوات من دون أكل وماء. وبذلك ألحق البروفيسور بالقوة الكامنة في الاتحاد السوفييتي خسارة لا تعوض... ووجد درونين في المصنف ورقة من المناوب في دائرة البريد، المساعد كيسبكين، كتب فيها بعناية تاريخ اليوم والسنة ووقت ظهور الواشي في تلك الدائرة.

– يا له من هراء! – قال درونين بصوت مسموع.

استغرب العقيد كيف أن بيريغيفودا، الذي قرروا تسريحه من منصب يدر عليه دخلاً وفيراً، أراد أن ينتقم من بانيتشكين بهذه الطريقة الغبية، فقاده خياله الملتهب إلى كتابة أشياء غير معقولة!... ويحك، ست سنوات من دون طعام وشراب!...

غير أن درونين الذي اعتاد التدقيق حتى في الأمور السخيفة، أمر بالبحث عن المحقق السابق بيريغيفودا واستدعائه لمقابلته...

غادر ليونيد سيفيرتسيف بسهولة مكان الجريمة محمّلاً بالحقائب الملأى بالنقود، وقد ساعده في ذلك رومكا المجنون الذي جلس وراء مقود شاحنة عُلّق بها صهريج لنقل الوقود كان فارغاً، فاستخدماه لتخبئة الحقائب المسروقة، ونقلاها فيه.

طمرا النقود في مكان غير بعيد عن المدرسة الداخلية التي تركها رومكا بعد الصف الثامن وانخرط في الحياة الحرة.

– لا تلمسها قبل عام! – أمره ليونيد.

– لا داعي لهذا التشدد! – قال الأحمر معترضاً.

– إذا أخذت منها سنحترق نحن الاثنين! النقود في رزم مصرفية، سيتتبعوننا من خلال الأرقام، وبعد ذلك الإعدام!

– أنت لم تقتلهم...

– لقد حصلنا على مليون...

دار رأس رومكا، ففي المعهد الذي تعلم فيه قيادة السيارات الكبيرة، كان راتبه الشهري ثلاثة وعشرين روبلاً، بل إن رومكا لم يكن يستطيع العدّ حتى المليون. لم تكن لديه حاجة لذلك!...

– هل المبلغ... مليون!

– هل عاد أبوك إلى السجن ثانية؟ – سأله ليونيد.

– حكم بالسجن خمس سنوات بسبب شجار.

– بمليون يمكنك أن تدفئ مقعدك مئتي سنة.

– أليس من الأفضل لي، – قال بلهجة ثملة. – أن أسجن؟... هناك سأكون بفضل حصتي من المال صاحب نفوذ كبير!... فلماذا يجب أن أجهد نفسي بالبقاء حراً؟... أبي لم يحتمل البقاء حراً أكثر من أسبوع، أعلن بعده أن بيته هو السجن!...

– هناك، حيث ستقع قتيلاً بطلق ناري، لن تحتاج أية نقود! أنت لم تفهم أن عقوبتنا هي الإعدام!

– ومن أين أحصل على النقود كي أعيش؟ أبي خسر في القمار كل ماله! دسّ ليونيد في يد صديقه ورقة مالية بمئة روبل.

– لنفترق! أنا سأجدك عند الحاجة...

عاد رومكا في تلك الليلة إلى المكان الذي دفنوا فيه النقود، حفر برفش عسكري ما يقرب الهكتار من أرض الغابة، ولم يجد النقود.

– آ – آ – آ! ناح الأحمر بصوت مخنوق، – لقد خدعني الكلب! انبطح على الأرض الباردة وقد سحقته الحال التي وجد نفسه فيها.

كانت تنبض في رأسه رغبة «بالثأر»!... عاد رومكا إلى النواح، لأنه لم يكن يعرف أين يبحث عن ليونيد، لو بشكل تقريبي. صديقه هو الذي كان يجيء إليه دائماً...

تساقطت على وجهه من الأشجار نقاط ماء صقيعي... وتسربت نقطة إلى داخل أذنه... نفذ البرد حتى عظامه. وخطر في باله فجأة أن ليونيد خبأ النقود من أجل خيره حصراً. فهو أنذره وطلب منه ألّا يلمس المال قبل انقضاء عام!... لكنه لم يصمد، وجاء ليأخذ المال في الليلة نفسها... لو فعلها لعاجلته طلقة في نقرته!...

– إنه عبقري! – قال رومكا المجنون مخاطباً الغابة في الليل، ثم نفض الماء من أذنه، وركض نحو الطريق...

غاب الزوج أسبوعاً كاملاً، فبدأت ماشينكا تقلق واعترفت بمخاوفها لإيفان صمويلوفيتش في الكنيسة.

– ألا يضربك؟ – سألها الأب إيفان.

– ماذا تقول؟!

– هل يسكر؟

– لا يضع نقطة خمر في فمه!

– اذهبي إذن، فعندي ما يكفي من القضايا المهمة! زوج مارفا بتروفنا، مثلاً، يسكر، ويضربها! إنها بحاجة إلى من يهدئها، ويزرع في قلبها الأمل بما هو أفضل!... أتمنى لك السعادة!...

عادت ماشينكا إلى البيت وأعدّت، احتياطاً، عشاء لشخصين، وصدق إحساسها، فقد عاد زوجها في منتصف الليل تقريباً – كان متعباً، ووجهه ملطخ بالوحل، أما هي فكانت في ثوب نومها، مستعدة للنوم، بعد أن استحمت، وسرّحت شعرها، وكانت عيناها ممتلئتين بمعرفة كبيرة من نوع ما...

ألقى ليونيد على زوجته نظرة عابرة في البداية، ثم عاد يتأملها باهتمام... وفي أثناء وقوفه تحت جداول الماء الحار المنسكبة من (الدوش) أدرك فجأة أن ما انتظره من لحظة بدء وجوده – طيرانه الأول – سيحدث اليوم، في هذه الليلة بالضبط!

شعر بجسده يصبح خفيفاً، وبقدميه ينفصلان عن أرضية الحمام، وهو يطير في الهواء الساخن.

أنا أطير مرة ثانية، قال في سره...

غير أن ذلك لم يكن سوى بشير بالطيران الكبير، قفزة صغيرة إلى أمام... في هذه الليلة تمّ بينهما تقارب حقيقي.

حين دخل إلى غرفة النوم ارتجف قلبها خوفاً... وكما فعل في طفولتها، رقد إلى جانبها تحت اللحاف، وتلامس جسداهما من جديد، فاستعدت ماشينكا لمداعبة طويلة الأمد، لكن ليونيد رمى اللحاف جانباً بحركة واحدة، ورفع قماش ثوب نومها الذي تمزّق مصدراً طقطقة، معريّاً صدرها الجميل.

ارتمى على جسدها كذئب جائع وغرس شفتيه الخشنتين في حلمتي ثدييها الرقيقتين، كأنه يحاول أن يمتص روح زوجته من صدرها عبرهما.

تألمت وشعرت في الوقت نفسه بحلاوة موجعة. كزّت على أسنانها، وأنّت وهي تزيح بساقيها الشرشف عن السرير.

بعد ذلك صارت مرأة تماماً. انفجر الثقل في أسفل بطنها ألماً، تحوّل إلى شعور بالإعياء لم تعرفه من قبل...

ليونيد طار... وعيه غادر جسده فترة من الوقت، متحولاً إلى إحساس بالطيران، كان، على الأغلب، شكلاً مختلفاً من أشكال الوعي. طال طيرانه وطال، وتبدّلت المجرّات أكواناً، وتقلصت الأكوان فصارت نقاطاً صغيرة سوداء... هو لم يسمع كيف كانت ماشينكا تتأوه متوجعة، وهي تسلّم كونها لطيران غريب، فقد كان باحثاً يتأمل بلا انفعال عالماً آخر، ووجوداً آخر، ولا يهتم بأنين أحد، حتى إن كان أنين زوجته....

ها هو ذا!... – كان كيان ليونيد كله ممتلئاً اعتزازاً. أحس أنه الفاتح الرائد، عبقري العالم البشري الذي انزلق منه إلى المجهول!... إنه يرى الآن الهدف النهائي من طيرانه – بريقاً شاحباً لشيء رائع، لشيء لا يستطيع العقل إدراكه، ولا تستطيع المشاعر الإنسانية أن تحتويه!... الآن سيبدأ الجزء الأخير من الطيران و...

انتهى كل شيء باختلاج وعودة سريعة إلى الوعي المعتاد...

لقد استطاع أن يراقب كيف تتقلص عضلات بطن ماشينكا المتعرق الأملس. ويسمع آخر نغمات صراخها...

أحس فجأة بالفراغ والعزلة، كأن أحدهم خدعه، هو الذكي الغني بالمعاني، واستغباه ببساطة، مستمتعاً بذلك...

ذرف دمعة حارة على صدر ماشينكا ثم امتلأ فجأة بغضب وحشي وعض بأسنانه القوية الحلمة الوردية التي بدا له أنها مركز الفراغ الذي اختفى فيه الخداع الكوني...

هي لم تصرخ، بل تغلبت على الألم، شاعرة بأن شيئاً ما قد أصابه، شيئاً لن تستطيع أن تعرفه في يوم من الأيام... لكن هذا أمر طبيعي، فهي زوجة وعليها أن تصبر في السراء والضرّاء من دون نقاش...

ذهب من عندها إلى الغرفة الثانية، حيث عانى طويلاً الفراغ الذي داهمه. فكّر ليونيد في الأمر، وحلله، باحثاً عن مصدر ذلك اللاشيء، ثم حين رأى لطخات الدم الصغيرة على فخذيه، أدرك أن الفراغ سرى إليه من ماشينكا، زوجته...

أراد أن يعبر عن غضبه منها، لكنه كان صادقاً مع نفسه، فاعترف بأنه كان، حتى قبل أن يولد، يعلم أن معرفة ذلك الفراغ مستحيلة. وكان يعرف أيضاً أن الطيران سيكون مزيفاً، وأن بطن المرأة ليس إلا نسخة عن ذلك الفراغ، وأن الرجل لن يعرف أبداً فضاءها، ناهيك عن إخصابه...

لقد كان يحب ماشينكا، لذلك سامحها... تذكّر رائحة شعرها، وذرّات طعم بشرتها، التي ما تزال حتى الآن عالقة على لسانه.

في هذه الدقيقة ذاتها شعر ليونيد أنه مستعد للقيام بمحاولة طيران جديدة، لكنه وقد عرف الآن عملياً استحالة بلوغ الهدف، صار مستعداً للاكتفاء بحبه الصغير لزوجته وتقليد المستحيل.

عاد إلى ماشينكا فوجدها تبكي، عانقها بقدر ما يستطيع من رقة.

– سامحيني، – همس وهو يقبل ما كان قبل فترة وجيزة يمزقه بأسنانه.

– وأنت سامحني أيضاً، – قالت وهي تبتسم له عبر الدموع.

– لماذا تطلبين السماح؟ – قال مندهشاً.

هي نفسها لم تكن تعرف لماذا تطلب السماح، غير أنها كانت تشعر بأنها سببت لزوجها خيبة أمل كبيرة، ألماً ما، لا تملك القدرة على إدراكه.

– أنا أحبك!

– وأنا أحبك، – أجابها.

بعد ثوان عاد من جديد إلى الطيران في كون جسدها، لكنه لم يعد الآن قليل الخبرة يظن أن «مجسّم الفضاء» فضاء حقيقي... الخداع هو الخداع!... لكنك تستطيع أن تستمتع بمشاهدة «مجسم الفضاء» إذا كنت تحلم بالوصول إلى الفضاء، أو كنت لا تحلم بذلك... وليس من الواضح متى تكون متعتك أكبر!

لم يعد يعضها كذئب غاضب، لأنه سبق أن عرف خيبة الأمل، وتحمّل خيبة جديدة بات بالنسبة إليه أكثر سهولة. لقد كان ليونيد محايداً بعض الشيء، وهو يتأمل التعابير المتغيرة على وجه زوجته... كانت تتألم ألماً يشوبه الإعجاب بسبب طيرانه. وكان شعورها يتسم بكثير من الطبيعية، وكثير من بساطة الألم النقي، وهذا ما جعله يشعر من جديد بالحسد تجاه جسد الأنثى المخلوق كي يخدع، ولا يكون مخدوعاً أبداً...

لقد قام في هذه الليلة بعشر طيرانات تدريبية، وذهب في الصباح إلى جهة ما لفترة طويلة بعد أن قبل ماشينكا في الوداع، قبلة عادية لاحظت فيها شيئاً جديداً أفرحها فرحاً عظيماً.

ماشينكا، نفسها، لم تذهب إلى أي مكان بما في ذلك الكنيسة.

هي، عموماً، لم تخرج من البيت أسبوعاً كاملاً، فقد كان جسدها كله يؤلمها بسبب عدم اعتيادها على ما حدث... فيما بعد، في أول أيام الصوم الكبير، ظلت ماشينكا يوماً بطوله تقريباً، جاثية على ركبتيها أمام أيقونة «السيدة مريم» شاكرة «أم المسيح» على السعادة التي تعيشها...

بعد أن استمع العقيد درونين إلى حكاية المدير الإداري بيريغيفودا الخيالية عن «الظاهرة» النفسانية، قرر أن يخيف المحقق السابق فيلومه في البداية على تمثيليته الهزلية التي لا تصدق.

– ألم يكفك إخفاقك في عملك؟ – سأله ساخراً.

– بل أنا ناجح، ناجح جداً، – أجابه المدير الإداري من دون خوف. – ومستعد للالتحاق بعملي على الفور!

– أنت تقول كلاماً كذباً، وهذا أمر عقوبته السجن.

– أنا أقول الحقيقة، ولا شيء غير الحقيقة!

– أنت تتكلم كما يتكلمون في الولايات المتحدة!

– الحقيقة واحدة دائماً.

– لا تقل لي... – يستمر درونين في الضغط.

– لقد مضت أعوام كثيرة. لو كنت أكذب الآن، لو كان ذلك غير صحيح... لقلت إن كل ما كتبته، كتبته وأنا سكران وغاضب!... لكني أؤكد لك الآن أن الصبي ظل ست سنوات في المقصورة بلا طعام وبلا شراب! بإمكانك أن تحقق في الأمر!

– سنحقق! – وعده درونين.

صرف بيريغيفودا، واعداً إياه بتحديد موعد جديد، ثم استدعى إلى مكتبه النقيب ريكوف وأمره أن يجد على وجه السرعة ابن المجرم الذي أعدم، كرينيتسين – سيفيرتسيف.

– ما اسمه؟ – سأل ريكوف وهو يحضر دفتر جيبه لتدوين الاسم.

– عليك أن تبدأ بالبحث عن الاسم أولاً!

## – 12 -

– خموروف! – صاحت تُسمع الحقل الواسع كله. – خم– و– و– و– رو– و– وف – تردد صدى صيحتها في روسيا.

طقطق العشب تحت قدميه وهو يتجه نحوها منقّلاً ساقيه كأنه عنزة، وقد غمرت وجهه المجعد سعادة عظيمة انسكبت من عينيه دموعاً...

عانقته كما لو كان أباها الذي وجدته حيّاً بمعجزة. أما هو فلم يخف دموعه، كان يبكي كالطفل ويضحك في الوقت نفسه.

– أنجيلينا – تمتم.

– خموروف، – أجابت بمودّة.

الجندي الذي كان يراقب المنطقة بالمنظار، أدهشه هذا المشهد، فهنا، لم يكن من المألوف أن يعانق أحد أحداً، ناهيك عن أن يعانق المشرف على حقل الرمي امرأة غريبة.

– كيف حالك يا خموروف؟

– لا بأس، – أجاب العجوز. – وأنت؟

– وأنا، لا بأس أيضاً.

بدت علاقتهما حميمية تماماً، رغم أنهما كانا يدركان أن كلّاً منهما لا يعرف عن الآخر شيئاً يذكر. هو علمها الرمي ذات يوم، وهي تعلمت على يديه... لكن روح جيليا ظلت لغزاً بالنسبة إلى خموروف. وها هما الآن يتعانقان كشقيقين، لكن كلّاً منهما يبحث عن موضوع للحديث مع الآخر.

– اتذكرين بروكوبيتش؟ – وجد المساعد سؤالاً يطرحه.

– أذكره.

– لقد وصل في خدمته إلى رتبة جنرال.

– حقاً!...

– نعم..

– وأين هو الآن؟

– لم يعد موجوداً... مات فجأة بسبب نزيف في الدماغ!

– لا تقل ذلك... إنه لأمر محزن...

تحادثا طويلاً عن لا شيء تقريباً. تذكّرا جمال الطبيعة في المنطقة التي شيدت فيها مدرسة القناصين، وزيارة الجنرال البطل ووصيفه نيسليخالو

– وما حال ذلك الجنرال الآن؟ – قال خموروف كأنه يسأل نفسه.

– مات أيضاً.

– بجلطة؟

– لا، بسبب حساء الفطر. أكل فطراً ساماً.

– حوادث الدنيا كثيرة...

تحدثا عن كل شيء عرفاه بشكل مشترك، وبعد ذلك ظلّا ينظران طويلاً إلى الأفق الذي لاحت فيه هياكل الدريئات.

– هل ستقومين بالرمي؟ – سألها خموروف.

– آ – هيا، – أجابت أنجيلينا.

– حسناً، ها بنا...

هي لم تر من قبل أبداً مثل هذه الوفرة في السلاح. كانت تجهل أنظمة نصف هذه الأسلحة. تراجعت خطوة إلى الخلف بسبب الطاقة التي يرسلها الحديد القاتل.

– كم من الأعوام انقضى، – قالت.

– هل كنت تنفذين عملك بشكل جيد؟

– بشكل طبيعي.

– أنا لم أشك في ذلك، – هزّ خموروف رأسه في رضى، – هل تريدين بندقية من طراز «توكاريف»؟

– هل عندكم بندقية من هذا الطراز؟ – هتفت وهي تغص بريقها. أخرج المساعد من جيب بنطاله القطني مفتاحاً صغيراً فتح به الخزانة المتطرفة وأخرج منها آلة ملفوفة بقماش ملطخ بالزيت.

فرد القماش وأعطى أنجيلينا البندقية.

– أخذت السلاح، أمسكته بيديها بقوة، وزمت عينيها.

– مرحباً يا «توكاريف» قالت لها.

بعد ذلك رمت.

عجباً كيف استطاعت أن تعيش كل تلك الأعوام من دون رمي! كيف هدرت كل ذلك الوقت عبثاً!...

ضغطت أنجيلينا على الزناد بحركة انسيابية، وهي تحس بطيران الطلقة يسري في جلدها. أمتعها ارتداد كتفها إلى الخلف نتيجة الإطلاق، أكثر من مداعبة يد أي رجل لذلك الكتف، كان إطلاقها النار – ذروة نشوتها...

وراح خموروف في أثناء تحضيرها للطلقة التالية، يركض قفزاً، كما في الأيام الخالية، من دريئة إلى أخرى وهو يكتم ضحكات الفرح والإعجاب.

– كل الطلقات أصابت أهدافها! – تمتم مخاطباً الأفق. – يا لها من امرأة عبقرية!

الجندي الذي كان مستمراً في مراقبة المكان بمنظاره، لم يصدق عينيه، فهذه المرأة المدنية أصابت بتسعة وتسعين طلقة من مئة، أطلقتها، النقاط المركزية في أهدافها، أما الطلقة المئة فأصابت بها أرنباً رمادياً كان المشرف على الحقل يطارده بكلبه... لم يكن الجندي قد رأى مثل هذه المعجزة من قبل...

بعد ذلك أكلت أنجيلينا مع خموروف حساء دسماً بلحم الأرانب، وشرب كل منهما «مئة غرام» في صحة الذين لم يعودوا!...

تذكّرت فجأة الجنوبي الذي مات، والحمارين المقتولين، وكوستيك – أول رجل في حياتها، الفتى الذي قتلته قنبلة وزنها خمسمئة كيلو غرام قبل أن يصبح رجلاً... ومرت أمام عيني جيليا

كشريط سينمائي، وجوه جميع من عرفتهم من الرجال الذين يعيشون الآن في السماوات، وأجسادهم راقدة تحت التراب... الجنرالات، والعقداء، والجنود، وزوجها.

وتذكّر خموروف الذي كان يغرف الحساء بملعقة عسكرية من الألمنيوم، أشياء تخصه، وفكر بتلك الأمور التي لم تنسجم وحياته المشرفة على نهايتها...

كان الاثنان في مزاج عاطفي بطولي، لذلك شعر كل منهما بعاطفة الحب السامية تجاه الآخر – بعاطفة عظيمة من الصداقة الحقيقية!...

فيما بعد، علّمها خموروف في عشرة أيام استخدام أسلحة القنص الحديثة.

أنجيلينا التي أذهلها تقدم العلم، نظرت في عدسات التسديد الحديثة وتساءلت عن الحاجة إلى القناصين، ما دام باستطاعة طفل أن يصيب عين ذبابة إذا استخدم هذه التجهيزات...

رمت ورمت، من دون أن تلاحظ أن عدد العسكريين الذين يجتمعون لمراقبة حركاتها يزداد يوماً بعد يوم...

كثيرون من الرماة كانوا يتراهنون فيما بينهم، بعضهم يراهن على أنها ستخطئ في مجموعة الرميات التالية، فتحيد رصاصة واحدة على الأقل، عن مركز الهدف. لكن الأقلية الذكية التي تراهن على دقتها، كانت تربح... فيسيل الكونياك الأرمني أنهاراً... فيما بعد انغلق باب الرهان تلقائياً، بعد أن انتشرت في حقل الرمي إشاعة تقول إن هذه المرأة المدنية حائزة على مراتب وسام «المجد» كلها، وأن صدرها لا يتسع لكل الأوسمة والميداليات التي منحتها لها الحكومة تقديراً لخدماتها للوطن.

– عبقرية! – همس خموروف وقد أفرحه اهتمام الضباط بربيبته.

عدد من العسكريين الذين أثار اتقانها للرماية مشاعرهم، وكذلك تقاطيع جسدها الناضجة، حاول التقرب منها، لكنها لم تكن تمد يدها حتى لمن يريد مصافحتها. كانت تخفي يدها وراء ظهرها، كأنها تخاف شيئاً ما...

– أهي متزوجة؟ – سألوا خموروف.

– اعرفوا ذلك بأنفسكم، – أجابهم مدير حقل الرمي متملصاً.

بعد أسبوعين استدعيت أنجيلينا ليبيدا إلى الـ ( ك. جي. بي)

استقبلها الآسيوي بابتسامة لم يستطع كبتها.

– سمعت، سمعت! – قال لها وهو يدعوها إلى شرب كأس من الشاي الساخن، وتناول بعض السكاكر من نوع «دب الشمال» الموضوعة في طبق من الكريستال. – ثلاثة آلاف طلقة لم

تخطئ أي منها الهدف!

لم ترتبك بل أجابته بصدق

– لم تخطئ أي منها يا تيمور أشرابوفيتش!

– برافو!

– يسرني أداء واجبي!

– كفّي عن ذلك، أنت لست في الخدمة العسكرية!

– ألست في الخدمة؟!! ارتجف جسدها كله.

تحول الآسيوي في الحال إلى إنسان جاد. انزلقت الابتسامة عن وجهه، وضاقت عيناه فصارتا أشبه بشقين صغيرين.

– هل أنت متأكدة؟ – سألها القيرغيزي.

– تماماً.

– لن تكون هناك مكافآت، ولا مقالات في الصحف!

– أكمل كلامك!...

تشاء الأقدار أن تطير إلى ذلك البلد الجنوبي الذي بدأت فيه عملها كقناصة. هذا ما أخبرها به الجنرال الواثق أنه يستطيع أن يصارح هذه المرأة بتفاصيل مهمتها.

– لدينا هناك مصالح دائمة! – قال لها القيرغيزي موضحاً. – هل تذكرين؟...

أتراها لا تذكر؟...

يبدو لي أني سأنتهي في هذه الرمال، قالت أنجيلينا في سرها، وهي تحاول أن تبعد عن تفكيرها هدير محركات الطائرة، إن ذلك هو قدري على الأغلب...

فكّرت بالقدر – إنه المصير الذي لا معنى له. حياة الإنسانية كلها – مجرد جزء صغير من معنى ضخم، أو، على العكس، من اللا معنى. الإنسان لا يستطيع أن يعي نية الوجود كلها، لذلك من الرائع أن يعيش المرء في الدنيا كقطعة من زجاج مكسور دون أن يعرف إلى أي شيء تنتمي هذه القطعة...

في هذه المرة رافقها في الطائرة شاب فتيّ، كثير الكلام، بارد العينين، بدا مستاء من تكليفه بمرافقة امرأة، وراح يثرثر من دون توقف، محاولاً بذلك إخفاء استيائه.

أنجيلينا لم تكن تسمع تقريباً كلام الشاب، وهي غارقة في التفكير بشؤونها. نهضت فجأة عن المقعد المعدني، ثم فتحت حقيبة ظهرها، ونزعت ملابسها كلها ما عدا سروالها الداخلي.

بدا الثرثار كمن بلع قنفذاً.. راح ينظر بغباء إليها وهي ترتدي الثوب الواقي. سمع السحّاب يصرّ وهو يحجب عنه صدراً خيالياً..هو لم يتخيل أن لهذه المرأة تلك التقاطيع الجسدية الرائعة... لا مبالاتها به كرجل، وعريها الذي يعشى له البصر، أصابا حبه لذاته في الصميم، فجلس شاحباً كمن شرب السم، مشيحاً بوجهه عنها...

هي فعلاً لم تكن تعير مرافقها أي اهتمام، فهي، في هذه المرة تعرف مهمتها حتى أدق التفاصيل، وهي نفسها القائدة لهذه المهمة.

إنها، طبعاً، ما كانت أبداً لتخون بندقيتها الـ «توكاريف» أو تبدّلها بمئة بندقية من البنادق الحديثة. نزلت على سلّم الطائرة وهي تستنشق قيظ الرمال، حاضنة بذراعيها، كما يحضن الطفل، حبيبتها الـ «توكاريف» الملفوفة بقماش مشمّع.

من وراء مبنى الإدارة الصغير ظهر شاب وجهه بلون الشوكولا، يضع كوفية على رأسه ويرتدي ثوباً أبيض، يجر خلفه حمارين.

هذا مستحيل! – قالت أنجيلينا في سرها.

نظرت في عيني الشاب فعرفتهما – عينان سوداوان بياضهما تشوبه صفرة.

– إيفان؟– هتفت مذهولة. – إيفان!

– لا، لا، – أجاب الشاب بلفظ روسي تشوبه لكنة – أنا لست إيفان.

هي تذكر كيف حملها جنوبي يحمل اسم روسياً، عبر الصحراء، وهو مصاب بجرح مميت، وأنقذها لهدف لا يعرفه أحد غيره! وهي تذكر جيداً كيف صار لون إيفان المحتضر بلون الشوكولا البيضاء.

– من أنت؟ – سألته ثانية.

– ساشا، – أجاب الدليل بإيجاز.

آنذاك فهمت... إن هذا الساشا هو ابن ذاك الإيفان الذي ضحى بحياته قبل عشرين عاماً... وتذكرت ذلك الطفل الأسمر الذي تركته يتيماً في هذه البلاد.

– هل تتذكّرني يا ساشا؟ – سألته بما يشبه الصراخ.

– لا، لا...

– أنا وأبوك...

– فلنغادر، – طلب منها المرافق الروسي. – حان الوقت!

– يجب ألّا يذهب معي! – قالت إنجيلينا بغضب فجأة. – ليبق هنا!

– هذا مستحيل! أنت لا تعرفين الطريق!

– ليرافقني غيره إذن!

– ليس عندنا أحد غيره! – أجابها المرافق بلهجة باكية.

– هل تذكرني؟!!

– لا، لا!...

تمالكت نفسها أخيراً وانطلقا...

كان كل شيء كما في الماضي... رمال وبطّتا ساقين متحسستان من الاحتكاك بخاصرتي الحمار... وجسد متعرّق لزج، وقناعة صلبة بأن عذاباتها ستساعد الوطن...

وللمرة الثانية وصلت إلى المكان المعدّ للرصد والرمي، وفيه إبريق ماء بارد مطمور في الرمل.

المنظار الحربي في كيسه... نزعت نظّارتها وتأملت المنطقة عبر عدسة المنظار...

واحة صغيرة تبدو خالية من الحياة... يسودها هدوء يسمع فيه صوت انزلاق الرمل تجرفه ريح خفيفة...

ألصقت عينها بالمطاط المحيط بفتحة التسديد في البندقية... وانتظرت... توقف الوقت وتوقفت الشمس التي كانت تحاول أن تسلق دماغها...

فجأة شعرت أنجيلينا بوخزة ألم في رأسها، انصرفت عن التسديد فرأت عظاءة صغيرة، بدت كأنها مصنوعة من الذهب. نظرت العظاءة إليها وهي ترفع قوائمها بالتناوب كي لا تحترق بحرارة الرمل... مدّت أنجيلينا يدها نحوها آلياً، لمست ذيلها فانفصل حالاً عن جسدها وراح يلتف حول إصبعها...

أما العظاءة التي تخففت من الذيل، فانطلقت عبر الرمال، والبلاد، والقارات لتعود إلى صاحبها ميكيلوبولوس الذي توترت أعصابه توتراً فظيعاً بسبب الغياب الطويل لكنزه الذي عاد إليه، لكن من دون ذيل...

عادت جيليا تنظر عبر عدسة التسديد في البندقية، وحين ظهر الهدف عند نقطة التقاء الخطين المتعامدين، ضغطت على الزناد بحركة انسيابية، فانطلقت الرصاصة...

أصابت الرصاصة نقرة الضحية التي استطاعت أن تلتفت قبل أن تموت... هي لم تكن رجلاً كما توقعت أنجيلينا، بل كانت امرأة ذات عينين رائعتين باتتا الآن ميتتين... ذهلت جيليا...

في هذه المرة لم يردّ أحد عليهما بإطلاق النار من الرشاشات فوصلا بسرعة إلى المطار.

– كيف؟ – سألها المرافق قلقاً. – هل كل شيء على ما يرام؟

مسح العرق عن جبينه ونظر إلى عينيها محاولاً أن يجد فيهما ما يؤكد أن المهمة قد نُفّذت.

– أخفقنا، – أجابته بصوت هادئ، – فلنرحل...

– أخفقنا، كيف؟!...

– هيا نرحل!

خطر في بال المرافق الشاب أن مستقبله الوظيفي قد انتهى بهذا الإخفاق، فانتابه الإحباط. صعد سلم الطائرة ببطء ودخل صالون الطائرة.

– الوداع يا ساشا!

– هيّا، هيّا! – أجابه الجنوبي.

درجت الطائرة قليلاً ثم حلقت حاملة أنجيلينا إلى الوطن.

نظر ساشا الجنوبي إلى الطائر الحديدي المغادر، وهو يظلل عينيه من ضوء الشمس الحارق بكفه السمراء. لقد كان يذكر جيداً هذه المرأة البيضاء التي أخذت أباه إلى السماء منذ زمن بعيد، فيتمته وهو ما يزال طفلاً...

– ليتك (تفطسين)! – قال بلغته المحلية في إثرها...

لا مكافآت، ولا مقالات في الصحف – لا شيء!

لم يستقبلها أحد في المطار العسكري، واختفى المرافق وذاب في الفضاء ذوباناً معجزاً.

وصلت جيليا إلى موسكو بالقطار الكهربائي، وراحت، على وقع دوران عجلاته تفكّر بما ستقوله لتيمور أشرابوفيتش... لم تنجح في ترتيب أفكارها، فأملت أن تقوم عيناها تلقائياً بتوضيح الأمر كله... ليس هناك قناص لا يخطئ!... لكن القناص الذي يخطئ لا يظل قناصاً!...

وصلت إلى المبنى في لوبيانكا، قدّمت بطاقتها للتدقيق.

ظل المساعد يدقق كنيتها طويلاً وهو يحرّك شفته:

– ل ي – بـ ـي – دا...

أما هي فلاحظت كيف اصطبغ وجه عنصر الحرس بحمرة خفيفة، ثم دسّ بطاقتها في جيب سترته وقال لها:

– بطاقتك فاقدة الصلاحية.

– لم تستوضحه عن شيء، بل جلست ببساطة على مقعد صغير قرب الدخل ساعة كاملة، ثم نهضت بحزم وغادرت المكان.

سافرت إلى توشينو، وذهبت إلى حقل الرمي، حيث حاولت البحث عن خموروف.

– لقد اختفى! – أبلغها أحد جنود الحراسة. – لم يظهر منذ يومين. قد يكون مريضاً!... أنت لم تزورينا منذ زمن. هل جئت للتدرب على الرمي؟... أنت – أستاذة...

اقترب من الجندي قائد مجموعة الحراسة الذي كان إلى أمد غير بعيد يحاول التقرب من أنجيلينا، وصرخ بهيستيرية:

– ما سبب وجود الغرباء في حقل الرمي؟!!

– أي غرباء؟ – سأل الجندي مذهولاً.

– أنا أسألك: ما الوثائق التي أبرزتها هذه المواطنة كي تسمح لها بالدخول إلى هذه المنطقة العسكرية؟!!

– إنها...

– استاعدّ! – صرخ الضابط. – أخرج هذه الغريبة فوراً إلى خارج المنطقة!

– حاضر!

جيليا نفسها فهمت كل شيء فاتجهت بخطا سريعة نحو المخرج.

– سامحيني، – قال لها الجندي معتذراً.

جلست في مقعدها تهتز باهتزاز الباص الغاص بالركاب، وراحت تفكّر بما حدث بوصفه حدثاً طبيعياً مشروعاً. لم تنقم على أحد، ففي اختصاصها، وعلى هذا المستوى، الخطأ عار. لقد خذلت البلاد، وتيمور أشرابوفيتش، وخموروف. إنها، وهي حاملة وسام «المجد» بكل مراتبه، محت ماضيها كله، وماضي الناس القريبين منها.

آلمها ذلك كثيراً!... أنجيلينا لم تتصور أبداً أن مثل هذا الألم يمكن أن يصيب أي إنسان. بدا لها أن عينيها امتلأتا سواداً وأن حدقيتها اتسعتا فغطتا بياض العينين كله، وراحتا تدوران دوراناً مسعوراً!...

حاولت أن تصرخ، لكن فتحة بلعومها التي يمرّ عبرها الهواء، كانت مغلقة لا تسمح بانفلات الصرخة...

لقد بدا لها أن جسدها غارق في حمض يذيب وجودها كله!

– ماما!!! – صرخ عقلها.

كان من المفترض أن تموت فوراً بسبب هذا الألم، أو أن تفقد وعيها على الأقل!...

السائل الذي ملأ الحجرة وصل إلى وجهها... وخُيّل لها أن جلدها المذاب في الحمض، يسيل عن عظامها!

ماما!!!

– اصبري! – سمعت صوت أوتياكين.

– سافل! – صرخ عقلها في ردّه عليه.

كان أوتياكين يتابع بانتباه حركة مؤشر الثواني.

الدكتور كان يعرف طبعاً ما تعانيه مريضته الآن، لذلك اقترب من الحجرة وحقن في جهاز التنقيط جرعة مخدر. لم يفعل ميخائيل فاليريانوفيتش ذلك من باب التعاطف مع المرأة التي تحت التجربة، بل انطلاقاً من التجربة وضرورة تنفيذها تنفيذاً كاملاً. كان لا بد له من معرفة أبعاد العملية كلها.

شعرت أنجيلينا لبرهة أن الألم قد زال، فحركت فكّها، لكنها أحست من جديد بآلاف الإبر المحماة تنغرس في جسدها.

– هذه هي النهاية! – قالت في سرها. – إنه الموت!...

غير أنها لم تمت، بل وقعت، وهي يقظة، في جحيم عادي جداً. سلقوها حية! وسلخوا جلدها!

لقد كان ما حدث فعلاً قريباً جداً مما أحست به.

دخلت في تركيب السوائل التي سرت في عروق أنجيلينا حموض معروفة، وأخرى حضّرها أوتياكين. وكانت مهمة هذه السوائل تدمير الغطاء الجلدي لجسد الإنسان، من دون المساس بالنسيج العضلي أو إيذاء النهايات العصبية.

إن أي عالم كيمياء سيرفض إمكانية تحقيق ذلك إذا اطلع على التجربة، لكن أوتياكين لم يكن يعترف بوجود مهمات غير قابلة للحل. لقد كان يؤمن إيماناً صلباً بأن أنجيلينا ستخرج من التجربة حية وستكون أول حيّ على الأرض تستمر حياته على سطح الكوكب زمناً طويلاً طولاً فوق العادة.

هل يمكن إجراء هذه التجربة على أناس آخرين؟... جواب أوتياكين على هذا السؤال واحد دائماً – هو «لا»... ثمة أمر آخر يجب أن يتحقق، كي يحدث ما افترض ميخائيل فاليريانوفيتش حدوثه... وهذا الأمر يتعلق بتشارمن ديميسوفيتش، وهو يحتفظ به في حجر قديم لخاتم يزين به إصبعه المشعرة...

عضة العظاءة الذهبية لقشرة الدماغ عامل ضروري مكمّل لبحوث الطبيب العالم. هكذا هو الأمر بالضبط. العظاءة ليست العنصر الرئيس في الصراع ضد الموت الطبيعي، العنصر الرئيس هو عبقرية أوتياكين! هو وحده من يستطيع أن يتعامل مع الجلد القديم العديم الفائدة، المتفسخ بسبب خلاياه الفاسدة! أما ما تفرزه العظاءة، فسيدرسه حتماً فور وقوع هذا الكائن الزاحف بين يديه الماهرتين.

وقفت سيارة الـ «بينتلي» الغالية الثمن أمام المصرف.

تشارمن ديميسوفيتش يعرف صاحب المصرف، لذلك جاء بناء على موعد مسبق. أما صاحب المصرف فكان قلقاً جداً لأنه كان يجهل سبب زيارة هذه الشخصية الواسعة النفوذ.

من الطبيعي أن جورج يفغينيفيتش المهاجر من الاتحاد السوفييتي إلى فرنسا، العائد إلى روسيا، كان مستعداً للإسراع فوراً إلى أية نقطة في العالم يدعوه إليها تشارمن ديميسوفيتش. لكن هذا الرجل المحترم أصر على أن يأتي شخصياً إلى مكتب جورج.

حاول المصرفي أن يهدئ نفسه، فمصرفه لا يحتاج الغجري – هكذا كانوا في عالم البيزنس يسمون زائر اليوم – في أي من أعماله التي كانت كميتها كافية في نظر جورج، وتافهة في نظر الغجري! لكن ما الدافع إلى هذه الزيارة؟... إنه ليس الصداقة بالتأكيد، فمعرفة كل منهما بالآخر معرفة سطحية!...

رنّ الهاتف الداخلي.

صوت السكرتيرة ليزا الناعم راح يقدم له المعلومات:

– جورج يفغينيفيتش! اتصلوا من السفارة الفرنسية يدعونك أنت وزوجتك إلى حفلة باخميت...

– باشميت، – صحح لها المهاجر العائد لفظها.

– فهمت... – قالت ليزا وتنهدت معبرة عن أسفها، ثم تابعت. – في قاعة الانتظار رودينكو يطقطق بقدميه، لديه، على ما يبدو، أمر مستعجل، وبوخلايف يريد استشارتك قبل المثول أمام لجنة المحاسبة، وثمة سيد كنيته غريبة: ميكي... ميكيلوبولوس... هل أدعو رودينكو؟

– الذي يدعو هو أنا فقط! قال جورج يفغينيفيتش غاضباً من دون سبب معروف، مع أنه كان بطبعه رجلاً بارداً ومهذباً. – اصرفي الجميع إلى حيث!... وادعي لي السيد ميكيلوبولوس، واعتذري له عن التأخير!

– لكنه وصل لتوه!

– سأصرفك من العمل إذا كنت بطيئة الفهم!

بعد عشرين ثانية كان تشارمن يجلس على أريكة من الخشب الأسود مغطاة بقماش أحمر.

جلس مباشرة من دون أن يخلع معطفه، مستقيم الظهر، مستنداً بيديه الاثنتين إلى عكازه.

– مثل هذه عند ستالوني! – قال جورج.

أدار تشارمن ديميسوفيتش رأسه قليلاً معبراً عن عدم فهمه لما قيل.

– أنا أعني الأريكة، – قال المصرفي مرتبكاً، الأثاث الذي في بيت الممثل كهذا الأثاث!...

أطلق جورج يغفينيفيتش على نفسه لقب «غبي» في سره طبعاً.

– جميل، – قال تشارمن يوافقه، ثم صمت عدة دقائق طويلة، لانهائية، تقريباً.

كان المصرفي مستعداً للانتظار دهرين إذا احتاج الأمر.

– رنّ جرس الهاتف فأقفل جورج الخط على الفور.

أخيراً أخرج تشارمن ديميسوفيتش سيجاراً من علبته الفضية وأشعله، معذّباً بذلك رئتي المصرفي الضعيفتين، ثم سأله:

– لماذا يا جورج يفغينيفيتش حرمت الأطفال من حديقتهم الصغيرة؟

– أية حديقة؟ – لم يفهم المصرفي السؤال.

– مصرفك يقوم، حسبما أعرف، في مكان كان حديقة أطفال أيتام!

من المؤكد أنه قرر انتزاع المصرف مني! – قال المهاجر العائد في سره. – وابتسم في العلن ابتسامة حامضة وهو يجيبه:

– ما هذا الكلام يا تشارمن ديميسوفيتش! أنا لست نهّاباً، ولا قاطع طريق! الحديقة الصغيرة كانت ملكاً لصندوق اتحاد الأدباء الروس، وأنا اشتريت منه هذا المبنى.

– وأين ذهبتم بالأطفال؟

فرد جورج يفغينيتفيتش ذراعيه معبراً عن عدم معرفته.

– ألا تعرف كم أنفق الأعمال الخيرية؟

– أعرف طبعاً، – أجابه تشارمن، ونفث نحو السقف سحابة من الدخان جعلت المصرفي يخاف أن تتنبه لذلك أجهزة إنذار الحريق فتطلق أبواقها. – قل لي بصدق يا جورج يفغينيفيتش أين أرشيف الحديقة؟

– أي أرشيف؟ – لم يفهم المهاجر العائد السؤال.

– لقد علمت أن صندوق اتحاد الأدباء ترك لك الأرشيف كنوع من المكافأة. وأنا بحاجة إليه!

– وما الذي يهمك فيه؟ – طرح جورج يفغينيفيتش سؤاله بغباء.

– مصنفات الأطفال الذين دون الثالثة سناً.

ضحك المصرفي متصنعاً الطيبة. وهو لم يفهم شيئاً مما قاله جليسه. أي أرشيف؟ وأية مصنفات؟

– هل ستعطيها لي مجاناً أم ستبيعني إياها؟

عند سماع كلمة «ستبيع» عاد لجورج يفغينيفيتش من جديد إحساسه بأنه مصرفي.

– أنا موافق على بيعها، – قال على الفور.

– كم تريد ثمناً لها؟

– حسناً... ما أطلبه مبلغ زهيد... سبعمئة ألف...

– سبعمئة ألف ماذا؟ – استوضحه تشارمن ديميسوفيتش.

– يورو.

– مفهوم... في هذه الحالة سآخذ أريكة ستالوني (على البيعة)...

– لك أيها السيد ميكيلوبولوس أن تأخذ ما تشاء!

– من صاحب أكبر وديعة عندك يا جورج يفغينيفيتش؟

بسط المصرفي ذراعيه وألقى على ضيفه نظرة لوم، فرجل في هذا المستوى يعرف أن المعلومات التي من هذا النوع سرية.

– شركة «محيط الزمن»، – أجابه جورج يفغينيفيتش مخالفاً قواعد السرية.

– ثمانية وتسعون بالمئة من أسهم هذه الشركة لي، والسهمان الباقيان هدية مني لأكاديمية العلوم. لقد حان وقت سحب هذه الوديعة. – نهض تشارمن ديميسوفيتش عن أريكة ستالوني واتجه نحو الباب. – بعد ثلاث دقائق ستصلك قوائم الحسابات. يجب أن تضيف إليها الفوائد، – أبلغه من دون أن يتوقف.

كاد جورج يفغينيفيتش أن يموت في الحال، لكن هذا المهاجر العائد أعلن قبل أن يفعل ذلك، قراره بمنح ميكيلوبولوس أرشيف حديقة الأطفال مجاناً، خدمة للبحث العلمي، إذا جاز التعبير...

– شكراً، – قال تشارمن وهو يلتفت التفاتة قصيرة. – أنا أحتاج مصنفات الأطفال المولودين في أواخر شباط، عام 1964... أظن أن هذا الشرط ينطبق على مصنف واحد... حاول، أنت شخصياً أن تجده لي، أما بقية مصنفات الأرشيف فيمكنك أن تحتفظ بها!

التفت تشارمن ديميسوفيتش، بوجهه الذي يشبه وجه الجمل، إلى المهاجر العائد وقال له:

– أعد الحديقة للأطفال يا جورجيك! فأخذها منهم عمل قبيح!...

بعد المهمة الفاشلة في البلد الجنوبي، عملت أنجيلينا في مطعم شعبي يقدم البيلمينيه[9] في ساحة تروبنايا. كان العمل صعباً، لكن ذلك ساعدها في سلوان أفكارها عن إخفاقها. كانت تستمع إلى طلبات الزبائن، وتحضر بشكل آلي الأطباق الكبيرة والصغيرة، وتنكهها، بناء على طلبهم، بالقشطة، أو الزبدة، أو الخل. تضع الأطباق في كفة الميزان كإنسان آلي، وتصرخ حين يخرج الزبائن

زجاجات الفودكا من جيوبهم، لكنها لم تكن تغضب غضباً حقيقياً ما لم يسكر الزبون إلى حدّ فقدان الوعي.

كانت جيليا تصطحب أحياناً بعض محبي أطباق هذا المطعم إلى بيتها، كي تجنّب جسدها العذاب، إذ من الصعب جداً أن تكون الروح مريضة، ويكون الجسد، في الوقت نفسه، قلقاً بسبب كثرة ما فيه من عصارة تائهة.

لم تكن زميلات ليبيدا في العمل يلمنها بقسوة، فهي امرأة غير متزوجة، وليس في المطعم منظمة للكومسومول، ولا للحزب أيضاً.

لقد كان الوجه الأخلاقي لذلك المطعم في مستوى متدنّ، لكنه كان يحقق دخلاً محترماً – كان مطعماً رائداً في الحي. وكان اتحاد المطاعم الشعبية يغمض عينيه من وقت لآخر عن كل الشكاوى التي ترده بشأنه، ويكتفي رئيس الاتحاد بالاتصال هاتفياً، وإبلاغ العاملين فيه بضرورة الكشف الطبي وأخذ اللقاحات ضد الأمراض الزهرية.

سارت حياة أنجيلينا في مجراها الطبيعي، وحين بلغت الثالثة والخمسين احتفلت بعيد ميلادها في عزلة تامة. لم يكن على مائدتها سوى طبق من طعام المطعم، وزجاجة فودكا صغيرة.

دقت بكأسها عنق الزجاجة وكتمت ضحكة ساخرة ثم قالت رافعة كأسها:

– نخب الرجال الذين كانوا سعداء معي، نخبكم يا من ما عدتم معي منذ زمن بعيد!...

أخذت رشفة من الكأس، تقلص وجهها، وقضمت قطعاً من البيلمينية العائمة في الماء ثم ذهبت إلى الفراش. قبل النوم نظفت أسنانها بمسحوق تنظيف الأسنان، وغسلت جسدها حتى الخصر. نظرت في المرآة إلى صدرها – ثدياها ما يزالان فتييّن كأثداء الفتيات، صلبين، ووقحين... ما جدوى هذا كله؟

إن سبب بقائهما هكذا هو أنها لم تنجب أطفالاً، – قالت في سرها. – المرأة في الخامسة والأربعين تعود صبية!

راحت تتساءل وهي راقدة في السرير عما يمكن أن يكون قد حدث في حياتها خطأ فبقيت دون أطفال!... يبدو أن في الطبيعة أناساً خلقوا كي يحافظوا على استمرار النوع الإنساني، وأفراداً خلقوا لأدوار أخرى.

هي قناصة. هي قناصة سابقة!... لم تستطع جيليا أن تبتكر لنفسها دوراً آخر، لذلك أغفت في عيد ميلادها مندهشة من حياتها الغريبة.

انتابتها في اليوم التالي هيستيريا هادئة. هذا النوع من الهيستيريا يحدث حين يمتلئ عالم الإنسان الداخلي بالفراغ.

في مخزن المواد الغذائية دفعت في الصندوق ثمن نصف كيلو من المرتديلا، لكنها لم تقف في الطابور كما هي العادة، بل مشت حتى طاولة البيع، فأزاحت بكتفها امرأة سمينة، ومدّت يدها بالشيك للبائعة.

– قفي في الدور! – صاحت بها البائعة.

– أعطني المرتديلا التي دفعت ثمنها! – طالبتها أنجيلينا.

هدر الناس في الطابور معبرين عن استيائهم بعدوانية.

– بالدور! – صاح ذوو الأعصاب المتوترة.

– صبيّة، ووقحة!

الأكثر هياجاً كانت سيدة بدينة، يبدو أنها ربة منزل، أكلت الكثير من المايونيز ليلاً قبل أن تنام.

– يكفي أن تنظروا إليها! – قالت السيدة وقد انتفخ صدرها الضخم. – إنها عاهرة! قحبة!... قذرة تتسلل بلا دور!

جيليا احتفظت بهدوئها الظاهري وتابعت مطالبتها:

– أعطني المرتديلا التي طلبتها! هذا حقي!

– إيخ، هي تدعي أن لها حق! – صاحت المرأة المستاءة، لتزيد الشجار اشتعالاً. – من أنت؟ هل أنت أم لكثير من الأطفال؟

– لا... المرتديلا!

– عاجزة؟

– لا... أنا أنتظر!

– بطلة الاتحاد السوفييتي؟ – قالت المرأة ساخرة حاضة الطابور على مشاركتها الهجوم، فاستقبل الطابور دعوتها بالترحيب وقهقه بحقد.

– أنا – أحمل لقب فارس.

– لا أحد يشك في ذلك! – قالت ذات الصدر الضخم بحماسة مصطنعة ساخرة. – أخت الرجال!... فارس يريد اختطاف الصبية النبيلة!...

هنا فقدت جيليا القدرة على ضبط أعصابها، فقرر عقلها ببساطة أن وقت الفعل قد حان. جمعت أصابعها في قبضة، وأرسلت إلى أنف المرأة ضربة من أعلى إلى أسفل. ضربتها ضربة قوية مؤلمة، فانفجر أنف المرأة كحبة بندورة وانبثقت منه دفقة من الدم.

– أعطني المرتديلا التي تخصني! – كررت جيليا طلبها للبائعة. البائعة التي أذهلها ما جرى، دفعت نحو من تطالبها كيساً ورقياً واختفت في القسم الخلفي من المخزن.

في هذه اللحظة ارتمت المرأة على الأرض متأخرة بعض الشيء، جاذبة بسقوطها أنظار الطابور المنذهل. لكن جيليا لم تر ذلك، فهي كانت في هذا الوقت تمشي في الشارع ممتلئة بهيستيريا صامتة.

قبضت عليها الشرطة في بولفار بيتروفسكي.

أحضروها إلى القسم، واحتفظوا بها بعض الوقت وراء القضبان، ثم جاؤوا بها إلى المكتب للتحقيق.

في الغرفة الحسنة الإضاءة احتشد نصف الطابور الذي كان في المخزن. النساء والرجال الذين دوّنوا أسماءهم شهوداً، التمعت عيونهم بغضب عادل. أمام طاولة المفوّض بالتحقيق جلست المرأة ذات الصدر الضخم وقد دست في خيشومها الدامي منديل أنف رجالياً كبيراً.

– هي ذي العاطلة! – هتفت المجروح أنفها.

– أطلب منكم المحافظة على أدب الكلام! – قال المحقق يحضهم على حفظ النظام. لقد أراد ان ينتهي من هذا الحدث البسيط بسرعة، يأمر بعزل المعتدي خمسة عشر يوماً عن المجتمع، ثم يذهب إلى البيت لمشاهدة مباراة كرة القدم مع ابنه، والبيرة، والسمك المملح. – كيف فعلت ذلك يا مواطنة، – قال مخاطباً أنجيلينا. – هذا عمل من أعمال (الزعرنة)!... هل تشربين الخمر؟

– إنها مدمنة كحول! – قالت المصابة وهي تنشق الدم السائل من أنفها. – هذا ظاهر على سحنتها!

– أنا لا أشرب، – قالت جيليا بهدوء. لقد زالت نوبتها الهيستيرية، وهي الآن نادمة على ما فعلت. – سامحيني، أنا مذنبة...

لم يكن أي من الشهود يتوقع منها الاعتذار، لذلك شعر كل منهم بالرغبة في الذهاب إلى بيته حين سمعوها تعتذر.

– طيب، ها أنتذي تعتذرين – قال المحقق مندهشاً. – لِمَ لم تفكري قبل أن تفعلي؟... أنت ما عدت في العشرين من العمر... كان بمقدورك أن تفكري!... أما الآن فهذه المواطنة كتبت شكوى،

وواجبي هو التعامل مع ذلك وفق القانون!... إلا إذا قررت هي أن تسامحك وسحبت شكواها!...

شخرت المرأة ساخرة من هذا الاقتراح غير المعقول.

– أنا أريد مقاضاتها في المحكمة! – قالت بلهجة حازمة.

– ها أنتذي ترين، – قال الشرطي بلهجة آسفة.

– تريد مقاضاتي في المحكمة، فليكن – قالت أنجيلينا في هدوء.

كانت ذات الصدر الضخم راضية عن سير القضية.

– أريدهم أن يحكموا عليها بالسجن عشرين عاماً في زنزانة منفردة! قالت المصابة.

– الأفضل إعدامها رمياً بالرصاص – قال المحقق معلّقاً على طلبها بسخرية.

– آ – ها – قالت موافقة على اقتراحه.

أنهى الشرطي كتابة الضبط ثم طلب من الشهود أن يضعوا تواقيعهم.

– يمكنكم الانصراف! المحكمة ستستدعيكم عند المحاكمة!

المحتشدون غادروا قسم الشرطة في الحال، تاركين المجرمة والضحية وحيدتين عند ممثل القانون.

سأل ممثل القانون الضحية مرة أخرى.

– ألا تريدين إنهاء هذه القضية صلحاً؟

– أريد أن تأخذ الشكوى مجراها! – قالت ذات الصدر الضخم بغضب.

– يمكنك الانصراف!

تدحرجت المرأة بخيشومها المسدود بمنديل مضرج بالدم، خارجة من المكتب.

أحس الشرطي بأن مزاجه قد ساء لسبب لا يدريه.

لقد نسي أمر كرة القدم. ولم يضع أنجيلينا في الزنزانة. هو نفسه لم يكن يعرف لماذا يفعل ذلك.

– لماذا حاولت أخذ حاجتك من دون التقيد بالدور؟ إلى أين كنت تسرعين؟

– لم أكن أسرع إلى أي مكان، – أجابته أنجيلينا بصدق.

– إذن لماذا فعلت ذلك؟

– كان مزاجي سيئاً.

– هل مزاجك الآن أفضل؟

ظلت صامتة.

– هذه القضية قد لا تنتهي عند عزلك خمسة عشر يوماً، إذا أصرت الضحية على مقاضاتك!

– ليكن!...

– أنت أدرى بأمرك! – قال المحقق بلهجة أسف، وقرّب المحضر من جيليا. – اكتبي أيتها المواطنة ليبيدا «هذه أقوالي مدونة بأمانة» وضعي توقيعك...

قامت بما طلب منها ثم قالت:

– أنا حائزة على وسام «المجد» بكل مراتبه.

– ماذا؟ – سألها الشرطي مستوضحاً.

– أنا حائزة على وسام «لينين» ثلاث مرات، ووسام «النجمة الحمراء» أربع مرات... وعندي أربع وثلاثون جائزة حربية...

الشرطي ظن أنها مجنونة.

– لماذا تكذبين؟

– الوثائق موجودة في الكيس... مع المرتديلا...

أصدر أمره بإحضار الكيس.

تفحص المحقق محتويات الكيس ثم قال:

– لا وجود للمرتديلا...

لكنه وجد في قاع الكيس كتيّباً أحمر...

دقق النظر في الكتيب، أما هي فشعرت بالخجل من شيء ما.

– لقد أكل السفلة المرتديلا! – قال الشرطي بغضب.

– لتذهب المرتديلا إلى الشيطان.

لم يتبادلا بعد ذلك أي كلام. مزّق المحضر، ثم مزق شكوى ذات الصدر الضخم ورماها في سلة المهملات، وأعطاها الوثائق والكيس.

– اذهبي...

لمست يديه مصادفة فأحست بالبرد. جدول رفيع من الصقيع سرى في جسدها، ارتقى في عروقها إلى القلب، ودخله سيّداً.

يا إلهي منذ زمن طويل لم تشعر بمثل هذا! لقد اعتقدت أن هذا الإحساس لن ينتابها أبداً، وأن رسالتها في إرسال الرجال إلى العالم الآخر قد انتهت!... أرادت أن تصرخ، لكن وجهها احتفظ بهدوئه الشبيه بهدوء المقابر.

انتظرته في الشارع...

صارا يلتقيان سراً، لأن لديه زوجة شرعية، وولداً في سن الشباب تقريباً.

كان يشبّه متانة صدرها وجماله بفولاذ مسدسه، وكان يحب مسدسه حباً جماً...

استمرت جيليا في عملها في المطعم، وكان يخيّل لها أن مؤشر الميزان الأحمر، هو مؤشر الوقت... متى؟...

هذه الـ «متى» حلت بعد ست سنوات، فكادت أن تجمّد قلب أنجيلينا ببرد قاتل...

كانوا يرافقون سيارة نقل النقود: ثلاثة رجال أشداء، عملوا في سلك الشرطة من قبل، أصيب كل منهم بطلقة في ركبته. اثنان منهم شفيا بعد شهرين، أما هو فتعفن جرح ساقه. تركوها، لم يبتروها، على أمل أن تشفى بالعلاج. اضطروا فيما بعد إلى بتر رجله من الفخذ. لكن قلب الشرطي كان قد التهب التهاباً قاتلاً... لم تذهب لدفنه، بل هي حتى لم تبكِ...

في يوم دفنه عملت بشكل جيد، صبّت الزبدة والقشدة بسخاء على قطع «البيلمينيه». زال البرد عن قلبها كما زال الشرطي من الوجود...

هي لم تتصور أن الألم سيكون شديداً إلى هذا الحد...

أوتياكين – مجنون...

حاولت أنجيلينا أن تتخلص من واقية الأسنان كي تأخذ جرعة قاتلة من الحمض، لكن عضلات وجهها التي نزع جلدها، لم تطعها...

عقلها الذي كان يغيب ويحضر، افترض أنهم «سيصنعون منها صابوناً»!

ظل أوتياكين يراقب عدّاد الثواني تارة، والأجهزة التي تنبئ عن حالة الجسم الموجود في الحجرة، تارة أخرى.

بعد الدقيقة العشرين من الحجز، بات ميخائيل فاليريانوفيتش متأكداً بشكل مطلق أن المواطنة ليبيدا هي تلك التي بحثوا عنها طويلاً. الإنسان العادي كان يموت بعد تسعين أو مئة ثانية في أكثر تقدير...

طغى على عقل أوتياكين الشعور باعتزاز غير عادي بعبقريته التي تحققت، لكنه استطاع بعد جهد أن يغرق ذلك الشعور في عصارة معدته مؤقتاً، مقرراً أن فرحه سيكون عند انتهاء التجربة.

أوتياكين يعرف كم تتألم أنجيلينا الآن، لكنه كان يعرف أيضاً كيف ينسى المرء الألم سريعاً إذا بلغ الهدف الذي يسعى إليه. إن ليبيدا ستقبّل حتى قدميه تعبيراً عن الامتنان!

انقضت الدقائق الست التالية...

كان ميخائيل فاليريانوفيتش يراقب عبر نافذة الحجرة كيف تذوب نتف الجلد الأخيرة والشحم الأصفر في الحمض الذي ابتكر تركيبه.

ابتسم الدكتور.

– بقي القليل! – صرخ وهو يعرف تماماً أن أنجيلينا لا تسمعه.

وبالفعل، بعد دقيقة أقفل ميخائيل فاليريانوفيتش الصنبور الذي يزود الحجرة بالحمض، وشغّل جهاز الامتصاص لذي راح يعمل بشكل متقطع، كأنه يشعر بالألم أيضاً...

عقل أنجيلينا ظل كما هو، يعجز عن ترتيب قطع الموزاييك في لوحة، ويعاني يائساً من ضبع ناري ظهر له في اليقظة. وهكذا تشكلت لديه لوحة من كتاب في التاريخ – صورة غولة على النار تعوي!...

ضغط أوتياكين بإصبع بيضاء كأنها خالية من الدم، على زر فهطل من سقف الحجرة على أنجيلينا مطر من محلول فيزيولوجي أذيبت فيه مضادات حيوية...

– لا تفقدي وعيك! – أمرها أوتياكين وهو ينظر إلى عينيها اللتين تورمتا في محجريهما خلف زجاج نظارتها. – استمري في النظر!... لم يبق الكثير!...

ضغط ميخائيل فاليريانوفيتش على زر آخر فشرعت الحجرة تمتلئ بسائل عكر يشبه الغليسيرين.

لقد حضّر أوتياكين هذا المركب في السنوات العشر الأخيرة، فقد استطاع أن يتعلّم كيف يفصل الخلايا الجذعية التي تقوم بتجديد الغطاء الجلدي، عن كتلة الخلايا الجذعية عموماً. كما أنه استطاع أن يكتشف ويخترع الكثير أيضاً مما تحتاجه التجربة التي يجريها، وتتعلق بها حياته. إن أي انتصار علمي حققه أوتياكين كان يستحق جائزة نوبل، لكن ميخائيل فاليريانوفيتش تخلّص منذ زمن بعيد من الظمأ إلى الشهرة، وقرر أن مدّ العمر إلى ما يقرب من الستمئة عام أفضل بكثير من كل هذه الأُلهيات الطفولية...

امتلأت الحجرة. وبقبقت فيها فقاعة كبيرة...

شعرت أنجيلينا فجأة بتراجع الألم، وعومان الوعي في الدفاع... أنا – حية، – هذا ما وعته ليبيدا.

راحت، كأنها ميتة، تطفو تارة على سطح السائل، وتغوص تارة إلى القاع...

أيمكن أن يكون هذا مجرد رؤى وهمية أراها وأنا أحتضر؟ – قالت في سرها. – أنا – فقاعة...

أرادت فجأة أن تنام، فأرخت العنان لنفسها، وقررت أن تستسلم للموت.

أين أنتم يا رجالي الذين رحلوا؟ – قالت في سرها في الختام. – كوستيك... استقبلني...

أغفت أنجيلينا ليبيدا مئة وعشرين ساعة...

في اليوم الأول راقب أوتياكين شخصياً نوم زبونته «الأولى»، على حد تعبيره، وترك أمر مراقبة الحجرة في اليومين التاليين لأليكسندرا، وأمرها أن تكون يقظة وألا تسمح لأي من الغرباء بالاقتراب من الحجرة، وأن تتصل به في مكتبه عند الضرورة.

– طبعاً، طبعاً! – أجابت الممرضة. – زوجتك هناك تنتظرك!

شحب وجه ميخائيل فاليريانوفيتش، وسبب شحوبه كان الغضب.

مشى بخطوات واسعة إلى المكتب وهو يلوّح بيديه النحيلتين الطويلتين، فبدا كحلقة تتدحرج...

كانت سفيتوشكا جالسة على كرسي صغير في المكتب كأنها زبونة تنتظر الطبيب. كان مظهرها القلق مؤثراً جداً، فلو رآها رجل آخر لزال بالتأكيد نصف غضبه، وهو يتأمل هذه المخلوقة الفتية، الساحرة. لكن هذا لا ينطبق على أوتياكين.

ضربها على وجهها. كانت الصفعة رنانة ومؤلمة، لكن ما أثار دهشته أن سفيتوشكا لم تبك، بل اكتفت بالنظر إلى زوجها مندهشة غاية الاندهاش.

ترنح أوتياكين، وهو يرفع يده ليسدد بها صفعة ثانية، لكنه توقف فجأة...

– ما بالك يا ميشينكا؟ – سألته سفيتوشكا بصوت منغّم. – أنت مرهق! أنت تبدو كعجوز في السبعين!...

جمد أوتياكين مذهولاً وهو يتأمل جمال عيني زوجته، وتذكّر أنه بات قريباً من النصر العظيم لذلك استرخى بكل جسده دفعة واحدة، وقال فجأة بلهجة آمرة:

– اخلعي التنورة!

– ماذا؟ – لم تفهم سفيتوشكا.

– وسروالك أيضاً!

– كيف يا ميشينكا، هنا مباشرة؟

– اخلعيهما قلت لك!!! – صرخ أوتياكين.

نفذت بسرعة ما طلبه زوجها الواقف، كالمعتاد، وراء المكتب، مسنداً عليه كوعيه.

خلع حزام بنطاله، وأنزل بحركة حادة البنطال وثيابه الداخلية إلى ما تحت ركبتيه، واندفع بشكل مضحك نحو مؤخرة سفيتوشكا الشبيهة بتفاحة، لكن حدث في هذه اللحظة ما لم يحدث أبداً من قبل مع ميخائيل فاليرانوفيتش. ما حدث هو أنه ارتمى ببطنه وما يتدلى تحت بطنه على مؤخرة زوجته، عاجزاً عن فعل أي شيء...

– هذا ما كان ينقصنا... – قال الدكتور بلهجة تعبر عن الدهشة.

– ماذا حدث – سألت سفيتوشكا.

– المشكلة تكمن في عدم حدوث أي شيء... ابتعد أوتياكين عن سفيتوشكا وراح يفكّر بعجزه.

أخيراً رفعت الزوجة أيضاً يديها عن الطاولة والتفتت تتأمل لوحة العجز الرجالي.

لقد كانت هذه المرأة الفتية طيبة بطبعها، لذلك قالت لزوجها إن مثل هذا الأمر يحدث أحياناً.

– أنا يا ميشينكا أحبك رغم كل شيء!

نظر إليها بتعاطف صادق منزلقاً ببصره إلى بطنها، ثم راح يقهقه فجأة بصوت يائس أخاف زوجته خوفاً فظيعاً دفعها إلى رفع تنورتها وسروالها إلى ما تحت عنقها بقليل.

استمر أوتياكين يقهقه، وسالت دموعه، فظننت أن زوجها قد جنّ بسبب الإخفاق الذي أصابه في محاولته ممارسة الحب.

– ميشينكا، – قالت ترجوه بصوت خافت رفيع. – أنت طبيب، أنت ستعالج نفسك بنفسك. لقد عالجت أبي... وماما الآن سعيدة!

استمر ميخائيل فاليريانوفيتش عشر دقائق أخرى يهز سقف المكتب الواطئ بضحك مزعج، وفي هذه الأثناء اتخذ جسده الوضعية القتالية واستعد لدخول المعركة.

– انظر يا ميشينكا، انظر! – قالت سفيتوشكا مبتهجة بانفعال مشيرة بإصبعها المطلي بالمناكير إلى جسد زوجها. – لقد قلت لك!

أما هو فكان يشعر برغبة شديدة في النوم، رغم أنه استمر يضحك بقوة العطالة.

– ساعديني، – قال لها وقد وعد نفسه بأن يأخذ معه زوجته إلى الأبدية، مكافأة لها على بساطتها، ونقاء حبها ونزاهته!

لقد بددت بشفتيها الحمراوين الرائعتين كل التوتر الذي عاناه في الأسبوع الأخير، وامتصت ما تراكم في داخله من غضب ويأس، ومن اعتزاز بالنصر... فبدا لها مذاق ذلك كله مراً مرارة غير عادية، فخطر في بالها أن زوجها يتغذى بما يقع تحت يده، وأن الذنب في ذلك ذنبها، لذلك قررت أن ترسل له طعاماً من البيت حين يتأخر في العمل...

أغفى على سرير فحص المرضى، من دون أن يزرر بنطاله، فقامت بذلك العمل بدلاً منه زوجته الممتلئ قلبها حباً له، بل إنها مشّطت شعر زوجها وانحنت كي تطبع قبلة على جبينه. أما ميخائيل فاليريانوفيتش فكان نائماً نوماً عميقاً، مصدراً من صدره حشرجة كتلك التي تصدر من صدور الشيوخ الطاعنين في السن وهم يحتضرون...

تذكّرت سفيتوشكا وهي جالسة في المقعد الخلفي في سيارة الأجرة، الصور الغريبة للطفل الشبيه بميشينكا، وفجأة قالت بصوت مسموع:

– إنه هو!

– من؟ – سأل سائق السيارة ملتفتاً نحوها.

في هذه اللحظة اصطدمت سيارة «الفولغا» العتيقة في القائمة المعدنية للوحة إعلان تقول إن استخدام الواقي البلاستيكي أفضل وسيلة للتخلص من القلق عند ممارسة الحب.

الصدمة لم تكن قوية، والسائق أطلق شتيمة مقذعة كثيفة، أما سفيتوشكا فظلت جالسة في مقعدها، كأن ما حدث لا يعنيها. كان رأسها مستنداً إلى ظهر المقعد وخيط من الدم يسيل من أذنها على خدها الوردي... لقد انتقلت سفيتوشكا إلى الأبدية من دون أية مساعدة من زوجها العبقري...

نقلوا جثتها إلى براد حفظ الجثث في المدينة، وجمدوها، لعدم وجود أية وثائق بحوزتها.

وللسبب نفسه لم يخبر أحد أوتياكين بموت زوجته، ووالدا سفيتوشكا كفا، منذ زمن القلق على ابنتهما، وانصرفا إلى ممارسة عملهما طول الأسبوع من دون أن يسمعا أي خبر عن ابنتهما...

بعد مئة ساعة فتح ميخائيل فاليريانوفيتش باب الحجرة بمساعدة أليكسندرا، وأخرج جسد أنجيلينا إلى نور اللـه.

– هذا مستحيل! – صرخت أليكسندرا منذهلة وقد فقدت السيطرة على أعصابها. – هذا مستحيل!!! هذه معجزة!!!

مددّا أنجيلينا على النقالة، وفحص ميخائيل فاليريانوفيتش قلبها وردود فعالها، ثم سمح لنفسه أن يبتسم بأطراف شفتيه.

شعر وهو ينظر إلى الجسد الفتي لعجوز في الثمانين من عمرها، أنه يضاهي الخالق وأنه صار الآن منافساً له!...

– أنا أريد أيضاً أن أصبح فتية مثلها! – قالت أليكسندرا. – اجعلني مثلها يا دكتور!...

– اخرسي! – أجابها الطبيب بفظاظة من بين شفتيه المطبقتين. – هي ستصحو بعد ساعتين، راقبيها!

أغلق العبقري باب غرفة العمليات خلفه وخرج...

مشى في الممر بخطوات وقورة. وبدا له للحظة، أن جسده مشحون ببداية ربانية، وأنه يستطيع الطيران. وقف ميخائيل فاليريانوفيتش على رؤوس أصابعه ووثب و... اصطدم رأسه بالجدار اصطداماً مؤلماً.

ما كنت أحتاج إلا القليل، – قال الدكتور في سره. كي ينفجر صدغي! آه، ليته كان يعرف أن زوجته سفيتوشكا ترقد مجمدة منذ أربعة أيام في براد الجثث في المدينة... وأنها، هي البسيطة الروح، قد افتدت صدغه بصدغها...

– آلو! تشارمن ديميسوفيتش؟ – قال أوتياكين برقة عبر سماعة الهاتف.–

لقد نجحت التجربة.

# – 13 -

تتبع العقيد درونين الأثر ككلب مطاردة، وقد نشأت في رأس هذا العنصر من الـ (ك. جي. بي) تفسيرات معقولة وغير معقولة لما حدث. لقد أدخل هذا المخبر السابق بيريغيفودا عقل العقيد في حالة تخبط تام، لذلك صار هذا العقل يرفض العمل بمنطق طبيعي. لكن، لدى كل محقق قدرة حسية. غريزية، تكون عند بعضهم أقوى، وعند بعضهم أضعف، إلا أنها هي بالضبط ما يجمع المحقق المحترف بالكلب...

زار درونين مستشفى الأمراض النفسية الذي قضى فيه ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف ست سنوات. فتش المقصورة رقم 19 التي قضى فيها ليونيد، بحسب تأكيد المدير الإداري، أعواماً من دون طعام أو شراب. وعثر على العبارة E– MC المحفورة على الجدار.

يجب أن آمر بوضع لوحة تذكارية هنا، – قال العقيد في سره. ثم التقى في مدرسة لوسينوأستروفسكي الداخلية مع العاملين الذين لم يكونوا يتذكرون ليونيد جيداً لأن الصبي اختفى مباشرة تقريباً بعد انتسابه إليها، كما اختفت من المدرسة بنت في اليوم نفسه... طلبوا أرشيف قسم الشرطة المحلي، فوجدوا فيه قضية المجنون الذي اعترف بأنه قتل هذين الطفلين بوحشية.

– هذا ما كان ينقضنا! – قال المحقق كازاً على أسنانه. – يا لهذه القضية الشيطانية!... أصابع من، إذن، تلك التي وجدوا بصماتها؟...

تبين في التحقيق بعد ذلك، أن المشرفة على صف سيفيرتسيف ماتت نتيجة معاناة ألم فظيع، وأن الأطباء وجدوا في دماغها عند التشريح عشاً كاملاً من النمال الحمراء التهم ثلث المادة الرمادية التي في دماغ المعلمة.

لقد كانت هذه الحادثة طريفة بحد ذاتها، وبدا أن لا علاقة لها بالقضية التي يحققون فيها، لكن المحقق البارع ريكوف استطاع أن يعثر على ميتة مشابهة في سجل موتى المنطقة الضخم.

ضحية النمال الحمراء كانت امرأة أيضاً تدعى بوديونا ماتفييفنا تشيغير – متقاعدة مدنية، كانت تعمل قبل التقاعد أمينة سر ثانية للجنة الحزبيّة في المدينة، الأمر الذي استدعى بحد ذاته تحقيقاً دقيقاً... رغم أن الفارق بين الوفاتين الأولى والثانية كان أكثر من عشر سنوات.

نقبوا في هذا الاتجاه فوجدوا وقائع تستحق التفكير حقاً، فالرفيقة تشيغير كانت قبل أن تعمل في الجهاز الحزبي مديرة لحضانة للأطفال الأيتام أرسل إليها ليونيد بافلوفيتش سيفيرتسيف... هل هذا الأمر مصادفة؟... ربما كان كذلك...

لكن ريكوف اكتشف حقيقة أخرى يصعب أن نعدها مصادفة، إنها حقيقة يمكن أن تكون دليلاً غير مباشر!

لقد كانت بوديونا ماتفييفنا نقيم في المسكن الذي أقامت فيه، في وقت ما، المدعوة لارتسيفا التي ورد اسمها في قضية كرينيتسين – سيفيرتسف...

كان درونين يذكر جيداً من خلال الصور، يوليتشكا الجميلة التي ماتت في أثناء الولادة... فبسببها انتحر صديقه أفلاطون... لقد كان ثمة شيء غريب في العلاقة بينهما...

كم تكون الحياة مثير للاهتمام أحياناً! – قال درونين في سره، وهو يسحب بشراهة دخان سيجارته اللذيذ – الحمد للـه على أني لم أتبنّ ذلك الطفل آنذاك!... بصمات الأصابع متطابقة...هو، طبعاً، ليس ابن أنطونوف!... شكراً للرئيس الذي أقنعني بعدم تبنيه! لكن كيف يمكن أن تتطابق بصمات أصابع الأب مع بصمات أصابع الابن؟... إنها لظاهرة غيبية حقاً!...

وقد تبين في التحقيق أن بوديونا ماتفييفنا تزوجت جار لارتسيفا وهو عالم جيولوجي متخصص برسم الخرائط يدعى سيرغيي سيرغييفيتش كاشكين أعطيت له غرفة يوليتشكا بعد موتها في أثناء الولادة.

هذا يعني، – قال العقيد في سره، – أن من المحتمل أن تكون بوديونا ماتفييفنا قد نامت على سرير لارتسيفا أم ليونيد بافلوفيتش الذي سنبحث عنه الآن إذا لم يكن المجنون قد قتله وهو طفل... لكن بماذا يفيدنا ذلك كله؟... بلا شيء غير تحريك العواطف.

– بماذا تفكر يا ريكوف؟ – سأل درونين النقيب بمودة.

– تفوح من كل هذه الأمور غيبية سيئة!

– أوافقك... لكنني أشعر بوجود علاقة بينها!

– حسناً، عمّن سنبحث؟ قال النقيب كأنه يطرح هذا السؤال على نفسه.

– عن الاثنين.

– أي اثنين؟

– كرينيتسين وابنه سيفيرتسيف! من المحتمل أن يكون الاثنان حيين، ومن المحتمل أن يكونا ميتين!

– والمدير الإداري بيريغيفودا، – قال ريكوف بصوت مرتفع من دون سبب واضح. – إنه يتصرف كما لو كان بولغاكوف...

نظر العقيد ببعض الدهشة إلى مرؤوسه الذي لم يلحظ في أي يوم من الأيام أنه يحب قراءة الكتب...

– كان هناك محقق بهذا الاسم قبل الثورة... – قال النقيب موضحاً.

– آ– ها، – قال درونين وقد أعجبته هذه العودة إلى التاريخ. – برافو – أحسنت، أنا أضمن لك الترفع إلى رتبة مقدم في الخريف القادم!

– شكراً أيها الرفيق العقيد!

– احفر هذه البركة العكرة حتى القاع! حين تجدهما، أفرغ في جسديهما الجعبة كلها! لكن، يجب قبل ذلك أن نعيد المليون للدولة!

– حاضر أيها الرفيق العقيد!

ذات مرة غاب عاماً كاملاً.

بكت ماشينكا كثيراً، وجعلت الدموع وجهها شاحباً شفافاً يُظهر النور الذي في داخلها، وهذا ما زاد جمال وجه الصبية، كما أن المعاناة أغنت روحها إلى حد جعل هذه المرأة تلتفت كلياً إلى الرب، وقد رعى الرب هذه الروح النقية، فمنح قلب ماشينكا ماخاونوفا الطمأنينة.

انتظاراتها التي لا نهاية لها وتفكيرها بزوجها، كل ذلك كان يمرّ على جسد ماشينكا مروراً فلسفياً. إنها، وهي التي رباها الأب إيفان صمويلوفيتش، الشخصية الثانية في حياتها بعد زوجها، حملت في قلبها قدراً كبراً من الصبر. لقد كان لديها الوقت الكافي جداً كي تتقبل الظروف وتخضع لها.

لقد فهمت ماشينكا منذ زمن بعيد أن ليونيد ليس قصير القامة، وأنه خدعها، هي العديمة الخبرة، وتزوجها – وهي ما زالت طفلة تنقصها الحكمة... لم تكن تلوم زوجها لأنه خدعها، لا سيما بعد أن صار هذا الفتى ذو العقل الناضج، أطول منها قامة.

فأن تكون لاعب كرة سلة أفضل، طبعاً، من أن تكون قصير القامة... من المؤسف أن كل شيء قصير عند قصير القامة على الرغم من أن في صدور قصار القامة قلوباً كبيرة في أحيان كثيرة! لكنها تبقى قلوباً...

حين كان غياب ليونيد يطول، كانت تصل منه حتماً تحويلات مالية بمبالغ كبيرة تسمح لماشينكا بالعيش في بحبوحة. وقد مكّن هذا الدعم المادي المنتظم المرأة الشابة من الوثوق بأن

علاقاتهما ليست منتهية أبداً. أما البرهان على صحة ما استنتجته فهو عودة ليونيد بعد كل غياب.

ذات مرة عاد في الشتاء واقفاً في صندوق شاحنة مكشوف، مملوء بالورود الشتوية. كان يقف على ألواح خشبية مصقولة، مباعداً بين ساقيه، مرتدياً معطفاً فاخراً من الكشمير، يغمرها، وقد أطلت من النافذة، بنظرات عينين تشعان حباً. بعد ذلك مارس ليونيد الحب مع زوجته ماشينكا ماخاونوفا برقة وعذوبة، مبدداً بذلك ما يسكن رأسها الجميل من شكوك ضئيلة بأن قلب زوجها قد برد تجاهها.

– أنت اللغز الذي لن أستطيع حله أبداً! – كان ليونيد يهمس في أذنها.

كانت في صوته نغمة توحي لماشينكا أن هذه ليست مجرد كلمات ملاطفة، وأن فيها معنى خفياً، عميقاً لا تعرفه.

تجيبه ببساطة:

– أنا أحبك... كلي مكشوفة لك... تستطيع أن تتأكد من حبي...

فيردّ على دعوتها بحماسة الرائد، يحاول الطيران! يخيّل إليه أنه بلغ سرعة الضوء، يبدو له أن شيئاً ضخماً انفتح أمامه، – الفضاء، الكون، الذي طالما بحث عنه بتصميم في الماضي!

كان يحلم بأنه سيستوعب الآن كل هذا الحجم الذي لا تمكن الإحاطة به، سيستنشقه دفعة واحدة، ويتراءى له أن وعيه البشري، ينمو في لحظة واحدة فيصبح في حالة جديدة!... لكن بلوغه ذروة النشوة يدمّر كل إنجازاته، فيسقط وعيه من ارتفاعاته الشاهقة إلى مستوى الوعي الإنساني...

حينذاك كان ليونيد يبكي حسرة.

وكانت ماشينكا تحاول تهدئة روعه بكل روحها التي يكمن فيها ذلك الفضاء، وذلك الكون الذي كان يسعى إليه بكل قوة، والذي قُدّر عليه ألا يعرفه أبداً في هذه الحياة...

ذات يوم أحضر معه رجلاً أحمر الشعر، غريب الأطوار، وعرّفها به قائلاً إنه صديقه رومان.

– ألا تعرفينه؟ – سألها ليونيد ضاحكاً.

– لا، – أجابته ماشينكا وهي تبتسم ابتسامة اعتذار.

– رومكا المجنون! أتتذكرين المدرسة الداخلية؟

– رومكا المجنون؟ – سألت مندهشة وقد انتقلت دفعة واحدة إلى طفولتها.

– لوى رومكا فكّه بما يشبه الابتسامة، كاشفاً عن أسنانه المسودة بدخان السجائر.

– مرحباً يا ماخاونوفا!

شرب الأحمر كثيراً في أثناء العشاء، وبعد ذلك، حين ذهبت ماشينكا ليلاً لقضاء حاجة، انقض عليها ومزّق قميصها وراح يتلمس جسدها الدافئ بكفيه القذرين.

ضرب ليونيد صديقه طويلاً، وبحقد. حطّم نصف أسنانه القذرة، وكسر أضلاعه وأصابع يديه...

ماشينكا لم تستطع حتى أن تصرخ من فظاعة ما جرى.

هي لم تر أبداً زوجها بهذه الوحشية، لكن ما أدهشها أكثر من ذلك، هو سلوك رومكا الذي لم يصدر عنه أي صوت. كان وجهه ينقبض وهو يسمع طقطقة عظامه ولا شيء غير ذلك.

وفي صباح اليوم التالي جلسا يتحادثان على مائدة الفطور كصديقين ودودين.

كان ليونيد يحدث رومكا عن المفتاح الكبير الذي يجب أن تكون عبارة «مفتاح، عام 1905» محفورة عليه.

– يجب أن تأخذه!... كن حذراً، فهذا التشارمن رجل مجرّب! هو، من حيث القومية يوناني، وعمره أكثر من مئة عام!...

– لا تقلق، أجابه رومكا بعد أن سمع ما قاله عن عمر الرجل. – سأقوم بالعمل كله كما يجب!

بعد ذلك اختفى الاثنان...

دخل ليونيد لأول مرة الشقة التي عاشت فيها أمه. ساعدته الليلة المقمرة على رؤية طريقه في المدخل. ثم توجه بخطا سريعة إلى غرفة أمه، وأخرج من جيبه المفتاح الثقيل الوزن و...

يا له من غبي!... لقد غيروا القفل طبعاً، لأنهم لن يجدوا أبداً مثل هذا المفتاح!... عجباً كيف ارتكب هذا الخطأ البدائي وهو صاحب العقل الراجح!... بل كيف غامر بصديقه!...

اضطر إلى استخدام طريقة روسية عادية استسلم لها القفل الإنكليزي البسيط على الفور.

انفتح الباب مواربا...

وقف أمام ما بدا له درباً مظلماً إلى الماضي. جمد كأرنب. ارتعش خيشوماه يتشممان رائحة غريبة ولّدت في عقله رؤى قصيرة من حياة ليست حياته.

تخيّل ليونيد أنه سيجد أمه حتماً إذا دخل الغرفة... خفق قلب الرجل، وتعرّقت راحتاه. لكن القوي، القادر، أبلغ منظومته العصبية أن إحساسه غير حقيقي، فأمه ماتت منذ زمن بعيد، ماتت قبل أن يولد، وأن الموجود الآن في الغرفة المشبعة برائحة يوليتشكا، هو عدو!...

تغلب ليونيد على خواطره، وأخرج من جيبه مصباحاً يدوياً أضاءه ودخل دون تردد في ظلمة الماضي التي قسمها شعاع النور.

بوديونا التي شاخت كثيراً حتى هذه الليلة، كانت تنام نوماً عميقاً وقد تهدل وجهها على الوسادة، وانفرجت قليلاً شفتها العليا المشوربة فسال من تحتها اللعاب.

– حشرة! – قال ليونيد بصوت منخفض.

أخذ كرسياً، وضعه إلى جانب السرير وجلس...

توقفت نظرته عند حاجبي بوديونا ماتفييفنا المعقودين، كما لو كان يحفرهما.

حكّت رأسها في البداية، ومرت بكفها على وجهها ثم حرّكت أنفها يمنة ويساراً...

بعد ذلك فتحت عينيها.

رأت المتقاعدة هيكل الرجل الغريب الجالس على الكرسي وعيني مقتحم غرفتها اللاهبتين، فتعرّق جسدها كله من الرعب الذي استولى عليها فوراً.

– حسناً، مرحباً يا بوديونا! – حياها ليونيد بصوت غير مرتفع، لكنه مشحون بالحقد.

حرّكت فكّها، مصدرة صوتاً، لكنها لم تستطع النطق بكلمات. كان عقلها يتمنى محموماً ظهور زوجها سيرغيي سيرغييفيتش كاشكين الذي كان، منذ عشرين عاماً، ينام وحده في غرفة كاتكا الفيلية، التي ماتت على الفور بعد زواجهما المتأخر... سمعُ سي – سي قد ثقل بسبب الشيخوخة، أما هو فلم يعد يثير مطلقاً اهتمام المرأة به كرجل... كما أنه، هو نفسه، لم يكن يهتم بذلك!...

– لماذا لا تردين التحية؟ – سألها ليونيد مندهشاً. – ألم تعرفيني؟

– لا... – أجابته متلعثمة.

– هذا أنا... ليونيد... ليونيد سيفيرتسيف...

استدار نحوها نصف استدارة وابتسم...

– وماذا بعد؟

هي لم تستطع التعرف عليه من منظره، لأن المرة الأخيرة التي رأته فيها كانت منذ زمن بعيد – بعيد، حين كان طفلاً يمثل أمام اللجنة في مستشفى الأمراض النفسية. لكنها كانت تتذكر جيداً هذا الاسم وهذه الكنية.

– هل تتذكرينني؟ – سألها يستعجلها الجواب.

– نعم...

استولى على كيانها كله خوف حيواني، وقد شعرت باقتراب الموت المحتم. بوديونا ماتفييفنا تخاف الآن الموت، بل تفكر بالكيفية التي سينظمون بها وداعها المفاجئ للحياة.

– وهل تعرفين أنه على هذا السرير... – سكت ليونيد لحظة ثم تابع. – لا، ليس على هذا السرير، بل على سرير آخر كان في هذا المكان، نامت امرأة حامل... ولدتني وماتت... هي كانت أمي... هل تعرفين ذلك؟

بوديونا تعرف أن هذه الغرفة كانت في يوم من الأيام، لامرأة شابة ماتت في أثناء الولادة، لكن لم يكن بمقدور الرفيقة تشيغير أن تعرف أن القدر سيفاجئها بنهاية درامية يكون الكابوس الأخير فيها صبي تكرهه صار رجلاً سيقتلها...

– أنا... أنا لم أكن أعرف... – قالت بوديونا متلعثمة.

لقد أرادت كثيراً جداً أن تسيطر على خوفها، وتموت ميتة لائقة، لكن جسدها شاخ مع جملته العصبية، ولم يعد يملك تلك الصلابة الحزبية التي كان يملكها في شبابها، لذلك تملكها الآن خوف شديد!

– أنا أصدق أنك لم تكوني تعرفين... هذا أمر لم يعد مهماً الآن... وفالينتينا، هل تذكرينها؟ فالينتينا المربية في روضة الأيتام؟...

أحنت بوديونا رأسها بالإيجاب.

شحب وجه ليونيد.

– أديري وجهك إلى الجدار!

– أطاعت تشيغير ليونيد وأدارت له ظهرها، وراحت تنتظر الطلقة في الرأس، زامة عينيها.

فتحت أصابعه بمهارة سدادة زجاجة صغيرة أضاء زجاجها الأصفر العكر، فأرضته حركة الحشرات المفترسة في داخلها. هزّ الزجاجة ثم قربها من أذن بوديونا ماتفييفنا الكبيرة الرخوة.

ارتعشت كأنها أرادت أن تسقط أرضاً لحظة انطلاق الرصاصة. لكن الرصاصة لم تنطلق، وكل ما حدث هو أن صيوان أذنها صار بارداً.

– اهدئي، اهدئي، – قال ليونيد طالباً منها أن تهدأ. – ليس هناك ما يدعو للخوف...

انسابت النمال الحمراء جدولاً صغيراً في دهليز الأذن، ولزيادة التأكد من نجاح العملية قام الزائر الليلي بسدّ الأذن بكتلة من القطن المشبع مسبقاً بالستيارين.

– هذا كل شيء، – أبلغها ليونيد. – سأبقى معك دقيقة أخرى. أتسمحين؟...

في البداية بدا لها أن أحدهم ينكش دماغها كأنه يحاول الدخول إلى أفكارها... بعد ذلك أحست بطقطقة تشبه الطقطقة الصادرة عن غلاف من السوليفان ينزع عن باقة ورد!

في هذه اللحظة أغلق ليونيد خلفه باب غرفة أمه، فأصدر القفل الإنكليزي صوت تحية وداع، وبقيت بوديونا في عزلة مع الموت.

خرج إلى الدرج، وبينما كان ينزل مسرعاً سمع صرخة فظيعة... استقبلها بلا مبالاة...

بوديونا ماتت وهي تعاني آلاماً فظيعة، أفقدتها عقلها. أما سي – سي المتخصص في رسم الخرائط، الذي كان في الماضي مهووساً جنسياً وصار الآن ثقيل السمع، فنام هادئاً في الغرفة التي كانت غرفة كاتكا الفيلية، وقد أصبح رجلاً أرمل بحكم القانون...

أحس ليونيد بأن عناصر الشرطة يلاحقونه.

أفلت منهم دون أن يشعر بأي خوف – هو كان متأكداً من أن جهاز تفكيره أفضل من أي كمبيوتر، ناهيك عن عقول رجال الشرطة...

ترك ليونيد شقته في شارع غيرتسين نهائياً، «علّبها» في انتظار أوقات أفضل، واستأجر شقة أخرى واسعة في الضاحية. لم يقدم لماشينكا أي تفسير، وهي أيضاً لم تظهر أي فضول زائد. ماشينكا لم تأسف على شيء سوى حرمانها من زيارة الأب العجوز إيفان صمويلوفيتش... لكن، كان في توشينو أيضاً كنيسة عاملة، لكنها، والحق يقال، كانت خالية، لأن القس المكلف بخدمتها مدمن كحول، وعدد العجائز قليل في المنطقة، أما الشباب فما زالوا لا يظهرون ميلاً إلى تقليد آبائهم في التديّن.

كانت تركع على ركبتيها أمام أيقونة «أم المسيح» وتطلب من دون كلل أن ترزق بطفل، تصلي بصوت يكاد يكون مرتفعاً، موضحة أن عمرها قد جاوز الثلاثين وهي ما زالت محرومة من الأمومة...

– لا فرق عندي بين صبي وبنت... ما أريده هو سعادتهما!... وسعادتي بهما...

استجابت السيدة مريم لأدعية ماشينكا التي كانت روحها مستعدة دائماً لاستقبال نور السماء.

ففي شهر أيار، في أيامه الأخيرة، عرفت أنها حامل بالتأكيد... أبلغت ماشينكا ليونيد بذلك في أول فرصة سنحت لها.

– سيكون لنا ابن، – قالت له.

في هذه اللحظة كان زوجها يضع في فمه حبة كرز تركي ويلفظ عجوتها، يرميها عبر النافذة مصغياً إلى صوت الطلقات الاتي من حقل الرمي.

التفت نحوها حين سمع النبأ وسألها:

– ماذا قال لك؟

– من؟

– الابن.

– إن عمره لا يتجاوز الثلاثين يوماً...

– هو إذن، لم يقل شيئاً.

أخافها ذلك قليلاً.

– ألست مسروراً؟

هو لا يعرف، الجواب يحتاج إلى تفكير...

عموماً، كثيرة هي الأشياء التي يجب عليه أن يفكر بها...

كان يعيش حياة غير عادية، يمارس النهب على نطاق واسع، ولا يتواصل مع أحد عدا رومكا المجنون الذي صار في الثلاثين من عمره مدمناً على الكحول، وزوجته ماشينكا.

هل هو مسرور بكونه سيرزق ولداً؟... لقد قضى حياته كلها مكتئباً بسبب الإطار الجسدي الغبي للوجود الإنساني!... منتظراً لحظة انتقاله إلى نوع آخر من الوعي!... هل سيكون ابنه مثله؟ هل سيحتفظ في ذاته بعد أن يولد بتلك المعرفة العظيمة؟... أم أن الطفل سيكون عادياً، يصعب أن يبقى حياً إلى أن يفهم أن E– MC... شعر ليونيد بوخزة في قلبه. التفت نحو ماشينكا التي ما زالت تنظر إلى زوجها خائفة، وابتسم لها.

– أنا مسرور طبعاً...

قال هذه الكلمات بصدق غمر ماشينكا بالسعادة. أمسكت بكلتي يديها بطنها الذي ما زال مصقولاً، وشرعت تثرثر حول مستقبلهما «ماذا تقول إذا لم نرزق بولد فقط، بل بولد وبنت؟»...

– آخ، كم يؤسفني ألّا ترى سيروفيما أيلييتيتشنا ولدينا!

– ومن هي؟ – سألها.

– ما بك؟ هل نسيتها؟!...

تذكّر العجوز اللطيفة التي حضنت قلبيهما الطفلين، وحرّك يده لائماً رأسه، وذاكرته المثقوبة، وما شابه ذلك!...

– سيعمّدهما الأب إيفان صمويلوفيتش حتماً... – قالت ماشينكا بفرح.

– طبعاً، – أجابها مؤكداً، مبتسماً، هو يتأمل وجهها. عيناها، كما في السابق، رائعتان تحيط بهما هالة خفيفة من التجاعيد.

– هل تحبني؟– سألته بلهجة طفلية تماماً.

– جداً، – أجابها بإخلاص متناه.

تأمل ليونيد زوجته، وتذكر، دون سبب واضح، ليلة زواجهما، جسدها البارز العظام، وصدرها الشبيه بصدور الصبان...

– جداً! – قال مؤكداً...

بعد شهر خنق ليونيد رومكا المجنون كما يخنق كلب ضال.

لقد حاول الأحمر أن ينفذ بشكل مستقل عملاً خطط له ليونيد، وأشرك في ذلك بعض المأجورين.

هاجموا مكتب صرافة، أطلقوا النار على الناس، ولم يحصلوا من العملية إلا على ثلاثمئة دولار، بينما كان من المفترض أن يحصلوا على نصف مليون...

الأمر الأهم لم يكن إخفاقهم، بل تركهم آثاراً دلت عليهم.

جاء المأجورون إلى رومكا وتشاجروا معه بسبب المعلومات الخاطئة لتي زودهم بها، وطالبوه بالتعويض.

عبس الأحمر قليلاً، ثم أعطاهم ما يملكه هو وليونيد من مال... فيما بعد قبضت الشرطة على المأجورين، ولم يفلت من قبضتها سوى رومكا.

وجده ليونيد في شقة صغيرة يملكانها في الضواحي، ولا يعرفها أحد غيرهما.

كان رومكا متمدداً على الفراش وقد شرب كثيراً لكنه لم يكن مخموراً. الخوف أيقظ دماغه، وأبقى جسده صاحياً.

– ماذا فعلت؟ – سأله ليونيد.

غضب رومكا فجأة، وقفز على أطرافه الأربعة كالكلب، وقال بصوت يكاد يكون نباحاً:

– وأنت ماذا؟... لقد مللت!!! دائماً أنت، أنت! – نبح الأحمر بكلام غير مفهوم.

– أنت الرئيس دائماً، وانا خراء كلب!... أنت منذ طفولتي، استغبيتني، واستغللتني!...

– ماذا تقول يا أحمر؟

– كفى! لقد مللت!

– ما الذي مللت منه؟ – سأله ليونيد مندهشاً.

– مللت من كل شيء!... مللت منك أنت بسحنتك الشبيهة بسحنات الأقزام! أنت تستغلني منذ ما يقرب الثلاثين عاماً!... أنت عندك كل شيء، أما أنا فلا أملك شيئاً

– أنت الآن تريد أن تحمّلني نتائج أخطائك، – قال له ليونيد موضحاً. – أنت يا رومكا كلب سافل، تريد أن تُظهر نفسك كلباً محترماً! هذه هي القضية كلها...

– لقد طلبت منك آنذاك، بعد أول هجوم على سيارة نقل النقود، أن تتركني أذهب إلى السجن! لا، لم تتركني!... لقد كنت بحاجة إليّ كأداة تحت يدك! أنت سافل!... أنا ليس عندي أحد! ليس عندي امرأة! وليس عندي أولاد!...

– هل تعرف أنهم الآن سيقبضون عليك، وعلى رجالك المأجورين؟

– طز!...

– ستظل في السجن مدى الحياة، السجانون لا أفهام لديهم، وفي السجن سيعذبونك مدى الحياة!...

عبّ رومكا الهواء بفمه، ثم صرخ:

– سأجرّك معي!... لماذا أذهب وحدي!... كل ما حدث كان بسببك! أنت مسؤول عن سفك الدم أكثر مني!...

لم يغضب ليونيد أبداً من كلام صديقه، أحس بالأسف فقط... غير أنه كان يعرف أنهم سيقبضون عليه لاحقاً إذا تمكنوا من القبض على رومكا. هو لم يكن يخاف السجن، بل يخاف أن تبقى ماشينكا وحيدة من دونه، فهذا سيجعلها شقية... لا شيء يبقي ليونيد في هذا العالم، سوى زوجته الحامل وغريزته، إذا جاز التعبير.

لم يستمع إلى المزيد من أقوال رومكا الرديئة التي كان يوجهها إليه بسخاء، كان، يتأمل صديقه ويفكر ويناقش الأمر في ذهنه بيقظة.

بعد فترة نهض ليونيد، ملأ رئتيه بالهواء وطار. ارتفع قليلاً فوق الأرض، ما يقرب من عشرة سنتيمترات، لكن رومكا فقد كل قواه البشرية فجأة وشرع يبكي حين رأى طيران صديقه.

شيء ما في داخل الأحمر آلمه وأزعجه، لقد بدا أنه أدرك فجأة أن حياته ليست حياة عموماً، بل تفاهة، مادام الآخرون يستطيعون الطيران! لكن ما حياته إذا لم تكن حياة؟...

بكى كطفل مخدوع أدرك فجأة أنه سيموت في يوم ما، أما ليونيد فهبط على نعليه، ثم جلس إلى جانب رومكا على الفراش وعانقه.

– لا تبك، – رجاه وهو نفسه يكاد يبكي.

– كيف هذا؟

– اهدأ...

لفّ ليونيد ذراعه حول عنق رومكا، كأنه يعانق امرأة.

– أنا ما عدت أستطيع الاحتمال يا ليونيتشيك! – قال الأحمر باكياً.

– حسناً، كفى...

– ما – ما...

شد ليونيد عضلات يديه، فضاعف بلحظة حجم عضلتي زنديه الصلبتين كالصخر، وهزّ جسد صديقه قليلاً فسمع طقطقة فقرات رقبته.

مات رومكا على الفور، حاملاً عكر روحه إلى عالم آخر.

أخذ ليونيد جرعة فودكا من زجاجة كانت مفتوحة، فتقلصت عضلات وجهه بسبب عدم اعتياده على شرب الكحول، لكنه بفعله هذا كان يعرب لآخر مرة عن إخلاصه لصديقه، معبراً عن غفرانه لخيانة الأحمر.

نقل جثة صديقه إلى مزبلة المدينة وأحرقها ملفوفة بسجادة عجمية...

لم يبق الآن عند ليونيد إلا زوجته الحامل ماشينكا ماخاونوفا.

كان، كلما ازداد حجم بطنها يقلل غيابه عن البيت، باعثاً في نفس الأم المستقبلية فرحاً عظيماً.

وكان يعيد أحياناً طرح السؤال نفسه:

– هل يتحدث معك؟

– أنا أتحدث معه، – تجيبه ماشينكا مبتسمة، كانت تبدو مشرقة عند الحديث عن الطفل، كأنهم وضعوا في داخلها كل ضوء القمر.

كان ليونيد متأكداً من أن الطفل سيولد طبيعياً، وهو، إلى جانب ذلك كان يفترض أن هذا أفضل للطفل، لأنه لن يتضايق من الحياة في أطر الجسد البشري، منتظراً شيئاً أكثر قدرة وأهمية... وهكذا تمرّ حياته بسهولة... والباقي شأنه هو.

أخيراً وصلوا إليه...

لكنهم لم يكونوا من الشرطة...

كان ليونيد يتناول الغداء في المطعم الإيطالي، جالساً وحده إلى مائدة لأربعة أشخاص، حين جلس قبالته رجل شكله يشبه شكل الجمل، ونظرته توحي بأنه أقوى من أقوى الأقوياء. أسند تشارمن ديميسوفيتش رأس عكازه إلى حافة الطاولة المجلّلة بغطاء أحمر وسأله:

– هل تأكل «سباغيتي» مع الجبن والمرق بالزبدة؟

– أتريد مثلها؟ – سأله ليونيد دون أن يحيد ببصره عن طبقه.

– شكراً، أنا تناولت غدائي... – أشار تشارمن برأسه للنادل وطلب قهوة خفيفة، وكأساً من الماء الساخن!... – ثم سأل ليونيد: – هل تعرفني؟

– نعم.

– أنا أعرف أمك.

– أعرف ذلك.

أنت وأنا نعرف أشياء كثيرة – قال تشارمن ديميسوفيتش وهو يهز رأسه.

– صحيح، – قال ليونيد مؤيداً كلامه، وهو يلفّ خيط المعكرونة الطويل حول الشوكة.

أحضر النادل القهوة، ابتعد نحو صندوق المحاسبة، حيث تثاءب بكثافة، فتلقى من مدير المطعم وخزة بالشوكة في المكان الطري من جسمه.

– بالمناسبة، – قال تشارمن موضحاً. – زوجتي طالبتني بإلحاح بالبحث عنك...

– هذا أمر مثير...

– لقد كانت أفضل صديقة ليوليتشكا. وقد حاولنا، حين ماتت أمك أن نتبناك...

– شكراً... – مسح ليونيد شفتيه بمنديل ورقي. – وماذا تريد الآن؟...

– لقد بحثت عنك خمس سنوات... ثمة إحساس ببعض الذنب لأننا لم نستطع أن نتغلب على معارضة السلطات آنذاك!...

– وماذا الآن؟ – كرر ليونيد السؤال.

أنا أحس بالمسؤولية عن الطريقة التي تشكلت فيها حياتك... لماذا قتلت كل هؤلاء الناس؟...

– يبدو أن ذلك حدث مصادفة...

نظر ليونيد نحو النادل المستاء، وحين اقترب، طلب منه إحضار كأس من الشاي. لم يبد عليه أبداً أنه قلق من ظهور تشارمن ومن معرفته الكبيرة بشؤونه.

– لقد أردت أن أعطيك مفتاح الغرفة التي عاشت فيها أمك... لكنك، على ما أظن، سرقته، أليس كذلك؟

– أنا أخذت ما يخصني. أظن أن هذا لا يمكن أن يسمى سرقة.

– موافق...

لم يتواصل الحديث بينهما. وأحس تشارمن ديميسوفيتش بعدم الراحة، لأول مرة في حياته. إنه لم يتمكن من إدارة الحديث. والرجل الذي بحث عنه طويلاً بإلحاح من زوجته، لم يهتم به مطلقاً.

– قد تكون بحاجة إلى نقود؟

– ضحك ليونيد بسخرية مكتومة هازاً رأسه.

– ماذا تريد إذن؟

– وهل طلبت منك شيئاً؟

– لا...

– المفتاح معلّق في رقبتي...

– هل ابنك في بيت للأطفال الرضع؟ – سأله تشارمن بشكل مفاجئ. – إنه ما يزال صغيراً جداً!... لم تتحرك أية عضلة في وجه ليونيد، لكن نظرات عينيه بدت أكثر كثافة...

– نحن، أنا وزوجتي، نستطيع أن نتبنى الطفل...

– لا.

– هل تريد أن تعيش طويلاً؟... طويلاً جداً؟

وضع تشارمن ديميسوفيتش يده المشعرة على غطاء الطاولة. دبت الحركة في الخاتم المعدني تحت أضواء مصابيح المطعم، وانبعثت الحياة في العظاءة الذهبية، حرّكت قوائمها، ثم غادرت بحذر مرقدها متجهة نحو ليونيد.

حرّك ليونيد يده بسرعة البرق وضغط بإصبعه السبابة العظاءة على سطح الطاولة.

– أنا أستطيع أن أدمر أبديتك!

شحب لون تشارمن ديميسوفيتش. قلبه القوي ارتجف بفعل المفاجأة.

– لا تفعل، – قال راجياً.

– أنا أيضاً أعرف عنك كل شيء. سأقتل زوجتك إذا اقتربت من ابني! هي ما زالت جميلة كما كانت في شبابها، أليس كذلك؟... اتفقنا؟

– نعم، – قال تشارمن ديميسوفيتش موافقاً. – اتفقنا.

رفع ليونيد أصبعه عن جسم العظاءة المضغوط، فرجفت العظاءة المذهولة بصعوبة إلى الخاتم واستقرت فيه كجزء من أجزائه.

– وداعاً، يا سيد ميكيلوبولوس. أنت لك أبديتك، وأنا لي أبديتي! اقرأ «عقار ماكروبولوس»!

– ما هذا؟

– إنه كتاب من كتب الغيبيات...

غادر تشارمن ديميسوفيتش المطعم ناسياً أن يدفع ثمن القهوة...

أخذوا ماشينكا إلى دار توليد «في سيارة إسعاف» لأن كل شيء بدأ عندها قبل موعده... وفي الوقت الذي كانت فيه ماخاونوفا تصرخ من الألم، الذي يستحيل تصوره، في دار توليد غير تلك التي أُعدّ لها فيها مكان ودفع أجره، كانت ركبة ليونيد تمنع وصول الأوكسجين إلى رئتي العقيد درونين.

– لماذا تطاردني؟

كان العقيد المتقدم في السن يشخر وقد امتلأت أذناه بالدم. هو لم يكن يستطيع الإجابة، كل ما كان يستطيعه هو أن يرفرف بعينيه اللتين لا يظهر فيهما غير الانزعاج، لقد كانتا خاليتين من الخوف.

– أنت يجب أن تكون الآن متقاعداً.

خفف ليونيد من ضغطه على «تفاحة آدم» فتمكن درونين من السعال.

– أنت مجرم يا ليونيد بافلوفيتش! – قال درونين بوضوح. – قاتل أرواح!... يجب قتلك رمياً بالرصاص!

لم يكن ليونيد يخاف الموت، لذلك كان الناس الذين يدركون نهاية الحياة مثله، يثيرون فضوله، لا سيما أولئك الذين لا يؤمنون بالعالم الآخر، ولا بشتى أنواع الآلهة، أولئك لا يؤمنون بشيء، فلماذا، إذن، لا يخافون الموت؟ ليس هناك ما هو أكثر إثارة للخوف من العدم!

– ألا تؤمن بالرب؟

– أؤمن بالعدل، – أجاب درونين؟

– صحيح، – قال ليونيد يوافقه، وضغط بركبته من جديد عنصر الـ (ك. جي. بي) وأين هو العدل؟ – سأله وهو يتركه.

– مهما حاولت مدّ الحبل...

– توقف عن هذا الهراء أيها الغبي! أنا أعرف النهاية، أما أنت فإلى العدم!

درونين يدرك بوضوح أنه سيموت، لكن الأمر المستغرب، هو أن فضولاً كان يملأ قلب العقيد في الدقائق الأخيرة يدفعه إلى التساؤل عما يحرك هذا الإنسان الذي لا يبدو وحشاً، بل إنساناً لطيفاً ذا عينين لا توحيان بالشر...

– أنت لن تفهم ذلك أبداً! – قال ليونيد وقد أدرك ما يدور في ذهن درونين. – لو أن رحم أمك المخصب اغتصب باستمرار ممن يدعى فلاطوشا الذي كان شذوذه يتسبب بألم للآخرين، لو أنهم رموا جملتك العصبية التي لم يكتمل نموها بقذائف غريبة، لو... – طرح ليونيد يده في حركة يائسة. – كيف لك أن تفهم؟!... – لماتت خلايا دماغك البدئية بالملايين.

– حاول أن تشرح لي ذلك، – قال درونين بصوت متحشرج.

– أنت، في واقع الأمر، تظنني مجنوناً، أليس كذلك؟... نفسيتك تكونت في أسرة! أنت تنتظر اللحظة التي أضعف فيها!...لا، أنا لا أشكو من ضعف! حسابك خاطئ!... أما أنطونوف – صديقك، فقد انتحر لأنه لم يكن يحب السلطة السوفييتية، ولأن أمي لم تحبه!.. مغتصباً عادياً كان صديقك!... بذرة ضعيفة لأم قوية!... هذا يحدث كثيراً... وأنت ظللت طول حياتك تدافع عنه أمام نفسك! هو صديقك الوحيد... لكن هذا الصديق خراء، بل أتفه من ذلك.

تذكّر درونين بلمحة أم أفلاطون، امرأة كبيرة أصيلة، قضت أعواماً طويلة في وضع سري. وخطر في باله أنه لا يعرف حتى إن كانت حية أو ميتة... ترى هل ما قاله عن أفلاطون؟...

– ماتت، – قال ليونيد. – وكانت طول الوقت تذكرك، فأنت صديق ابنها الوحيد. أما أنت، أيها الغبي، فكنت مشغولاً بالعثور عليّ! وهكذا أضعت حياتك.

– لقد أردت أن أتبناك، – اعترف درونين دون سبب واضح.

ضحك ليونيد ضحكة ساخرة وضغط بكل ما أوتي من قوة، بركبته على عنق العقيد...

المقدم ريكوف أقسم عند قبر قائده أن يلقي القبض على القاتل.

واستطاعت لجنة دفنه أن تحصل على قبر لدرونين إلى جانب صديق شبابه الذي مات قبل ثلاثين عاماً في ظروف غامضة، إلى جانب أفلاطون أنطونوف.

– ها أن الصديقين يرقدان جنباً إلى جنب... – أعلن أحد أعضاء القسم السياسي. الخلود لذكرى الاثنين!

رسم أحد الضباط شارة الصليب على صدره، أما من كانوا أصغر منه سناً، وأكبر رتبة من المقدم، فأدوا التحية.

حين عزفت الآلات النحاسية (مارش) شوبان، كان الجو شتاء أيضاً كما في يوم دفن أنطونوف، فالتصقت شفاه الموسيقيين بفتحات الأبواق المعدنية من البرد كما حدث آنذاك...

أبلغه الجيران أنهم نقلوا زوجته في «سيارة الإسعاف»، إلى مكان لا يعرفونه.

فشعر ليونيد، لأول مرة في حياته، بأن صدره يكاد ينفجر، وبلغ انفعاله حداً جعله يلطم ذقنه.

استغرق البحث عن «سيارة لإسعاف» وقتاً طويلاً جداً. صوت نسائي غبي أجابه كآلة:

– لا معلومات عندنا... ماخاونوفا غير مسجلة هنا!

– فتشي جيداً يا كلبة! – صاح ليونيد الذي لم يستطع ضبط أعصابه.

– رقم هاتفك عندي يا مواطن! سأستدعي الشرطة إذا عدت إلى الشتم ثانية!... – أشفقت عليه بعد ذلك. – من المؤكد أنهم أخذوها إلى أحد دور التوليد ما دامت حاملاً!... ابحث عنها في دور التوليد!

ليونيد بحث طبعاً. تلفن حتى حلول الليل، وفجأة وقع بصره على كيس صغير من البلاستيك المزهّر، كانت ماشينكا قد وضعت فيه، من باب الاحتياط، كل الوثائق الضرورية للولادة، كما وجد بطاقتها الذاتية في الكيس نفسه.

شعر للمرة الثانية بالانفجار في داخله، حتى أن أسنانه كادت تنسحق في فمه.

أخذ يتلفن إلى دور التوليد، يصف للعاملين فيها زوجته، فيجيبونه كلهم بأن النساء الحوامل كلهن ببطون كبيرة، وكلهن جميلات!...

– الوقت الآن ليل! – يقول له العاملون على مقاسم الهاتف. – اصبر يا بابا، وفي الصباح ستتصل هي بك!

الذي تلفن له في الصباح لم تكن ماشينكا، بل طبيب قال إن اسمه ميشكين.

– زوجتك ماتت، – أبلغه بنبرة تراجيدية مصطنعة، – لكن الطفل حيّ... إنه صبي! مملوء بالحيوية!... تعال إلى دار التوليد رقم/1/ في توشينو.

– هذه الدار هنا، قال في سره، عند المنعطف...

كان هادئاً هدوءاً مدهشاً، داخله فارغ ونظيف.

وصل إلى دار التوليد ماشياً، وصعد ببطء إلى الطابق الثالث.

سأل أين يجد ميشكين.

– ميشكين أنهى نوبته، – أجابوه. – لماذا تسأل عنه؟ هل أرسلك إليه ياكوف سيميونوفيتش؟ هو انتظرك طويلاً.

– أنا زوج ماخاونوفا.

– آ – آ – آ – قالت موظفة استقبال وشحب لونها. – الآن، الآن...

رجعت الموظفة خطوات إلى الخلف ثم اختفت في عمق الممر.

أما هو فوقف قرب النافذة وراح يتأمل الفضاء. وقف طويلاً، وهو يتنفس الهواء بفمه ويتناهى إلى سمعه صوت طلقات متفرقة من حقل الرمي في توشينو.

– يقولون عندنا إن هذه طلقات تحية للأطفال الذين يولدون، – سمع ليونيد صوتاً نسائياً خلف ظهره، بعد ذلك أحس بيد على كتفه. – ويقولون إنهم سيلغون حقل الرمي قريباً.

التفت فرأى الحياة مقلوبة رأساً على عقب، رأى العالم كله منقلباً. رفرف بعينيه مرات كثيرة متتالية، مغالباً إحساساً طفيفاً بالغثيان، محاولاً أن يعتاد سريعاً على هذه الحالة التي كاد ينساها.

من مكان ما في الأسفل امتدت إلى وجهه يد تحمل قطنة مبللة بالنشادر. شعر بالتماع في دماغه.

– شدّ حيلك، – نصحته امرأة ضئيلة الحجم، متقدمة في السن. – اتخذ الجنين وضعاً غير مناسب و... اضطررنا إلى إجراء عملية قيصرية... الطفل حيّ، أما الأم فماتت في الصباح الباكر...

– أنا أفهم، – أجاب ليونيد.

– لقد ماتت ميتة سهلة، نحن خدّرناها جيداً، لكننا لم نستطع إيقاف النزيف... هي لم تفق من التخدير إلا قبيل موتها. استردت وعيها وقلقت جداً لأنك لم تكن تعرف أين هي. ذكرت رقم الهاتف وماتت... يبدو أن الرب يحبها...

– لماذا تعتقدين ذلك؟ – قال ليونيد مندهشاً.

– لأنها ماتت من دون ألم.

– أريد أن أراها.

– سينقلون الطفل إلى المقصورة التاسعة عشرة! هناك ستتعرف عليه. أظن أنك قد اخترت له اسماً!..

– أنا أريد أن أراها، هي.

اضطربت المرأة.

– أنا لا أعرف...

– ألم تفهمي ما أقول؟

– أظن أنهم لم ينتهوا من ترتيب وضع زوجتك...

– خذيني إليها.

أحست المرأة بالقوة الكبيرة التي يوحي بها مظهر الرجل، وتشممت أنفاسه من باب الاحتياط، فتأكدت من أنه ليس ثملاً، ثم نظرت إلى عينيه مباشرة.

– هيا بنا، – قالت وهي تترنح.

تبعها يراوده ‘إحساس بأنه يسير على السقف كالذبابة. وخطر في باله أن المقصورة رقم/19/ كانت ذات يوم في حياته...

نزل مع المرأة إلى القبو، ووقفا أمام باب كتب عليه «ثلاجة الموت» كان حرف «الألف» ممحياً.

– هل أنت متأكد من رغبتك؟ – سألت المرأة احتياطاً

فتح الباب ودخل إلى مكان مضاء بنور ساطع، عابقاً برائحة حلوة. لم يسمح لمرافقته بالدخول معه، دفعها بكتفه وأغلق الباب بالمزلاج. قالت المرأة كلاماً ما بصوت مرتفع، ثم صرخت مستاءة تقريباً، لكنه لم يكن يسمعها...

كانت راقدة على السقف الأبيض بياضاً ناصعاً، كأن ضوء القمر لم يغادر كلياً فمها نصف المفتوح.

لشد ما يجمّل الموت المرء أحياناً، – قال ليونيد في سره، وهو يقترب من النقالة التي سجيت عليها.

نزع الغطاء بحذر عن ماشينكا معرياً جسد زوجته الرائع، وبطنها المقطب بعناية.

– لقد أحسن الجراحون، – قال في سره فرحاً.

قبّل شعرها الفواح برائحة الماضي... وحاول أن يحرك بشفتيه شفتيها الباردتين اللتين ما زالتا طريتين... كفاه المتينان أمسكا كتفيها برقة... وتذكّرها من جديد وهي في الثانية عشرة بصدر كصدور الصبيان، وعظمي ترقوة بارزين.

– ماخاونوفا – قال ليونيد بصوت منخفض.

هو لم يكن يناديها، بل ببساطة يلفظ كنيتها.

بعد ذلك ألصق فمه بصدرها.

امتص ثدييها بشراهة فسالت منهما عصارة الحليب الأولى، ملأت فمه.

لقد دخل إلى جوفه مع آخر عصارة تفرزها ماشينكا، ما لم تستطع أية امرأة أن تعطيه إياه طول حياته، لا أمه، ولا فالينتينا، ولا مئات النساء العابرات...

كان يرضع مغمضاً عينيه إغماضاً تاماً، فلم يسمع كيف راح كتف أحد الرجال يفتح باب «ثلاجة الجثث». بعد ذلك أبعدوه بالقوة عن زوجته، واقتادوه إلى كان ما معتقدين أن عقله قد جن من شدة الحزن، أما ليونيد فكان فقط يركّز ويعمّق تفكيره، محاولاً أن يبقي في فمه هذه العصارة التي تشكّل جسده كله من دونها...

– هل ترغب في الحصول على بعض الكحول؟ – اقترحوا عليه في القاعة التي تجمّع فيها العاملون الطبيون كلهم.

– أنا لا أشرب، – أجاب وهو يبلع ما تبقى من العصارة في فمه.

– الآن يحسن أن تفعل، – حاول أحدهم إقناعه.

– لا.

– دخّن إذن.

– هل يجب أن أغادر الآن؟

– كيف؟! ألا تريد أن ترى ابنك؟ – سأله آخر.

– سيشبع من رؤيته فيما بعد، – أجاب أحدهم وقال لليونيد – تعال غداً!

أحنى رأسه بالإيجاب.

بعد ساعة كان في الطرف الآخر من موسكو، نزل في فندق غير مشهور، ينزل فيه التجار القادمون من القفقاس.

كان يعرف أنه لن يعود أبداً إلى الشقة التي كان يسكنها مع ماشينكا، لم يأخذ منها سوى صورة زوجته التي انتزعها من بطاقتها الذاتية، لكنه ما لبث أن أحرقها في صحن السيجارة في الصباح، بعد أن قضى الليل من دون نوم... أما الطفل فلم يتذكّره أبداً.

في صباح اليوم التالي ذهب ليونيد إلى محرقة دونسكايا، حيث راح يسأل خادم المحرقة بإلحاح عن الطريقة التي يستطيع بها أن يجد قبر يوليا لارتسيفا.

لم يكن خادم المحرقة يرغب في العمل، فراح يطالبه بإبراز الوثائق التي تثبت دفنها.

أعطى ليونيد المحتال العجوز ورقة نقدية بمئة دولار، ففتح الأخير أمامه على الفور أرشيف المقبرة كله.

– هناك لارتسيفا، – قال خادم المحرقة بسرور. – في الممر المشجر الخامس عشر، المدفن الرابع إلى اليمين، الطابق الثاني. هل تريد أن أرافقك؟

اكتفى ليونيد بإشارة من يده إلى الاتجاه.

هي فعلاً كانت تنظر إليه من الطابق الثاني من المدفن، هذه أمه يوليتشكا لارتسيفا الفتية الجميلة.

جلس على المقعد قبالتها، وظل فترة طويلة يتأمل الصورة.

– كيف حالك هناك؟ – سألها في سره، ودار في ذهنه أنه لم يخاطب أمه إلا حين كان في رحمها، وأن الوضع الان يشبه الوضع الذي كان قبل أن يولد، إذا أخذنا في الحسبان أن موته سيكون بداية شكل جديد من أشكال الوعي.

هي لم تجبه عن سؤاله.

وهو، أيضاً، لم يكن ينتظر جواباً. منظومتاهما الفلكيتان تدوران في اتجاهين متباعدين من الكون، وليس هناك ما يدعوهما للتواصل...

جلس أمام مرقد أمه وهو يفكّر أنه قد صار الآن وحيداً تماماً. لم تقلقه هذه الحقيقة عاطفياً، ولم تغرورق عيناه بالدموع، وقبضتاه لم تتقلصا في مقاومة باسلة لهذا الوضع المحزن... بل إن ليونيد استنتج أن وحدته أفضل له، فهو لن يكون مديناً لأحد، ولن يكون تحت سلطة عواطفه...

– وداعاً يا ماما، – قالها ليونيد بصوت مسموع، ثم نهض عن المقعد واتجه خارجاً بخطا سريعة.

بعد ذلك زار الكنيسة القريبة من نيكيتسكايا، حيث انتظر مجيء الأب إيفان صمويلوفيتش، الذي خرج إليه من الماضي عجوزاً متداعياً، ذا مظهر ينم على الطيبة الخالصة.

– أتذكرني؟ – سأله.

– لا، – اعترف إيفان صمويلوفيتش.

– أنا زوج ماشينكا ماخاونوفا.

– أأنت قصير القامة؟ – سأل الأب وهو يردّ خصلات شعره الأشيب.

– أنا هو بالذات.

نظر إيفان صمويلوفيتش إلى ليونيد من أسفل إلى أعلى وضحك ضحكات مكتومة ترافقها حركات متسارعة من فكه.

– عرفتك، يا قصير القامة...

– أنا لا أؤمن بما تعبدون، – قال ليونيد بسرعة، – أما هي فكانت تؤمن.

أخرج من جيب سترته رزمة من النقود، ووضعها في كفّ القسيس الناحلة الجافة.

– ماشينكا ماتت يا إيفان صمويلوفيتش! ماتت... أرجو أن تقيم قداساً لراحة نفسها بحسب الأصول. واذكر ماخاونوفا كثيراً!

لم ينتظر رد الخوري العجوز، بل غادر في الحال بخطا سريعة تكاد تكون عدواً.

إيفان صمويلوفيتش العجوز، الذي ازداد طيبة في شيخوخته، بكى النهار كله حتى حلول الليل، معزياً نفسه بأن الإنسان الزائل لا يستطيع فهم منطق الرب، ولا داعي لمحاولة فهمه. لقد رحلت نقية الروح، فلعل الرب أراد لها أن تكون ملاكاً...

جلس ليونيد في الفندق وهو، للمرة الأولى، لا يدري ماذا يفعل. النقود عنده كثيرة جداً، لكن ليس لديه رغبات أو اهتمامات، أما صحته فتدلّ على أنه سيعيش عقوداً كثيرة من السنين.

دخل إلى الشابكة، وراح ينقر مفاتيح الكمبيوتر المحمول بإصبع واحدة. قرأ نصوصاً عن تاريخ الطب، وعن الحروب في العالم، وعن الغيبيات...

في القسم الأخير بالذات وجد مقالة عن القوى الخارقة، وعن قدرة الإنسان على الطيران مستخدماً طاقته الذاتية وحدها.

أنا، إذن، أملك قدرة خارقة، لأني أستطيع الانفصال عن الأرض، – هذا ما استنتجه ليونيد.

الشابكة التي ظل يقرأ ما فيها حتى الصباح لقد قرأ أن الإنكليزي موريس ويلسون الذي تدرب سنين طويلة على فنون اليوغا وطرائقها، فحقق قفزات كبيرة، طار فوق الأرض، وتمكن في عام 1934 من تسلق ذروة (إيفريست). وقد وجدوا جثته المتجمدة بعد عام في الجبال. ويلسون لم يصل «بطيرانه» إلى القمة نفسها، مسافة قصيرة، ظلت تفصله عنها. لكن تمكّنه من التغلب على عقبات المسار الأصعب في العالم، من دون التجهيزات والأدوات المخصصة لتسلق الجبال، يصبّ في صالح الاعتقاد بأنه يمتلك طاقة خارقة.

قرأ أيضا عن رجال روس ذوي طاقة خارقة أمثال سيرافيم ساروفسكي، وبطرك نوفغورود، وإيوان بسكوف. أما مدوّنو الصحف الموسكوفيون فذكروا فاسيلي بلاجيني الذي طار أكثر من مرة، مجتازاً نهر موسكو أمام أعين الناس تحمله قوة غير مرئية. يجدر القول إن اعتراف الكنيسة الرسمي بوجود أصحاب الطاقة الخارقة، لا يشمل الغيلان الذين أحرقت محاكم التفتيش المقدسة الكثيرين منهم...

كل هذا يظهر كذب كاتب المقالة على الإنترنت الذي يزعم أن اليهود ابتكروا الطريقة الخاصّة لاستحضار الطّاقة الخارقة.

هراء، قال ليونيد في سره، وشدّ شيئاً ما في داخله شدّاً خفيفاً، ثم انفصل عن كرسيّه، وارتفع في طيران حرٍّ في حالة انعدام الوزن.

بعد يومين وصل ليونيد إلى التيبيت وهناك التقى بالدلاي لاما.

استمع صاحب القداسة إلى الرحالة الروسي في غرفة صغيرة في قصر بوتال، ثم رفع يده نحو السماء وقال له: طِرْ!

نظر ليونيد إلى عيني آخا لوكتيشفارا المنحرفتين قليلاً، لم يشعر بالاستفزاز، لذلك ارتقى في الهواء مباشرة من المكان الذي كان يقف فيه.

أدهش هذا الطيران «لاما» فهو لم ير من قبل أبداً طاقة خارقة في وضع كهذا، ولذلك صفق بيديه مرتين معبّراً عن فرح صادق.

– سأطلب منك شيئاً – قال صاحب القداسة مبتسماً حين هبط ليونيد إلى الأرض.

– ما هو؟

– في قمة إيفيريست حجر فيه عرق أصفر، لكنه ليس ذهباً... أيمكنك أن تحضره لي؟... هذا رجاء! – قال «لاما» مكرراً طلبه.

تذكّر ليونيد الإنكليزي وقابل وجه حاكم التيبيت بابتسامة.

– هل كانت محاولة موريس ويلسون الصعود إلى قمة إيفيريست في عام أربعة وثلاثين، بطلب منك؟

– بطلب مني، – أجاب الدلاي لاما وهو يحني رأسه موافقاً.

– كم عمرك؟

– هل تريدني أن أحدثك عن الخلود؟ – سأله «محيط الحكمة» مستفسراً.

– أنا أعرف ذلك.

– أنا ممتن لك جداً...

أوصلوا ليونيد إلى سفح الجبل في عربة خشبية يجرها حصانان جبليان صغيران. واقترح عليه مرافقوه أن يأخذ معه كيساً من الأطعمة، غير أنه رفض.

– انتظروني هنا، – قال لهم.

تبادل الرهبان النظرات مندهشين، لكنهم تذكّروا أمر «لاما» لهم بإطاعة هذا الغريب، وبدؤوا حين مشى مبتعداً عن أنظارهم، بتجهيز مكان إقامة طويلة في خيمة تطل على الجبل الجبار.

طار ليونيد زمناً طويلاً لأول مرة.

يجب القول إنه لم يعانِ من أحاسيس مزعجة بسبب طيرانه، لم يشعر بأكثر من إحساسه بأن البرد يزداد كلما ازداد علواً في الطيران. وقد استطاع في الساعة الثالثة من طيرانه أن يرى مجموعة من متسلقي الجبال يصعدون متجهين غرباً، متشبثين بالحبال.

– لماذا يبذلون كل هذا الجهد كي يبلغوا القمة؟ – تساءل وهو في مهب الريح. – القمة التي يجب أن يصعد إليها المرء، القمة التي يجب أن يحلم بها، ليست هذه!... وخطر في بال ليونيد أن العواطف تنقص من كمال الإنسان، فحتى هو الذي يمتلك معرفة وفيرة، لا يطيع معرفته دائماً، بل ينقاد أحياناً غريزياً إلى ما تمليه عليه مشاعره... أليس من المحتمل أن يكون «لاما» أرسله لإحضار الحجر كي يظهر له أن العواطف لا وجود لها في غير الأحياء، فالحجر رمز لوعي آخر يتمنى بلوغه؟... إن «لاما» خالد، يعيش منذ مئات السنين، لذلك قد يكون مالكاً لمعرفة لا تقل عن معرفة ليونيد...

وصل إلى القمة، ووجد الحجر ذا العرق الأصفر.

وبينما كان الرهبان يستعدون للنوم ظهر الغريب وقال لهم: إن علينا أن نعود كي نكون عند «لاما» في الصباح...

– هل أحضرت الحجر؟ – سأله صاحب القداسة وهو يبتسم ابتسامة من لم يعرف الشقاء.

أخرج ليونيد من جيبه حجراً صغيراً وأعطاه «لأفالوكتيشفارا» أخذ لاما الحجر براحتيه كلتيهما وأحنى رأسه شاكراً.

ثم مشى إلى خزانة فيها وعاء زجاجي فارغ، فتح غطاءه ووضع الحجر فيه بعناية.

عاد «لاما» إلى ليونيد، وانحنى يشكره مرة ثانية، ثم أشار بإصبعه إلى الحجر الراقد في علبته وقال:

– إنه أخي...

عاد ليونيد إلى موسكو.

استأجر شقة غير بعيد عن بوليفار بيتروفسكي، وقبع فيها لا يغادرها تقريباً.

تمدد على الديوانة معطّل الفكر كأنه كان ينتظر شيئاً ما، ينتظر انتقاله إلى الوعي الآخر الذي أكّد له «لاما» وجوده.

كان ليونيد يتذكّر أحياناً إيفيريست، فيطير ليلاً من النافذة ويحوم فوق سطوح منازل موسكو في الليل.

تذكّر في أحد طيراناته الليلية ماشينكا ماخاونوفا التي كانت ستحب حتماً الطيران معه... والتي قد تكون الآن حصاة ترقد في مسبح على شاطئ أحد البحار...

سيطرت العواطف على روحه، وانخفض جسده تحت مستوى السطوح، وفي هذه اللحظة شعر ليونيد بشيء حاد ينغرس في كتفه. كاد يفقد إحساسه بالطيران، فيسقط مرتطماً بالرصيف...

وصل بصعوبة إلى شبّاك منزله، ورأى السهم المنغرس بكتفه المضرج بالدم...

نزع ليونيد السهم ورماه في زاوية الغرفة، ثم ضمد جرحه ونام...

في اليوم التالي اكتشف المصدر الذي انطلق منه السهم، فقام بزيارته، ووجد هناك عجوزاً غبية، اعترفت، بعد الضغط الجسدي، بأنها هي من أطلق السهم.... فشعر برغبة في قتلها حين سمع ذلك...

## – 14 -

تلقت أنجيلينا، عشية بلوغها السبعين، اتصالاً من الآسيوي.

– أما زلت حية؟ – سألها.

– هكذا بالضبط.

– ماذا تفعلين؟

– أتقاضى راتبي التقاعدي. وأنت يا تيمور أشرابوفيتش؟

– وأنا... هل كنت في العرض العسكري؟

– عن أي عرض عسكري تتحدث؟!...

– هل أنت مريضة؟

فكرت ليبيدا برهة ثم أجابت:

– أنا في حال جيدة... وأنت؟

تهرّب الجنرال المتقاعد من الإجابة، لأنه في هذا الوقت كان راقداً في مركز تشازوفسكي يحاول استعادة صحته بعد جلطة قلبية كبيرة، ويقضي الأوقات التي لا يكون فيها تحت العلاج، بمشاهدة التلفاز.

– لقد شاهدت هنا في التلفزيون مباراة في رياضة رمي السهام...

– أنا لم أسمع بهذه الرياضة.

– إنها رياضة قريبة جداً من اختصاصك. تسديد عبر العدسة، ودريئة. الفارق هو فقط استخدام السهم بدلاً من الطلقة. وقد اشترك في المباراة رجل في مثل عمرك... فإذا كنت تشعرين

أنك في حالة جيدة... هل تريدين أن أعطيك رقم هاتفهم؟

بعد ذلك لم يدر بينها وبين الآسيوي أي حديث، ففي سنه قلائل من يستردون صحتهم بعد جلطة قلبية كبيرة.

اتصلت بالرقم الذي أعطاها إياه. وهكذا دخلت ميدان رياضة الرمي بالسهام...

في اتحاد رياضة رمي السهام دهشوا من صحة المنتسبة الجديدة العجوز، وحين حققت في أول تدريب على الرماية ثمانٍ وتسعين من مئة، أدرجوا اسمها في منتخب روسيا على الفور.

اشتركت أنجيلينا في مباريات الرماية المتاحة كلها، وربحت كل المسابقات الممكنة تقريباً. وهكذا أضيفت إلى جوائزها الحربية جوائز رياضية، ولقب أستاذ في رياضة الرمي، من المرتبة الدولية. وضع الشباب الرياضيين المعجبين بشبابهم وإحساسهم بخلود الوجود، نفذت إلى قلب أنجيلينا حيوية غير عادية، هي إما حيوية الشباب، وإما خرف

الشيخوخة...

لم يبق من تشاؤمها وكبتها لأحاسيسها وتجهمها واعتزالها أي أثر، وراحت تجري بسرور مقابلات مع الإصدارات المختلفة، وحين اقترحوا عليها، وهي في الخامسة والسبعين، أن تعمل عارضة قبلت أنجيلينا ذلك العمل المجنون دون تفكير.

في المواسم الربيعية – الصيفية كانت العجوز، حاملة وسام «المجد» بكل مراتبه، تشارك في الاستعراضات بلباس استحمام النساء جنباً إلى جنب مع العارضات اللواتي في العمر البلزاكي، وتجيب على ضحكات البنات الساخرة بلهجة فلسفية.

– وأنتن يا بناتي، ستتحولن إلى عجائز، في أقل من طرفة من عيونكن الجميلة!

– لكننا لن نعرّض أنفسنا لمثل هذا العار! – تجيبها العارضات ذوات الأجساد المرنة، والبشرة الحريرية، والأرواح اللاهبة.

بعد ذلك أرادت بشكل غير معقول أن تصبح شابة من جديد، وتعيش حياتها بطريقة مختلفة.

في إحدى الليالي تذكرت كوستيك، التقطته من ذكريات حياتها المبكرة التي عاشتها بشكل سيئ وقد صارت الآن منسية تقريباً – وفكّرت: لو أن كل شيء عاد من جديد، لأنجبت منه طفلاً ولعاشت سعيدة بذلك.. ولما احتاجت إلى أية «بندقية توكاريف»...

فيما بعد عثرت في الإنترنيت على مقالة للمدعو أوتياكين...

– يا إلهي يا أنجيلينا، – هتفت أليكسندرا بصوتها (الباص)، حين أفاقت ليبيدا من غيبوبتها.

– كم أنت جميلة!... إنها معجزة!

نظرت أنجيلينا إلى صورتها في المرآة فلم تعرف نفسها.

وقفت منتصبة القامة، مستقيمة الظهر، حسناء عارية في العشرين من عمرها...

– تبدين بنتاً صبية تماماً! – قالت أليكسندرا بحماسة.

– أنا، فعلاً، أبدو بنتاً، – قالت أنجيلينا في سرها وهي تنظر إلى أسفل بطنها الحليق...

تلمست باشتهاء صدرها المرن بأصابعها، وضغطت ثدييها بكل ما تملك من قوة... بشرتها بدت مذهلة، إلا أن حساسيتها كانت زائدة في بعض الأماكن، وذلك، على الأغلب، بسبب العمل الجراحي...

– ممتاز، ممتاز! – سمعت صوت أوتياكين خلف ظهرها.

تأمل ميخائيل فاليريانوفيتش ما أبدعه بنهم، وقد تملكه شعور غير معقول بانتصار عبقريته.

– اخرجي من هنا! – أمر أليكسندرا وحين غادرت مغلقة الباب خلفها، اقترب الدكتور من أنجيلينا حتى لامسها.

أحسّ برائحة الشباب تفوح من جسدها، استنشق بخيشوميه رائحة الصبا، فاشتهى الرائعة التي أبدعها بكل كيانه الذكوري.

ضمها إليه بيده اليمنى، ودعك باليسرى صدرها الرائع وهو يقول:

– اشكريني! اشكريني...

أما هي فلم تكن لسبب غير واضح، راغبة في شكره. استدارت بشكل لا إرادي، وانثنت ركبتها الفتية، ثم انفردت موجهة ركلة للدكتور.

صرخ أوتياكين من الألم ووقع المفاجأة، وسقط يتلوى على الأرض.

تقلص شيء ما في جوف أنجيلينا، يبدو أن الظلم الذي ألحقته بالعبقرية كان يحاول الخروج من روحها، لكن عادت إليها، مع عودة الشباب، قسوة القلب التي كانت تتسم بها في زمن عملها قنّاصة، لذلك قالت في سرها: فليذهب إلى...!...

ارتدت ليبيدا ملابسها بسرعة كما في زمن الحرب، ثم اندفعت خارجة من المهجع، وقالت لأليكسندرا وهي تودعها بإحناءة صغيرة من رأسها:

– سلام، يا صديقتي!

مشت مسرعة في شوارع موسكو المشمسة، كما كانت تفعل قبل ستين عاماً، من دون أن تشعر بالتعب، كانت تسرع بحثاً عن البداية، عن جذور حياتها الجديدة...

السماء الزرقاء، والطيور بين الغيوم، وابتسامات المارة – كل ذلك كان يسرع إلى نظرها، فيذهلها الإحساس بالجدة، والسعادة القادمة!...

التقت أنجيلينا به بالقرب من مدخل منزلها، التقت بذلك الذي كاد يقتلها. أرادت أن تصفع وجهه بالطريقة العسكرية، بكل ما في كفها من قوة، لكن قبضة الرجل أمسكت يدها فجأة بأصابع حديدية.

– ماذا تفعلين؟ – سألها الرجل وهو ينظر إلى عينيها مباشرة. – هل ظننتني رجلاً تعرفينه؟

هي لم تستطع أن تحيد ببصرها عن تلك القوة التي كانت تصدر من أعماقه، وتنسكب علبيها طاقة مركّزة لكل ما هو ذكوري...

بعد ذلك أحست أنجيلينا بالبرد. سرى برد لا يطاق عبر يدها إلى قلبها مباشرة...

مستحيل!!! – صرخ قلبها. – مستحيل أن يبدأ كل شيء من جديد!!!

حين استعاد ميخائيل فاليريانوفيتش تمالكه لنفسه، واكتشف بعقله الذي استيقظ، أن «إنجازه الأول» اختفى، تعكّر كيانه كله.

كيف يبرهن لتشارمن ديميسوفيتش نجاحه!... من دون ذلك لن يحصل على العظاءة أبداً!

راح الدكتور يجول في المكتب ذهاباً وإياباً باحثاً عن مخرج.

بعد فترة هدأ فجأة. إن لديه شاهداً – أليكسندرا، وعنده القرص المدمج الذي سجلت عليه العملية! ماذا يحتاج أيضاً؟... هو لا يحتاج لأي شيء آخر!!!

رنّ جرس الهاتف في المكتب.

– لا تصليني بأحد! – صرخ أوتياكين بالسكرتيرة.

لكن التلفون لم يتوقف عن الرنين، وشفتا المديرة المنفوختين بالسيليكون، لفظتا بصعوبة:

– أنها زوجتك!

– ما بال زوجتي؟، ماذا، ماذا!... دعيها تذهب إلى الشيطان!...

– لقد تلفنوا وقالوا إنها ماتت... تلفن حموك...

هذا ما كان ينقصني...

كيف ماتت!...

جلس على الديوانة وراح يفكّر بأن سفيتوشكا خرّبت بموتها احتفاله... وهذا ما فتح لها الطريق إلى الأبدية...

– غبية! – شتمها أوتياكين بصوت عالٍ.

في هذا المساء التقى ميخائيل فاليريانوفيتش بتشارمن ديميسوفيتش.

قدّم العالم لمموله كل ما عنده من براهين – تسجيل الفيديو، والمواد، وتاريخ العلاج، والفحوصات، وغير ذلك.

– لعلنا نبدأ بمعالجة كسانكا! – قال أوتياكين.

– متى؟

– غداً، إذا شئت!

– ومتى ستدفن زوجتك؟

– آه، زوجتي...

– اسمها سفيتوشكا على ما أذكر...

– حسناً، والداها يمكن أن يقوما بذلك...

– غداً، طيب، غداً...

نظر ميخائيل فاليرانوفيتش بجشع إلى الخاتم الذي يحمل الوحش الصغير، في أصبع تشارمن ديميسوفيتش.

– بعد أن يتم كل شيء بنجاح، – قال له تشارمن موضحاً.

– اتفقنا، – قال أوتياكن وهو يبلع ريقه متلهفاً.

– هي ترفض ذلك رفضاً قاطعاً.

– لماذا؟ – طرح هذا السؤال للمرة المليون، وهو يشعر بألم فظيع.

– أنا لا أريد، – هذا كان آخر ما أجابته به.

هو يعرف أن ذلك هو نهاية الأمر كله...

في وقت متأخر من المساء وقف تشارمن ديميسوفيتش تحت رشاش الماء في الحمام المرمري الواسع، واضعاً تحت جداول الماء الوخّازة وجهه العجوز الشبيه بسحنة الجمل.

وفجأة سمع العجوز القوي البنية صوتاً كالذي يصدر عن سقوط شيء ما على الأرض المرمرية، صوتاً يشبه سقوط مسمار... فتح عينيه وتفحص المكان، فرأى عظاءته في إحدى الزوايا. رأى كنزه منكمشاً على ذاته تحت نقاط الماء الساخن. رفع العظاءة بحذر فلم يشعر بأية حياة فيها. كانت في يده قطعة من الذهب المصوغ الرخيص الثمن.

همس في أذنها، مسّد جسدها الصغير... شعر برغبة في البكاء.... انتهى كل شيء...

لكن ما لم يكن متوقعاً هو أن تشارمن ديميسوفيتش فرح فرحاً غير عادي بهذا الحدث. هو، طبعاً، لم يرقص طرباً، لكن شيئاً ما في روحه استرخى بعد توتر دام عشرات السنين. أنت لا تشعر بمدى صعوبة ما كنت تعانيه إلا حين تسترخي!

نشّف جسده على وجه السرعة بمنشفة ذات وبر، وأسرع إلى غرفة نوم زوجته.

جلس بحذر إلى حافة السرير ومسّد رأس كسانكا بكفه الكبيرة.

– أنا معك، – قال لها بصوت منخفض.

هي لم تكن نائمة لذلك سمعت صوته... وفهمته فهماً صحيحاً تماماً. كانت تحبه حباً جمّاً، وحياتهما المشتركة كانت حياة ناجحة...

اتصل تشارمن ديميسوفيتش بأوتياكين في مكتبه وقال باختصار:

– أنا لم أستطع أن أكون ماكروبولوس... – وفصل الهاتف عن الشبكة من دون أن ينتظر جواباً.

نزل تشارمن ديميسوفيتش إلى المطبخ وفتح كل رؤوس الموقد، وتأكد من قوة ضغط الغاز...

بعد ذلك صعد إلى غرفة نوم زوجته ورقد في سريرها واضعاً تحت خده كفّه اليمنى.

– هل أنت مستعدة؟ سألها.

– نعم...

منذ الدقيقة الأولى التي صارت تعيش فيها مع ليونيد أحست كما لو أنها عاشت معه حياتها كلها. هي لم تكن تبتسم أبداً، وهو لم يسألها أبداً عن السبب.

لقد كان ليونيد مثل كل الرجال السائرين إلى الموت الذين عرفتهن أنجيلينا، موهوباً جداً في ممارسة الحب. لكنه كان، وهو يمارس الحب طويلاً وبلطف، يذهب بعيداً عنها إما بقلبه، وإما بروحه...

هي كانت تعرف أن ليونيد سيموت حتماً، لذلك لم تكن تطالبه بشيء، مكتفية بأن تكون هي التي تعطي...

قال لها ذات يوم: «كانت لي زوجة» وقال مصادفة، وبلا مبالاة: «إنها ماتت في ولادة معقّدة»...

هي لم تشفق عليه، وهو لم يكن يحتاج ذلك.

فيما بعد، في ليلة من ليالي شهر كانون الثاني الصقيعية رنّ جرس باب مسكنهما.

– من الطارق؟ – سألت أنجيلينا.

– افتحي، شرطة المهمات الخاصة! – صرخ أحدهم من وراء الباب.

التفتت ليبيدا فرأته يطير من النافذة المفتوحة على مصراعيها.

تحركت مدفوعة بالعادات التي اكتسبتها في الماضي.

جثت على ركبتيها أمام السرير، اندست تحته، وأخرجت من هناك علبة «الآرباليت» جهزت القوس والسهم بثلاث حركات. شدّت وتر القوس...

في هذه اللحظة خلع القادمون الباب واندفع العقيد ريكوف ورفاقه إلى داخل الشقة.

– لقد هرب، ابن الكلب! – صرخ غاضباً.

– أنا أراه، – قالت ليبيدا وهي تضع السهم في حجرة الإطلاق.

– أين؟ – شدّ ريكوف قامته وهو يخرج مسدسه من جرابه.

– إنه يطير، – قالت أنجيلينا مستغربة، وثبتت عينها على عدسة التسديد.

أطلق الاثنان في الوقت نفسه، هي السهم من «الأرباليت»، وهو – الرصاصة من مسدسه.

اخترقت الرصاصة حنجرة ليونيد، ثم لحق بها السهم بعد ذلك، فدخل خلف الرصاص إلى حلقه.

– الهدف أصيب! – هتف الراميان في وقت واحد.

هو مات على الفور تقريباً، على ارتفاع اثني عشر متراً فوق الأرض، لكنه، قبل ذلك، صرخ بصوت خنقه الدم الذي ملأ حنجرته – «ماما»...

وقف الاثنان فوق جثة المقتول، كجنديين مسرورين: ريكوف كان مسروراً لأنه ثأر لصديقه القتيل درونين. وهي كانت مسرورة لأنها أصابت الهدف...

في عام ألفين وسبعة حدثت في فضاء موسكو اهتزازات خفيفة، فحدث تشقق في أساسات فندق بكين.

وفي عام ألفين وثمانية عشر حصل العالم الروسي ميخائيل فاليريانوفيتش أوتياكين على جائزة نوبل في الطب، تقديراً لاكتشافاته الأساسية في مجال درء الشيخوخة عن البشر. وقد جاؤوا به للقاء ملك السويد، راعشاً، نصف أعمى، في عربة لنقل العجزة، فاستقبل الحاضرون العالم الكبير بالتصفيق وقوفاً...

وفي عام ألفين وثمانية وأربعين، حكم على المدعو قسطنطين سيفيرتسيف الذي يقال إنه حفيد مجرم معروف عاش في أواسط القرن الماضي، بالسجن مدى الحياة لسطوه على سيارات نقل النقود. وكان عمره ثلاثة وأربعين عاماً عند صدور الحكم. وقد كرّم في العام نفسه اثنان من عناصر شرطة المهمات الخاصة، هما المقدم بيريغيفودا والمقدم ريكوف، اللذان كشفا جريمة تكاد تكون من فعل قوى غيبية، فمنحا جوائز حكومية.

وغير بعيد عن السجن الذي زجوا فيه المجرم سيفيرتسيف، في قرية صغيرة سوداء، في بيت شبه مهجور سكنت امرأة متقدمة في السن تحمل كنية نادرة هي «ليبيدا»...

كل شيء كان، ولم يكن. لم تكن هناك حكمة، ولم تكن هناك عواطف. كان هناك شيء آخر... الكون كله كان ينبض كقلب جنين بشري في اليوم السادس والعشرين من عمره...

**مدينة أيسترا- عام 2006**

# Notes

[1←]
الاكتشافات والاختراعات – المترجم

[2←]
الساحر – المترجم

[3←]
مسرح الدراما الروسية – المترجم

[4←]
مبنى المخابرات – المترجم

[5←]
نسبة إلى الكاتب الروسي الكبير في القرن التاسع عشر، نيقولاي غوغول

[6←]
القريب لفظاً من كلمة «فأرة» بالروسية – المترجم

[7←]
العبوس – المترجم

[8←]
الكوتليت: كرة مفلطحة من اللحم المفروم معجونة بالحليب والبيض ومسحوق الكعك، تقلى وتقدّم مع البطاطا والمعكرونة في المطاعم الشعبيّة

[9←]
البلميينه: طبق شعبي روسي يشبه (الشيشبرك) قطع عجين محشوة باللحم المفروم تسلق ثمَّ تقدّم مع منكهات مختلفة.